الروائيون

غالب هلسا



الروائيون

غالب هلسا

الروائيون

الطبعة الاولى ١٩٨٨
٣٠٠٠/١٢/١٩٨٨

صمم الغلاف : الفنانة سحاب الراهب

الزاوية للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ ص . ب ١١١٥٨ تلكس ٤١١٥٦٢

الاهداء:

الى دانة رامي هلسا

أملا أن تتجنب كوابيس زمننا

الجزء الاول:

السجن

الفصل الأول

شعر مصطفى بوطأة الصمت. كان يسير في الطرقة التي تفصل صفي النيام. كانوا ملفوفين كالموميات ببطانياتهم، رؤوسهم مجاورة للجدار، يتتابعون على صفين على امتداد الجدارين المتقابلين. لم يكن ذلك الصمت من النوع الذي يسود عندما تهدأ الحركة في البناية التي يسكن فيها. ذلك صمت مفعم بحركة صامتة، دائبة، وبضجة المدينة تتخلله (وفكّر: تفيدة، وهي نائمة، تدير له ظهرها، وساعده الايمن يستقر على كتفها. يصحو احياناً في الليل ويهمس: «أحبك» تغمغم شيئاً غير مفهوم، وتستدير نحوه، وتضمه اليها، وهي ماتزال نائمة) عندما يتذكر تفيدة تبطيء خطواته. ويصغي للصمت المسكون بعذاب واشواق خمسة آلاف سجين سياسي. لاأحد منهم يعرف متى يغادر المعتقل، وقد مضى على بعضهم أكثر من عشر سنين. صمتهم صرخة بكماء، تحتشد ولكنها تتوقف عند الشفتين. قال مصطفى لنفسه: يشبه ذلك صمت المقابر. (عندما كان طفلاً، يسمع، وهو يعبر المقابر، تلك الحركة المتصلة، السرية، حركة الأموات وهم يعيشون حياتهم المحوطة بالغموض والرعب. كان لوجوههم صورة وجوه المحتضرين، عبوس وصرامة الوجوه الشمعية الزرقاء، بشفاهها المنفرجة، وعيونها الغائرة بمحاجرها الواسعة، الصلبة، كأنها منحوتة من البازلت. لم تكن حركة طلقة، كحركة الاحياء، بل كانت متصلبة، فخمة، فخمة، ثقيلة كحركات الطقوس). يقطع الصمت نداءات الحرس القصيرة الحادة كالنباح. حاول كثيراً أن يعرف الكلمات التي يتبادلونها ولكنه فشل.

الحجرة طويلة، مرتفعة السقف. لصق جدران ثلاثة كان ستة وخمسون معتقلاً يهجعون. بدوا له، بأجسادهم الملتوية، وكأنهم يعانون مغصاً، وقد صمموا أن يتحملوا، دون شكوى.

السير المتصل في الطرقة الضيقة يعيد صلته بالعالم، بتفيدة وعالمها على وجه التحديد وبالطفلة. اختارت لها تفيدة اسم سناء. قالت في رسالتها «اسم حلو مش كده؟» كان يجب ان يكون لها اسم أقل شيوعاً. فكّر انه أصبح أباً. تصور أنه سيكون انساناً مختلفاً، يملك سراً وانفعالات جديدة. ولكنه يشعر الآن كما كان يشعر دائماً. كأن ليس له ابنة (كانت تفيدة قد غابت عندما هرب حامد من السجن قال لها: من الواضح أن كل شيء بيننا قد انتهى» قالت بنبرتها القاطعة: «مافيش حاجة انتهت» قالت ذلك بخفة ظل وحيوية شاعتا في جسدها كله. ود في تلك اللحظة ان يعانقها، ان

يمزج كلمات التعنيف بهذيان العشق، ولكنه تماسك. قال: «بتهيألك» قالت: «مابتهيأليش. انا حبيبتك، وانت بتموت فيا»).

اخرجه من الذكرى التي استغرق فيها الى حد اللمس صوت صرير الاسنان. كان ذلك حسن. لم يكن مصطفى يتصور من قبل أن يكون لصرير أسنان النائم مثل هذا الصوت المرتفع، الذي يقشعر له الجسد. كان الصوت مرتفعاً حتى أنه يستطيع تمييزه عندما يصدر عن حجرات السجن الأخرى. اقترب مصطفى من حسن ومال عليه. واصل حسن يكزّ على أسنانه. تساءل مصطفى: كيف تظل أسنانه سليمة بعد هذا؟ أخذ تنفسه يتتالى عميقاً وبسرعة متزايدة. امسك مصطفى كتفه وأخذ يهزه ويناديه. فتح حسن عينين حمراوين، لاتريان، وهو يلهث. قال حسن: «مصطفى؟ حصل حاجة؟» قال مصطفى: «كنت بتصك على أسنانك. ارجع نام» عاود حسن نومه دون أن يقول شيئاً.

من حركة ايهاب ادرك مصطفى أنه مستيقظ. كان ايهاب يتابعه. لم يعد بامكانه أن يعود الى تفيدة. مافي خياله اضحى مجرد كلمات. اما تلك الصورة المستعادة الى حد الملامسة فقد اختفت. مد يده في جيب جاكتة السجن (الووردروبه) ولمس الرسالة. رغب أن يقرأها مرة أخرى، ولكن أحد الجواسيس المدسوسين بينهم دون عناية قد يراه ويبلغ ادارة السجن. عندها سيحدث التفتيش والعقاب بالسجن الانفرادي، وسوف تطير رؤوس. استعاد صورة عليوة بولوبيف، ذلك الجندي الطويل العريض، الصاخب. الذي كان مغرماً باللحم البقري المعلّب، والذي كان يقبض جنيهين عن كل رسالة يأتي بها من الخارج أو يسلمها الى أناس خارج السجن.

أخذ حسن يئن. سوف يبدأ صرير الأسنان مرة أخرى، قال مصطفى لنفسه واحس بالقشعريرة تسري خلال عاموده الفقري. رأى اسماعيل يرفع رأسه من تحت بطانيته، ويتابعه. سمعه يقول بصوته المنغّم: «مالك يامصطفى؟».

رد مصطفى: قلقان شويه.

- ايه اللي قالقك؟

- مشاكل عائلية.

كان اسماعيل أحمد فدائياً قديماً، ينتسب الى جماعة متطرفة كانت تقوم باغتيالات الجنود البريطانيين في القاهرة، وفي قنال السويس. اعتقل في احدى المرات ووضع مع الشيوعيين في مكان واحد فأصبح واحداً منهم. تم اعتقاله هذه المرة بتهمة تكوين حزب شيوعي صيني الاتجاه بعد أن أعلنت الأحزاب الشيوعية حل نفسها في عام ١٩٦٦. قال لمصطفى: «تعال اقعد» أبعد واجلسه بجواره، ثم مد اسماعيل يده تحت وسادته وأخرج نصف سيجارة متفحمة الرأس. قال: «عايز سيجارة» أشعلها وجذب نفساً عميقاً منها، ثم قدمها الى مصطفى. جذب مصطفى نفساً ومد السيجارة الى اسماعيل، فقال اسماعيل: «دخّن» جذب مصطفى نفسين، ثم مدها الى اسماعيل وقال: «خد فاضل فيها نفس واحد» فقال اسماعيل: «خلّصها». لم يقل اسماعيل شيئاً لبعض الوقت، تاركاً مصطفى يجمع افكاره. قال اسماعيل فجأة: «ايه الحكاية؟» قال مصطفى: «تفيده» ابتسم

اسماعيل وقال: «واحشاك؟» قال مصطفى: «طبعاً بس مش دي المشكلة» قال اسماعيل: «امّال ايه هيه المشكلة؟» قال مصطفى: «انت شفت الرسالة» فقال اسماعيل: «طيب؟»

حكى له مصطفى عن تفيدة، بنت الحي الشعبي، التي كانت تغيب عن زوجها الأول أسابيع عدة تقضيها مع عشاقها، التي كانت عشيقة تاجر حشيش قبل أن يقبض عليه، والتي جاءت الى مصطفى تريد أن تكون شيوعية دون أن يكون عندها أدنى فكرة عنها سوى أن الشيوعيين يريدون مساعدة الناس الغلابة. حكى له عن زواجهما. كان اسماعيل يبتسم بحزن وهو يصغي، ثم قال أنه يعرف ذلك كله فما الجديد؟ قال مصطفى: «الجديد، المسلسل الاذاعي». وأخرج الرسالة من جيبه واستدار ليواجه مصطفى، ويخفي الرسالة عن العيون المتلصصة وقرأ:

«بلغوا مصطفى أن تفيدة فاقت كل تصور هي طالبة في الجامعة، قسم انجليزي، الآن، وقد كتبت مسلسلاً تلفزيونياً، قرأه رشدي الدمنهوري فوافق ان يخرجه للاذاعة وسيجري عليه بعض التعديلات بعد موافقة المؤلفة طبعاً..»

كان اسماعيل ينظر اليه، مطالباً بالاستمرار. ولكن مصطفى ظل صامتاً فقال اسماعيل: «ايوه؟ وبعدين؟ فتدفق مصطفى. قال انه يعرف معنى الانتظار في مكاتب الاذاعة، ومايقال عن النساء المنتظرات. يعاملن كمومسات، وفي أحسن الأحوال يعاملن باعتبارهن بلهاوات.

قال اسماعيل مشجعاً مصطفى على الاستمرار: «فاهم»

ولم يعد مصطفى بحاجة الى التشجيع. قال أنه يعرف النكات التي تروى عنهن، والكلام ذا المعنيين يوجّه اليهن. يتذكر النسوة السمينات، المتقدمات في السن، اللواتي يجلسن في غرف الانتظار خارج استوديوهات التلفزيون، يجلسن منتظرات أن تغيب ممثلة ثانوية، وصامتة بالطبع، لتحل أحداهن مكانها، يذكر نظراتهن وهن يراقبن الداخلين والخارجين بابتسامة خائفة، راجية، ثابتة. انها نظرات المومسات اللواتي يجلسن وحيدات في الكازينوهات، يترصدن الزبائن. أتعرف؟ وصمت. نظر اليه اسماعيل وقال: «استمر».

قال مصطفى: أتعرف ماذا يخطر لي حين أرى هؤلاء الممثلات البائسات؟ اتصورهن فتيات جميلات امتلأت مخيلاتهن بأحلام الفن والشهرة، فتشاجرن مع الأهل، أو طلقن الأزواج، وغادرن بيوتاً كانت تمنحهن الأمان والكرامة، أو الستر على الأقل. وبعد مرور سنين طويلة، بعد أن انتهى الشباب، وانسدت طريق العودة، اكتشفن أنهن لايملكن موهبة. وخلال ذلك شاركن منتجين ومخرجين وممثلين وسائحين ونصابين أسرتهم، وذهبن الى حفلات صاخبة فيما بعد، دون أن يدعوهن أحد، وشيئاً فشيئاً أصبحن لايغادرن السهرة الا عندما تنتهي تماماً، يقفن راجيات ان يتفضل أي كان بدعوتهن الى سريره، ولكن الجميع يكونون قد زهدوا فيهن، وقد يعرضن أنفسهن بالحاح، ولكن لا أحد يستجيب. في ذلك شيء مأساوي: الكومبارس اللواتي تقدمن في السن، هل تفهمني؟ قال اسماعيل: «فاهم».

استمر مصطفى - في حقيقة الامر لم يكن قادرا على التوقف - يقول ان كل واحدة من أولئك النسوة مستعدات لتقديم أجسادهن لمجرد اشارة. قال اسماعيل: «أنت رحت بعيد» قال مصطفى: «ازاي؟» قال اسماعيل: «الميلودراما سيطرت عليك».

وأضاف اسماعيل أن بعض هؤلاء الممثلات مومسات محترفات، جئن من كلوت بيه، وكثيرات منهن يمارسن البغاء اساساً، وفي الفن يقمن بعمل اضافي.

قال مصطفى: هذا ماانتهين اليه. نمط المومسات اللواتي يتحولن الى ممثلات انتهى منذ أواخر الاربعينات. المراهقات هن مصدر الكومبارس. قال اسماعيل: «القصد» رد مصطفى: «مش واضح؟» نهض اسماعيل وقال: «نشوف سيجارة» واتجه الى فراش زكي. انحنى عليه وامسك كتفه وأخذ يهزه حتى استيقظ. قال: «سيجارة بشكل ملحّ ابو الزيك»

لم يكن زكي ليسمح لأحد بالخروج على قوانين الحياة العامة المطبقة في حجرة الشيوعيين عدا اسماعيل. حصة المدخن يوميا ثلاث سجاير، بالنسبة لهذه القوانين. اما اسماعيل فلا يقدم على خرق القوانين الا لأسباب هامة. رفع زكي رأسه ونظر إلى اسماعيل، ثم الى مصطفى، الذي يجلس على فراش اسماعيل، ثم مد يده الى المساحة الفاصلة بين وسادته والجدار، واخرج سيجارة مدها الى اسماعيل وقال: «خد» وقبل ان يعود الى النوم تناول سيجارة أخرى وقال: «خد كمان واحدة ابو السباع».

قال اسماعيل وهو يمد السيجارة المشتعلة الى مصطفى بعد أن جذب منها نفسين: «وعلشان كده خايف على تفيدة» قال مصطفى:

- «وعلشان كده خايف على تفيدة. خايف من السهرات والكلام. ماعندهاش خبره» قال اسماعيل: «ايوه» قال مصطفى:

- «وحياتها السابقة بتأكد دا. لما تخطر في ذهنها حاجة بتعملها بدون تردد. العالم الخارجي لاشيء بالنسبة لها».

أضاف بعد قليل: «لاشيء على الاطلاق» نسي أن يعيد السيجارة الى اسماعيل حسب أصول التخميس، فقال اسماعيل: «اديني نفس» فقال مصطفى وهو يمد السيجارة: «أنا آسف».

قال اسماعيل: بامكاني أن أقول لك ان رفاقنا ورفيقاتنا لن يدعوا تفيدة تسير في هذا الطريق وتلك حصانة كافية. بامكاني أن أقول لك أن ظرفها لن يسمح بذلك: الطفلة والجامعة بالاضافة الى رفاقنا في الخارج في الاذاعة والتلفزيون. رأيت تفيدة ثلاث أو أربع مرات، وسمعت عنها كثيراً، تفيدة انسانة غير عادية.

جذب اسماعيل نفساً من سيجارته، ثم قدمها الى مصطفى وقال: «خد كملها» وأضاف: تفيدة ليست بسيطة او ساذجة. قال مصطفى:

- «بس دا عالم ماتعرفهوش عالم جديد عليها»

قال اسماعيل: ليس جديداً عليها. لم تعش التجربة، ولكنها ذكية وتتعرف. على كل حال ليس هذا ماأردت قوله. أردت أن أقول أنني اراهن على تفيدة. لم تضع في السابق.. قاطعه مصطفى هامساً: «وتاجر الحشيش وغيره» وكأنه يكلم نفسه.

قال اسماعيل ان تفيدة كانت تبحث عن نفسها، وقد وجدت نفسها الآن. لو كانت مجرد انسانة منحلة، تبحث عن متعتها فقط، لضاعت منذ زمن بعيد. ان من استغرق في الدراسة مثلها، ومن مارس العمل السياسي بالتزام مثلها لابد أن يكون انساناً متماسكاً.

صمت اسماعيل ولم يقل مصطفى شيئاً. مد اسماعيل السيجارة الى مصطفى وقال:

- «انا عارف أنك عايز تتمشى شويه دلوقتي. خد السيجارة». كان ذلك بالضبط مايريده مصطفى.

* * *

عاود مصطفى التمشية لم يعد يفكر بتفيدة. تذكر تلك الفتاة التي أقام معها علاقة قصيرة في نهاية الخمسينات. ماذا كان اسمها؟ بحق الله. كان اسمها سناء. الم تجد تفيدة اسماً تطلقه على ابنتي غير هذا الاسم؟ ولكن كيف لها أن تعرف! وفي نهاية الأمر فان امثال تلك الفتاة يخترن لانفسهن اسماء غير اسمائهن الحقيقية. ولكن اسمها كان سناء وابتسم: كأن هذه هي المسألة الحقيقية. يتذكر والضحك يصعد ويضغط على حلقه، وجهها الأسمر، الصغير الجاد، وهي تحتضنه بين كفيها، «أنا ممثلة» سألها بجدية: «بتمثلي فين؟» قالت: «حابقى ممثله» قال:

- «ببساطة كده؟ التمثيل عايز موهبة»

قالت بحرارة واستنكار، وكأن مصطفى يتجاهل حقيقة بديهية مثل طلوع الشمس من الشرق: «ماأنا عندي» قال مصطفى: «عندك؟ عندك ايه؟» قالت:

- «اللي قلت عليها، اللي اسمها ايه، موهبة»

قال مصطفى: «قلتي لي» غشت وجهها حمرة قاتمة، فقال: «بهزر معاك» رمشت عيناها ولم تقل شيئاً قال، ليجعل الحديث يتصل: «قلتي عندك موهبة»

قالت ان كل صديقاتها يقلن ذلك فهي تستطيع أن تقلد الناس، ثم سألت فجأة:

- بيقولوا انه أنا شبه فاتن حمامة.

أطال مصطفى النظر في وجهها، وتردد في التعليق ليضفي مصداقية على كلامه، وقال:

- «تشبهيها لما كانت صغيرة. سنك كام؟»

قالت: «سبعتاشر. سبعتاشر وشهور» قال: «ايوه» كان يعلم انها تكذب. كان قد التقطها من حديقة الأزبكية. جلسا سوياً في كازينو الجبلاية. وبمجرد جلوسها أخذت بوجهها المضحك تحكي عن السينما. قالت ان مشكلتها أنها لاتستطيع أن تمثل دون صوت. قال مصطفى: «صوت؟» فشرحت له ان الممثلين لايتكلمون عندما يمثلون في السينما. يحركون شفاههم فقط. واما الصوت فمسجل على شريط. شريط ريكورد. ثم سألت بدهشة: «ماكنت تعرف؟» قال: «اول مرة اسمع» قالت: «هيه كده».

لم يبذل مصطفى مجهوداً لتصحيح معلوماتها. كان متعجلاً لاصطحابها الى شقته. وفي الطريق قالت: «اوعى تفتكرني من البتوع» سألها «بتوع ايه؟» قالت: «من اياهن» قال: «اعوذ بالله انت ممثله» فضحكت.

وقد كانت صادقة. ظلت تتحدث عن السينما حتى الخامسة مساء ثم قالت أنها تأخرت على البيت. قال مصطفى بدهشة: «بيت؟» قالت:

- «البيت بيتنا فاكرني ساكنة في الشارع؟».

أصرت أن تظل عذراء، وأرهقته بهذيانها المستمر عن السينما فزهد فيها بسرعة. بعد ستين رآها

مصطفى في فيلم ظهرت فيه حوالي ربع دقيقة. نسي اسم الفيلم الآن. كان هنالك عبد الحليم حافظ وقد أخذ، لسبب لايستطيع مصطفى أن يتذكره الأن، عبد الحليم يكثر من التردد على الكاباريهات، ويغرق في السكر. خلال ذلك تحاول فتاتان اغواءه، ولكنه لم يلتفت اليهما، بل قال للبارمان: «كاسي ويسكي دوبل» احدى الفتاتين، وقد كانت سناء، مالت بجسدها عليه وضغطت بثدييها على كتفه، ولكن عبد الحليم خاطب البارمان وتغير المشهد.

عندما لقيها مصطفى بعد ذلك اكتشف انها لم تعد عذراء. قالت له بلهجة مأساوية ان عبد الحليم هو الذي افتض بكارتها. سألها مصطفى كيف رضيت مع عبد الحليم ولم تقبل معه وهو حبيبها. احنت رأسها وأصبح الجو ميلودرامياً جداً، وقالت بهمس: «حشرّبني» فقال مصطفى: «حاجة أصفره؟» ضحكت وقالت: «حاجة اصغره. ويسكى»

عندما ضحكت تبين مصطفى انها تغيرت كثيراً. لقد أصبحت تمتلك حس فكاهة. ثم رآها بعد ذلك برفقة سائح خليجي. كانت تحني رأسها، وقد ارتسم على وجهها تعبير حزين، جليل. ثم أخذ يشاهدها في حجرات الانتظار، خارج استوديوهات التلفزيون، وقد أصبح لها تلك النظرة المبتسمة، المترقبة، الخائفة. ولم يشاهدها في أي فيلم أو مسلسل تلفزيوني.

الفصل الثاني

كان ايهاب يرغب أن يسأل مصطفى عما يشغله فيجعله يواصل المشي هذه الفترة الطويلة، وكانت رغبته أكبر في أن يستمع الى ذلك الحديث الذي طال بين مصطفى واسماعيل، والذي أثار اسماعيل الصارم الالتزام وجعله يخرق قوانين الحياة العامة في حجرة الشيوعيين ويطلب سيجارتين اضافيتين.

أخذ يتابع مصطفى في مسيرته، وفكّر لابد أن المسألة خطيرة. وهو لم يكن يميل الى التفاسير السهلة، التي تطرح نفسها دون مجهود. فيقول: انه اجتماع بين زعيمي المجموعتين الصينية والسوفييتية ـ وهذه الأخيرة قد حلت نفسها، تمهيداً لدخول الاتحاد الاشتراكي. في واقع الأمر لم يكن هنالك اسرار تستدعي اجتماع الاثنين في منتصف الليل، والجميع نيام. لابد أن هنالك مسألة أخرى تحرق أعصاب مصطفى.

كان ايهاب محسوباً في داخل العنبر على المجموعة التي تعادي الخط الصيني، وتؤيد حل الأحزاب الشيوعية، رغم أنه لم يكن في يوم من الأيام ينتمي الى تنظيم شيوعي. ولو أنه وجد الفرصة للتعبير عن نفسه دون تشنجات الصراع بين الطرفين، ودون هذه الحدة التي لاتسمح بالحياد في داخلها لاعلن تأييده للرأي الصيني حول كون المسألة المركزية في الصراع العالمي هي التناقض بين شعوب المستعمرات والاستعمار. لقد قرأ كتاب لين بياو الصغير «تحيا حرب الشعب» وأعجبته تلك المقارنة التي أجراها بين الثورة الصينية والوضع العالمي الحالي: «لقد انتصرت الثورة الصينية حين حاصر ريف الصين مدنها، ولذا فعلى ريف العالم ـ شعوب المستعمرات ـ ان تحاصر مدن العالم ـ أوربا الغربية وأمريكا ـ وان تسقطها.

كما ان ايهاب لم يستطع للحظة واحدة ان يقبل فكرة حل الأحزاب الشيوعية. ان فكرة وجود مجتمعات تسير نحو الاشتراكية بشكل تلقائي لم تقنعه. ان شيئاً في تكوينه الخاص يجعله يؤمن أن الارادة الانسانية الواعية هي صاحبة القرار الحاسم وسط فوضى الأشياء. هل كان لثورة اكتوبر ان تقوم لولا مجهود لينين الارادي، أو لو أن لينين اعتمد على السير التلقائي للتاريخ والارادة الطيبة لحكومة كيرنسكي؟

لكنه في داخل المقولات الصينية، رأى أشياء عزيزة على نفسه يتم سحقها: الموقف من الأدب

العظيم «فلقد بلغت الوقاحة شن بي حداً أن طالب بالسماح للكوادر المسرحية بقراءة مسرحية شكسبير روميو وجوليت» كما جاء في البيان الذي يفسر طرد نائب وزير الثقافة الصيني من منصبه. الهجوم على أدب الأساطير باعتباره أدب الأمراء والجنيات، الهجوم على كل ذوي البشرة البيضاء دون تفريق، الهجوم على كوبا ومحاولة تجويعها بقطع الرز عنها، وسخافات الثورة الثقافية: قراءة الكتاب الأحمر تشفي من السرطان، وتحل مشكلات الطبيخ بالنسبة لربة البيت. وتساعد على توزيع البطيخ بشكل جيد.

لقد قرأ الأدبيات الصينية حول الخلاف النظري والسياسي مع الاتحاد السوفييتي فلم يعد يأخذ الموقف الصيني بجدية. روح الفكاهة دمرت كل ايجابيات ذلك الموقف. واهم من هذا انه، ربما بطريق الصدفة، كان معظم اصدقائه من المجموعة المساندة للخط السوفييتي. كانت عواطفه نحو الآخرين تصيغ الكثير من آرائه.

أخذ يراقب مصطفى كان في مسيرته يبتسم ووجهه مشع بالفرح ماذا حدث له، وبماذا يفكر؟ يجب أن يعرف. على الفور دخل في سياق عالمه الروائي. كان ايهاب يعيش وقائع حياته كأنه شخصية داخل رواية. وهو قد لاحظ، بالنسبة له وللفنانين الآخرين، انهم يصاغون بعد مرور فترة من ابداعهم بفنهم. قال لنفسه أنه يزحف عليهم كالوباء، كالسرطان على وجه التحديد، يهمّش علاقاتهم وصداقاتهم ومتعهم، حتى الحب، ليخلق تلك الثنائية المرعبة: ان تمارس الحياة، وان تراقب نفسك وانت تمارس الحياة. لقد كتب ايهاب روايتين لم تنشرا، وكتب عدداً من القصص القصيرة، نشر بعضها وزحف عليه سرطان الكتابة الروائية: أصبح يعيش حياة السجن في سياق روائي. احداث الحياة اليومية تتلبس حالة من العناد والتوقع، توقع أن تصاغ في كلمات، والكلمات تبدو وكأنها وجدت لتعبر عن وقائع أخرى لا الوقائع التي يراها امام عينيه. ذلك مصدر عناد الواقع اليومي.

أما حين تندرج الاحداث اليومية في حياة السجن ضمن اطار فاجع، ذلك النمط من الفجيعة الذي يتولد عن رؤية محايدة، وبعيدة عن المشاركة المباشرة في الحياة. فجيعة تحتشد برعب الوجود وبمبرره. فان ذلك ناتج عن صياغة وفعالية المراقب الداخلي المحايد. وكان ذلك يرتد عليه احباطاً، فيقول لنفسه: أنني لاأعيش الحياة، ولا أعرفها، بل أعيش عالمي الداخلي. ذلك هو خداع الفن يوهم بالحياة ولكنه بعيد عنها. انها مجرد عالم مصمت يدور حوله الفن.

ربما كانت تلك اللحظة - دون توارد وربط واضحين - هي التي جعلته يتذكر تلك الفتاة. كان ذلك قبل دخوله السجن بشهر تقريباً وهو قد نسيها تماماً خلال هذه الفترة، وهاهي تعود اليه بوضوح غريب. انه يستعيد حتى اسمها الذي كان من المنطقي أن ينساه. كان اسمها زينب.

كانت تعمل في وكالة صحفية تبيع المقالات والصور الصحفية الواردة في الصحف الاجنبية. ذهب اليها ليشتري، او يستعير، احد أعداد مجلة «تايم» الامريكية الذي ورد فيه ريبورتاج كامل عن حياة هيمنجوي. دخل الوكالة دون أن يعترضه أحد. صعد الطابق الأول. على يمينه اكتشف حجرة واسعة جداً، ربما كانت أكبر حجرة رآها في حياته. كان فيها عشرات المكاتب التي تدور حول

الحجرة، وعليها جلس شبان وفتيات، وكلهم مستغرق في القراءة، أو الكتابة، أو مطالعة الصور الفوتوغرافية.

شعر بدخوله كأنه فضيحة. رفع شاب يجلس على مكتب في مواجهة الباب رأسه. كان الوجه سؤالاً يطالب باجابة فورية. اقترب منه وقال: «عايز مدام زينب» كان الشاب يتأمله بوجه خال من التعبير، فبدا وكأنه يستنكر سؤاله. خجله وخشيته من الناس جعلاه يتصور ان الشاب سوف يصرخ به: «زينب مين يازفت» ولكن الشاب مد ذراعه وأشار بسبابته الى فتاة تلبس قميصاً رجالياً أبيض وقال: «الأنسة زينب هناك».

ابتسمت عينا الشاب وأضاف: «المدموازيل اللي لابسه بلوزه بيضا» لم تكن تلبس بلوزة بيضاء، بل قميص رجالياً وقد تكوّر تحته وارتفع ثدياها. كان لها وجه غامق السمرة، مشرباً بحمرة قاتمة. بمجرد ان قال الشاب ذلك انكب على عمله.

لاحظ ايهاب انه، بمجرد أن اشار اليها الشاب، ارتعش جسدها كله، كأن تياراً كهربائياً مر عبره. كانت ارتعاشة انثوية خالصة، ارتعاشة اغواء وخفة دم التي تصدر عادة عن مراهقات جسورات. لم يكن بامكانها ان تكون قد سمعته وهو يسأل. ضجيج الحجرة لم يكن يسمح بذلك. كما أنه من المستحيل أن تكون قد رأت الشاب وهو يشير اليها. فقد كانت مكبة على مكتبها، مستغرقة في الكتابة. قال ايهاب انها من النوع الذي يستجيب بجسده. لم يكن واضحاً له ماالذي يعنيه بذلك، ولكن تلك الارتعاشة، التي تخللت جسدها كله اصابته في العمق. توقع، وهو يسير نحوها، ان تصرفه بعصبية، تصغي اليه وتصرفه على الفور. رفعت رأسها عندما اقترب. كانت عيناها حيّتين تحملان تعبير تعرف خفيف الظل. قال: «مدام زينب؟» قالت: «آنسة» واعادت جسدها الى الخلف بحركة مفاجئة، فبرز ثدياها نافرين، منفصلين. لم يجرؤ على الضحك رغم الطابع التهريجي لحركة جسدها. قال: «أنا جاي لك من طرف. .» كان يتأتيء. قاطعته: «اقعد استريح الاول». جلس على كرسي بجوار المكتب قالت: «ايوه ياأستاذ. .؟» قال: «ايهاب» قالت: «ايوه يااستاذ ايهاب؟» ثم أضافت قبل أن يجيب: «بتشرب ايه؟» ارتباكه هو الذي منعه من الاعتذار فشرب شيء يعني تعطيلها عن العمل. قال: «قهوة ع الريحة» نادت: «مهيوب قهوة ع الريحة» لم ير مهيوب، ولكنه سمعه يقول: «حاضر» نظرت اليه مباشرة، وقالت: «ايوه؟».

قال بتأتأة: «أنا جاي من طرف مدام هنية» قالت: «من طرف هنيه. ايوه؟» قال:

ـ «عايز من حضرتك مقال في التايم عن هيمنجوي بعد انتحاره اذا ممكن يعني.»

قالت: «ممكن» وهي تنهض بحركة سريعة وتغادر الحجرة. كانت تسير بسرعة. وفكّر انه لم يذكر لها تاريخ عدد المجلة. لابد انها تعرفه. عادت بأسرع مما يتوقع، ولم تكن تحمل العدد. قالت وهي تجلس: «بصوروا المقال».

ماذا حدث بعد ذلك؟

لايذكر تسلسل الأحداث. شعر أن الجميع يراقبونه، ويعبّرون عن انزعاجهم لأنه يعطل زميلتهم عن العمل. يرعبه ان يقال عنه «لزقة» يفرض نفسه على الآخرين في وقت غير مناسب. ورغم ان الفتاة لم تكن تستعجل انصرافه، وبادلته الحديث بطلاقة، وود، وسألته، اكثر من مرة عن سبب

قلقه، وطلبت له فنجان قهوة آخر، لكنه كان يشعر ان من واجبه أن ينصرف. لايتذكر كل التفاصيل لكنه يذكر ـ ويحدث هذا معه في امثال هذه المواقف ـ انه استعجل الانصراف ليقنع الفتاة، التي أخذ يميل اليها، بأنه يجاملها فقط. انه بذلك يبرهن على احترامه لها. وبأنه انسان لايفرض نفسه على الآخرين.

كان حس الروائي، الآخر، المراقب الذي في داخله، يعلم ان موقفه مضحك، وانه في سلوكه هذا قد أهان الفتاة التي يود أن يعبّر لها عن احترامه ولكن ذلك المراقب يصبح مشلولاً عندما يكون ايهاب في قلب الموقف. يبطيء دائماً في تدخله. يشبه ذلك عندما يوجه اليه احد ما عبارة جارحة، فلا يأتي رده الا بعد فوات الأوان والمناسبة. يذكر أنها قالت له: «مالك قلقان؟» قال: «بعطلك عن الشغل. شاعر يعني..» قال: «ماعنديش شغل دلوقتي»

ألم تقل له انها سعيدة لمجيئه وانها تشعر كأنها تعرفه من زمن؟ يبدو أنها قالت شيئاً كهذا. مايذكره جيداً ادراكه ـ المتأخر ـ عندما غادر الوكالة، وسار في الشارع، ثم جلس في مقهى ريش، ان الفتاة كانت تعرض عليه لقاء آخر، صداقة.

يحاول، وهو ملتو على نفسه، كالجنين في الرحم، تحت البطانية ان يتذكر كلماتها بالضبط. هل قالت له: «ضروري نشوفك مرة تانية»؟ عبارة كهذه لاتزيد عن مجاملة، وقد تعني: انصرف بسرعة، فليس لدي وقت اضيّعه معك. ماذا قالت اذاً؟ لقد قالت، أو فعلت شيئاً جعله يدرك، دون لبس، انها تعرض عليه صداقة.

كشف البطانية عن وجهه وأخذ يراقب مصطفى وهو يتمشى. وكان يريد أن ينسى تلك الفتاة. او بالتحديد، ان فرصة علاقة معها قد افلتت منه. سمع ضجة تأتي من خارج العنبر، وصوت الشاويش وحيد يصرخ: «دخلوهم عنبر التانيا».

كان عنبر التانيا يواجه عنبر الشيوعيين وهو مخصص للمساجين المصابين بمرض التانيا الجلدي. ولكن العنبر مغلق منذ زمن طويل، رأى ايهاب مصطفى يتوقف وينظر الى باب العنبر وكأنه القى عليه سؤالاً ينتظر اجابته. قال له ايهاب: «معتقلين جداد؟» قال مصطفى: «باين» قال ايهاب: «زملا؟» لم يرد مصطفى اتجه نحو الباب وضغط اذنه عليه. نهض ايهاب وتبع مصطفى. قال: «باين مش زملا» ابعد مصطفى اذنه عن الباب: «سمعتهم بيقولوا وفديين» قال ايهاب: «وفديين؟» قال مصطفى:

ـ سمعت كده

ـ هوه لسّه فيه وفديين؟

ـ كان حزب الوفد قد أصبح ذكرى غائمة. عاد مصطفى الى السير وهو يقول: «بكره تصبح كل حاجة تبان» سار ايهاب بجواره وقال: «وفديين» ثم تمشيا صامتين. قال ايهاب فجأة: «كنت عايز اطلب منك حاجة» فوجيء مصطفى. توقف ونظر اليه. قال: «حاجة؟ ايه؟» قال ايهاب:

ـ في الرسالة الجاية اللي حاتبعتوها للخارج عايز ابعت سلام.

قال مصطفى: «لمين؟» قال ايهاب: «لصديقه اسمها زينب»

ـ زينب ايه؟

ـ زينب؟ زينب ايه؟ والله مش فاكـر. بس هيه بتشتغـل في وكـالـة صحفية اسمها فيتشر سيرفس، بتراسل مجلات وصحف في الخارج.

شرح له مصطفى أن ذلك مستحيل. قال له ان كل من سيبلغ زينب، التي لاتعرف سوى اسمها الاول، ان رسالة خرجت من السجن سيعرض نفسه للخطر. من خلاله تستطيع اجهزة الامن ان تصل الى الشخص الذي ينقل الرسائل من السجن. ثم هل أنت واثق من زينب هذه؟ انها تعمل في وكالة تعتاش من خلال علاقاتها بصحف امريكية.

قاطعه ايهاب قائلاً: انه لم يفكر في ذلك كله. قال مصطفى:

ـ «فين يقظتك الثورية»

في تلك اللحظة رفع وليد رأسه من تحت البطانية. كانت عيناه حمراوين قال:

ـ «ايه الهيصة دي اللي بره؟»

قال مصطفى:

ـ «معتقلين جداد. سمعت بيقولوا وفديين»

قال وليد:

ـ «هوه لسّه فيه وفديين؟»

ـ ثم عاد الى النوم.

الفصل الثالث

حلم غريب، قال حسن لنفسه. كان الجميع نياماً بدا العنبر اصغر من المعتاد. والرائحة: رائحة الجرادل التي يتبول، واحياناً يتفوط، فيها المعتقلون، رائحة الاجساد الحريفة التي لم تعرف الاغتسال اسابيع عدة، عطن البطاطين، وبقايا روائح الطعام، وروائح أخرى مبهمة، تذكّره بروائح دورات المياه العامة. وعندما يكون خارج السجن تذكّره رائحة دورات المياه العامة بالسجن.

بعض البيوت احياناً تذكّره احياناً برائحة السجن. بيوت الطلبة القادمين من الريف في فصل الشتاء، حيث يتكدسون باعداد كبيرة في شقق ضيقة، مغلقة النوافذ. يتذكر بشكل خاص رائحة الجوارب والأحذية.

يراود نفسه: هل ينهض؟ يتذكر: كان حلماً غريباً. لم يعد يتذكّره جيداً ولكن الفتى كان فيه. تولّد عبر زوجته انصاف. كان ذلك في حديقة مألوفة، ولكنه لايستطيع تحديدها. هل كانا يجلسان في كازينو؟ لم يكن هنالك موائد وكراسي. كانت حديقة اشبه بالعنبر يجلس هو وأنصاف على البطاطين المفروشة على الأرض. كانت أنصاف تكلمه بتلك الصرامة، التي تستعملها الام مع طفل مشاغب. ضج الضحك في صدره وهو يتصور انصاف الوديعة تتخذ تلك النبرة الصارمة. كانت تقول شيئاً كهذا: «انتبه لدراستك ليس وراء الجري خلف البنات الا تعب القلب» ثم تقول: «بص على ايديك» ماذا بهما؟ يعلم ان فيهما شيئاً معيباً، شيئاً بذيئاً يعرّضه للعار، ولكنه لايستطيع ان ينظر اليهما. قال لها ان ذلك بسبب البرد. لايبدو أنها سمعته وهو خلال ذلك يفكر انها زوجته، فلاغتنم الفرصة. يقرر ان يعانقها. تنظر إليه بصراحة، فيتبين ان ذلك معيب جداً. يهمس لها:

- «اسمك انصاف؟» محاولاً ان يستعيدها كزوجة. تضع كفها على فمها وتهتز كتفاها. من الواضح انها تكتم ضحكها. تقول له من خلال ضحكها: «ياشقي». شعر بالخزي. يتذكر فجأة كيف غاب ذلك عنه؟ الحديقة هي حديقة السجن الصغيرة، التي يجتازها كل صباح وهو في طريقه الى دورة المياه. شيء مضحك بالفعل ان تكون أنصاف هناك.

ثم حدث شيء غير مفهوم. لقد تحولت انصاف، بدءاً من عينيها، وأصبحت الفتى. كان ذلك عندما قرر، رغم كل شيء، ان يعانقها ولكنها كانت حاضرة ايضاً وهو يعانق الفتى، غير أنها بدت غير مكترثة لما يحدث. بدأ الحديث بين حسن والفتى ودوداً وانفعالياً. ثم مال الفتى نحوه وأخذ

يعانقه، ثم تتالت حركات الالتصاق حتى أصبحت عملية جنسية غير محددة. كان الجو معتماً، وكان هنالك، في وسط هالة من الضوء بعض الناس - وانصاف كذلك - يبدون غير مكترثين لما يحدث.

نهض حسن واتجه الى جرادل البول، خلف الجدار المقام في نهاية العنبر. كانت الرائحة نفّاذة. بعضهم مصاب بالاسهال. وعندما عاد شعر بالنفور من الفراش. فاخذ يتمشى في الطرقة التي تفصل بين صفي النائمين. الساعة تشير الى الرابعة، وشعر بالبرد يعرّيه. اعطي نفسه خمس دقائق. اذا استمر بعدها شعوره بالبرد فسوف يعود الى فراشه. الحلم اثاره وأخافه من الفراش. فتحولت رغبته الى انصاف. اراد أن يتواصل معها. . . ماذا تفعل الآن؟ نائمة بالطبع. وبرزت حجرة النوم امام عينيه مكتظة بالاثاث الثقيل وضيقة. ود لو أنها جالسة، الآن، على سريرها تفكر فيه. تمدّ يدها، بوجه حزين غائب، بعينين حزينتين غائبتي النظرة، وتحكم الغطاء حول جسد الطفل، ثم تعود الى التفكير فيه. ذلك يجعل التواصل قريباً جداً من الملامسة. وشعر بحنق لانها ليست مستيقظة في هذه اللحظة لتتواصل معه.

لم تذكر. كان الجو حاراً، تلك الحرارة التي تحرمك من النوم، وان نمت يمتلىء نومك بالكوابيس. كان وجهها متجهاً نحوه وهي مستغرقة في النوم. كان وجهها عرقاناً. العرق يغمر وجهها المورد، يتركز على طرف انفها، ويصنع شارباً تحته ومن جسدها تفوح رائحة قوية نفّاذة. كان يختنق بتلك الرائحة. غادر السرير وتمدد على الكنبة الخارجية. انه يفكر بغضب الآن: لماذا لا تستحم وتتعطر في مثل ذلك الجو؟ ودون أن يدري أخذ يفكر بالفتى.

كان حسن مكلفاً من الحياة العامة ان يكون الصلة بين عنبر الشيوعيين والمطبخ. كان يرتب موعد الوجبات، وشراء اللحم، أحياناً، الذي يقتطعه المسؤولون في المطبخ من حصة المساجين ويبيعونه، وكذلك شراء الزيت والشاي. كان العاملون في المطبخ سجناء عاديين يأتون من «ليمان طره» المجاور لمزرعة طره المخصصة للمعتقلين السياسيين. هنالك رأى حسن الفتى. كان اسمه صالح. ولايعرف حسن ان كان ذلك اسمه الحقيقي أم اسمه الدلع. رآه أول مرة في مشاجرة مع مسؤول المطبخ. كان مسؤول المطبخ، وهو سجين طويل سمين، يؤنبه لأنه يسرق الزيت ويبيعهُ للسياسيين. يقول، متوجهاً بحديثه الى الحاضرين: مثل شغل العفاريت احط طبق الزيت على الطرابيزة والتفت لثانية واحدة، في ثانية واحدة الاقيه طار. شغل عفاريت.

لاحظ حسن ان مسؤول المطبخ يتحدث بأسلوب الممثل محمد رضا. التفت الى الفتى وقال: «قسماً، عظماً لوما بطلتش طولة. . » فقال الفتى مقاطعاً: «محتاج فلوس. اجيب منين؟» علا صوت حمدان، مسؤول المطبخ: «تقوم تسرق؟» فقال الفتى:

- مش احسن ماأروح لابو الفرح. .

وقال كلمة تعني ممارسة الجنس معه: ضج الحاضرون بالضحك بما فيهم حمدان الذي قال من خلال ضحكه: «هوه لسّه ابو الفرح ما. . » وذكر الكلمة نفسها. قال الفتى: «فشر».

التفت حمدان الى حسن وقال بلغة حاول ان يجعلها فصيحة: «شباب المستقبل ياسيدي» ضحك حسن رغم أنه لم يتبين العلاقة بين تلك العبارة والموضوع المطروح وقال: «دنيا».

منذ ذاك أخذ حسن يبحث عن الفتى كلما دخل المطبخ. كان يبتسم له ولكن الفتى يرد بتعبير دهشة وتساؤل. لم يكن الفتى ودوداً. وصار حسن يطيل الوقوف في المطبخ، وعندما يبحث عنه يراه يطالعه بتلك النظرة الثابتة. يحوّل حسن عينيه عنه ولكنه يشعر بعبء تلك النظرة في جسده. تصور تلك النظرة تحمل لوماً خفياً، وربما معاتبة قاسية. لم يكن قادراً على وضع ذلك في كلمات ولكنه شعر به يسيطر عليه. يشعر تحت وقع تلك النظرة باضطراب لايستطيع السيطرة عليه، ورغم برودة الشتاء كان ظهره ينبلل بالعرق.

بعد ذلك قرر حسن ان يبتعد عن مجال رؤية الفتى، ويراقبه. كان يرتدي ملابس المساجين الزرقاء - ملابس المعتقلين السياسيين كانت بيضاء - كانت محبوكة ضيقة تبرز تفاصيل جسده. اكثر ماجذب انتباه حسن هو الثقة التي كان يتحرك بها. يتأنى في بداية الحركة، ثم تصبح حركته دقيقة، محسوبة، متناغمة مع وضع الجسد. كان، في ذلك يشبه لاعب كرة السلة الموهوب. عندما يسجل هدفاً: يتأنى حتى يكتسب الوضع الملائم، ثم يسجل الكرة.

ولكن مهما اخفى حسن نفسه كان الفتى يستدير فجأة وينظر اليه. هل تغيرت تلك النظرة؟ أصبح يشاهد فيها ضحكة تواطؤ تقول: فاهم عليك، او ربما ضحكة سخرية تقول: «لن تنال شيئاً»، وضحكة اغواء. لايستطيع فهمها بشكل قاطع، ولكنه يشعر عندما يرى هذه النظرة الجديدة بارهاق يستولي عليه، وبأن ركبتيه اصبحتا كالماء. ثم أصبح الفتى هاجساً، يستطيع ان يميزه حتى لو كان في حشد من المساجين، حتى ولو لم يبد منه الا بقعة زرقاء من ملابسه. كان قلبه يبدأ بالخفقان حتى قبل ان يميزه.

واصل حسن سيره في الطرقة. استعاد صورة الفتى الآخر في سجن القناطر الخيرية. كان حسن يقطن مع ثلاثة آخرين من المعتقلين السياسيين في حجرة صغيرة في الطابق الاول من السجن. الحجرة المقابلة كانت باذخة بالنسبة لسجن. كانت مطلية باللون الاخضر، نظيفة، وفيها تبدو اواني الطعام مغسولة ولامعة. لاحظ وجود مرطبانات فيها مخلل وزيتون. كان الفتى يجلس خارج باب الحجرة، مفتوح الفم قليلاً يطالع المساجين باستغراق. توقف احد المساجين وخاطبه: «فين جوزك يابنت؟» رفع الفتى وجهاً محايداً وقال بصوت منخفض: «في ورشة النجارة» ثم أضاف وهو ينهض ويدخل الحجرة: «زمانه جاي».

بدا ذلك، في تلك اللحظة، لحسن كنوع من المزاح، او كطقس غريب غير مفهوم لقد سأل نفسه آنذاك: هل خدعه سمعه ففسر جملة السجين تفسيرا خاطئا؟ بعد قليل جاء السجين الذي يسكن مع الفتى. كان ضخماً، سميناً. اخرج الفتى كرسياً من الداخل ووضعه خارج الباب. جلس السجين عليه وجلس الفتى على الارض وأخذ يدلّك قدمي وساقي السجين، الذي لم يكن ينظر اليه، بل الى المارة من المساجين يبادلهم الحديث. كان الوقت غروباً، وقد بدا لحسن مايحدث كمنظر ريفي لزوجين.

مع مضي الوقت تعرف حسن على الزواج الذي يتم داخل السجن بين سجين قوي يملك دخلاً، وبين صبي وسيم. عرف حفلة الزواج التي تتم والصبي لايعرف مايدور حوله. ثم فجأة خلال

الحفلة الصاخبة، يهاجمه السجين القوي بمساعدة الآخرين. ويغتصبه، ثم يعلن زواجه. عرف حسن ذلك واعتاده. أصبح هو يخاطب الفتى باعتباره فتاة عندما يضطر لاقتراض بعض البصل او الخضار منه. كان يخاطبه بتهذيب «تسمحي ياآنسة» وكان الفتى يستجيب بتهذيب واحتشام.

في أحد الأيام دخل الفتى حجرة السياسيين وقال بلهفة: «لو تسمحوا ياجماعة تخبوا دول عندكو. جاي تفتيش» وسلمهم صرة كان يحملها. لم يستطع حسن بعد انصراف الفتى ان يمتنع عن فتح الصرة وتأمل مافي داخلها. كان هنالك أدوات زينة نسائية: روج وكريم نيفيا، وبودرة، وملقط للشعر، وكحل. وملابس حريمية: سوتيان. وسراويل نسائية حريرية وجوارب شفافة ومناديل شفافة للغاية كأنها دخان. كان حب الاستطلاع يقتل حسن. حين اتى الفتى ليسترد الصرة ـ لم يحدث التفتيش المتوقع ـ لم يستطع ان يمتنع عن توجيه سؤال اليه: «امتى ياآنسة بتستعملي الحاجات دي؟» فقال الفتى: «بالليل» ثم أضاف: «لما أكون أنا وجوزي في الاوده» قال ذلك وكأنه يقرر حقيقة محايدة.

وتبين لحسن، بعد أن عرف الكثير عن حياة السجون ان هذا الفتى نمط خاص من الزوجات. لقد تعرف على «زوجات» من النوع الذي يضغط بكفه على ظهره بحركة نسائية عريقة ويرسم تعبير المرأة الشاكي على وجهه ويقول: «ظهري بيئلمني ياأخواتي» او «الواحدة لازم تحافظ على جوزها. الرجالة مايهمشي امان» وشاهد حوادث الغيرة، والهجر، والخيانة الزوجية.

كما لاحظ حسن ان نوع الانوثة الذي ينبعث عند هؤلاء «الزوجات» يعود الى عهد مضى، لانشاهده الا في الافلام القديمة. الرقة المبالغ فيها، وانحناء الظهر ومط الكلام والمعابثة الخجولة.

وبقدر ماكان ذلك مثيراً للاشمئزاز فقد كان، في الوقت ذاته، اكثر العناصر اثارة داخل السجن. ـ الزوج كان العنصر المتحرك والمتجدد في رتابة حياة السجن.

قبل لحظات النوم في سجن القناطر الخيرية كان حلم يقظة يتكرر عند حسن يأخذ فيه دور السجين. ولكن احساس «الزوجة» لم يكن غريباً عليه.

في معتقل مزرعة طرة كان حلم اليقظة يتولد باستعادة صورة السجين والفتى. يتخيّل مايدور بينهما بعد اغلاق باب الحجرة في المساء. يعيش لحظات الاثنين: السجين الضخم الذي يرى في الفتى زوجة والفتى الذي قبل خصائص الزوجة. ثم يحدث تبادل أدوار يتقمص حسن شخصية السجين ويحتفظ الفتى ـ الزوجة. ولكن حلم اليقظة يختل، يتداخل صالح بالصورة ولكنه لاينضبط كزوجة. ضحكة عينيه وعنفه الساكن المتحفز تحت بذلة السجن لايجعلانه صالحاً لدور الزوجة المطيعة القابلة بوداعة لشروط الحياة الجديدة.

في تلك اللحظة شعر حسن بالبرد ينفذ اليه حتى العظام. قال لنفسه: «ماذا يحدث لي؟» وعاد الى فراشه، حاول، وهو متدثر بالبطانيات، ان يفكر في انصاف، حاول، بشكل ارادي، ان يستعيدها كجسد مرغوب فيه. رأى نفسه خارجاً بسيارة الشحن الكبيرة الى وزارة الداخلية، ثم خارجاً من المبنى الواقع في شارع نوبار الى الشارع. يستوقف سيارة اجرة ويتجه الى ميت عقبة. يصعد الادوار الثلاثة، ويدير المفتاح في الباب ويدخل، لايصل الى انصاف مباشرة هنالك الاطفال والمهنئون والاقارب وكلما

حاول ان يختلي بها تبرز وجوه متلاحقة تطالبه ان ينتبه لها، وكل وجه يسرِّب حكايات مضحكة حدثت، ذكريات، مواقف غريبة، مسائل عملية واما انصاف فهي مستغرقة تماماً في الاستقبال والتوديع، وتقديم الشربات والقهوة والشاي. كانت مجرد استجابات متلاحقة، سريعة، متغيرة لالحاح المناسبة. يحاول القفز فوق ذلك الى انتهاء السهره ودخول حجرة النوم، والاختلاء بها، ولكن حلم اليقظة يناوره، يتذكّره بقراراته بعد الخروج: التخلص من ملابس السجن، الحلاقة، الاستحمام، ارتداء ملابس نظيفة. يعيش معاناة الملابس القذرة لتصبح لحظة التحرر منها امتع، فم انصاف. ولكنها تتفلت، تغير ملابسها تستحم، تزيل المكياج. في تلك اللحظة نام حسن.

هنالك حفلة ما. الوجوه مألوفة ولكن الاسماء غابت عنه. ثم رأى الفتى. كان يرتدي ملابس لاعبي التنس البيضاء، وقد نزع بيريه السجن عن رأسه فبدا شعره الاسود السبط مسرحاً بعناية. امسك حسن بذراعه العارية فالتفت الفتى اليه وهو يبتسم ابتسامة ساحرة كتلك المطبوعة على وجه الشاب في الاعلان عن معجون كولينوس للاسنان. كانت ابتسامة لها بريق. قال حسن: «اعرّفك على الحاضرين».

وهو يعرّفه كانت الاسماء تنبت لمجرد أن يرى الوجه. يكون غير متأكد من الاسم، ولكنه في كل مرة كان يتوصل الى الاسم الصحيح. قال حسن: «انصاف مراتي صالح» ولكن المرأة الصارمة لم تكن انصاف تماماً، كانت انصاف، وكانت امرأة أخرى، يعرفها جيداً ولكنه لايستطيع ان يحددها. رأى سبابة المرأة تشير الى بطنه، ثم التفتت نحو صالح وابتسمت، فانفجر صالح بالضحك. احس حسن بالغيرة تنهشه لهذا الود السريع الذي نشأ بين الاثنين، وبأنهما يهجرانه. صرخ كطفل مشاكس: «هوه فيه ايه؟»

قالت المرأة: «زرر بنطلونك»

حدث انقطاع في التسلسل كان حسن يقول للفتى بحرارة انه. منذ خروجه من السجن، وهذه الغشاوة تهبط على عينيه، فلا يستطيع ان يميز الناس والأشياء بوضوح يرافق ذلك نوع من الدوار فقال صالح:

- «العالم هو الذي يخفي نفسه بغشاء رقيق. انه عصرنا»

قال ذلك بود وحزن. استولى على حسن احساس جميل ودود وهو يسمع ذلك الكلام الرائع. قال حسن.

- «وايه العمل؟»

قال صالح: - «انا حاتصرف»

الفصل الرابع

في السادسة مساء تأخذ ادارة السجن التمام ويتم اغلاق العنابر. يستغرق التمام ـ وهو عملية تعداد المعتقلين في كل عنبر على حدة ـ حوالي نصف ساعة. وأحياناً يعاد التعداد اذا حدث خطأ في العدد. لاشيء يرعب ادارة السجن مثل اكتشاف نقص في عدد المعتقلين.

يتم فتح العنابر في السابعة صباحاً يكون عدد من المعتقلين واقفين خلف باب العنبر في انتظار دورهم للذهاب الى دورات المياه. كل واحد منهم يحمل كوزاً مليئاً بالماء للتشطيف. وما ان ينفتح الباب حتى ينطلقوا راكضين بأقصى سرعة في الطرقة الواسعة التي تفصل بين صفي العنابر، فيندلق جزء من الماء الذي يحملونه. ينطلقون بهذه السرعة حتى يحجزوا مكاناً في دورة المياه الواقعة في نهاية الطرقة. يجتازون حديقة صغيرة ثم ينتهون الى دورة المياه.

دورة المياه جدران ترتفع متراً عن الارض تتجاور ابتداء من الباب ملتفة حول الحجرة كلها، يغطيها من الأمام قطعة خيش موضوعة بين جدارين فلا يبدو من الجالس فيها سوى رأسه. وما ان يقف حتى يجد معتقلاً يقف مستعداً للحلول مكانه. بعد الانتهاء تتكوّن مجموعات تتبادل صب الماء على بعضها لغسل الرأس بالصابون. الماء يستخرج بواسطة طلمبة ينساب الماء منها الى حوض.

في هذا الشتاء، حين تكون الشمس طالعة، يقف المعتقلون يتشمسون الى ان يحين موعد الافطار. خلال ذلك يجيء حاملو جرادل البول، واضعين عصا يستقر طرفاها على كتفي اثنين من المعتقلين، وبينهما، معلقاً بالعصا جردل البول. يندفعان بسرعة وهما يصرخان:

ـ «وسع وسع ياجدع جرادل البول»

فيفسح المعتقلون الطريق باستعجال وكأن سيارة توشك ان تدهمهم. في الساعة الثامنة يتجه مسؤولو الاتصال بالمطبخ الى المطبخ ويعودون حاملين جرادل الفول وتعيين الخبز للنهار كله. على سطح جردل الفول تسبح حشرات متماسكة، لم تتحلل رغم الغلي الطويل. لم يعد أحد يشمئز لوجود السوس في الفول خاصة بعد أن افتى الاطباء المعتقلون انها غذاء مفيد واطلقوا عليها اسماً ذا مهابة «بروتينات حشرية».

في عنبر الشيوعيين كان كل خمسة معتقلين يجلسون حول قروانة فول، يغطي سطحها الزيت الحار. وبعض قطع الجبنة الخالية من الدسم «القريش» وخبز. اعتقال الوفديين أصبح معروفاً

للتجميع. سبب الاعتقال وفاة مصطفى النحاس والجنازة التي أقيمت له. تم التجمع في ميدان التحرير، فاجتمع ربع مليون مشيّع سارت الجنازة عبر شارع سليمان باشا ثم شارع قصر النيل حيث أقيمت الصلاة على المتوفي في جامع عمر مكرم. غير أن حملة النعش اعلنوا انهم لايستطيعون التحكم في النعش وأن النعش يرغب ان يُصلّى عليه في مسجد الحسين. وتلك علامة من العلامات التي يختص بها الله اولياءه الصالحين. انطلق النعش الى ميدان الاوبرا، ثم الى ميدان العتبة، ومنها الى شارع الازهر. اندفع عشرات الالاف وراء النعش.

وتحولت الجنازة الى مظاهرة تهتف للوفد وتنادي بسقوط السلطة. انتهت الجنازة بجامع الحسين حيث اقيمت الصلاة على المتوفى. في الليل قامت قوات الامن بمداهمة بيوت عدد من الوفديين السابقين واعتقلتهم.

أصبح النقاش عاماً في عنبر الشيوعيين. كان يدور حول تفسير هذه الجماهيرية الهائلة لحزب انتهى نشاطه منذ أربعة عشر عاماً. الجناح الصيني أعلن أن هذه الظاهرة تشير الى خيبة أمل الجماهير في السلطة البورجوازية وغياب البديل الثوري الحقيقي. اما المجموعة الأخرى فرأت أن ذلك يعود الى كون السلطة لم تحسم الوضع بشكل نهائي لصالح الاجراءات الاشتراكية.

لم يستمر النقاش طويلاً فبعد الانتهاء من الافطار يبدأ العمل اليومي: كنس العنبر وتنظيف القراوانات وجلب الماء ثم تغلية الملابس من القمل، وغسل بعضها ورش البطانيات بالد. د. ت. ولابد كذلك من انجاز بعض المسائل المعيشية في هذه الفترة: شراء الحاجيات من الكانتين كالسجائر والمعلبات، ومراجعة المستشفى، وشراء الشاي الذي يتناوله المعتقلون بعد العشاء. عشرات الأشياء الصغيرة يجب ان تقضى في الفترة الواقعة بين الافطار والغداء.

على أية حال لم يكن يوماً عادياً. ففي الثلاثاء توزع الترفيهة على المعتقلين. ففي الساعة الحادية وقف الشاويش وحيد بباب العنبر وصاح: «ترفيهه ياشيوعيين» والترفيهة تتكون من رغيف خبز محمص وقرصين طعمية ساخنين ورأس فجل من المزرعة. كان هنالك جندي من حرس السجن يرافق الشاويش ويحمل الترفيهة. اخذ الشاويش يوزع الطعام على كل فرد في العنبر، وحتى بعد أن نال الجميع حصتهم ظل الشاويش واقفاً بباب العنبر يصيح: «فيه حد مااخدشي الترفيهة؟» الصمت والاقبال على الطعام كانا اجابة كافية ولكن الشاويش وحيد واصل صراخه: «فيه حد غايب ومااخدشي الترفيهة؟» رد زكي شاويش العنبر: «الكل اخد». عندها انصرف الشاويش وحيد والجندي الذي يرافقه.

الاستمتاع بالطعام النادر جعل الجميع يأكلون باستغراق وصمت. في وسط هذا الصمت اعلن زكي، باسم لجنة الحياة العامة، . اقتراحاً بدعوة بعض الوفديين الى العشاء. رحّب الجميع بالاقتراح فهو يعني اضافة عنصر اللحم الى العشاء، ومضاعفة كمية الشاي الموزعة، وربما كان هنالك سيجارة اضافية. كما ان مجيء أناس اعتقلوا منذ أيام قليلة يعني اطلالة على الخارج الذي انقطعوا عنه منذ عدة شهور.

عندما اتضح ان الجميع موافقون قال زكي: سوف نشتري ثلاثة كيلو غرامات من اللحم بثمانية

عشرة سيجارة وممتازين لشاي، وسيجارة اضافية لكل معتقل. لم يناقش احد التفاصيل فقال زكي أنه سوف يتصل بادارة السجن للسماح بدخول الوفديين بعد التمام، كما سيبلغ الوفديين بالدعوة.

بعد تناول الغداء ابلغ زكي المعتقلين ان ادارة السجن قد وافقت على دعوة الوفديين على أن تبدأ في السابعة مساء وتنتهي في العاشرة. مدير السجن قال له: «ولا دقيقة بعد العشرة» ولكن الرائد. فتحي ابتسم له وغمز بعينه. وفهم المعتقلون ماتعنيه ابتسامة الرائد، صديق المعتقلين. كانت تعني ان بامكانكم تمديد السهرة الى أية ساعة تشاؤون.

في السابعة مساء انفتح عنبر الوفديين ليدخل خمسة منهم الى عنبر الشيوعيين جميعهم قد نالوا لقب البكوية ايام الملك: سعيد بيه فتاح بيه وعبد الرحمن بيه وصفوت بيه ونعيم بيه. اربعة منهم كانوا اعضاء في آخر برلمان قبل حركة يوليو. عند دخولهم كان افراد العنبر يقفون فوق بطانياتهم. صافحهم البهوات جميعاً. كان البهوات مهذبين، يرددون عبارات من نوع: «تشرفنا ياافندم فرصة سعيدة ياافندم اهلاً ياباشا..» واجلسوا في صدر العنبر.

بدأت السهرة بداية بروتوكولية تحدث صلاح، وهو اكثر الشيوعيين اطلاعاً على تاريخ مصر الحديث، عن حزب الوفد تحدث بايجاز والتزم بروتوكول السهرة. لم يتحدث عن قمع الوفد للحزب الشيوعي المصري ولا عن معاهدة ١٩٣٦، ولا عن حادث اربعة فبراير. ولم يقل شيئاً عن التحليل الطبقي لحزب الوفد، تجنب كل نقاط الخلاف وتحدث عن الخطوات الايجابية التي حققها الوفد في مجال الاستقلال الوطني، عن صراعه مع القصر واحزاب الاقليات، عن الغاء معاهدة ١٩٣٦ والكفاح المسلح ضد الانجليز في منطقة القنال، وعن حادث الاسماعيلية واعاد الى الاذهان الشعار المشهور: «لو رشح الوفد حجراً لانتخبناه».

تلاه سعيد بيه تحدث عن صداقة قديمة تربط بين حزب الوفد والشيوعيين. روى انه سمع الباشا «مصطفى النحاس» وكذلك فؤاد سراج الدين يمتدحان وطنية الشيوعيين. قال ان الوفد، عندما كان في السلطة هو الذي سمح للشيوعيين بحرية العمل، وعندما جاء في عام (١٩٥٠) افرج عن جميع الشيوعيين المعتقلين (كان الشيوعيون يعلمون ان ذلك ليس دقيقاً تماماً).

سادت فترة صمت وزعت فيها سجاير البلمونت على الضيوف. سأل اسماعيل عما حدث في الجنازة. تنهد سعيد بيه وداعب شاربه المقصوص بعناية ثم قال: «شوية صيّع عملوا المسألة كلها» ثم صمت، واخذ ينظر بحدة في الفراغ، وصمت الجميع في انتظار أن يواصل حديثه. قال بعد قليل. منذ وصلت الجنازة شارع قصر النيل، امام عدس، أخذ يتسلل عدد من الشبيحة ويحملون النعش. لاحظنا ذلك ولم نوله اهتماماً.

قال فتاح بيه: «قلبي كان حاسس»

واستمر سعيد بيه: عند ميدان مصطفى كامل اخترق النعش الجنازة وتقدمها. اخذ حملة النعش يركضون وانطلق الرعاع خلفهم يصيحون: «الله اكبر، الله اكبر النعش طار النحاس حبيب الله» ويسقط ويعيش الذي تعرفون..

قاطعه صفوت بيه:

ـ «أنا شخصياً كنت واقف مع مدير المباحث واهه برضه اعتقلني»

واصل سعيد بيه حكايته: الذين تجمعوا عند جامع عمر مكرم افسحوا الطريق للنعش، ولكن حاملي النعش اندفعوا نحو ميدان الاوبرا، ثم ميدان العتبة، ثم شارع الازهر قال ايهاب: «والرعاع وراهم».

أصبحت وجوه الشيوعيين كالقناع كان من الواضح أنهم يخفون ضحكاتهم بسبب استعمال البهوات لكلمة الرعاع. رمق سعيد ايهاب بنظرة سريعة ثم واصل حكايته: فضلوا يجروا لغاية ماوصلوا مسجد الحسين، وهناك جروا الخلق وراهم. وهناك صلوا على الفقيد.

قال اسماعيل: «وانتو كنتو فين؟» قال سعيد: كنا في مقدمة الجنازة، طبعاً، ثم صرنا في مؤخرتها» قال صفوت بيه:

- «صرنا في المؤخرة احنا والمباحث»

وابتسم، ضحك الحاضرون بتحفظ.

كان العشاء فاخراً بمقاييس السجن. الخضار المطبوخة في مطبخ السجن قد اعيد طبخها بعد أن أضيف اليها اللحم. وأمام الضيوف وضعت الجبنة الملكي «كاملة الدسم» وفتحت علبتان من لحم البقر المحفوظ. أكل الضيوف بشهية.

كان للعشاء طابع الوجبات الشعبية: تناول الطعام بصمت وارتسام تعبير وقور حزين على الوجه. من المؤكد ان هؤلاء البورجوازيون لايتناولون طعامهم بمثل هذه الطقوس ولكنهم يعرفون الجماعة التي دعتهم للعشاء: عمال، مثقفون من أوساط شعبية وريفية فقيرة، وبعض الارستقراطيين الذين تخلوا عن طبقتهم وتبنوا التقاليد الشعبية بحماس.

بعد العشاء تم توزيع الشاي في اكواب من الصفيح وعاد الحديث مرة أخرى عن الوفد وعن النحاس. كان سعيد بيه هو المتحدث الرئيسي. كان له وجه أبيض، شاحب، طويل وأنف طويل. عندما يبتسم كان يكشف عن أسنان صغيرة جداً، وعن اللثة كلها. ولم يكن بالامكان التعرف على طبقته الا من يديه الكبيرتين، باصابعهما الطويلة، الانيقة الحساسة وأظافره الوردية المقوسة.

في سياق الحديث عن محاسن الفقيد روى سعيد بيه الحكاية التالية: كان الملك فاروق قد رفض أن يمنح زكي عبد المتعال (أحد قادة حزب الوفد ووزير المالية في حكومته الاخيرة) لقب الباشوية. قرر النحاس ان يرغم الملك على منح الباشوية لزكي. وفي لقاء في قصر عابدين بين الملك والوزارة الوفدية قال النحاس:

تقدم يازكي وقبل يد مولانا صاحب الجلالة حتى يمنحك لقب الباشوية. تردد زكي. وقال الملك: «بعدين يامصطفى» ولكن النحاس ألح وقال:

- «تقدم يازكي وقبل يد صاحب الجلالة» والملك يطلب تأجيل الموضوع ولكن النحاس دفع زكي بيده وقال: «تقدم يازكي» فاضطر زكي ان يتقدم ويقبل يد الملك، فقال له الملك بوجه غاضب: «اهلاً يازكي باشا» وهكذا نال لقب الباشوية.

ولبعد الشيوعيين عن ذلك التاريخ لم يصلهم من الحكاية سوى ذلك الحماس الشديد لعمل مذل. وفاتهم ان مغزى الحكاية هو تأكيد قدرة النحاس على تحدي صلف الملك. وحتى هذا بدا لهم امراً تافهاً اذا ماقيس بالانحناء الذليل وتقبيل يد الملك.

ساد الصمت بعد انتهاء سعيد بيه من حكايته. تجهم بعض الوجوه دل أن أصحابها يغالبون الضحك.

دار بعد ذلك حديث شديد العمومية حول السياسة. ولدهشة الشيوعيين، دهشة بلغت عدم التصديق، انهم اكتشفوا ان البهوات يعتقدون ان الانجليز وراء كل مايحدث في العالم. انهم يشغلون الدولتين العظميين بصراع لاينتهي حتى يظلوا ممسكين بأمور العالم. ورددوا الحكمة القديمة: «لو رأيت سمكتين في البحر تتقاتلان فمن المؤكد أن الانجليز وراء ذلك».

صمت الشيوعيون حرجاً وثقة بالذات. ولكن اسماعيل قال بصوته المنغم العميق: «الانجليز؟ دول دورهم راح» نظر اليه سعيد بيه بدهشة، فقال زكي:

- «انت تعرف اسماعيل أحمد؟»

ارتفع حاجباً سعيد بيه بعدم تصديق وقال:

- «اسماعيل أحمد ماغيره؟ اللي . .»

فقاطعه زكي:

- «اللي خطف الضابط الانجليزي من وسط معسكره وبطل معارك القنال . .»

قال فتاح بيه: «صاحب المحاكمة . .»

ضحك زكي وقال: «هوه بالضبط»

قال فتاح بيه: «وبيعمل ايه مع الشيوعيين؟»

ساد ضحك عام، وقال زكي: «لأنه شيوعي».

استدرك سعيد: «تشرفنا يااسماعيل بيه».

فقال اسماعيل: «لابيه ولا حاجه»

الساحر في شخصية اسماعيل ان التعرف والاعجاب من شخصيات لها مثل هذا الوزن لم يفرحه وفي الوقت ذاته لم يلجئه ذلك الى تواضع كاذب. بل واصل حديثه بثقة: الدور الذي تلعبه كل دولة لايقرره دهاء ساستها والاعيبهم، بل تقرره قوتها الاقتصادية والعسكرية، موقعها الاستراتيجي وتحالفاتها مع الدول الاخرى. وبريطانيا. بهذا المعيار، دولة من الدرجة الثالثة.

قال فتاح بيه: «عداوتك للانجليز مشهود بيها» وابتسم

لم يكن هنالك فائدة من النقاش. ولكن اسماعيل قرر ان يستمر قال: ان المسألة مسألة موضوعية، وليست ثأراً شخصياً. امريكا هي عدوتنا الآن. في تلك اللحظة سمعت خبطات قوية على باب العنبر وصوت يصرخ:

- «الزيارة انتهت».

نظر اسماعيل الى ساعته. كانت تشير الى التاسعة اشار بيده نحو الباب وقال: «عليوه بولوبيف يازكي».

ارتفعت ضحكات الشيوعيين. نهض زكي وسار الى طرف العنبر، واخرج علبة بولوبيف ورغيف واتجه الى باب العنبر ونادى: «ياحضرة الصول».

كان الضيوف قد أخذوا يستعدون للنهوض، ولكن اسماعيل قال لهم: «تفضلوا [illegible] عليوه» ثم حكى لهم ان هذه هي طريقة عليوه في الحصول على [illegible] من المعتقلين. في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل عليوه. قدم له زكي الطعام فقال: «مساء الخير يا جماعة اسهروا زي ما انتم عايزين» ثم خرج واغلق الباب وراءه.

لحظة تردد سيطرت على الضيوف عادوا بعدها [illegible]. اعقب ذلك فترة صمت والعيون تتابع زكي وهو يعاود الجلوس. اعقب ذلك فترة اعتذار و[illegible] لموقف عليوه، وضحك من جميع الحاضرين. الصمت الذي تلا كان يحمل توتراً في داخله، حرجاً ما. بدا وان هنالك سؤالاً مطروحاً بحدة منعهم الخجل من طرحه. قال اسماعيل:

ـ «باين عايزين تقولوا حاجة يعني».

تبادل الضيوف نظرات سريعة وفي وسط صمت مربك قال فتاح بيه:

ـ «الحقيقة فيه حاجة سؤال يعني محيرنا، بس يعني . . »

قال اسماعيل: «تفضلوا احنا اخوه» قال فتاح ان مسألة اعتقال الشيوعيين مسألة محيرة، لغز لايجد له تفسيراً قال زكي مندهشاً: طول عمر الحكومات تعتقل الشيوعيين. منذ أن وجد الشيوعيون في مصر والسجون تضمهم في داخلها. فيا وجه الغرابة؟ قال فتاح.

ـ «لكن عبد الناصر شيوعي وانتم شيوعيون».

تبين للشيوعيين انهم قد بلغوا الى قمة الـلامعقول، انهم امام مواجهة تفتقد كل عناصر التواصل. ادركوا في تلك اللحظة أنهم امام أعداء للناصرية وهم، امام عالم اعتقدوا انه انتهى ولكنه، فجأة، يواجههم بكل كثافته. أضاف فتاح:

ـ «ماكنا نتصور نلاقي الشيوعيين في السجن»

قال اسماعيل:

ـ ماكنتوش تعرفوا ان عبد الناصر بيعتقل الشيوعيين؟ سنه ١٩٥٩ مثلاً؟»

قال سعيد بيه: «ابداً».

قال زكي وهو يتنهد بعمق: «احنا زيكو محتارين».

حتى الجناح الصيني شعر أنه من غير المعقول ان يكشف امام هؤلاء خلافاتهم مع الناصرية.

قال اسماعيل بصوت منخفض وهو يحني رأسه: «فعلاً مسألة تحيّر».

أدرك الضيوف انهم أثاروا حرجاً ووصلوا الى منطقة محرمة، فاستعدوا للانصراف.

بعـد انصراف الـوفـديين لم يعلق احـد على ماقيل. نهض البعض وأخذ يتمشى. تكونت مجموعات من أربعة أو خمسة يخمّسون سيجارة فيما بينهم. اسماعيل ذهب الى فراشه ومال على جنبه بعد ان غرز كوعه في البطانية المطوية على شكل وسادة، واخذ يحدّق في الفراغ، حسن تمدد على ظهره محدقاً في السقف بنظرة ثابتة. ايهاب ومصطفى يتمشيان في اتجاهين متعاكسين، يلتقيان في منتصف الطرقة ويفترقان. زكي يمسك قلماً وورقة ويحسب خسائر اليوم.

لم يقل أحد كلمة تعليق على الضيوف. كانوا خارج سياق عالمهم الى حد جعل السخرية منهم غير ممكنة. كان يخالط ذلك قدر من خيبة الامل: هذه هي البورجوازية المصرية ذات التاريخ العريق؟

نادى اسماعيل ايهاب ودعاه للجلوس. كان يحب ذلك المزيج من الوداعة والفوران الداخلي الذي ايهاب. كان يتحدث معه عن الادب والفن والماركسية. ايهاب كان يرى في اسماعيل أباً. قال اسماعيل بعد أن جلس ايهاب: «ملاحظ أنك مش طبيعي»

ـ «ازاي يعني»

قال اسماعيل: «ملاحظ انك قلق من يومين».

قال ايهاب ان ذلك صحيح. صمت اسماعيل تاركاً المجال لايهاب للبوح. قال ايهاب:

ـ «حاجة غريبة»

وحكى له عن زينب قال انه تذكرها البارحة فقط فاكتشف أنه يحبها. ابتسم اسماعيل وقال: «الحب من أول نظرة؟»

قال ايهاب: «مش عارف حاتسميه ايه. شفتها مرة واحدة، وتذكرتها مبارح بس، واكتشفت اني متيم، بالمناسبة كنت عايز ابعت لها سلام بس..»

قال اسماعيل: «بس ايه؟»

قال ايهاب ان مصطفى يعتقد أن ابلاغها السلام مجازفة. فقال اسماعيل:

ـ «مصطفى بيبالغ شويه»

ثم نظر الى ايهاب بوجه مشرق وقال: «حاتصرف»

قال زكي موجهاً حديثه الى اسماعيل: «مصروفنا اليوم فيه زيادة عن كل يوم ثلاثة وسبعين سيجارة واربعين قرش».

قال اسماعيل: «مسألة بسيطة. ماهوه كان لازم نعزمهم».

ثم عاد الى ايهاب. سأله ان كان قد تذكر زينب قبل ذلك، قال ايهاب: «ابداً» فقال اسماعيل لنفسه: «انه السجن»

* * *

تذكر مصطفى جرس الصوت، وفتش في ذاكرته عن صاحبه. تبرز وجوه وتختفي. ذلك الايقاع اللين الممطوط: «تقول مافيش ماعرفشي ايه في ايه، اقول لك: لا فيه» كلما استعاد جرس الصوت يبرز وجه تفيدة. من المستحيل أن يكون ذلك هو صوت تفيدة، صوتها قاطع سريع، عصبي، يفيض بحيوية وعنف. يكرر وجه تفيدة ظهوره، متخذاً طابع اصغاء وتبرز صورة اخرى: تفيدة وقد سقطت، وارتفع ساقاها عاريتان في الهواء. كان ذلك في حجرة الصالون. ثم يتذكر فيضحك ويتجه الى وليد المتمدد والمتكيء برأسه على الجدار. يبتسم له وليد ويقول:

ـ «مالك مبتهج يادرش»

يحكي له مصطفى عن ذلك الرجل الذي كان يسرع بسيارته قادما من ميدان الجيزة. كيف استوقفه لانه متأكد ان السفاح في البيت. لقد قال الرجل بصوته اللين الممطوط: «انت مصدق حكاية السفاح دي؟» صعدا الى الشقة سويا. كانت تفيدة تضع وسادة على وجه السفاح وتجلس فوقها.

عندما دخل مصطفى والرجل الشقة تخلص السفاح من الوسادة ومن تفيدة ـ التي انقلبت على ظهرها وارتفع ساقاها العاريتان في الهواء ـ واندفع السفاح هارباً.

كان وليد يعرف الحكاية.

قال مصطفى انه حاول تقبيل تفيدة فقالت: «ماتلمسنيش عايزة استحمى الاول».

ودخلت الحمام واستحمت. من داخل مصطفى انبثق الشوق الى تفيدة فأصبح لوعة. صمت.

كان وليد ينظر اليه، ثم قال: «مشتاق لتفيدة؟»

قال مصطفى: «موت» ووليد ينظر في وجهه كأنه مازال ينتظر اجابة على سؤاله. بادله مصطفى نظرته وقال:

ـ «بشكل غير معقول»

قال وليد:

ـ «وطبعاً مشتاق لسناء؟»

قال مصطفى وتوتره يدفعه الى النهوض:

ـ «مابعرفهاش علشان اشتاق لها».

الفصل الخامس

كانت الخلافات بين الشيوعيين والاخوان المسلمين تنتهي بعداء بارد مهذب. كان الشيوعيون في البداية يعتقدون انه بالامكان اقناع الاخوان بوجهة نظرهم من خلال النقاش، ومن خلال التأكيد ان الخلافات مقتصرة على الجوانب السياسية والاجتماعية. ولكن الاخوان كانوا يقودون النقاش الى المسائل اللاهوتية فيمتنع اي حوار.

عندما استيقظ الشيوعيون في هذا الصباح اكتشفوا ان الأخوان المسلمين قد فردوا عدداً من البطاطين على الأرض، وأخذوا يشكلون كلمات عليها، مستعملين القطن الطبي والغراء. بعد قليل اتضحت العبارات المكتوبة:

«يسقط الاخوان المسلمون العملاء» «لارجعية ولا اخوان ولا متاجرة بالاديان» «يعيش بطل العروبة جمال عبد الناصر».

كان منظراً جميلاً. اصبحت البطانيات لوحات بديعة التكوين. كانت المناسبة ان أحد كبار ضباط مباحث أمن الدولة سوف يزور السجن ويلتقي مع المعتقلين ليثقفهم بسياسة الدولة، فاعد له الاخوان هذه الشعارات.

قام اسماعيل وزكي ومصطفى بزيارة لقادة الاخوان. استقبلهم القادة بترحيب وقدموا لهم الشاي والسجاير. بدأ زكي الحديث. قال: «انتم تعلمون اننا نختلف معكم، ولكننا نعتقد ان كرامتكم يجب ان ترفض شعارات كهذه. وعلى كل حال فانتم لن تخدعوا السلطة. انها تعلم ان تنظيمكم مستمر داخل السجن، وسوف تعتقد انكم تحاولون خداعها.. ثم كرامتكم..

وتحدث اسماعيل: ان الانسان موقف، واذا تخلى عنه فهو ليس انساناً. انا اعلم أنكم تعملون بمبدأ التقية، ولكن هذا المبدأ لاينطبق على ماتفعلونه. التقية ان تخفوا اسراركم عن السلطة اما هذا الموقف فهو مكشوف امام السلطة ولن تكسبوا سوى اهدار كرامتكم.

اصغى الاخوان برؤوس منكسة دون ان يعلقوا بشيء وعندما انتهى الشيوعيون من الكلام تبين لهم ان كل مافعلوه كان دون فائدة. لم يكن بالامكان اختراق سوء النية لدى الاخوان. ابتسموا للشيوعيين الثلاثة وشكروهم على نصيحتهم. واعلنوا موافقتهم عليها، ولكن المسألة ليست بأيديهم. فلم يجد الشيوعيون مايفعلونه سوى الانصراف. ودعهم قادة الاخوان بحرارة وشيعوهم حتى الباب. اندهش الشيوعيون عندما رأوا بين مودعيهم الدكتور محسن صالح.

محسن صالح كان أستاذاً في كلية الهندسة بجامعة القاهرة. اعتقل عام ١٩٦٦ عندما قامت السلطة باعتقال الاخوان بعد محاولة اغتيال رئيس الجمهورية، وقلب نظام الحكم. ورغم دماثة محسن الظاهرية فقد كان يتحول الى انسان استفزازي شديد العصبية عندما يتناقش مع الشيوعيين. خطا خطوة جديدة في عدائه للشيوعيين، وكان ذلك في اواخر أيام شهر رمضان. كان قد تطوع أن يشرف على توزيع طعام السحور. كان ذلك يعني أن ينهض في الساعة الثانية صباحاً، في البرد الشديد، ويوزع الطعام على حوالي عشرين عنبراً.

ليومين متتالين اكتشف الشيوعيون أن مخصصهم من طعام السحور لم يصل. وهكذا ذهبت لجنة الحياة العامة لمقابلة ادارة السجن. قابلوا مدير المعتقل شخصياً وحكوا له، فأبدى دهشته. قال إنه لايوجد أمر بمنع السحور عن الشيوعيين ثم التفت الى الرائد فتحي، الذي كان حاضراً، وسأله ان كان أمر بهذا الخصوص قد صدر، فنفى ذلك بحسم. قال مدير السجن ان شيئاً كهذا لم يحدث في تاريخ السجون كلها.

استدعي محسن فدخل بوجه قاتم. سأله المدير:

ـ «فيه حد اصدر لك امر بمنع السحور عن الشيوعيين؟»

قال محسن: «طبعاً فيه»

سأله الرائد فتحي: «مين؟»

قال محسن وهو يضع يده على الجانب الايمن من صدره: «ضميري»

قال اسماعيل: «قلبك في الجهة اليسرى»

واصل محسن حديثه دون أن يلتفت الى اسماعيل قال انه راقب الشيوعيين لثلاثة أيام فاكتشف انهم مفطرون، فقرر ان يمنع السحور عنهم. قال له الرائد فتحي: «ولكن هذا ليس من حقك». قال ان من حق من رأى منكراً ان يقوّمه.

قال اسماعيل: «لايجوز عقاب المفطر إذا أفطر سراً»

قال محسن: «السجن مكان عام».

فقد المدير اعصابه وقال: «حاسجنك انفرادي» والتفت الرائد فتحي الى أعضاء اللجنة وهمس: «مخه ضارب».

* * *

بعد ذلك الاستقبال الحاشد الذي اعده المعتقلون ـ باستثناء الشيوعيين ـ لضابط المباحث، العقيد رفقي، بدا ان تغيراً غير مفهوم اخذ يطرأ على محسن. ابتعد عنه الاخوان وخارج العنبر كان يشاهد وهو يسير وحيداً يسير في الطرقة الواسعة ساعات طويلة دون ان يكلم أحداً. حاول الشيوعيون ان يتحدثوا اليه. كان يصغي اليهم دون ان يقول كلمة واحدة، ثم يستدير فجأة ويمضي. كان يمكن أن يكون أخرس.

وشاع الانحلال في مظهره. اصبح لايحلق لحيته ولايعتني بها فنمت نمواً هائلاً. كما ان ملابس السجن البيضاء الخشنة قد استحال لونها الى بني اسمر. المثير للدهشة كان عيناه. أصبحتا مشتعلتين

حادثين، لاتركزان على شيء محدد فبدا، وهو ينطلق مسرعاً في الطرقة، كأنه يندفع الى المشاركة في عراك. وعندما يسأل أحد الاخوان عما حدث لمحسن ينكرون ان أي تغيير قد حدث له. يقولون: «دقنه؟ مالها؟ كل الناس بتربي دقون».

ثم أخذ محسن يربي الارانب. لا أحد يعرف كيف جاء بها، وكيف وافقت ادارة المعتقل على ذلك. شوهد في البداية قفص فيه ارانب في الحديقة الصغيرة الواقعة قرب دورة المياه. ثم تكاثرت الأرانب والاقفاص.

أصبحت الارانب كل همه. يشمسّها، ويطلقها لتأكل العشب، وعند العصر يجمعها ويدخلها الاقفاص. وأصبح المعتقلون يسمعون صوته وهو يناقش الحراس وادارة المعتقل بشأن طلباته المتعلقة بالارانب. كانت طلبات غامضة، بالنسبة الى المعتقلين، ولكنه يلح عليها. كان يُرى وهو يمسك بأحد الحراس من ذراعه وهو يكلمه بلا انقطاع عن احتياجات الارانب، والحارس يحاول ان ينفلت من قبضته القوية، وقد تقلصت ملامحه من الالم والغضب، ثم ينتزع نفسه بقوة متمتماً: «وانا ناقصك ياابن المجنونة».

عندما اقترب الصيف وضعت ادارة المعتقل جهاز تلفزيون في الحديقة الصغيرة. كان يبدأ بثه بعد اجراء التمام وتوزيع العشاء، فتظل أبواب العنابر مفتوحة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. كان الزحام في البداية شديداً. لم يكن يجد الكثيرون مكاناً للوقوف. ثم خف الزحام، فيما بعد، واقتصر الكثيرون على مشاهدة الافلام ونشرة الأخبار.

في البداية لم يلاحظ أحد أن محسن كان يغطي أقفاص الارانب، في ساعات البث التلفزيوني، بقطع من الخيش وان محسن لم يكن ليشاهد برامج التلفزيون. ثم تسرب الخبر وشاع: محسن يعتقد ان مشاهدة التلفزيون حرام، وهو لايمتنع عن مشاهدته فقط، بل يمنع الارانب. وهذا سبب وضع الخيش على الاقفاص.

في احدى الليالي اخرج أحد المعتقلين أكبر الأرانب حجماً من قفصه، وجعله يشاهد برامج التلفزيون. في صباح اليوم التالي حكى معتقل آخر لمحسن ما حدث، فسأل: «أي أرنب؟» فقال له المعتقل: «الأرنب الكبير» اخرج محسن الأرنب من القفص وأخذ يضربه بمسطرة ضربات متتالية على قدميه الاماميتين. تجمع عدد كبير من المعتقلين حوله. البعض كان يبتسم، وآخرون حاولوا تخليص الأرنب من بين يديه وهم يرفعون أصواتهم: «خاف ربك يادكتور» «دا حيوان مسكين مالوش ذنب» وزعق أحدهم: «دا جنان بصحيح».

ولكن محسن كان يقاومهم بشراسة، وعيناه تبرقان بضوء غريب وخلال ذلك يصرخ بهم: «سيبوني ياكفره، يافجرة..»

قال أحد الواقفين: «مش كده ياأخي»

فرد عليه: «أنا عايز اخلي الأرنب عبره لكو، ياكفار، يافجرة»

قال أحد المشاهدين: «سيبوه دا مخلّص»

وكأن الجميع كانوا ينتظرون سماع تلك العبارة لينفضوا من حول محسن.

***

آلاف المعتقلين السياسيين تجمعوا في ساحة المعتقل الكبيرة، التي تفصل ادارة المعتقل عن العنابر. نصف الحضور كانوا من الأخوان المسلمين والوفديين والشيوعيين اما النصف الآخر فقد ضم معتقلو البراءات. ومعتقلوا النشاط المعادي. معتقلو البراءات هم الذين حوكموا أمام محاكم أمن الدولة وصدر الحكم ببراءتهم. جلس المعتقلون على الارض صفوفاً صفوفاً على عرض الساحة.

كانت الساحة محاطة بأشجار فاكهة وأخرى عملاقة غير مثمرة، تمتد لصق سور المعتقل العالي العريض، الذي يسير الحرس فوقه ويتبادلون النداءات، أو يجلسون في أكشاك مقامة فوق السور. أرضية الساحة كانت مغطاة بالرمل الاصفر.

على أرض مرتفعة تطل على الساحة وضعت طاولة كبيرة جلس خلفها ضابط المباحث العقيد رفقي. على يمينه كان يجلس قائد المعتقل، وعلى يساره كان يجلس الرائد فتحي. رفقي كان يرتدي الملابس المدنية. كان أمامه مايكروفون. أخذ شخص يرتدي ملابس مدنية ينقره بسبابته فتصدر عنه أصوات كأنها ضربات طبل، ثم اقترب بفمه من المايكروفون وأخذ يردد: «واحد اثنين ثلاثة أربعة..»

ثم التفت الى ضابط المباحث وقال بصوت سمعه جميع الحاضرين:

ـ «شغّال يافندم»

خلف الجالسين الثلاثة كان يقف عدد من حراس السجن، وثلاثة رجال يرتدون الملابس المدنية، من الواضح انهم جاءوا مرافقين لضابط المباحث. كانت عيون الثلاثة تنتقل بين المعتقلين بسحنات غاضبة منذرة، فبدوا وكأنهم يمثلون دور الحراس في مشهد سينمائي.

تنحنح العقيد ثم قال: «أيها الأخوة المواطنون».

فكر ايهاب أن الضابط يحاول تقليد عبد الناصر عندما يخطب. وتوقع أن يسمع خطاباً له مظهر ثقافي براق قال لنفسه: عقدة هؤلاء الضباط هي ان يبرهنوا انهم مثقفون: لهذا السبب ينتسب المئات منهم للجامعة.

كان رفقي قد توقف وأخذ يطالع بتكشيرة صارمة الشعارات التي يرفعها الاخوان المسلمون. تفحصها بعض الوقت ثم ابتسم فانفجر التصفيق.

واصل الضابط خطبته مهاجماً الاخوان المسلمين «الذين يتسترون بالدين والدين منهم براء» وطالبهم ان يعودوا الى الطريق القويم. ثم تحدث عن الاشتراكية وقال انها جاءت في القرآن، وعن توزيع الأرض على الفلاحين المعدمين، وتوزيع الأرباح على العمال. ذكر مؤامرات الاستعمار ضد مصر، وطالب المستمعين «في هذه المرحلة المصيرية» ان يلتفوا حول الرئيس جمال عبد الناصر. بمجرد ذكر عبد الناصر انفجر التصفيق.

كان الخطاب يفتقد ذلك الدفء الذي يجعل المستمع يشعر وكأن الحديث موجه اليه شخصياً، اذ كان صوت الخطيب مرتفعاً ودون تلوين، كأنه يوجّه أوامر الى شخص يقف بعيداً عنه. رتابة الصوت الزاعقة جعلت ايهاب عاجزاً عن المتابعة.

أخذ ايهاب يتأمل وجه الخطيب. كان وجهاً كبير التقاطيع يوحي بأنه منحوت من خشب ثقيل

صلب بني اللون. جذب انتباهه الذقن الكبير القوي والانف المدور الذي بدا بصلابة الصخرة. كانت تفاصيل الوجه تقود الى العينين. كانتا تكمنان بعمق بين التكوين الصخري المرتفع للجبين والوجنتين البارزتين. كانت عينا ميت، بجفونهما الذابلة، لايُرى الا سوادهما، وقد كان سواداً منطفئاً ميتاً، كأن صاحبهما كفيف. كانتا في ذلك الوجه القوي كأنهما عينا رجل آخر، ذي تكوين هش، مريض. تلك كانت مفارقة مفزعة بعثت الرعشة في جسد ايهاب. واليد، تلك اليد الكبيرة، الخشنة، باصابعها الغليظة، الطويلة، التي تفتقد المرونة والحساسية، بدت مهددة، ساحقة، على أهبة الصفع. كان يرفعها، موجهاً كفها الى الجمهور كأنه يطالبه بالصمت رغم ان الصمت كان شاملاً.

يتذكر ايهاب، في تلك اللحظة، الوجوه التي رآها في مقدمة جنازة لواء في الشرطة. كان ايهاب يجلس في مقهى ريش، وكانت الجنازة تسير ببطء، قادمة من ميدان التحرير. كان لوجوه السائرين في مقدمة الجنازة هذا الطابع. التكشيرة الحديدية على تلك الوجوه كان من المفروض ان تعبر عن الحزن والتقوى. الوجه الذي اجتذب انتباهه كان له فك ضخم، ولجسده السمين، القصير، البطيء الحركة رسوخ الصخر. ثبت الوجه في ذاكرة ايهاب وتحداه أن يوضع في كلمات.

كان الخطيب يتحدث عن الاشتراكية يقول انها مؤمنة بالله، والاديان السماوية والوطن. وانفجرت الكلمة في رأس ايهاب: «القسوة» وجه ينطق بالقسوة. فرح بها. ولكن صورة الوجه عادت اليه، كأنها لم توصف بعد. ذلك الفك الهائل والوجه الراكد الثقيل الذي يستحيل التواصل معه، الذي يطلق اشعاعاً متصلاً قاتماً من طاقة شريرة. . هل له زوجة يحبها واطفال يحنو عليهم؟ من المستحيل تصور ذلك. وصف القسوة لايكفي. هنالك صفة أخرى تجسده، يحس بها على طرف لسانه، ولكنها تراوغه.

في اللحظة التي قرر فيها ايهاب متابعة الخطاب، كان الخطيب يختتم كلماته: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وانطلق التصفيق مدوياً.

اخترق الساحة، ماراً بين الأجساد المقرفصة رجل نحيل طويل، يرتدي ملابس المعتقلين البيضاء، يسير بحيوية مدهشة نحو المنصة. طالعه قائد المعتقل بعبسة، والرائد فتحي بابتسامة اما ضابط المباحث فقد كان ينظر بتحفز كأن الرجل ينوي الانقضاض عليه. كان الرجل هو سعيد بيه الوفدي. مال ضابط المباحث نحو قائد المعتقل وهمس له، فالتفت قائد السجن وهمس للضابط، فجاء صوت الضابط عبر المايكروفون يقول: «مافيش مانع»

وحمل المايكروفون ومدّه الى سعيد، الذي اقترب وهو يبتسم، ثم تناول الجهاز واحنى رأسه وقال من خلاله: «شكراً ياسيادة العقيد».

كان نوعاً جديداً من الخطباء لم يتعوده ايهاب، ونسيه الذين عاصروا مرحلة ما قبل حركة يوليو. لقد استعاد تلك الجزالة اللفظية، التي تبهر السامع، دون أن تقول شيئاً محدداً. كما كان للخطيب تلك القدرة على التحكم في المستمعين بحيث يجدون انفسهم مرغمين على التصفيق عند نهاية كل جملة. ورغم طول خطابه فان مضمون خطبته كان كما يلي: لقد ايدنا مصطفى كامل عندما قادنا ضد الانجليز، ولنفس السبب ايدنا سعد زغلول ومصطفى النحاس. واليوم، وبأعلى اصواتنا نقول لجمال عبد الناصر، الذي اخرج الانجليز، وحارب العدوان الثلاثي وأمم قنال السويس، نقول له: سر

ونحن وراءك . نحن جنودك المخلصون ، لم نخن العهد يوماً ، ولا مددنا ايدينا لمستعمر .

وانهى خطابه بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وقبل ان يهبط فاجأ الجالسين على المنصة بذراعه الممدودة ، فصافحوه والمفاجأة في وجوههم .

ساد صمت انشغل العقيد خلاله بتقريب المايكروفون منه ، ثم قال :

ـ «الاخوان المسلمين . مافيش حد عايز يتكلم؟»

حدثت ضجة في الصفوف الامامية . كان عدد من المعتقلين يتزاحمون ، وارتفعت صرخة تلتها أصوات مختلطة . ثم حدث نهوض عام يرافقه دوي الاسئلة والتعليقات . كان كل معتقل يحاول أن يعرف حقيقة مايحدث ثم شاهد الجميع الدكتور محسن يرتفع في الهواء ثائر الشعر ، يصرخ بشيء غير مفهوم ، ثم يهبط الى الارض ثانية ويختفي وسط مجموعة متماسكة ، متداخلة . غاب محسن للحظات لينبثق مرة أخرى كالزنبلك ، ويسرع في اتجاه المنصة . ولكن المجموعة احاطت به مرة أخرى واخفته عن الانظار .

العقيد فهم مايدور على طريقته الخاصة . تصور ان الاخوان المسلمين يمسكون بمحسن لمنعه من التعبير عن تأييده للدولة . اكتسب وجهه صرامة اضافية فأصبح شبيهاً بالوجوه الغاضبة في الصور الكاريكتيرية صرخ :

ـ «سيبوا الراجل يعبر عن نفسه»

لم يكن الصراخ يناسب صوته ، فخرجت الصرخة نحيلة حادة كأنه يستغيث . مال قائد المعتقل وهمس له شيئاً . بدت الدهشة على وجهه ، ونهض . اعلن انتهاء الاجتماع وانصرف محاطاً بقائد المعتقل وفتحي والحراس الذين كانوا يقفون خلفه .

قال أحد حاملي البطانيات المزينة بالشعارات :

ـ «الراجل المجنون بوّظ كل حاجه»

وصرخ أحد المعتقلين : «ابن المجنونة عطّل الافراج»

رغم انصراف ضابط المباحث ، ورغم أن حراس السجن قد أخذوا يدفعون المعتقلين في اتجاه العنابر ، الا أن المعركة استمرت بين محسن والمحيطين به . كان يبرز للحظات دامي الوجه ، ممزق الثياب ، ثم يختفي مرة أخرى وراء أجساد مصارعيه .

الفصل السادس

الكابوس الذي يعيشه نزيل المعتقل هو انه لايعرف متى يتم الافراج عنه. قد يستمر اعتقاله شهراً وقد يمتد عشر سنوات او اكثر. لايوجد هنالك أي معيار يحدد مدة اعتقاله. هنالك معتقل اسمه محمد الحلبي، اعتقل لأنه يحمل نفس اسم رجل مطلوب القبض عليه. وقد تكرر اعتقاله، ولنفس السبب. بعد مرور حوالي سنة على اعتقال محمد الحلبي رقم واحد تم اعتقال المطلوب الاصلي، ووضع في نفس عنبر الحلبي المعتقل خطأ. اتصل هذا الاخير بادارة السجن وأخبرها بوضعه. ردت الادارة عليه انها لاتستطيع ان تفعل شيئاً. كتب عريضة يشرح فيها الوضع فرفضت ادارة السجن قبولها. قالت: ممنوع قبول عرائض المعتقلين.

في أحد الأيام حدث اللامعقول صدر أمر بالافراج عن المطلوب الاصلي، وظل الحلبي رقم واحد قيد الاعتقال. فقد الرجل اعصابه. أخذ يروي حكايته لكل من يلقاه حتى عرفها الجميع وتوقفوا عن الحديث عنها. وعندما أبدى المعتقلون ضيقاً من سماع حكايته المكررة أخذ يحكيها لنفسه. يشاهد سائراً في الطرقة وهو يتحدث الى نفسه ويكثر من الاشارات بيديه.

كان الرجل نوعاً من النذير يسكن قلب كل معتقل في العمق. يحاول الجميع نسيان هذا الهاجس بالحركة الجسدية الدائبة. وبالاستغراق في المشاكل اليومية. ولكن في فترة الغروب، التي تسبق موعد التمام، يسود الصمت في المعتقل. يُرى المعتقلون يسيرون في الطرقة فرادى صامتين، في وجوههم سهوم. وفي الداخل يتكرر سؤال كل يوم: متى تجيء نهاية هذا الكابوس الرتيب؟ كانت هذه الأسئلة تنسحب على حياته المقبلة في الخارج.

صورة الخارج في المعتقل صورة عالم يدير للسجين ظهره عالم تغيرت عواطف الناس وعلاقاتهم فيه. بيوت الاصدقاء والاقارب تبدو وكأنها هُجرت وحل فيها اناس غرباء. القاهرة نفسها تبدو وكأنها أصبحت مدينة أخرى لاتتعرف على السجين وتنفيه عنها.

في ساعات الليل الاولى، عندما يحشر المعتقلون في عنابرهم وتغلق عليهم الأبواب، يتحول هذا الاحساس الباهظ الى حنين رقيق، يشارك فيه الجميع، ويتخذ مسارب محددة. البرنامج المحدد لسهرة الشيوعيين هذه الليلة هو ان يروي كل واحد ماينوي ان يفعله في اللحظة التي يغادر فيها وزارة الداخلية ويصبح حراً. قال وليد أنه سيركب أول سيارة أجرة ويتجه الى البيت. قال ايهاب باستنكار:

- «مش حاتتمش في الشارع تشوف ايه اللي حصل في الدنيا؟»

قال وليد: «حاشوف الشارع من شباك التاكسي. وانت ياايهاب؟»

قال ايهاب:

- «انا؟ حاشتري علبة سجاير بحالها، علبة سجاير بحالها يارجاله واقعد على ايسائيفتش واشرب أربع كبايات شاي. مش واحدة ورا التانية. لا اصفهم جنب بعض».

قال مصطفى: «مش الاول تغير هدومك وتستحم؟».

قال ايهاب: «السجاير أولاً، ثم الشاي. والباقي ملحّق عليه»

ثم تسربت الاحلام في جو المزاح: «الاستحمام، ارتداء الملابس النظيفة، الشاي والسيجارة. وسئل المتزوجون: «وبعدين؟» ويسود الضحك. كلهم تحدثوا عن القاهرة وكأنها مدينة مألوفة، ولكنهم، في داخلهم، يرونها مدينة غريبة يدخلونها كسائحين.

عندما تنتهي السهرة تتكون مجموعات صغيرة، متآلفة تصبح الأحاديث اكثر رقة، وتفيض الاشواق بلا تحفظ، يحكون حكايات صغيرة تبدو باهرة الجمال، وفي الداخل دهشة: أي عالم جميل كنا نعيش فيه! هل كنا نعيش حياة كهذه؟ يخنقهم التوق والندم فيبدأون مسيرتهم في ذلك الممر الضيق الذي يفصل بين الاجساد النائمة، يسترجعون فيها الذكريات وأحلام اليقظة.

في الصباح يكون المعتقلون اكثر تفاؤلاً. تنتشر بينهم اشاعات عن افراج قريب، يصدقونها دون نقاش. هنالك مجموعة تتصف بالتفاؤل المزمن. عدلي مثلاً، بجاكتة السجن البيضاء، المصنوعة من قماش اشرعة المراكب الخشن، التي بدون اكمام ودون ياقة (الوورد روبه) وبجسده القصير المدكرك، يقف تحت شمس الصباح يتدفأ. يبتسم لايهاب، فتشيع الابتسامة في وجهه كله، مالئة اياه باخاديد عريضة، براقة كالذهب، ويهمس: «مبروك»

يغمر ايهاب شعور باللهفة يقول: «مبروك على ايه؟»

تتحول ابتسامة عدلي الى لهفة تكشف عن اسنان منسقة ويقول:

- «مبروك على الافراج»

- «افراج؟ امتى؟»

يقول عدلي: «اقرب مما تتصور»

ويضحك ثم يضيف انه علم ذلك من أحد ضباط ادارة المعتقل، ولكنه لايستطيع ذكر اسمه ويرجو ايهاب الا يشيع هذا الخبر. يقول ايهاب:

- «اذن المسألة جد»

يقول عدلي:

- «جد بس ماتقولشي لحد»

- يهمس ايهاب بالخبر للكثيرين. عند الظهر يقترب منه احد المعتقين الاخوان ويهمس:

- «افراج قريب ومؤكد بس خلّي الكلام في سرك»

في صباح احد الأيام اكتشف الشيوعيون ان الوفديين قد حزموا امتعتهم وكدسوها في الممر، امام باب عنبرهم. كان بعضهم يجلس فوق امتعته، وآخرون يقفون صامتين، والبعض يتحدث مع

المعتقلين. كان جميعهم قد حلقوا ذقونهم. اقترب اسماعيل من فتّاح وقال:

- «خير ان شاء الله؟»

قال فتّاح:

- «خير باين فيه افراج النهار ده»

سأل اسماعيل: «حد بلغكم؟» لأن الافراج عادة يذاع من مايكروفون السجن فيسمعه جميع المعتقلين ولأن من يعلن الافراج عنه يستدعى الى ادارة المعتقل. قال فتاح:

- «لا بس النهار دا الثلاث واربعة في الشهر»

قال اسماعيل:

- «ايوه ايوه حلم سعيد بيه»

- بعد دخول الوفديين المعتقل بحوالي اسبوعين حلم سعيد بيه بأنه يشاهد تقويماً معلقاً على الجدار، كتب على صفحته: «يوم الثلاثاء، ورقم أربعة بخط واضح. ولم يكن لهذا الحلم، بالنسبة للوفديين، الا معنى واحداً، وهو أنه سيفرج عنهم عندما يوافق يوم ثلاثاء الرابع من الشهر. وعندما جاء هذا اليوم اعتبروا الافراج عنهم مسألة يقينية. ولهذا استمروا يقفون قرب امتعتهم. وقد اقتنعوا بهذا الى حد أنهم استعادوا الملامح التي كانوا يعيشون بها في الخارج فأصبح سعيد بيه متحفظاً في حديثه مع المعتقلين. ينظر بعيداً عندما يكلمونه، اما فتاح فقد أصبح عصبياً وصفع مرسي، الذي اعتقل مع الوفديين وكان شبه خادم في حجرتهم.

عند الغروب أخذ الحراس يصرخون في الطرقة: «التمام» دخل الجميع عنابرهم باستثناء الوفديين. اقترب منهم الحارس صالح عدواً وصاح: «التمام» قال سعيد:

- «فيه افراج»

فصرخ صالح:

- «افراج بتاع ايه؟ خش انت واياه»

ولكنهم الحوا على موقفهم. فانصرف عليوه وعاد بصحبه احد ضباط الادارة. امرهم بحزم ان يدخلوا ويستعدوا للتمام قال فتاح: «فيه افراج ياسيادة الرائد»

قال الضابط:

- «بطّلوا كلام العيال دا وادخلوا»

قال سعيد بيه: «فيه افراج مؤكد»

فأخذ الضابط يزعق: أي افراج هذا الذي يعرفه المعتقلون ولا تعرفه ادارة المعتقل. دخل الوفديون عنبرهم. وبعد انتهاء التمام بساعة، والعشاء يوزّع في حجرة الشيوعيين، سُمع خبط على باب عنبر الوفديين، وأصوات تصيح من داخل عنبرهم: «ياشاويش» انفتح باب عنبر الوفديين. بعد قليل انفتح باب عنبر الشيوعيين وأطل عليوه وقال:

- «عايزين دكتور لعنبر الوفديين»

كان هنالك ثلاثة اطباء بين المعتقلين الشيوعيين. نهض أحدهم وتبع الحارس. استمر

المسؤولون عن توزيع الطعام في تنقلهم بين المجموعات. اما الجالسون فقد كانت عيونهم مركزة على باب العنبر المفتوح، حتى وهم يتحدثون أو يصغون الى الحديث. كان البعض يعودون الى طعامهم بعد أن يطلقوا تنهيدة. قال زكي: «الجماعة أعصابهم تعبانة»

لم يكن يوجه كلامه الى احد بالتحديد. انطلقت ضحكات متفرقة. كان الجميع يتصورون ان هنالك شيئاً مضحكاً جداً يحدث في تلك اللحظة في عنبر الوفديين.

عاد الدكتور محمد بعد وقت قصير. كان يحني رأسه ويبتسم. قال رداً على الأسئلة التي انطلقت: «مافيش. سعيد بيه اغمي عليه» ثم جلس بجوار مصطفى وهمس له:

- «وصلت رسالة»

* * *

الرسالة القادمة من الخارج حدث مثير، تعيد صلة المعتقلين بالعالم، فينتفي ذلك الاحساس بالهجر، بعالم ادار ظهره لهم ونسيهم. وهم يقرأون الرسالة المرة بعد المرة باعتبارها رموزاً واشارات الى احداث وظروف بالغة الأهمية. يتم التركيز على عبارة قالها مسؤول، أو حكاية منسوبة الى شخص مطلع، أو احتجاج صدر عن شخص ما، وكلها تشير الى افراج قريب.

بهذا يصبح العالم الخارجي ملخصاً في مسؤولين يدرسون قضيتهم، وفي أصدقاء، لهم شأن يمارسون ضغوطاً متصلة على المسؤولين. يقارعونهم بالحجة الدامغة حتى يتم الافراج والمسؤولين يعدون.

كانت الرسائل في العادة اخباراً عن عائلات المعتقلين. فهنالك نقود يتم التبرع بها وتوزيعها عليهم. من يدفع؟ من يجمع؟ من يوزع؟ ذلك كله متروك للمعتقلين ليخمّنوه

وهنالك أخبار عن وفود نسائية مشكّلة من عائلات المعتقلين، تقودها نوال، لمقابلة المسؤولين في الاتحاد الاشتراكي وفي بعض الأجهزة الأخرى. تدور مناقشات طويلة يخرج منها الوفد النسائي منتصراً ويعد المسؤولون بالافراج المؤكد.

ومالم تقله الرسائل ان معظم هؤلاء المسؤولين لايعلمون شيئاً عن موضوع المعتقلين، وان غالبية ردودهم الاولى تعبر عن الدهشة يقولون: «شيوعيين معتقلين؟ دول افرج عنهم سنة (١٩٦٤) بعد زيارة خروشوف لمصر» ثم يطلبون أرقاماً غامضة ويستفسرون عن موضوع الشيوعيين المعتقلين فيقال لهم انهم مجموعة متطرفة، ترفض حل نفسها. يعرض المسؤول نتائج استفساراته فيقوم الوفد النسائي بالتوضيح: ليست المسألة كذلك وانما الخ.. فيعدهم المسؤول بدراسة الموضوع. وفي الزيارة التالية يكون المسؤول قد نسي الموضوع كله، فيبدأ الشرح من جديد. ولكن الوفد النسائي والمعتقلين لايستطيعون ان يتصوروا عالماً غير منشغل بهم كلية.

* * *

الجميع قد عرفوا أن رسالة قد وصلت (عدا، بالطبع، مجموعة صغيرة توصف بأن شكوكاً تدور حولها) ولكن الرسالة لن تفتح الا بعد انتهاء السهرة. السهرة مخصصة في تلك الليلة لمباراة في القصة القصيرة، يعقبها رواية لفلم سوفييتي شاهده احد المعتقلين.

أجريت المباراة بعد انتهاء العشاء بنصف ساعة. نال ايهاب الجائزة الأولى. كانت سيجارتين ونصف كباية شاي. ثم حكى فهمي الفلم رجل غريب يدخل مزرعة جماعية سوفييتية. يلاحظ مسؤول المزرعة ان الرجل قد ضرب احد الاحصنة فاخذ يشك فيه. لايمكن لانسان شريف ان يضرب حصاناً بلا سبب. ثم تقوم الحرب ويجتاح النازيون مناطق من الاتحاد السوفييتي تقع تلك المزرعة ضمنها. شبان المزرعة ينضمون الى الانصار ويكشف الغريب عن هويته باعتباره جاسوساً نازياً. يقرر الانصار تصفيته لأنه يعرف كل رجال المزرعة. يتم ذلك بخطة بارعة.

أعلن منصور انتهاء السهرة وذكّرهم ان سهرة الليلة القادمة سوف تكون محاضرة عن الادب الشعبي يعقبها نقاش.

قرأ مصطفى الرسالة وهو يخفي رأسه بالبطانية، الخط خط نوال. ولكن هنالك مسألة شديدة الغرابة. تقول الرسالة ان جان بول سارتر قرر ان يصدر عددين من مجلته (الازمنة الحديثة) عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي وقد أصدر بالفعل عدداً عن وجهة النظر الاسرائيلية. وقد قرر ان يصدر عدداً عن وجهة النظر العربية ويزور مصر لهذا السبب. قالت الرسالة ان سارتر قد أعلن أنه لن يزور مصر وفيها مثقفون تقدميون معتقلون، وان موقف سارتر هذا يسبب احراجاً كبيراً لمصر. قال مصطفى لنفسه: «هل هذا معقول؟» أعطى الرسالة لوليد وقال: «اقرا» وهو يشير الى تلك الفقرة الغريبة. قرأ وليد الفقرة وقال: «مش معقول» ثم اضاف وهو يتفحص الرسالة: «دا خط نوال» ثم أعادها الى مصطفى.

واصل مصطفى قراءة الرسالة، هنالك أخبار عن عرائض رفعت للمسؤولين وعن مقابلات أجريت، وعن وعود قاطعة، أخبار عن عائلات المعتقلين لها طابع فكه. خطر لمصطفى ان أخبار تفيدة تحتل جزءاً كبيراً من الرسالة. مازالت نوال تعتبرها ظاهرة طريفة. ثم مد الرسالة الى وليد وطلب اليه ان يعطيها لاسماعيل بعد ان ينتهي من قراءتها. ودارت الرسالة دورة كاملة.

بعد قليل عرف كل نزلاء عنبر الشيوعيين، بما فيهم اولئك الذين تدور حولهم الشكوك، ان سارتر قد اشترط لمجيئه الى مصر ان يفرج عنهم. احسوا بقرب العالم الخارجي حد الملامسة وحدث انتعاش عام وذهب النعاس عن اشدهم رغبة في النوم.

الفصل السابع

عندما يمارس ايهاب احلام اليقظة يتخذ وضع الجنين في الرحم. يغطي رأسه بالبطانية، يطوي ساقيه، ويلغي الاصوات والضوء والروائح ويحلم. ينتظر حلم اليقظة ليأتي من تلقاء نفسه. يستعيد الصوت: «لاكتويل» ثم تنساب الفتاة بثوبها الابيض السابغ الطويل، نصف طائرة، شعرها الكثيف الطويل محلولاً يتداخل ويطير بحياة خاصة به. تقبل من عمق الشاشة رشيقة، طويلة، طائرة عبر ضباب ملوّن، تمسك خصلة من شعرها، ترفعها، وكأنها تحرض النسيم على العبث بها، فيفعل، تتطاير الخصلة، ثم تعاود الالتحام بالشعر، تهمس: «لاكتويل».

الصوت هامس، مبحوح، كأنه الصرخة المختنقة لامرأة تمارس الجنس باستمتاع هائل. هذا الصوت ينخر في عظامه، يجعل جسده كله رغبة. صوت له ملمس يتخلله. وعندما يرتفع صوت الرجل من الخلفية، والفتاة ماتزال طائرة وسط الضباب الملوّن ويأمر الرجل باستعمال شامبو لاكتويل «يجعل شعرك اكثر نعومة ويمنع التقصف» فان ايهاب يكون قد احتاط للامر اذ يركز على ذلك الصوت المشحون بالرغبة.

في كل ليلة يشاهد ايهاب اخبار الثامنة والنصف في التلفزيون، ثم الاعلانات. الاعلان عن شامبو لاكتويل يأتي في هذه الفترة. يتراجع العالم حوله ويظل هو والصوت. في كل مرة كان الاعلان ينتهي بأسرع مما توقع.

في أحلام يقظته يحاول متعمداً أن يتذكر زينب. يستحضرها فيأتي صوت فتاة الاعلان ويلغيها. تبرز الفتاة بجسدها الشامخ وثوبها الابيض الطويل، الذي تجذبه الريح الى الوراء، وتظل زينب نقطة ثابتة في مكان معتم. تصبح الفتاة خلفية لحلم يقظة جنسي مع امرأة غير محددة. يستعير الحلم صوت الفتاة وألوان الضوء في حجرة مسدلة الستائر ويدخل في لحظة الخدر التي تسبق النوم. قبل دخول التلفزيون الى السجن كانت زينب هي موضوع أحلام يقظته. يحكي لها ماحدث له منذ ساعة اعتقاله. يحوّر ويختزل ويضيف للأحداث حتى يجعلها مشوقة. ولكن فتاة الاعلان حلت مكان زينب، فأصبح تذكرها نوعاً من الواجب.

التحم الصوتان بمزيج له طابع الفضيحة. صوت مشحون بالرغبة وصوت اسماعيل يناديه: «ايهاب نمت؟» قال: «لسّه» ونهض وسار نحو اسماعيل. عندما جلس همس له اسماعيل: «زينب

عليك» وأخرج الرسالة ووضع اصبعه على فقرة منها، فقرأ ايهاب:

«وقد تعرفت على زينب. بنت حلال. كانت سعيدة جداً بسلام ايهاب وقالت: مع انها لم تره الا مرتين فانها تفكر فيه كثيراً، وتنتظر خروجه. ترافقنا في زيارات المسؤولين وتقول ان خطيبها معتقل».

كاد ان يقول لاسماعيل انه رآها مرة واحدة، لا مرتين، ولكنه استدرك نفسه. هجم عليه حب زينب فجأة ولم يعد يطيق الجلوس. نهض وسار. التفت خلفه. كان قد ابتعد عن اسماعيل فاقترب منه وقال: «شكراً» ابتسم اسماعيل ثم تمدد واغمض عينيه.

كان مصطفى يسير في نفس الطرقة عندما واجه ايهاب. همس له:

- «جائزة القصة ورسالة غرامية كتير في يوم واحد»

وافترقا. السؤال الذي كان يطرح نفسه على مصطفى هو: هل نحن في مأزق؟ كلما ازداد معرفة بالخط الصيني، وتفاصيل السياسة الصينية كلما ازداد نفوره: الملّونون ضد البيض، تأييد مذابح الشيوعيين في العراق، الوقوف الى جانب الباكستان ضد الهند، محاربة التصنيع في العالم الثالث تحت شعار «الاعتماد على الذات» والسعي لاحداث مجاعة في كوبا للاطاحة بكاسترو الخ. . ولكن ماذا عن الخيار الآخر؟ ننتهي تماماً. نحل أنفسنا وننتهي.

لم تكن المسألة بالنسبة لمصطفى انهاء دور الحزب فقط، بل ان الحياة خارج اطار الحزب تبدو بلا معنى. في حياة كهذه يفقد مبرر وجوده. لقد عاش تجربة كهذه، قبل ان يتعرف على تفيدة. عندما كان على علاقة مع سعاد لم يتوقف نشاطه السياسي فقط، بل تعطلت فاعليته العقلية والروحية. . . يتذكر المرة الأولى التي رآها فيها. غابت سعاد عنه عدة أيام فذهب الى بيتها. كانت تسكن مع خالتها تفيدة في حي شعبي في مصر القديمة. في تلك الزيارة رأى تفيدة. كانت تقف، اثار صابون الغسيل على ساعديها وقالت له ان سعاد غير موجودة. كاد ان ينصرف، ولكن وجه تفيدة كان معابثاً، يكتم شيئاً كالضحكة ثم انفتح الباب الداخلي وخرجت سعاد. قالت بلهفة: «مصطفى؟ مش معقول» كان وجه تفيدة مدهشاً في تلك اللحظة. كان مزيجاً من الدهشة والمفاجأة والضحك.

عندما اقترب من اسماعيل قال: «نايم ابو السباع؟» نهض اسماعيل جالساً وقال: «تعالى اقعد يادرش»

تحدث مصطفى دون تمهيد عن مأزق الوضع بين مطرقة الحل وسندان الخط الصيني. عن ارتباط حل الحزب عنده بالانهيار، وعن حياته قبل ان يعرف تفيدة. كان اسماعيل يصغي بجدية عابسة. وعندما جاء ذكر تفيدة ابتسم. وبعد أن انتهى مصطفى قال اسماعيل: ماهو الخط الصيني بالنسبة لنا؟ حكم الطبقة العاملة. البورجوازية لن تبني الاشتراكية ولايمكن ان يتم بناء الاشتراكية دون عنف. لسنا أتباعاً للصين، ولا نوافقها على الكثير مما تفعله. غير أننا لانهاجمها. ليس هذا وقته. حين تناقشوننا لاتجدون ماتهاجموننا به سوى أخطاء الخط الصيني التي نعرفها جيداً.

قال مصطفى: لماذا، اذاً، تنسبون انفسكم للخط الصيني؟ قال اسماعيل: اننا نتبنى اساسياته ولكن هذا لايجعلنا نقول ان قراءة الكتاب الاحمر تشفي من السرطان.

قال مصطفى: لماذا لاتضعون مبادىء عامة وأفكاراً وتنطلقون منها؟ ادهشه اسماعيل حين قال «ممكن».

ساد الصمت بينهما. شاهدا وليد ينهض ويتجه نحوهما اقترب وقال: «اسرار؟»

قال مصطفى: «اسرار عنك؟ اقعد ياوليد» جلس وليد. فقال اسماعيل ان مصطفى يقترح مسألة هامة، ان نبتعد عن الخلاف الصيني ـ السوفييتي ونكتفي باعلان مجموعة من المبادىء ولخص له رأي مصطفى. قال وليد:

ـ «أنا موافق»

* * *

ردود الفعل الاولى لقرار الافراج عن الشيوعيين كانت تتراوح بين الفرح وخيبة الامل. يشعر المعتقل حين يفرج عنه انه يقتلع من عالم انسجم فيه، من مشروعات لم تنته بعد. يشبه ذلك شعور السجين في أيامه الأولى، شعور الانفصال عن عالم تعود عليه والدخول في عالم يستحيل الاستمرار فيه. يزيد احساسهم حرجاً ان الشيوعيين في الخارج يعادونهم لأنهم مازالوا يحتفظون بتنظيم.

كانت هذه المشاعر تختفي تحت موجة فرح: سنرى الشوارع والاهل سوف ندخن ونشرب الشاي على هوانا، وستختفي روائح جرادل البول وعطن البطانيات، والاختناق بالحزن ساعة الغروب.

ازدحم العنبر بالمهنئين قال اسماعيل للاخوان: «نحن السابقون وانتم اللاحقون ان شاء الله حاتحصلونا قريب» احد الاخوان قال بصوت مختنق:

ـ «قول باذن الله»

كثيرون طلبوا من الشيوعيين الاتصال باهاليهم، وآخرون طلبوا، دون سبب مفهوم، ان يسعى الشيوعيون للافراج عنهم. والشيوعيون يعرفون ذلك الحزن اليائس الذي يتولد عند المعتقل عندما يفرج عن معتقل آخر. يبدو ذلك وكأنه تأكيد للباقين أن اعتقالهم سوف يستمر الى مالا نهاية. يقولون لانفسهم: «هاهم الشيوعيون يدخلون ويخرجون ونحن باقون على حالنا» يرافق ذلك احساس بقصر الحياة وبالعمر الذي يتسرب من بين أصابعهم.

وعندما يغادر المفرج عنهم يعيش الآخرون يوماً ثقيلاً. يبدو لهم ان خروج بعض المعتقلين حتى وان كانوا أعداء، قد حطم انسجام عالمهم.

المغادرون كانوا يشعرون بالذنب، لذلك بذلوا وعوداً كثيرة للمعتقلين يعلمون انهم لن يستطيعوا تنفيذها. سعيد بيه كان عملياً اكثر من الجميع كتب مجموعة من التعليمات وعدد من أرقام التليفونات ودسها في يد اسماعيل الذي أخفاها وقال: «حايصير خير».

مر المفرج عنهم بالاجراءات المعروفة: «استلام ملابسهم وتسليم ملابس السجن، الانتظار في مدخل السجن حتى تأتي سيارة وزارة الداخلية وتنقلهم. كانوا غرباء في ملابسهم المدنية اذ بدوا أصغر حجماً.

عندما تم نقلهم الى مبنى المباحث العامة، وبعد اتمام اجراءات الافراج تسربوا من باب المبنى

الواسع الى شارع نوبار. ودعوا بعضهم على وعد لقاء قريب. الوحيد الذي لقي من يستقبله وهو خارج كان ايهاب. كانت الفتاة واقفة على الرصيف تتفحص وجوه الخارجين رآها، وسار نحوها قال:

- «زينب»

قالت:

«ايهاب»

كانت اقصر من الصورة التي احتفظ بها لها. امسكت يده وسارا سوياً

القسم الثاني :

عالم الأوهام الجميلة

الفصل الأول

منذ اللحظة الأولى شعر مصطفى ان تفيدة قد تغيرت. منذ أن فتح الباب ورآها خارجة من الصالون، وقد بدت الدهشة على وجهها، ثم تهلل الوجه بالفرح، ثم الصرخة: «مصطفى» شعر بان هذه امرأة مختلفة. وعندما احتواها بين ذراعيه، وقبّل فمها وعينيها وأنفها وشعرها شعر أنه يقبل امرأة غريبة. امسكت وجهه بين كفيها وأخذت تنظر اليه، ثم راحت تقبله قبلات متباعدة، وارتفعت في داخله صرخة: «ليست هذه هي تفيدة التي اعرفها» قال:

ـ «امال المدموزيل فين؟»

اشرق وجهها بالفرح وقالت: «سناء؟ نايمة» ثم مدت سبابتها نحو الحمام وقالت: «استحم الاول. حضرت الحمام»

قال: «كنت عارفه اننا خارجين؟»

ـ «طبعاً بس كنت متصورة انهم حايخركو بالليل».

قال مصطفى: «ماإحنا ليل دلوقتي»

قالت بهمس: «مغربية. الحمام»

حاول، وهـو يفرك جسده بالليفة، ان يستعيد تفيدة القديمة. كانت تفيدة الجديدة تقحم نفسها باستمرار. لقد ازدادت طولاً. مستحيل. كل ماهنالك ان سمنتها القديمة انتهت. اصبحت رشيقة. ليس هذا كل شيء. صوتها تغير. لم تعد تتحدث بتلك النبرة القاطعة، السريعة ملابسها ايضاً تغيرت. قال لنفسه وهو يصارع خيبة الامل «لقد اصبحت من عالمنا»

عندما خرج من الحمام، ملفوفاً ببرنسه، جلس في الصالون، وضعت تفيدة المدفأة قربه قالت: «اصحيّ لك سناء؟»

قال: «لما البس»

نظر اليها وقال: «تغيرت ياتفيدة»

ابتسمت وقالت: «ازاي؟»

لم تكن تستجيب هكذا. ليس بهذا الهدوء، ولا بهذا السؤال. الذي يحمل طابع المجاملة، اكثر مما يحمل رغبة في الاستيضاح قال: «بقيت رشيقة»

ـ «ماانت آخر مرة شفتني كنت حامل. رشيقة دلوقتي؟»
لم تدرك أنه يحتج على رشاقتها. التواصل القديم بينهما انقطع.
ارتدى ملابسه وجاءت تفيدة بالطفلة وضعتها بين ذراعيه وهي تقول:
ـ «اصحي حبيبتي سلمي على بابا»
كانت تفتح عينيها وتغمضهما. لم تكن الطفلة التي في خياله، بل وجهاً متشنجاً عابساً يتأهب للبكاء وبكت فعلاً. رفعها وقبّل وجنتيها فازدادت بكاء. قال:
ـ «بتحتجي على خروجي من السجن؟»
قالت تفيدة بصوتها الجديد: «علشان صحيتها من النوم»
حاول مصطفى ان يحبها، ان يشعر بأنها طفلته، فلم يستطع. قال لها:
ـ «مش حاتسكتي بقى»
ضحكت تفيدة وقالت: «هاتها عنك لسّه ماشبعتشي نوم»
حملتها وسارت بها الى حجرة النوم. رغب أن يجلس وحيداً ليستوعب ماحدث. كان يفكر بتفيدة بدت له كمحرم. دخلت تفيدة وهي تغالب الضحك وقالت:
ـ «نامت»
ثم جلست لصقه واحاطت عنقه بذراعها. قال: «اشتقت الي؟» همس: «موت» قالت: «ولسناء؟» قال: «هيه مش مشتاقه لي» ضحكت وقالت:
ـ «لسّه مابتعرفك»
فكّر مصطفى أنها أصبحت تضحك كثيراً ولكنه ضحك ارتباك. والطفلة؟ هل ستنام معهما في السرير؟ شعر بالخديعة. سأل: «هيه بتنام فين؟» فوجئت تفيدة بالسؤال. شعرت بالاستنكار الذي يحمله قالت: «في سريرها» ثم اغرقت بالضحك وقالت:
ـ بتسأل اسئلة غريبة وبتقول كلام غريب
قال: مش مصدق اللي حصل لي»

***

جاء المهنئون بأسرع مما توقع. كثير منهم يحملون زجاجات خمر، بعضهم قدم نقوداً لمصطفى وسموها قروضاً. رفض فالحوا حتى قبل. يعرف بعضهم والبعض الآخر وجوههم مألوفة ولكنه لايتذكر اسماءهم ولكنهم تصرفوا وكأنهم على علاقة وثيقة به. حكوا عن احداث ومواقف تذكرها مصطفى ولكنه لايتذكر انهم كانوا طرفاً فيها.
وحدث امرمضحك فقد أخذ الحاضرون يجدولون دعوات للغداء او العشاء حتى الذين لم يكن يعرف اسماءهم.
كان مصطفى يتوقع مدينة معادية وقد اعد نفسه لذلك. اما هذا الاقبال فلم يتوقعه. بعد قليل أخذ يشعر بالارهاق. كان فيض العواطف اكثر مما يطيق ودّ لو يقول لهم: انني احبكم وفرح بكم ولكن دعوني لوحدي حتى استوعب هذا كله. غير أنه لم يستطع ان يهين كل هذا الكرم والشجاعة.

انهم يعلمون ان اسماءهم، سوف تنقل الى أجهزة الأمن، وستوضع في قوائم مرشحة للاعتقال فيما بعد.

اشتعل الحديث عندما دار حول الجهود التي بذلت من أجل الافراج عن المعتقلين. كل الحاضرين قالوا أنهم فعلوا شيئاً من أجل ذلك، قالت نجوى، وهي صحفية معروفة تبرز ميولها التقدمية في المناسبات، ان المباحث خدعت الرئيس جمال عبد الناصر وسارتر. زعموا أن المعتقلين قد أفرج عنهم فذهبت نوال الى فندق شيبرد وقابلت سيمون دي بوفوار وأخبرتها ان المعتقلين لم يفرج عنه، وسلمتها رسالة بهذا المعنى. فقابل سارتر الرئيس، فقال له الرئيس: لقد وعدتك بالافراج عنهم وسوف يحدث هذا وأنت في مصر وسألت: اية ساعة افرج عنكم؟ فقال مصطفى ان قرار الافراج أذيع في الثانية عشرة ظهراً. قالت ان طائرة سارتر غادرت مطار القاهرة في نفس اللحظة.

لم يعلق مصطفى بشيء. نجوى مطلعة ولا تقول مالا تعرف. ولكنه اندهش للصورة التي يعاد انتاجها كل مرة: الرئيس الذي يتخذ الموقف الصحيح والاجهزة السيئة التي لاتنفذ. بدا وكأن الجميع على اتفاق فما ان بلغت الساعة العاشرة حتى اعلنوا ان عليهم ان ينصرفوا. حاول مصطفى ان يستبقيهم ولكن البعض وقد ثملوا قالو:

- «نسيبك لمدام تفيدة»

عندما انصرف الجميع كان مصطفى وتفيدة مرتبكين. جلست قبالته تفرك يديها وتراقب نفسها وهي تفعل ذلك. وحين تلتقي عيونهما كان وجهها يتضرج فتبعد عينيها. قالت: «نتعشى؟»

قال: «كمان شويه»

بعد فترة صمت قال انه يندهش لاقبال الناس عليه. كان يتوقع عكس ذلك، ان كثيرين ممن جاءوا لم يكن يعرفهم قالت: «مش عارف السبب؟»

قال: «حقيقة مش عارف»

قالت ان الجميع يعتبرونهم ابطالاً. قال مصطفى بدهشة حقيقية:

- «احنا؟ أبطال؟ عملنا ايه علشان نبقى أبطال؟»

ضحكت تفيدة ونهضت. قالت: «حاأقوم أحضر العشا» ثم مالت نحوه وقبلته على جبينه. كانت قبلة أم.

في السرير سألته: «تعبان؟» فكر مصطفى أنها لاترغب فيه. قال:

- «تفيدة ايه اللي حصل؟ فيه حاجة مخبياها عني؟»

رأى دموعها تسيل. قالت بعصبية:

-«من ساعة ما دخلت وأنت بتعاملني ببرود. حتى سناء مش عايز تشوفها.»

* * *

حين وصل حسن بيته وجده مزدحماً بأفراد عائلته والاقرباء الذين قدموا صباح اليوم من السنبلاوين: جاؤا معهم بكميات كبيرة من الطعام: فطير مشلتت، وأوز محمّر ولحوم طازجة وعسل وجبنة قديمة. دخل حسن والعشاء يعد. عانق الجميع عدا زوجته انصاف. قال لنفسه: «ماتزال فلاحة. لم تغير القاهرة فيها شيئاً.» كانت بنت خالته.

أمه وخالته كانتا تبكيان وهما تعاونان أنصاف في اعداد العشاء. قال لهما حسن وهو يحاول أن يخلق جواً مرحاً.

ـ«بتعيطوا زعلانين علشان طلعت من السجن؟».

رأى الغضب في وجوه أقاربه. قال أبوه:

ـ«وده كلام تقوله ياحسن!».

قال انه كان يمزح. لم يخفف ذلك من تجهمهم. تناولوا عشاءهم في صمت. وبعد العشاء، ومع الشاي، بدأوا بتوجيه النصائح اليه: منذ حوالي عشرين سنة وأنت لاتفعل شيئاً سوى دخول السجن والخروج منه. ماذا استفدت؟ عندك زوجة وأطفال، مسؤوليات، والطريق الذي تسير فيه لن يؤدي الاّ لخراب البيت.

قالت أمه: وبكاؤنا والحزن الذي لاينتهي الا ليبدأ من جديد.

خلال ذلك قالت له أنصاف أن الحمام جاهز، كانت هي قد استحمت ودخلت حجرتها. بعد الحمام عاد حسن الى أقاربه، الذين عادوا لتوجيه النصائح. كان حسن يردد المرة بعد المرة أنه اعتقل هذه المرة دون أن يفعل شيئاً، ولكنهم لم يتوقفوا عن توجيه نصائحهم.

قاطعتهم أمه قائلة أن حسن متعب، دعوه يذهب لينام. فجأة أخذوا كلهم يلحون عليه للدخول الى حجرته. قال أن عليه قبل ذلك أن يدبر مسألة نومهم. قالوا له:

اذهب الآن. لاتشغل بالك بنا. سوف نتصرف.

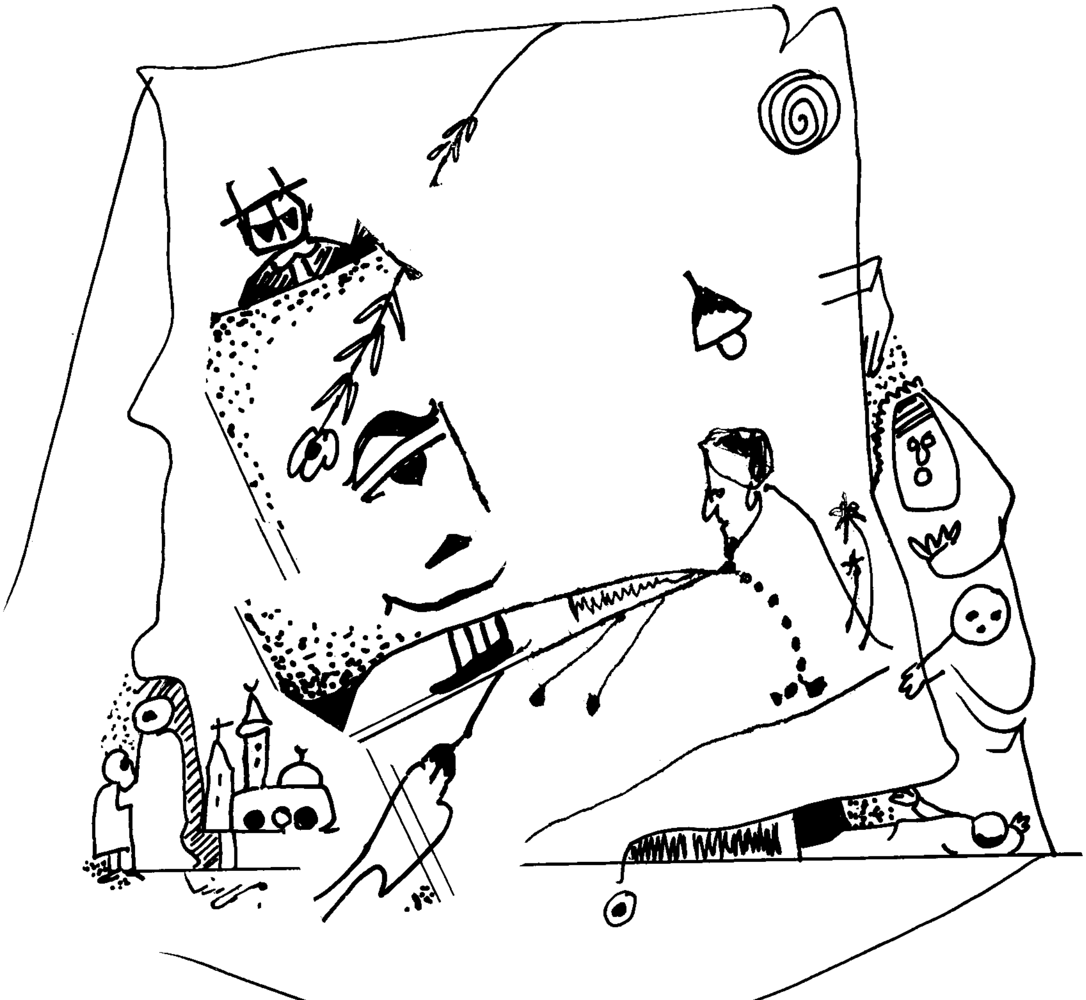
حجرة النوم كانت تعبق بعطر الياسمين. كان قوياً ونفّاذاً فشعر أنه على وشك ان يعطس. أباجورة محاطه بحرير أحمر موضوعة على كومودينا قرب السرير. كانت مضاءة وبقية الحجرة تسبح في عتمة حمراء. كانت أنصاف تتمدد على السرير، شعرها مازال مبلولاً، ترتدي قميص نوم أحمر يكشف عن نحرها وعن منبت الثديين. شاهد ركبتها مكشوفة. كانت ناعمة بيضاء. مال وجهها من فوق الوسادة نحوه حاول ان يقرأ نظرتها لم تكن نظرة ترحيب او رغبة قالت: «حسن»

قال: «ايوه ياانصاف»

قالت: «واقف ليه؟ تعالى»

في الصوت رعشة خوف.

ظل ينظر اليها رأى وجهها يتضرج قال لنفسه: انها تنفذ وصية امها. يدخل اليها وكأنه يدخل حجرة مومس. عطر الياسمين والاباجورة الحمراء وقميص النوم الاحمر تصلح اعلاناً لمبغى. وشعر بالشفقة نحوها. تمدد بجوارها وأخذت تنظر اليه بعيني امرأة محاصرة. لمس قميصها وقال: «دا قميص جديد اشترتيه امتى؟»



كانت تعاني وهي تخرج الكلام من فمها. قالت: «النهاردا»
قال: «كنتو عارفين اني خارج النهاردا؟»
قالت: «كنا عارفين»
بحث عن شيء يقوله قال: «الجماعة جم امتى؟»
قالت: «النهاردا الصبح بدري»
- «مسافرين امتى؟»
قرأ الاستنكار في وجهها قال: «المهم»
وصمتا. لن تقوم بالخطوة الاولى. كانت تتمدد على ظهرها. وضع يده على كتفها البعيد عنه. كان ذلك نوعاً من العناق. فاستدارت بسرعة وأخفت وجهها في صدره. أخذ يداعب ظهرها بحركة ميكانيكية. اصوات الضيوف كانت تصله من حجرة الصالون مدغمة. قال لنفسه وهو ينوء بضغطها على صدره: ذلك يشبه ليلة الدخلة وامها تنتظر في الخارج خروجه اليها بالمنديل الملوث بالدم. قبل شعرها وقال: «نمت؟»
انه يعلم انها لن تنام قبل ان تنفذ نصائح امها. فتاة مُطيعة تعرف ان واجبها ان تريح زوجها الذي حرم منها شهوراً عدة. قال: «انا تعبان ياانصاف».
ومد كلمة تعبان ثم أخذ يعبث بشعرها الناعم الاسود. قال: «تعبان»
القت رأسها الى الخلف وقالت: «ماانا عايزه اريحك»
قال: «الجماعة تعبوني»
قالت: «قلبهم عليك»
كان يتوقع منها ان تتضامن معه. قال:
- «عارف ان قلبهم عليا بس همه عاملين زي الدبة اللي قتلت صاحبها»
قالت انه ليس من عادته ان يتحدث عن اهله هكذا. ماذا حدث له؟ ضمها اليه فأخذت تبكي، جسدها يهتز بايقاع البكاء المكتوم. ابعدها عنه قليلاً فرأى وجهها مبللاً بالدموع. أخذ يقبلها والدموع تبلل شفتيه وهو يردد:
- «انت زعلت؟ انت زعلت؟»
ثم تحَوّل ذلك الى عناق. شعر حسن بأنه استثير. مد يده وجذب قميص النوم عن ساقيها قالت: «لحظة اطفىء النور»
مدت ذراعيها وضغطت على مفتاح الاباجورة فسادت الظلمة وعلى الفور شعر حسن بالرغبة تنساب منه. حاول ان يستعيدها بجهد عضلي خالص، ولكن الاجهاد داهمه فاسترخى قالت: «مالك؟»
قال: «تعبان»
قالت: «ماانا عايزة اريحك»
قال: «حبيبتي مش قادر»
نام وهو يسمع بكاءها

الفصل الثاني

كانت زينب تقف أمـام محل العصير المواجه لمبنى المباحث العامة، رأتهم خارجين فاجتازت الشارع بسرعة ونادت: «ايهاب»

كان اسماعيل هو أول من رآها قال: «زينب؟ مش كده؟»

مدت يدها وصافحته قالت:

ـ «الحمد لله على السلامة ياأستاذ اسماعيل. الحمد لله على السلامة ياجماعة»

قال اسماعيل: «ايهاب اهه»

قال ايهاب: «زينب» وصافحها بحرارة. كان مرتبكاً. قال لها:

ـ «أعرفك على الرفاق»

لكن اسماعيل دفعه قائلاً:

ـ «مع السلامة دلوقتي. نشوفكوا بعدين»

سارا سوياً في اتجاه باب اللوق. قال لها:

ـ «عرفتي ازاي اننا حانطلع النهاردا؟»

قالت وكتفاها يهتزان ووجهها مليء بالضحك:

ـ «صحافة. الصحافة بتعرف كل حاجة»

لم يكن عند ايهاب مايضيفه. خشي ان تغادره اذا انقطع الحديث قال:

ـ «كنت عارفه انا معتقلين. يعني عرفت امتى؟»

اطلقت ضحكة عالية، وقالت: «كل الناس كانت عارفة»

وأخذت تحكي أنها منذ لحظة اعتقالهم صاغت خبراً عن اعتقالهم، ودون علم الوكالة التي تعمل فيها، وزعته على وكالة رويتر وأسوسشيتد برس واليونايتد برس، وفرانس برس، ووكالة الانباء الايطالية.

قال: «وكالات الأنباء الغربية بس؟»

قالت ان الوكالات الاشتراكية لاتذيع أخباراً من هذا النوع. وأضافت أنها كتبت موضوعاً عن

اعتقالهم وزعته بالمجان على مجلة التايم والنيوزويك وعلى الايكونومست والجارديان والصحف الغربية الأخرى.

تكشفت زينب عن كونها من ذلك النمط الحيوي الذي يزيل الحواجز ويجعل من لقاء واحد، سريع، اساساً لمعرفة حميمة.

قال ايهاب: «كنت فاكرانك نسيتيني»

وعلى الفور شعر انه قال شيئاً سخيفاً. يتحدث بلغة العشاق مع فتاة لم يرها الا مرة واحدة في حياته. ولكن ردها عليه ازال حرجه. قالت انها على العكس من ذلك، سألت هنية عنه اكثر من مرة. كان ذلك قبل ان يعتقل، وان هنية قالت انها لم تره منذ فترة طويلة، وانها التقت بنوال بعد اعتقاله فأبلغتها أنه يسلم عليها. لقد قامت بترجمة العرائض التي قدمها الوفد النسائي الى المسؤولين الى الانجليزية والفرنسية، وساعدت في توزيعها على وكالات الأنباء.

قال ايهاب فجأة: «انت مش معقولة. انت انسانة غير عادية»

قالت بجدية: «بتهيأ لك بس»

ثم أخذت تحكي عن «هيصة» سارتر وسيمون دي بوفوار.

لم يكن يعرف ماذا عليه ان يفعل. لم يكن يريد لزينب ان تغادره، ولكنه يرغب فوق كل شيء ان يستحم ويغير ملابسه. يشعر بذلك انه سوف يتطهر من السجن. قال لها: «ايه رأيك نشرب شاي في سوق الحميدية؟»

كان المقهى المضاء بوفرة قد أصبح على بعد خطوات قالت:

ـ «سوق الحميدية ايه! تاكسي!»

استوقفت سيارة اجرة وقالت له: «اركب» ولدهشته سمعها توجه سائق التاكسي الى عنوان بيته. قالت: «مستغرب؟»

كان ينظر الى وجهها. وجه لاتستطيع الذاكرة ان تحتفظ به لأنه في حركة دائمة قالت:

ـ «خليها مفاجأة»

ثم أخذت تنظر من شباك السيارة. كانت المدينة غريبة، يراها كما رآها عندما جاء اليها في المرة الأولى. توقفت السيارة في ميدان الدقي. دفعت الاجرة للسائق، وامسكت بيد ايهاب ودخلا البناية.

قالت: «الاسانسير تحت»

اسرعا، ودخلا كابينة الاسانسير فضغطت على مفتاح الطابق الخامس قال:

ـ «تلاقي الشقة بقت مزبلة»

قالت: «سايب الشبابيك مفتوحة؟»

قال: «ممكن»

وصورة الغبار يغطي كل شيء في الشقة كابوس. سبقته، رآها تفتح باب الشقة وتقول: «تفضل ياأستاذ ايهاب».

كانت ترقص تقريباً وهي تقول ذلك. دخل الشقة وتوقف مذهولاً. لم يكن كل مافيها نظيفاً

وحسب، بل رأي اضافات غريبة: طرابيزات صغيرة بين الكتب، نسخاً من صور زيتية معلقة على الجدران، الكتب منظمة في مكتبة أضيفت اليها رفوف جديدة قال: «زينب»

قالت: «افندم؟»

- «مش فاهم»

قالت: «قبل ماتفهم خش استحم. الحمام والغيارات وكل حاجة جاهزة»

وامسكت بيده ودفعته الى داخل الحمام وأغلقت الباب. سمعها تقول: «استحم كويس»

أطال ايهاب استحمامه ثم خرج وهو يلف جسده بالبرنس. اراد ان يرتدي ملابسه قبل أن تراه، ولكنه رآها واقفة بباب الصالون. قالت:

- «نعيماً. تعالى اقعد قدام الدفاية»

جلس أمام الدفاية وقال: «تعرفي يازينب. تسمحي اقول لك زينب حاف؟»

قالت بجديتها الخفيفة الظل: «خد راحتك»

قال لها انه يتذكر حكاية روتها له جدته عن رجل تاه سبع سنين، تشرد فيها وتعذب. وخلال ذلك تراكمت القذارة على جسده. لقيته زوجته وأخذته الى البيت، ونقعته سبعة ايام. في كل يوم تذوب طبقة من طبقات القذارة المتراكمة على جسده. في اليوم السابع كان نظيفاً تماماً.

ضحكت زينب وقالت: «كنت فاكرة انه في اليوم السابع داب كله»

قال: «لا في اليوم السابع بان جلده الاصلي»

قالت بشقاوة: «بس انا مش زوجتك»

قال: «بس انت. . انت. .»

كان يريد أن يقول (حبيبتي) ولكنه لم يستطع. قالت: «انا، انا ايه؟»

- «انت انسانة رائعة، رائعة صحيح»

نهضت وقالت: «العشاء الآن.»

قال: «عشاء ازاي؟»

قالت: «مش جعان؟»

- «جعان بس يعني. . يعني. .»

قالت: «يعني يعني» وخرجت

كان عشاء حافلاً: بامية باللحمة، كوسا محشي، كباب حلة وسلطات. قال:

- «عازمة حد؟»

في تلك اللحظة دق جرس الباب ودخل وليد ونوال. تعانقت نوال وزينب. تعانقت نوال وايهاب. قالت نوال:

- «كنا جايين ناخدكو. فيه سيارة مستنية تحت»

قالت زينب: «عايزين ايهاب. فاكرينه لوحده»

قالت نوال لايهاب: «زينب دي انسانة رائعة»

قالت زينب: «مدحت نفسي قبل ماتمدحيني. اقعدوا تعشوا معانا»

ولكنها اعتذرا وقالت نوال قبل ان تنصرف :

ـ «بكره تتعشوا عندنا . مصطفى وتفيدة واسماعيل وكلهم جايين . باي باي»

قالت زينب : «كنت عايز تنزل معاهم؟»

قال : «انت مجنونة»

بعد العشاء كان ايهاب يتمدد على الصوفا، وزينب تجلس على كنبة ادارتها حتى تصبح في مواجهته . قال لها انه عاجز عن التلاؤم مع ماحدث . الافراح ، وانت ، والشقة النظيفة والطعام . قال : عندما كنت في الزنزانة الانفرادية ، في سجن القلعة كان يسيطر علي احساس اني في حلم . عندما يأتي احساس كهذا يكون من الصعب ان اقنع نفسي انني لست في حلم . لايوجد وسيلة للتأكد . عندما يحدث شيء غير متوقع كانت أمي تقول : «بايني بحلم ياأولاد اقرصوني»كنا نعتبر قولها نكتة فنضحك ولكنني الان افهم . كنت اقرص نفسي ولكن شعوري بأنني في حلم كان يستمر ومايحدث الآن is too good to be true (٢)

قاطعته : mothing is too goo (٢)

قال : «دي جملة حافتكرها طول حياتي . جملة بسيطة جداً لكنها بتلغي عالم كامل من القمع ، عالم علمنا انا نقول بعدما نضحك (اللهم اجعله خير) علمنا ان السعادة حرام . بس السؤال قائم : «انا في حلم؟»

قالت : «لا»

كان لها وجه اسمر وعينان سوداوان واسعتان، الانف كان معجزتها . كلمة «أنيق» هي أول مايخطر بالبال . كانت اناقته مع الفم المكتمل توحي بحسية متعالية ، بانها قريبة ومستعصية .

بعد فترة صمت قال ايهاب : ماذا حدث؟ كيف أصبحنا ـ اراد ان يقول عشاقاً ثم توقف ـ هنا قريبين ، كيف تمت هذه الالفة بعد لقاء واحد وكأننا عرفنا بعضنا لفترة طويلة . اتحدث عن علاقة حميمة ، كانت تنمو دائماً . كيف نشأت ونحن لم نقل لبعضنا شيئاً . هذا الذي يجعلني أقول أنني في حلم . ذلك لايحدث الا في الاحلام .

قالت أنها منذ أن رأته داخلاً حجرة المحررين في الوكالة التي تعمل فيها قالت : «هو ده» وقد تحقق ذلك . لايمكن لي ان أرغب بعنف دون ان يستجيب الطرف الآخر . قال : ان ذلك لايحدث معي . قالت : «لانك لا ترغب بقوة والحاح كافيين قال ايهاب لنفسه : «هذا منطق الاحلام» ثم سألها : «هل شعرت بهذا الشعور قبل ان اسأل عنك؟» قالت :

ـ «من أول مادخلت من الباب»

وأضافت أنها في ذلك اللقاء لمحت له انها تريد ان تراه مرة أخرى ، ولكنه لم يستجب . قال لها انه يشعر دائماً عندما يرى فتاة يميل اليها ان عليه ان يبرهن لها انه لا يكترث بها . يرعبه ان يقال عنه انه ثقيل الظل لذلك غادرها مسرعاً .

قالت : «فهمتك كويس قوي ، وعلشان كده اتصلت بهنية أكثر من مرة اسألها عنك . كان واضح انها مش عايزاني اشوفك»

- «ليه؟»

- «اسألها»

قالت انها عندما سمعت باعتقاله اتصلت بوكالات الانباء والصحافة العالمية وفي احدى المرات، وبطريق الصدفة التقت بنوال كانت زميلتها في الجامعة اخبرتها ان وليد قد اعتقل. سألتها عن ايهاب، ثم سألتها عن الخادمة التي كانت تنظف شقته. وأخذت منها مفتاح الشقة. وأخذت تتردد على الشقة، تنظفها. كانت أحياناً تنام فيها. ثم سألت: «لسّه بتحلم ؟»

رغب بقوة ان يمد يده ويمسك يدها لكنه تصور انه بذلك يهينها. امتلأ وجهها بالشقاوة: «كنت عايز تمسك ايدي؟»

تلجلج. قالت: «مامسكتهاش ليه؟»

قال: «لا. يعني..»

قالت: «يعني، يعني، يعني، انا حاامسك ايدك»

وضعت يده بين يديها وأخذت تداعبها برفق. عيناها مركزتان على الايدي الثلاث، وجهها مستغرق وحزين. قالت وكأنها تخاطب نفسها: «ايدك خشنة» الحزن الذي في صوتها لمسه في العمق. بدت عبارتها وكأنها اعتراف وقبول بمأساة الوجود في العالم، باقتراب النهاية، شعر انه يعيش مرة أخرى الحزن الامومي في وجوه التماثيل الفرعونية، ذلك الحزن المثبت في الحجر، والذي يبدو كضراعة. وعندما مال وقبل يدها كان ذلك ليمنع نفسه من البكاء. ملمس اليد على شفتيه نفذ الى احشائه. استيقظت الرغبة التي كانت اشبه باستغاثة من هذا الحزن الثقيل.

نظر الى وجهها. كان يشبه وجهاً استغرق في البكاء ثم اخفى دموعه. همس:

- «فيه ايه؟»

قالت بصوت غائب: «احكي لي»

سحبت يدها وتنفست بعمق ثم ابتسمت. قالت:

- «احكي لي كل اللي حصل معاك. فرحت جداً لما بعثت تسلم عليا. كان حدسي صحيح كنت بتفكر بيا»

كانت فرحة بالفعل

وانفتح ايهاب بالكلام ففي ليالي السجن كان يحكي لزينب كل ماحدث مجرياً بعض التعديلات التي كان يمليها حسه الدرامي. وهاهو يعيش حلم يقظته واقعياً. ارتبك السياق في البداية، اذ كان عليه ان يبدأ الحكاية من لحظة تكوره كالجنين قبل أن ينام واستحضار صورة زينب. ولكن تداعي الذكريات ارجعه الى البداية.

اصغاء زينب واللهفة في وجهها اشعره بنشوة التواصل. أصبحت زينب طفلة تصغي لحكاية مشوقة. كان يقرأ انفعالاتها على وجهها. حكى لها عن التعذيب في سجن القلعة، عن الصرخات التي ترتفع ليل نهار من حجرات الاستجواب، عن القلق والخوف اللذين يعيشهما السجين وهو ينتظر دوره في التحقيق.

ثم دخل في عالم الاشكال الفنية الخالصة. مئذنتا جامع محمد علي يراهما وهو هابط من دورة المياه كعامودي فضة منقوشة غشاهما لون رمادي. حكى عن خروجه من الزنزانة ليلاً والقمر بدراً، ومشاهدته لذلك الشبح المغطى بلفائف طبية بيضاء. كان هنالك بقع سوداء تغطي اللفائف من المؤكد أنها دماء. كان هنالك مخبر يضربه بخيزرانة رفيعة وتلك اللفافة تطلق صرخات كأنها ولولات العجائز. كان ذلك مشهداً غريباً أشبه بطقس.

حكى لها عن معتقل طره، عن دورة الحياة اليومية، عن المفارقات الغريبة في المصائر. وخلال ذلك كان ايهاب يعرف ان زينب تكّون افكاراً خاطئة. سيبدو المكان غريباً غرابة الاحداث نفسها، ستكّون صورة خاطئة عن المعتقلين اذ ستراهم في حالة بطولة دائمة. سوف تستعير صورة الزنازين والتعذيب من افلام سينمائية شاهدتها. سوف تتصور السجن مكاناً مقبضاً، والسجين يعيش حياة ملل لا نهائية.

قال: «زهقتك؟»

قالت بعنف غير مفهوم: «بالعكس» وتنهدت بعمق واتخذ وجهها طابع اصغاء. وجه طفلة يستعجل نهاية الحكاية قال ايهاب لنفسه: «في هذا العالم، الذي لايطيق ان يصغي اليك حتى تتم جملتك تجد انسانة رائعة تصغي اليك دون ان تمل. فكر ان يقول لها ذلك. سيبدو غزلاً وهو لايود ان يستجعل الامور. لايود أن تطير منه. كان ذلك احساسه بها، يحي بها انها على اهبة التلاشي في أية لحظة

قالت: «ايوه؟»

حكى لها عن المساجين الذي يتزوجون بعضهم، عن السجين الذي يفقد ملامحه الذكورية ليصبح أنثى في أدق التفاصيل، رأى الرعب على وجهها فقال ان ذلك لايحدث بين السجناء السياسيين. تنفست الصعداء وعادت بظهرها الى المسند كأن حملاً ثقيلاً قد زال عنها. قال لها وهو ينظر الى ساعته «عارفه الساعة كام؟»

قالت بسرعة: «اتنين انا فايقه خالص» وكأنها تنهي مسألة عارضة. قال:

- «طبعاً مستحيل تروحي في ساعة زي دي»

قالت: «حانام هنا»

قال: «تمام انا حانام على الصوفا وانت على السرير»

قالت: «السرير واسع ننام سوا عليه»

ثم اكتسى وجهها بمعابثة انثوية اصيلة وقالت: «بس اوعى تتشاقى»

شربا قهوة. تحدثا قليلاً ثم نهضا للنوم. كان السرير واسعاً جداً. التف ايهاب بالبطانيات، وترك لها اللحاف. نام على طرف السرير اثباتاً لحسن النية. غطى رأسه حتى لايراها وهي تخلع ملابسها. اطفأت النور وتمددت في الفراش. قالت وهي تتأوه: «ساقع»

كان الفراش طرياً جداً. شعر ايهاب ان جسده غير قادر على اتخاذ وضع ثابت. تقلبت زينب قليلاً، ثم استقرت. نام للحظة. حلم انه يغرق صحا وعدل وضعه. تذكر مواقف وحكايات عن

السجن يعلم انها تحب سماعها. قالت له انها أخذت يومين اجازة غداً وبعده، ثم يوم الجمعة هل فعلت ذلك من أجله؟

ودّ أن ينام بالطريقة التي تعودها: «ظهره محني كالقوس وساقاه مطويان ولكنه خشي ان تفسر ذلك وكأنه محاولة للاحتكاك بها. حاول ان ينس وجودها. لم يستطع. كانت توتراً. عنفاً كامناً يتمدد بجواره. خطر له فجأة: لماذا لم ترد هنية له ان يتعرف على زينب؟ هل هو شعور امومة استثيرت غيرته؟ سوف يسألها. لا لن يسألها. سمعها تقول: «مش عارف تنام؟»

رفع رأسه من تحت البطاطين وقال: «الفراش طري جداً»

قالت: «وانا مش عارفة أنام تعالى»

لم يعرف كيف يستجيب لها. قال: «الفراش طري. مش متعود»

قالت: «قرب ياحبيبي. احنا الاتنين عايزين بعض»

رفعت لحافها فتمدد لصقها. اخذت تفك أزرار بيجامته وهي تعانقه. احس بجسدها عارياً فضمها اليه. كان ذلك مستحيلاً ومتوقعاً في الوقت ذاته. وأخذ يهذي: البارحة فقط كنت أحلم بك.. وها انت.. اعلنها حبه شوقه خلال ليالي السجن يقول: هل أنا في حلم؟ ويعلنها أنها أجمل شيء في حياته وهي تهمهم. يسمع شهقتها حين قبل كتفيها. همهمت دون توقف: «حبيبي، حبيبي..» ودفنت رأسها في نحره. كان جسدها قد أصبح حاراً زلقاً. ثم دعته اليها بصوت مختنق، وقادت ايقاعه. كانت تشده اليها، عضلات ردفيها ترتعش، ثم صرخت وهدأت. همست له وهي تحيطه بذراعيها:

- «حبيبي خليك شويه»

وأخذت تقبل وجهه قبلات خفيفة ثم ضمته اليها بقوة وهي ماتزال تحته. وعاد ايقاعها وانتهت سريعاً، حين نهض قالت: «فيه ميه سخنة في الحمام»

حين عاد من الحمام اشعل الضوء. بدت نائمة ثم فتحت عينيها وابتسمت قالت:

- «ادخل تحت اللحاف أحسن تبرد»

تمدد بجوارها. ماتزال دافئة. نهضت وقالت: «داخله الحمام»

في لحظة الاسترخاء فكر ايهاب انها ليست عذراء. احس بخيبة أمل. رأى نفسه مضحكاً وهو يقمع كل رغبة نحوها. كانت مستعدة للجنس تنتظره أن يبدأ. حاول أن يتغلب على خيبة الامل بأفكار جاهزة عن حرية المرأة. دخولها المفاجىء ايقظ حبه لها. كانت تتأوه من البرد، قال: «تأخرت حبيبتي»

قالت: «دخلني»

افسح لها مكاناً بجواره. ضمته اليها وهي ترتعش. قالت: «علقه»

قال لها وهو يضمها: «حاجة غريبة يازوبه مابعرفشي حاجة عنك»

قالت: «حاتعرف. دفيني دلوقتي»

أخذ يفرك ظهرها وهي تزداد التصاقاً به. وخلال ذلك تتأوه. ثم اكتشف انهما استثيرا فمارسا

الجنس. لاحظ أنه امام امرأة خبيرة. لاحظ أنها حين تصل الى القمة تغير ايقاع جسدها وتمنعه من الانتهاء الى ان تبلغ قمتها الثالثة.

عندما عاد من الحمام شعر بارهاق لذيذ ودهمه النوم. استيقظ وهي تضمه اليها وتتأوه من البرد. شعر بانتعاش وعاد كل شيء من جديد. دخل الحمام للمرة الرابعة فرأى الفجر يأتي من فتحة سلم الخدم الى شباك الحمام محيلاً زجاجه المحبب السميك الى جواهر. قال لها وهو يتمدد بجوارها «الفجر طلع»

اعتقد أنهما سينامان على الفور اكتشف انه يقظ. همس: «نمت؟»

قالت: «انا فايقة جداً»

ولكنه نام ايقظه الضوء الذي اشعلته. كانت تحمل صينية عليها كنكة القهوة وفنجانان. جلست على طرف السرير. ملأت الفنجانين واشعلت سيجارتين. نظر الى ساعته وقال: «نمت نص ساعة»

قالت دون أن تنظر اليه: «مانمتش كفاية في السجن؟»

بدا وجهها رقيقاً ناعماً، وغائباً كأنها تكتم حزناً داخلياً. لتقاطيع الوجه حساسية وعذوبة من انتهت لتوها من البكاء. انبثق الحب في داخله، قال:

- «زوبه»

التفتت اليه بنظرة محايدة. قال: «بحبك جداً»

لم تقل شيئاً عادت الى فنجانها وسيجارتها. اعادت الفنجان الى الصينية ثم نظرت اليه. وجهها هادىء حزين بعيد. قالت:

- «ايه مشاريعك النهار دا؟»

انقبض قلبه. سوف تغادره على الفور. قال: «انت»

ابتسمت وقالت:

- «عارفه. حانعمل ايه النهاردا؟»

- «قرري انت»

قالت:

- «عايزة اروح البيت اغير هدومي وارتب شوية حاجات»

قال بانزعاج: «مش معقول»

شعر انه لن يراها ثانية. عندما رأت وجهه ضحكت وقالت:

- «مش حاغيب. ساعتين وارجع لك. نام شويه»

أضافت بعد قليل ونظرتها ثابتة على وجهه:

- «والا أقول لك البس وتعالى معايا»

قال: «وأهلك يعني؟»

قالت: «اهلي في الاسكندرية. انا عايشه وحدي»

نهض من السرير بحيوية مدهشة، وعالم من المتعة اللانهائية ينفتح امامه

* * *

كانت زينب تسكن في أول بناية بعد كوبري الجامعة في حي المنيل. جانب من البناية يطل على القصر العيني الجديد وجانب يطل على نهر النيل وكوبري الجامعة. كانت زينب مالكة للشقة تدفع ثمنها اقساطاً شهرية تبلغ عشر جنيهات على امتداد عشرين عاماً. الشقة واسعة، تتكون من ثلاث حجرات وصالة، ولم تؤثث منها سوى حجرة النوم والصالة والمطبخ في الاخرين كتب ومجلات عربية وأجنبية. وقف ايهاب متحرجاً. قالت: «آدي شقتي»

قال: «رائعة»

شعر أنه متطفل. فكر ان يتبعها الى المطبخ ولكنه عدل. كانت طيلة الوقت تتكلم: هذه خرابة وليست شقة لو كنت ربة بيت محترمة لكانت شيئاً مختلفاً. كيف تحب البيض؟ عيون والا اوملت؟ عظيم فيه سجق. انت جعان زيي؟ قاعد وحدك ليه؟ تعالى ساعدني. ولعت الدفاية؟ قوطه وخيار وجرجير حانعمل سلطة عظيمة.

وقف بباب المطبخ متردداً. التفتت اليه بوجه ضاحك وقالت: «ادخل. مكسوف؟»

قال: «يعني»

قالت: «بطل يعني دي»

فكر انها اكتسبت حصانة ببيتها. لايستطيع حتى ان يلمسها. كانت تعد السلطة قال: «اساعدك في ايه؟»

قالت: «قلب السجق على النار»

كان السجق يتفزز، تنفجر قطعه وتنطلق منها ذرات لامعة من الدهن الى وجهه ويديه. قال: «السجق استوى»

قالت بحدة: «اطفي عليه»

بعد قليل كان الطعام معداً. اقبلا عليه بشهية مفتوحة. بعد الانتهاء، وعندما عادت زينب من المطبخ حاملة صينية القهوة رأت ايهاب نائماً: استيقظ بمجرد ان وضعت الصينية على المائدة.

قالت: «ادخل نام»

قال: «لا. خلاص فقت»

شربا القهوة بصمت. بعد أن انتهيا قالت: «تعالى نمدد جوه شوية»

في السرير شعر بيقظة باهرة. قالت: «مش نعسان؟»

قال: «نامي انت»

تأوهت بهمس مبحوح: «بردانة موت»

اثاره همسها وبدأ كل شيء من جديد. كانت زينب تزداد توهجاً. فكر ايهاب انها لم تنم البارحة والساعة قد بلغت الثانية ظهراً وهي في كامل يقظتها. حبه جعله يرى في ذلك دلالة عشق نادر

بعد غداء اعد على عجل جلسا يشربان القهوة ويتحدثان. كان ذهنه يقظاً يقظة نادرة. سألها ان كانت تؤمن بالقدر فقالت: «لا. انا مؤمنة بالارادة. وانت؟»

- «مش عارف»

قالت: «ماركسي ومش عارف؟»

قال لها: كتبت روايتين وبدون تصميم مسبق تولدت مواقف وشخصيات وعلاقات. الشيء الغامض هو مايحدث لي خلال ذلك. لايمكنني في وقت واحد الاستغراق في الرواية والاستغراق في الحب. ارى - وكأن ذلك يتم بتدبير مسبق - ان العلاقة بيني وبين الفتاة التي احبها تفتر. في ذلك نوع من التصميم المسبق. في الرواية تنتهي العلاقة بين الحبيبين ولكن كيف؟ لا أدري اشعر انني امام معضلة لم استطع حلها فاقرر التوقف عن الكتابة. في ذلك اليوم جاءت صديقتي كانت مرهقة فنامت. راقبت وجهها وهي نائمة. رأيت مسام الجلد وزغباً دقيقاً على شفتها العليا. رأيت جذور شعرها الناحل وفمها مفتوحاً. قلت لنفسي: هذه هي لحظة موت الحب. كان ذلك حلاً للمأزق الروائي. اقول: «هنالك قدر ما»

كان وجه زينب غريباً وهي تصغي قرأ فيه شيئاً كالخوف، قال: «وانت؟»

ارتعشت وقالت: «انا؟»

كانت عيناها معلقتين بشفتيه. رأى ان لون وجهها قد تغير قال لِنفسه: ماذا حدث لها؟ انها في حالة رعب حقيقية. قال: «انت قدري»

بللت شفتيها بلسانها وقالت: «مش فاهمة العلاقة»

قال: كل شيء كان يقف بيننا خجلي منعني من معاودة الاتصال بك وانت سعيت للاتصال بي ففشلت وجاء السجن ليضع حاجزاً قسرياً بيننا. ثم تم اللقاء

همست بصوت مجروح؟ «انت ماركسي غريب»

قال انه ليس من علمايي القرن التاسع عشر اذا لم يطع الواقع الخارجي قوانيننا فالعالم الخارجي مخطيء. انني اعتمد على حدسي. في لحظة محددة في ليل السجن تذكرتك وحدست: انت لي وانا لك..

أصبح وجهها غريباً جداً. بدت كأنها تعاني ضيقاً في التنفس ثم فجأة وضعت رأسها على صدره وأخذت تبكي. بكت بحرارة. كان ايهاب يشعر ان سراً مخيفاً ومؤلماً سوف ينكشف سراً سوف يقتله. حاول ان يرفع وجهها اليه، ولكنها اصرت بعناد ان تخفيه في صدره. قال: «ممكن افهم..»

نهضت فجأة وذهبت الى الحمام عادت وقد غسلت وجهها الذي اكتسب هشاشة انثوية - مزيجاً من الابتسام والخجل - اشعلت فتنتها الحب في قلب ايهاب فقال: «في كل لحظة بيتولد لك جمال جديد»

ضحكت وقالت: «كلامك غريب كأنك بتقول حقيقة محايدة»

قال: «كنت عايز اقول كل شيء جميل اكثر مما يجب بعدين تذكرت عبارتك الرائعة: Nothing is too good

تحولت الى مهرجة. قالت: ضاحكة بعربدة وجسدها كله يتحرك:

- «رائعة رائعة وبعدين يعني يعني. انت كاتب ولازم تكون لغتك ثرية. مش كده؟»

قال: «اللغة وسيط ضعيف. مافيش للحب الا كلمة واحدة»

قالت: «فيه غرام عشق وله، وفيه الموت حباً»

قال: «كلها وصف لحالات عامة هذا الحب بالذات، حبي مالوش اسم.. زينب...»

قاطعته: «ماتخوفنيش الله يخليك»

- «اخوفك؟ انا؟»

قالت: «كنت عايز تقول ايه؟»

قال: «انا ماعرفشي اي حاجة عنك»

- «عايز تعرف ايه؟»

- «مثلاً مثلاً، حبيتيني ليه؟»

قالت: بتتصور اني حطيت الاسباب وبعدين حبيتك؟ شفتك وشعرت اني حبيتك»

قال: «حبيت حد غيري؟»

تنهدت وقالت: «انت غاوي تعذب نفسك»

مالت برأسها الى كتفه وأخذت تفك أزرار قميصه ثم تعيد تزريرها. همست:

- «ساكت ليه؟»

قال: «الساعة كام؟»

- «بدري»

- «بدري على ايه؟»

- «على السهرة. الساعة سبعة دلوقتي»

قبلت صدره. كانت شفتاها ساختنين. دفن وجهه في شعرها وقال:

- «حبيبتي»

كان مستثاراً. وقفت وقالت: «يالله نلبس ونترل نتمشى»

كان الجو بارداً في الخارج. سارا على كورنيش النيل من كوبري الجامعة حتى كوبري عباس. كان الجو رمادياً والمشاهد من حولهما صامتة. عادا، ثم سارا على كوبري الجامعة. عبراه. تأملا تمثال نهضة مصر، ثم واصلا سيرهما في الشارع الذي يفصل بين حديقة الحيوانات وحديقة الاورمان كانا يسيران على الرصيف المحاذي لحديقة الحيوانات. قالت زينب:

- «تعالى نعدي الرصيف الثاني ريحة الحيوانات فظيعة»

كانت الاشجار تخفيهما. فكر: لماذا انقطع الحديث بيننا؟ يدها في يده باردة. وضع يديهما في معطفه نظرت اليه وابتسمت. قالت:

ج

- «ماشفتش صحابك»

قال انه سوف يرى كثيرين منهم الليلة عند وليد. سألته ان كان له أصدقاء كثيرون، قال انه احياناً يتصور ان له مئات الاصدقاء، وأحياناً يشعر ان ليس له صديق واحد. قالت يبدو أنك تطلب الكثير من الصداقة، اكثر مما يمكن أن تعطيه. ثم صمتا. الصمت جعله ينظم ايقاع خطواته

لتنسجم مع ايقاع خطوات زينب. ضحكت وقالت: **«خطوة عسكرية»**

قال: «وانت؟ عندك اصدقاء كثيرين؟»

- **«معارف»**
- «وأصدقاء؟»

قالت ان الرجال يقيمون صداقات مع المرأة وفي اذهانهم السؤال التالي: متى نقودها الى السرير؟ اما مع الفتيات فالصداقات لاتدوم. المرأة تفقد خصائصها، وتنسى علاقاتها في حضور الرجل

قال: «انت فاقده خصائصك دلوقتي؟»

ضحكت وقالت: «لا»

- «ليه؟»

قالت باعتداد: «تجاوزت دا كله»

اتجها يساراً الى ميدان الجيزة. عندما وصلا مقهى «سان سوسي» تذكرا انهما أصبحا قريبين من بيت وليد قال ايهاب:

- «نطلع دلوقتي؟ الساعة ثمانية»
- **«نطلع»**

عندما دخلا بيت وليد كان مزدحماً .

الفصل الثالث

بعد أن غادرا مبنى المباحث العامة استأجر اسماعيل ووليد سيارة اجرة واحدة. اصر وليد على اسماعيل ان يصحبه الى البيت، فقال له اسماعيل انه سيذهب الى شقته ليطمئن ويستحم ويبدل ملابسه ثم سوف يلحق به. هبط اسماعيل في بداية الشارع الذي يفصل بين جامعة القاهرة وحي بيت السرايات.

دخل الحي ساعة الغروب. لم يلتق باحد يعرفه. كان باب البناية معتماً وكذلك السلم. احاطته الفة المكان كالدفء. صعد السلم وهو يتنحنح. كان ذلك تنبيهاً للسكان أن أحداً يصعد السلم. من ينتبه لذلك يضيء من الداخل المصباح الموضوع فوق الباب الخارجي. اضيء المصباح في الطابق الثاني والرابع حيث يسكن

شقته مكونة من حجرة وصالة ومنافع وفي نفس الطابق كانت تسكن فاطمة صاحبة البناية. رأى باب شقته مفتوحاً، وفاطمة تنتظره في الصالة. حين دخل اقتربت منه وعانقته، وهي تقول:

- «الحمد لله على السلامة ياسي اسماعيل نورت»

ضمها اسماعيل اليه وقال: «ازايك يابطة وحشتيني»

نظافة الشقة واعتناء فاطمة بملابسها، عطر الياسمين والبخور اللذان يفوحان من جسدها دلالة انها كانت تعلم انه سيفرج عنه هذا اليوم. قال:

- «كنت عارفة اني خارج النهاردا؟»

قالت: «طبعاً الدنيا كلها عرفت»

- «نوال قالت لك؟»

- «قالت: يامانفسي ازغرت ياسي اسماعيل، الدنيا مش سايعاني. بس مكسوفة ياأخويا»

قال: «لا بلاش احسن تلمي الناس علينا»

امسك وجهها بين كفيه وأخذ يتأمل وجهها. بدا الوجه اكثر اشراقاً مما يذكر قال: «احلويت»

ضحكت بخجل وقالت بصخب وقد جعل الخجل وجهها قرمزياً:

- «ماانا طول عمري حلوة»

كانت فاطمة نصف زوجة. بدأت العلاقة الجسدية بينهما منذ ثلاث سنوات. بدأت ملتهبة

ملتبسة بامل الزواج وبمطامع صغيرة، ثم انتهت الى مودة عميقة. كانت في الاربعين من عمرها رغم انها تقول انها في الثانية والثلاثين. كانت متوسطة الطول مكتنزة، لها ثديان مرتفعان وعجيزة كبيرة. عيناها عسليتان واسعتان تطل منهما الدهشة والسذاجة. لا تشعر ابداً بالذنب لاقامة علاقة جسدية مع اسماعيل، ولا تكترث كثيراً لرأي الناس.

استحم اسماعيل وارتدى ملابس نظيفة، بدا فيها اكبر سناً. كان يعرف انها كما اعدت نفسها لاستقبـاله فقد اعدت له عشاء خاصاً. جلس معها قليلاً ثم قال لها أنه سيخرج لعمل هام. لن يتأخر. سيعود ليتعشيا سوياً. لم يكن يريد لاحد ان يزوره في البيت. لقد أصبحت نوال تعرفه الآن، وربما آخرون. رأى خيبة الامل في وجهها قال: «مش حاتأخر»

ثم هبط السلم

كان بيت وليد مزدحماً بالمهنئين. استقبلوا اسماعيل بحماس شعر بحبهم يلح عليه فتحدث مع الجميع، وقال ان عليه أن يعود الآن، اقترح احد الحاضرين ان يقوم الذين افرج عنهم بجولة في سيارته يرون فيها القاهرة في الليل. رافقهم اسماعيل بالجولة حيث مروا على مصطفى وتفيدة، وايهاب وجدوا زينب عنده، ثم عادوا باسماعيل الى بين السرايات كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف. باب شقته مغلق ونورها مطفأ. فاطمة تعلن عن غضبها. فتح الباب واتجه الى حجرة النوم. وجدها حيث توقع: نائمة على السرير. عندما تغضب تنام. جلس على طرف السرير برفق وأخذ ينظر اليها. بين عينيها المغمضتين دموع. لقد بكت قبل ان تنام. لن يستغرق ارضاؤها وقتاً طويلاً. من حقها ان تغضب فهذه الليلة ليلتها. وما كان عليه ان يخرج في هذه الليلة بالذات. اختلج وجهها بابتسامة. لقد استيقظت ولكنها تتظاهر بالنوم. تأمل وجهها، وقال: «بطة»

قالت وهي مغمضة العينين: «ايوه»

قال: «اصحى يابطة»

قالت: «الساعة كام؟»

قال: «ثمانية. نمت بدري ليه؟»

قالت بدلع انثوي: «ماانت عارف»

ضحك وقال: «زعلانة؟ كلها نص ساعة اللي غبتها»

كان كل شيء يسير باعتباره تمهيداً للجنس. في نهاية السهرة. نوعية الطعام تحمل دلالتها: حمام محشي بالفريك وجوزة الطيب وحب الهال والقرفة والزنجبيل. كان العشاء. اكثر مما هو وليمة.

وضعت فاطمة الطبلية في الصالة وأخذت تنقل اليها الاطعمة من شقتها: حمام محشي كباب حلة كبدة مقلية، سلطة بلدي، طرشي. كانت تضع الطعام في طبقه بعد أن تقطعه. يقول لها: «كلي انت» فتقول انها لاتشعر بالجوع. كل انت. يأكل ويلتفت اليها ويقول: «مابتاكليش ليه؟» فتقول: «كل انت دلوقتي» يمسك صدر حمامة ويقطعها، يمسك بالقطعة ويضعها في فمها. تقول: «كل انت» فيقول لها: «كلي من ايدي» يواصل اطعامها فتتمنع وتقول انه عليه هو ان يرم عظمه. تتناول قطعة من الكباب حله وتضعها في فمه. يأكلها ويقبل الاصبعين اللذين ادخلا اللقمة في فمه. يتحول الطعام الى قبلات للاصابع، الى استعراض للمودة والتمنع الى نكات نصف بذيئة تتحول فيها

عبارات تناول الطعام الى اشارات للجسد. قالت: «وحشتك؟»
قال: «موت. وانت؟»
قالت وقد تهدج صوتها: «الك وحشه ياسمعه والنبي.»
أعادها اسماعيل الى جو المرح: «يعني عينك مازاغت كده والا كده؟»
قالت: «المعجبين كتار» وهي تمط كلماتها وترمش بعينيها.
كان اسماعيل يعلم انه ليس من حقه ان يشبع. سوف تظل تضع الطعام في فمه حتى ينتهي الطعام. فاشعل سيجارة. رأى المفاجأة في وجهها. قالت:
ـ «وحاتسيب الاكل دا كله لمين!»
قال لها: «بريح شويه. كلي انت.»
قالت: «مش اكلك.»
قال: «اكلت اكل يومين.»
قالت: «يقطع السجن وسنينه. سيب السيجارة دلوقتي وكل حته الكبده دي.» ووضعتها في فمه. اكل الكبدة وهو متخم. قال لها ان الليل طويل وسيجوعان. قالت:
ـ «تتعش تاني؟»
قال: «نسيت. حااكل حلاوة نية.»
كركرت بالضحك ونهضت. جاءت ببرتقال مقشر ومفصص وشاي. تحول الحديث الى اخبارها. سألها عن الدكان، فقالت: «الامور ماشية.» سألته عن السجن، فقال لها، لم يكن كالمرات السابقة. كان خفيفاً. وأخذت تسأل عن الطعام في السجن، والنوم، وكيف يقضون النهار. وهو يجيبها بايجاز. ثم استدركت. لم تكن تريد لهذه الليلة ان تتحول الى حديث جدي. الرجل يريد ان يرتاح، ويجب ان تريحه. نظرت الى ساعتها وقالت:
«الساعة احداشر. تعالى نريح.»
ارتديا ملابس النوم. لبس اسماعيل جلابية بيضاء ضافية ولبست هي قميص نوم زهرياً مطرز الياقة والصدر بخيوط زهرية لامعة واشد غمقه من القميص. وضع ذراعه حول عنقها، فقالت:
ـ «يوه، عيب ياخويا.»
تمددا على السرير. ادارت له ظهرها، فقال:
ـ «ايه ياجميل».
قالت: «سيبني انام. مش كفاية الهانم اللي سبتني ورحت لها.»
كان اسماعيل خبيراً بهذا النوع من المعابثة. تخترع سبباً للغضب. وتمثل دور المرأة المناكفة، ويقوم هو بدور العاشق المشوق. قال:
ـ «وانا ليا حد غيرك.»
ـ «كلام بتقوله تضحك عليا بيه»
قال: «مين الهانم اللي حاتبص لي انا!»
التفتت اليه بعنف وضمته اليها وقالت:

«ماتقولشي كده ياسي اسماعيل. انت سيد الرجاله. واكبر هانم تتمنى تبص لها.»
قال: «الله يجبر بخاطرك»
ادركت ان الكلام لم يعد مطلوباً فاستغرقت في المداعبة، ثم كانت ممارسة الجنس.
بعد ان اغتسلا نام اسماعيل على ظهره. وضعت فاطمة رأسها على كتفه ونامت.

الفصل الرابع

كانوا كلهم هناك. مصطفى وتفيدة. اسماعيل. حسن. وانصاف. زكي. هنية. وكان هنالك نساء ورجال، وجوههم مألوفة. يتحدثون مع الجميع ويعرفون كل شيء عن الحاضرين. كانوا يشغلون انفسهم بالاشراف على تقديم الخدمات. .بدا المفرج عنهم، بما فيهم وليد ونوال، وكأنهم من طبقة عليا، يتلقون الخدمات دون محاولة للمشاركة.

دخول زينب وايهاب اثار موجة من الترحيب. كان ايهاب يفاجأ دائماً بالحب الذي يبديه الآخرون نحوه. صورتهم في ذهنه هي لحظات انشغالهم عنه، التي كانت بالنسبة اليه لحظات اساءة. لذلك يفاجأ بتعبيرات المودة. خلمه باستمرار ان يكون له صديقات واصدقاء يفيضون بالحب دون انقطاع، وفي كل الاوقات. التعامل اليومي العادي كان يخلّف حرجاً في نفسه.

يندهش لتغير موقف الناس منه في مناسبة كهذه. يصبح الاخ الاصغر المحبوب والذي يجب رعايته من الجميع. كان ذلك رائعاً حين يصدر عن نساء لايعرفهن، كما في هذه السهرة، يتصرفن بلباقة وانفتاح صديقات قديمات. يشعر، على نحو ما، انهن اصبحن يحببنه. يصدم بهن دائماً عندما يلتقي بهن مرة أخرى في الشارع، أو في مكان عام، فيسلمن عليه بتحفظ، او يتجاهلنه. يشعر في تلك اللحظة انه اهين.

لاحظ بخيبة امل ان زينب لم تلق الترحيب الذي توقعه. كان يظن أن الجميع سوف يحتفون بها. فهي من خارج دائرتهم، وقد ادت خدمات لقضية المعتقلين. كما انها تمتلك امكانيات مميزة: اتقانها للفرنسية والانجليزية، صلاتها الواسعة وجمالها.

تصور ان زينب ستجلس بجواره حين جلس بجوار تفيدة. ولكنها جلست بجوار هنية وبدأت معها حديثاً خاصاً. رأى وجهاً جديداً لزينب، وجه المرأة المتحفظة، المترفعة، تنشغل عن الحاضرين وكأنهم لاوجود لهم. عندما دخلا سمعها تقول: «تفيدة هنا» من الاسلوب البارد المترفع السريع الذي سلمت به على تفيدة ادرك ان عبارتها تعني انها تستنكر وجود تفيدة. ازعجه ذلك. كانت تفيدة تفتنه، فيحلم بظروف تصبح فيها زوجته. لم يشعر باندماج المرأة المثيرة للرغبة مع المرأة الذكية المتماسكة كاندماجهما في تفيدة. ولذلك كان في تعامله مع مصطفى يشعر بحرج وبالذنب.

بدأت تفيدة حديثاً معه. قالت ان عبد الفتاح الجمل زارهم اليوم في البيت وتحدثوا عن

قصصه. قال انه يود ان يطلع عليها لينشرها في ملحق جريدة (المساء). وقالت ان هنالك أخباراً سارة أخرى، ثم نادت: «هدى»

اقتربت منها فتاة سمراء ضحوكة، وجهها مألوف. قالت تفيدة: «ايهاب»

قالت هدى: «فيه حد مايعرفشي ايهاب.»

ثم اقتربت حتى اصبحت امامه وقالت:

- «استاذ ايهاب. بكرة راحه. بعد بكره ايه؟ الجمعة. اجازة. يوم السبت الساعة عشرة نتقابل في سيموندس في الزمالك. مش موعد غرامي ماانا عارفه انك بتحب. حانروح لوكالة انباء المانيا الديمقراطية (أ. د. ن) عايزين مترجم».

قال: «بس..»

قالت: «مابسش. صينهوا مش حايرجعوك. حايدوك تعويض كويس، ومرتب لغاية ماتلاقي شغل. لكن مش حايرجعوك.»

قال ايهاب: «وهو كذلك. عشرة في سيموندس»

قال مصطفى: «ايه العز دا! النهاردا شفت واحد من البرنامج التاني في الاذاعة. كان عايز قصة من قصصك.»

قال ايهاب: «ودا معقول! دا انا راسي ابتدت تلف.»

مالت تفيدة وقبلت ايهاب على خده وقالت: «تستاهل اكثر من كده ياايهاب»

قال مصطفى لتفيدة: «اشمعنى ايهاب بس. وانا مااستاهلشي بوسه!»

قالت: «لا.»

قال مصطفى: «ضيعتنا ياعم ايهاب. ضعنا.»

قالت نوال التي كانت تراقب مايحدث: «بطّل زن يامصطفى»

قال: «وانت كمان!»

نهضت نوال وقبلت ايهاب على خده. قال مصطفى:

- «ضعنا احنا الاتنين. تعالى ياوليد اقعد جنبي.»

قال اسماعيل: «لا. روح انت اقعد جنبه. انا عايز اتكلم مع تفيدة شويه.»

قبل ان ينهض مصطفى قالت له تفيدة: «انصاف ماحدش بيكلمها.»

قال مصطفى:

- «انت فاكر ياوليد حااقعد جنبك؟ انا حااقعد مع زهرة السهرة. ازايك ياانصاف؟» وهو يجلس بجوارها.

تكونت مجموعات منفصلة ومتصلة: تفيدة ونوال وايهاب واسماعيل. مصطفى ووليد وانصاف وحسن، انضمت اليهم هدى. زينب وهنية. زكي انخرط في حديث مع امرأة. لاحظ ايهاب ان الجميع انصرفوا عنها. فكّر: انه مشروع زواج تم التخطيط له. لم يكن مخطئاً فلقد تزوجها زكي فيما بعد.

كان من الملاحظ ان شخصين كانا مركز استقطاب: تفيدة واسماعيل. فباستثناء زينب وهنية، وزكي والمرأة التي يحادثها كان الجميع يودون ان يقولوا لهما شيئاً، يطلبون منهما رأياً، أو يريدونهما ان يؤكدا شيئاً.

تنقل اسماعيل بين المجموعات المختلفة. تحدث وضحك مع الجميع. ولكنه كان يبدو وكأن اثرة من العزلة تحيطه. الجميع يقتربون منه الى حد معين، ثم يشعرون ان عليهم ان يتوقفوا. اما تفيدة فبدت وكأن مجالاً جاذباً يحيطها. على نحو ماجلس معظم الحاضرين في اوضاع يستطيعون فيها رؤية تفيدة او مخاطبتها. معظم الدوائر كان منفتحة عليها. لم يكن يستغرقها شيء عن الاستجابة الى سؤال موجه اليها، والى حكاية يرغب راويها ان تسمعها. بدا وكأن غالبية الحاضرين لهم علاقة خاصة بها ولغة خاصة للتواصل معها.

دائرة زينب وهنية بدت طاردة لكل من يقترب منها. كلاهما كانتا تديران كتفيهما للحاضرين. زينب يحيطها ترفع وحدة. اسماعيل اقتحم الدائرة وجعلها مفتوحة للآخرين. بعد التحيات التقليدية سأل هنية التي تعمل في منظمة اليونيسكو عن آخر أخبار نقل معبد ابو سمبل. بدا مطلعاً على الموضوع. قال لزينب انه يشعر بتقدير خاص لجهودها فى الافراج عن المعتقلين. قال لها انها جعلت من قضيتهم قضية عالمية. ادهشها بمعرفة كل تفاصيل ماقامت به. ولكنه عندما غادرهما انغلقت الدائرة مرة أخرى.

كان ايهاب، وهو يتأمل زينب، يعيش مفارقة. كان ترفعها وصرامتها غير متوقع وقد شهدها بكل ذلك الشبق واللهاث والضراعة البارحة واليوم. يحبها هكذا اكثر متماسكة، بعيدة. انه يتذكر، والضحك يكاد يدهمه، تأوهاتها، وايقاع جسدها اللاهث. عندما نظر اليها مرة أخرى بدت وكأن حجمها قد تضاءل. بريق تفيدة جعل زينب تبدو جافة. في تلك اللحظة شعر بالذنب نحوها. اقترب منها وقال:

- «قاعدين لو حديكو ليه؟»

قالت زينب بذلك الوقار المترفع: «اقعد ياايهاب»

جلس. قالت هنيه: «كنا بنتكلم عنك»

قال: «قلتوا ايه؟ نتفتوا فروتي طبعاً.»

قالت هنيه: «المدموزيل بتقول انها اول مرة بتشعر بحب حقيقي.»

قال: «صحيح؟»

كان وجه زينب وقوراً. امسكت يده وكأنها تأمره بالصمت، وقالت:

- «انا عايشه في عالم سحري»

وامسكت بكأس البراندي الذي أمامها وشربت منه بتلك الاناقة التي تميزها. كان ايهاب يطالعها، محاولاً ان يستعيدها. كانت عادية منذ قليل. الآن أخذت ملامحها تكتسب تميزاً. شعر بشيء من الحرج في الجلوس معها، كأنه، على نحو ما، يعلن قطيعة مع أصدقاء احبوه، ومنحوه الكثير، قطيعة وقحة متعمدة. وفي الوقت ذاته كان يشعر بالذنب لو ابتعد عنها. قال:

- «خلال يوم واحد شعرت ان الحياة بتديني كل شيء.»

كان يعني الحب الذي احيط به من الجميع. فرص النشر والعمل التي انفتحت له، وزينب. عندما رفعت زينب يده وقبلتها ادرك انها تصورت انه يعنيها وحدها. حاول ان يغرق نفسه في حالة عشق لم يكن يشعر بها في تلك اللحظة. استاء من نفسه وهو يلاحظ ان جذعها قصير. ليس لها حضور وهي جالسة قال:

ـ «بس فيه شعور بيعذبني ان زينب رسمت صورة خاطئة عني. يعني..»

قالت: «بطل يعني دي.»

قال: «بقول يعني اني مش جدير بيك..»

كان في وجه هنيه تعبير محايد بدا لايهاب انه يحمل استنكاراً ما. اما زينب فقد تكونت دموع في عينيها. قالت هنيه: «شربت كتير يازينب.»

قالت وهي تجفف دموعها باصابعها: «لا. انا فايقة».

قالت ذلك بحسم بدا غريباً وسط تلك الثرثرة العاطفية. ثم أضافت:

ـ «بس بعيش لحظة مش حاتتكرر.»

قال ايهاب: «حاتتكرر لآخر العمر. بتقولي مش حاتتكرر؟»

قالت هنيه: «زينب مرهقة. محتاجة لحب حقيقي.»

قال وهو يشعر انه يتورط: «ودا موجود. موجود جداً.»

شربت زينب جرعة من كأسها ولم تقل شيئاً. شعر ايهاب بالحرج. اخرج علبة سجايره. قدم لهما سيجارتين واشعل السجاير الثلاث. قال:

ـ «قاعدين لوحديكو ليه؟ ماتيجوا تقعدوا مع الناس.»

قالت زينب: «روح انت اقعد معاهم. فيه كلام خاص بينا.»

كان اسماعيل يقوم بالتوديع يقول انه مرتبط ويشعر بالاسف لمغادرة هذه السهرة اللطيفة. سجل ارقام تليفونات ومواعيد مع عدد من الحضور. بعد انصرافه اصبح موضوع السهرة لفترة من الوقت. كان كل واحد عنده مايقول عنه. تحدثوا، بالطبع، عن الواقعة الشهيرة، التي حدثت في اوائل الخمسينات، عندما دخل اسماعيل احد المعسكرات البريطانية، مرتدياً ملابس ضابط بريطاني، ثم دخل المقصف، وجلس بجوار ضابط بريطاني وقال له بهدوء:

ـ «ان رصاص مسدس سوف يخترق جسدك ان لم تنفذ ماطلبه منك. سوف نركب سيارة تقف امام المقصف، وسوف نخرج من المعسكر سوياً.

لقد احدثت الواقعة ازمة في العلاقات المصرية ـ البريطانية.

تحدثوا عن تحوله الى الشيوعية، عن الحياة المتواضعة التي يعيشها، عن حبه الحقيقي للآخرين.

بعد ان انتهى الحديث عن اسماعيل ـ حتى زينب وهنية توقفتا عن الحديث واخذتا تصغيان ـ بدأ حديث السياسة. تحدث مصطفى فقال ان هنالك جناحين في السلطة. قاطعه وليد: «كانوا تلاتة.»

ابتسم مصطفى وقال: «دلوقتي بقوا اتنين.»

وأضاف ان الصراع يدور حول ثلاثة محاور. الاراضي المستصلحة بعد السد العالي: هل توزع على الفلاحين ام تحول الى مزارع دولة؟ المسألة الأخرى هي التصنيع. جناح يرى انه يجب الاستمرار في التصنيع، وتنفيذ الخطة الخمسية الثانية، والخطة الخمسية الثانية، على فكره، تركز على التصنيع الثقيل. الجناح الآخر (ابتسم ونظر الى وليد) يمكن متأثر باسلوب الشعارات الصيني، يرفع شعار: «المشي على قدمين» يقول ان القطاع العام استولى على كل شيء ولم يترك فرصة للقطاع الخاص الذي يجب ان يأخذ فرصته.

قال وليد: «البورجوازية الوطنية» وضحك.

قال مصطفى: «عليك نور.»

وشارك وليد في ضحكه. ثم أضاف ان وراء هذا الجناح الأخير المقاولون، او تلك التي يسمونها بالطبقة الطفيلية.

قالت نوال: «دي غير البورجوازية الوطنية؟»

قال مصطفى: «طبعاً» وأضاف ان البورجوازية الوطنية، يعني أصحاب المصانع الصغيرة، خاصة المصانع القائمة على سداد الدين السوفييتي، مصانع الاحذية والاخشاب والبورسلين والملابس الجاهزة....

قاطعته نوال: «الى آخره، الى آخره.»

أكمل مصطفى: «دول بقى مع التصنيع الثقيل.»

قال وليد: «يعني البورجوازية ضد القطاع الخاص. ودا كلام يادرش. كمان شويه حاتقول ان البورجوازية ضد الملكية الخاصة.»

قال مصطفى: «انا ماقلتش كده، اللي قلته ان البورجوازية الوطنية ليها مصلحة في التصنيع.»

قال ايهاب: «يعني حانبقى مجتمع اشتراكي بجد بس بدون حزب.»

قالت نوال بانفعال: «اشتراكية عثمان احمد عثمان والمقاولون العرب.»

قال ايهاب: «لذيذ عالم الاوهام الجميلة دا. اشتراكية بدون حزب. اشتراكية بتقيمها بيروقراطية فاسدة.»

قال مصطفى: «صبرك علينا يارفيق ايهاب.» تحدث عن التنظيم الطليعي. سوف يكون سرياً، نواته من الشيوعيين ومن الناصريين الذين تخرجوا من المعهد الاشتراكي. وهذا هو محور الصراع الثالث.

قالت زينب: «ابقى تغطى كويس يامصطفى»

كان التعليق جارحاً الى حد جعل الجميع يصمتون. كان مصطفى ينظر الى زينب منتظراً ان تستمر. ولكنه كان من الواضح ان الاهانة قد افقدته تماسكه.

قالت تفيدة «وضحي كلامك يازينب.»

قالت دون ان تلتفت لتفيدة:

- «الشيوعيين، رغم احترامي الكبير لهم، عايشين في عالم من صنعهم، عالم من الأوهام. مش

قادرين يشوفوا الواقع. باستمرار النظرية أولاً الواقع في الدرجة التانيه. بتقولوا القطاع العام قوي والقطاع الخاص ضعيف؟ دا صحيح بس المليونيرات صاروا مليونيرات من خلال القطاع العام. انا عايشه بين الناس وشايفة اللي بيحصل. شايفة ازاي دورة القطاع العام بتصب في القطاع الخاص.»

كان الجميع مستفزين من زينب، فلقد وضعت جميع الشيوعيين في سلة واحدة فانتقلت الى الصف المعادي.

قال مصطفى: «داحنا مش عايشين في المريخ. انا قلت لك رأي بعض الشيوعيين السابقين ودا مش رأيي.»

قالت نوال: «غلطتك يازينب انك بتعتقدي ان الشيوعيين كلهم لهم رأي واحد. بعدين اسلوبك الاستفزازي دا اسلوب مش صحيح.»

قالت زينب: «الحقيقة دايما جارحه.»

انهت زينب السهرة بعدوانيتها.

***

استعجل اسماعيل بالانصراف ليس لأنه كان مرتبطاً بموعد، بل ليخلد الى نفسه. كانت فكرة تلح عليه، اراد ان يدرسها من جميع جوانبها. البداية كانت عندما طرح عليه مصطفى هذا السؤال: كيف نفلت من بين مطرقة الخط الصيني وسندان حل الحزب؟ اعتقد اسماعيل أنه قدّم اجابة وافية ومقنعة على هذا السؤال. الا انه منذ تلك اللحظة وهو يسأل نفسه: «مادمنا لانرتبط بالخط الماوي كاملاً، فلماذا ننسب انفسنا اليه؟ فكّر: «لو كان لنا خط مستقل فان مجال العمل سيتسع امامنا، ولن نواجه احراجات الدفاع عن مواقف لايمكن الدفاع عنها.» سيحدث انشقاق داخل الحزب، دون شك، وسنفقد كثيرين ممن يعتبرون (الكتاب الاحمر) انجيلهم. سنفقد اليقين الذي يكرسه شخص له حجم ماوتسي تونغ ودولة عظمى كالصين. وسوف تجد أجهزة الامن فرصة لخلق مزيد من التفتيت، وستوجه ضربات جديدة. ولكن ذلك لابد منه.

كان قد عبر ميدان الجيزة وأصبح في شارع الجامعات. الشارع واسع وخال من المارة. كان احساس ثقيل يضغط عليه. لقد اقترب من الخمسين وعليه ان يبدأ من الصفر. يبدأ من البداية بعد ثلاثين عاماً لم يعش لحظة راحة واحدة. يستطيع ان يستوعب موقفه من موقف يكون فيه مشروعه قد تجسد. ولكن شكوك البداية ستظل قائمة الى ان يحسم امره.

رأى انه دخل حي بين السرايات؟ ودخل البناية التي يسكنها. أخذ يصعد السلم بحذر لم يكن هنالك مايخشى وقوعه. ولكن الصمت فرض الحذر عليه. في الطابق الرابع كان يلهث كبرت يااسماعيل. فتح الباب فشم عطر الياسمين. فاطمة تعتقد انه بحاجة اليها. كان يريد ان يكون الليلة وحيداً، ولكنه لايستطيع ان يكون فظاً معها. يتذكر حين اخفته وهو مطارد، حين أعانته حين كان لايجد النقود لدفع الايجار او لشراء الطعام. لم يشعل ضوء الحجرة. خلع ملابسه مكتفياً بالضوء القادم من الصالة، تنفسها تغير انتظامه. ربما استيقظت. ارتدى جلابيته وتمدد بجوارها. قالت: «تعشيت؟»

قال لها: «تعشيت نامي».

عادت الى النوم فوراً بعد ان ضمته بذراعها.

***

كان ايهاب مختلط المشاعر. اسكتت زينب الجميع دفاعاً عن قوله: «لذيذ عالم الاوهام الجميله دا» ولكن عدوانيتها لم تكن عدوانية شيوعي ضد شيوعي آخر. فمثل هذه العدوانية لاتمس بعض الثوابت، ومنها صفة شيوعي. اما عدوانية زينب فقد كانت هجوم العالم الخارجي الذي يحاصر الاقلية المضطهدة. وهما يهبطان السلم أخذت زينب تفرك وجهها في كتفه، ثم قبلت عنقه. رائحة البراندي المنبعثة من فمها كانت نفّاذة، اثارت غثياناً. قالت: «برد»

قال: «حاناخد تكسي على طول.»

قالت: «هنية حاتوصلنا في سيارتها.»

تمنى لو تريحه هذه الليلة، لو تذهب الى بيتها وتدعه ينام. انه بحاجة ملحة للنوم. كانت هنية تجلس وراء المقـود، ومصابيح السيارة مضاءة، والمحرك دائر. جلس ايهاب بجوار هنية وزينب في الخلف. دارت السيارة حول الميدان ودخلت شارع الجامعات. قالت هنيه: «كانت سهرة لطيفة. لكن زينب..»

قال ايهاب: «كلام زينب كان صحيح. بس كانت استفزازية.»

قالت زينب: «انا آسفة ياحبيبي.»

كان صوتها نحيلاً معتذراً.

كان ايهاب مشدوداً الى اتجاه السيارة. هل تنحرف الى اليمين بعد حديقة الحيوانات، وتجتاز كوبري الجامعة الى بيت زينب ام تتجه الى ميدان الدقي؟ لو تريحه هذه الليلة. دارت السيارة حول النصب التذكاري، ثم مرت بحديقة الاورمان، ثم مالت يميناً، ثم يساراً عبر شارع الدقي. لاحظ براعـة هنية وتمـاسكها وهي تقود السيارة. هذا الاتزان يخفي حيوية وانوثة عارمة ومنضبطة. وجد الكلمة: انوثة ناضجة. لماذا لم يفكر ان يقيم علاقة معها. شعر بالحذر والنعاس يتلاشيان. عندما توقفت السيارة امام بنايته اصر ايهاب على هنية ان تأتي معهما. كان اصرار من يريدها فعلاً ان تأتي. قال:

ـ «تاخدي كاس ويسكي يشيل قرف البراندي.»

قالت بصوتها الناعم المنغم: «الساعة واحدة ونص ياولاد.»

قالت زينب آمرة: «انزلي ياهنية.»

قالت هنيه: «طيب. لما اصف السيارة.»

عندما رآها ترتقي الدرجات المؤدية الى المصعد، تملي رشاقة الخطوات، والجسد الطويل الممتلىء قليلاً، دون ترهل، شعر انه عاشق. كانت مطلقة، يسارية الاتجاه، دون ان تنتمي وتعرف كيف تحمي نفسها.

كان ايهاب يعرف ماسوف يحدث له داخل الشقة. سوف تكشف هنية عن تفاصيل جديدة في جمالها. رغبته سوف تعيد صياغتها فتصبح فاتنة. دخلوا الشقة وقاد ايهاب هنيه الى الصالون. قالت

زينب: «عن اذنك ياهنيه. صب لي معاكو ياايهاب.»

قال: «طبعاً حبيبتي.»

تنهدت هنية بعمق. لاحظ ايهاب ان ساقيها جميلتان. توقع ان تقول شيئاً. ولما لم تقل شيئاً خرج وجاء بزجاجة الويسكي والثلج والماء وثلاثة كؤوس. استغرب بقاء زينب في حجرة النوم. أخذ يصب الويسكي وهو يعلم ان عيني هنية عليه. قالت: «صببت كتير.» رفع عينيه اليها. التقت عيونهما فارتبكت. هل تعرف؟ قال: «عايزه ميه؟»

قالت انها تريد ثلجاً فقط. وضع الثلج في الكؤوس الثلاثة. رفع كأسه وقال:

- «في صحتك.»

قالت بحزم: «نستنى زينب.»

اعاد كأسه الى مكانه وخرج. فتح باب حجرة النوم وقال: «بتعملي ايه ياحبيبتي؟»

قالت: «بغير.» كانت ترتدي بيجامة بيضاء منقوشاً عليها دوائر خضراء محاطة بمجموعة من النقاط السوداء والخضراء. وفوقها تلبس روباً صوفياً زهري اللون. اقترب منها وقبل وجنتها. استعادت فتنتها. عاد الى الصالون وزينب تسير خلفه. امسك الجميع بكؤوسهم وشربوا. وضعت هنيه يدها على رأس زينب وانزلقت على شعرها واستقرت على ظهرها. قالت لها: «مبسوطة؟»

قالت زينب بحماس: «قوي فيه حاجه اسمها حب.»

قالت هنيه: «طبعاً فيه. طبعاً فيه.»

شربت ماتبقى في كأسها ونهضت، وقالت: «باي ياأولاد تمتعوا بشبابكو.»

قالت زينب: «قولي لنفسك.»

قال ايهاب: «اشربي كمان كاس.»

قالت: «حاسوق السيارة. وبكره لازم اصحى بدري. تصبحوا على خير.»

قبلتهما وانصرفت. قالت زينب: «نعسان طبعاً.»

قال: «ابداً فايق زي الجن.»

قالت: «لازم تنام حبيبي. بقى لك كام ساعة مانمتش؟»

أخذ يحسب بأصابعه وقال: «ثلاثة واربعين ساعة.»

قالت: «طيب. لازم تنام.»

قبّل فمها وقال: «اسكتي.»

ابعدته قليلاً وقالت: «نتكلم شويه. انت بتعرف تفيده كويس؟»

قال: «الا اعرفها. طبعاً اعرفها.»

قالت: هل تعرف انها كانت مومساً؟ مومساً رخيصة ومبتذلة؟ وتاجرة حشيش؟ وانها دخلت بينكم بترتيب من جهات امنية؟ انا لاافهم كيف خدعتم بها؟ وهي الآن تكتب مسلسلات اذاعية؟ كيف تستطيع مومس امية ان تكتب مسلسلات؟ من الذي يكتب لها؟ انها تمارس الدعارة حتى هذه اللحظة.

قال ايهاب ببرود: «وعرفت دا كله ازاي؟»

قالت: «عرفته لاني عايشه بين الناس. مش حابسه نفسي في قوقعة.»

قال ايهاب وهو يحاول ان يتمالك أعصابه: «صدقيني كل معلوماتك عن تفيدة خاطئة.»

قالت: «بتتكلم بثقة.»

قال: «لاني واثق من كلامي.»

قالت: «انت عايش في قوقعة.»

قال: «اذا كنت انا عايش في قوقعة الشيوعيين فانت، باين، عايشة في قوقعة ناس مش عايز اوصفهم.»

قالت: «انت زعلت؟»

قال: «صدقيني انا زعلان عليك مش منك. بتكرهي تفيدة لسبب مش مفهوم ولذلك اخترعت حكايات كاذبة عنها. ورجاء بلاش تبتزيني بحكاية القوقعة.»

شرب ماتبقى في كأسه وصب لنفسه كأساً آخر، وأخذ يشرب صامتاً، دون ان يلتفت اليها. سمعها تبكي. لم يضعف. عليها ان تتعلم ان ادانة عالمه يضعها في سياق عالم آخر، عالم الاعداء. سمعها تقول بصوت مرتعش: «ايهاب.»

نظر اليها، كانت وجنتاها مبللتين بالدمع. قالت: «انا آسفة» لم يرد، قالت:

ـ «ماكنتش اعرف انك بتعزها للدرجة دي. أنا آسفة.

قال لها: هؤلاء مهما اختلفت معهم فهم لحمي ودمي. وانت كانسانة احبها لااقبل ان تكوني في الجانب الآخر. ثم اي عالم هذا الذي تعيشين ويعرف مايدور في الحجرات المغلقة، ويمتلىء بالحقد على الشيوعيين! من هم أصدقاؤك الذي يروون لك هذه الاحاديث المبتذلة؟ قالت: «انت حبيبي. وعالمك حايكون عالمي.»

خلال ذلك الوقت كان الخوف ينمو في داخله، خوف ان تغضب وتنهي كل شيء. ماكاد يلمس خدها الزلق بالدموع بشفتيه حتى التحما في عناق حار، لاهث، متشبث، كأن احدهما يخشى ان ينفلت الآخر منه فلا يعود قادراً على الامساك به. عبارات العشق تواردت في ذهنه ولكن فمها لم يتح له ان ينطق بشيء. ثم هبط ايهاب الى الارض. قبل ركبتيها واخذ يهبط بشفتيه. قالت: «حبيبي ماتعملشي كده.»

واحتضنت وجهه بين كفيها. قال: «عايز ابوس كل حته في جسمك.»

قالت: «تعالى ندخل جوه في اودة النوم.»

وقفت، فنهض وحملها فقالت: «تقيلة عليك.»

سار بها وهي تحيط ذراعيها بعنقه. لم تكن خفيفة بالفعل. وضعها على السرير وهو يلهث. كانت لسعة الفراق، الذي بدا منذ لحظات وشيكاً، يدفعهما الى حد الاندماج الكامل. نفذ ايهاب رغبته في تقبيل كل جزء من جسدها وفعلت هي نفس الشيء. عندما عاد ايهاب من الحمام للمرة الأخيرة، قال لها: «شفت الفجر بيطلع. شفته من شباك الحمام.»

ودخل تحت اللحاف. قال: «يومنا التالت من غير نوم. نعسانه؟»

قالت: «فايقة جداً.»

تلكأت قليلاً، ثم قالت: «بوسني»

لمس شفتيها بشفتيه. قالت: «يقطع البرد.»

نهضت من السرير واتجهت الى الحمام. رآها في خياله تغتسل، وهي تتأوه من البرد. ثم اندهش حين أحس بها دافئة مستكنة. بجواره. قال بصوت خشن مهجور:

ـ «رجعت بسرعة.»

قالت: «عارف الساعة كام؟»

قال: «الفجر طلع. الساعة ستة ونص تقريباً.»

ضحكت وقالت: «الساعة تلاتة. بقى لنا اكتر من تمان ساعات نايمين.»

قال لها انه لايعرف حتى انه نام. واضاف: «لنسترخي قليلاً.» ولكنها كانت مستثارة فأثارته. في الساعة الخامسة قال لها: فلنأكل شيئاً. قالت: نتمشى شويه، نغير جو، ونكمل في البيت. ثم انطلقت ضاحكة حين ادركت استعمالها لكلمة «نكمل»

قالت: «بقى لنا اليوم وبكره من شهر العسل.»

قال: «وبعدين حانسيب بعض؟»

ضحكت وقالت: «حانرجع الشغل.»

قالت سعاد: «صحيت سناء مرة واحدة. عملت لها الرضعة. شربت ونامت على طول.»

قالت تفيدة: «طبعها هادي.»

قال مصطفى: «طالعه لامها.»

ابتسمت تفيدة ودخلت حجرة النوم لتلقي نظرة على الطفلة. قالت سعاد:

ـ «طالعة لامها بجد. خالتي اعصابها هادية.»

قال: «تعبناك ياسعاد».

قالت: «ابداً. كنت قاعدة بتفرج على التلفزيون. حطوا فيلم جوهره. قديم قوي.»

قال مصطفى: «يوسف وهبي ونور الهدى، روح الجيزة وروح حلوان واطلع فيا القلعة كمان؟»

قالت: «بالضبط. السهرة كانت حلوه؟»

قال: «كانت لطيفة. بس كان فيه وحدة مخلولة اسمها زينب سخفت شويه.»

قالت: «سكرت؟»

قال: «سكرت. وهيه باين بنت سخيفة.»

كان مصطفى مندهشاً كيف زال كل احساس بالحرج بينه وبين سعاد. لقد انهت تفيدة علاقته بسعاد، فعادت سعاد بنت الاخت الودودة، وكأن لم تكن علاقة جسدية بينهما امتدت اكثر من سنة. اصبحت ابنة اخت تفيدة فقط. واحدة من المحارم. دخلت تفيدة وقالت:

«تعرف يامصطفى، انا خايفه على ايهاب من البنت دي.»

قالت ذلك وهي مشغولة بتسوية الروب المخملي الاسود حول جسدها. قال مصطفى: «حاتعمل بيه ايه؟ حاتاكله؟»

قالت: «حاتدمره. انا بعرفها. وايهاب رقيق وحساس.»

قالت سعاد: «حاتدمره ازاي؟»

قالت تفيدة: «زينب مش من النوع اللي بيلتزم بعلاقة.»

قال مصطفى: «باين البنت بتحبه. اظن هنيه هيه اللي عرفتهم على بعض.»

قالت تفيدة: «ودا رأي هنيه كمان. زينب حاولت تقيم علاقة مع ايهاب قبل ان يدخل السجن. هنيه منعتها.»

قال مصطفى: «امال هنيه عاملة صاحبتها قوي.»

قالت تفيدة: «هنيه صديقتها.»

سادت فترة صمت. شغلاه بالجلوس في الصالون. قالت سعاد:

- «حاجيب سرير سناء هنا.»

نظرت اليها تفيدة بتساؤل. قال مصطفى: «ليه؟»

قالت سعاد: «عرسان جداد.»

في السرير كانت تفيدة ومصطفى خجلين. فتش مصطفى عما يقوله، فقال:

- «لسّه زعلانة؟»

قالت باستنكار: «منك انت؟ انت حبيبي.»

قال: «بحبك لدرجة الالم.»

قالت: «فاهمه.»

- «امال ايه الحكاية؟»

قالت: «مش عارفة، مش عارفه ايه اللي جرالي. ماعدتش بحب الجنس. مش عارفة.»

قال: «فيه حد تاني؟»

قالت بسرعة وحسم: «لا. حبيبي. لا.»

- «مصدقك.»

قالت: «عارفه اني... شاعره اني مجرمة.. انت محتاج..»

قال: «كنت بفكر بيك طول الوقت.»

لم تستطع ان تكذب وتقول انها كانت تفكر فيه طيلة الوقت. لايعرف شيئاً عن عالمها السري. كان الصمت ثقيلاً عليهما. قال: «من اول ماشفتك حسيت انك تغيرتِ.» ثم قال لنفسه: «فلا توقف عن هذا الشكوى المذلة.

كانت سعاد في المطبخ: يبدو ان الطفلة استيقظت. انها تعد للطفلة رضعتها، قال لنفسه دون أن يكون متأكداً ماذا يعني ذلك بالتحديد.

قال: «لسّه ماتصاحبتش انا وسناء.»

اضاء وجه تفيدة وقالت: «حاتحبها موت.»

قال: «لازم اتعود عليها الاول.»

الفصل الخامس

كان لتفيدة عالمها السري، الذي لم تبح لاحد باسراره. اخفته لانه عالم غريب. حين كانت تعيش في بركة السبع، البلدة التي ولدت فيها وعاشت فيها السنين الاربعة عشرة الاولى من عمرها، كانت تتصور ان كل مايحدث خارج بلدتها مثير الى اقصى حد. غادرت بركة السبع وجاءت الى القاهرة. كانت فتاة جميلة، قوية البنية، وحلت ضيفة على عائلة من بلدياتها، تسكن في منطقة الخليفة. اكتشفت مخططات العائلة، ان تشغلها خادمة وتستولي على الجزء الاكبر من مرتبها فقررت ان تهجرها في أول فرصة متاحة.

لم تبهرها القاهرة، كما تبهر في العادة القادمين من الارياف والمدن الصغيرة. بل شعرت بخيبة امل من هذه المدينة المتربة، المزدحمة. كانت قد تصورتها، من خلال الافلام السينمائية التي شاهدتها، مدينة من الحدائق والفيلات والممثلين. رغم خيبة الامل كانت متيقنة انها منذورة لمصادفة، تحدث في حديقة مليئة بالزهور والاشجار، يمر النيل قربها، ولكن ماءه لم يكن هذا الماء العكر، بل كان ماء رائقاً، ازرق، كأنه مصبوغ بالنيلة، تنقلها هذه المصادفة الى عالم سعيد، مضيء، تختلط سعادته بالفجيعة. كان عالماً صاخباً، متنوعاً، سوف يخلصها من حياة الكدح التي تعيشها، ومن الضجر الذي كانت تعاني منه طول حياتها.

كانت تعيش حلمها كيقين يوم ما سوف يتحقق. ولكنها. كانت بالاضافة الى ذلك. تمتلك حساً عملياً وجرأة دون حدود. كانت تفتقد تأنيب الضمير او الاحساس بالندم. حلمها هو الحقيقة وكل الوسائل صالحة. لم تكن تمتلك الانا الا علي، الذي تغرسه الطبقة المتوسطة في ابنائها.

عملت خادمة لفترة قصيرة، ثم هجرت العمل واشتغلت بائعة جرجير وفجل وكرات. وعندما خطبها رجل يكبرها عشرين عاماً، يعمل في المطافىء، وسائق تاكسي في أوقات الفراغ، رضيت به، دون أن تستشير أحداً. أدركت بحسها العملي ان هذا احسن خيار امامها.

نقلها الى مسكن في شارع السكر والليمون، في مصر القديمة. ومنذ ليلتها الاولى ادركت ان هذا الرجل ليس قدرها، ولكنه وسيلتها. كشف عن حبه لها باسلوب جعلها تشعر ان الرجل في قبضتها. لقد قادها خطوة خطوة للسيطرة عليه واحتقاره، فأصبح ذلك هو الوضع الطبيعي في علاقتها. وعادت الى حلمها بالبطل الفاتن الثري الذي سوف ينتزعها من ظروفها وينقلها الى عالم

البيوت الفخمة والحدائق الجميلة. وهكذا صار الزوج شيئاً عارضاً ومؤقتاً في حياتها. لهذا قررت الامتناع عن انجاب الاطفال منه.

حسها العملي الذي تربى ونما عبر ظروف الحياة الصعبة دلّها أن المصادفة وحدها لن تقود ذلك الحبيب المنتظر اليها، كما يحدث في الافلام المصرية. كانت تلك معرفة، مخيبة للامل، وعتها، ولكنها كانت تتجاهلها في احلام يقظتها. تعلمت ان اكتشاف حقائق الحياة يعني تدمير الاوهام الجميلة. رغم ذلك فان تلك الاوهام تعاود الظهور متجاهلة كل معرفة قدمتها التجارب.

بعد أيام قليلة من زواجها اقامت علاقة مع شاب يسكن وحيداً في شقة قرب كوبري الملك الصالح. كان موظفاً في مصلحة الشهر العقاري، وشقته المكونة من حجرتين وصالة كانت البؤس بعينه، ودخله البالغ عشرة جنيهات في الشهر والذي كان يقتطع منه جنيهين يرسلهما لامه في القرية، لم يكن يتيح له اكثر من مجرد ثلاث وجبات يومياً. رغم ذلك فقد رأت فيه تفيدة تحقيقاً لاحلامها بالرجل المنتظر. تسلط حبه عليها، وأصبحت شقته البائسة حلم حياتها المقبل. لقد بنى الرجل أسطورته الخاصة بدءاً من وجوده المحدود، الفقير، المفتقد لكل تميز.

لقد ادهشها حلول الانسان الواقعي محل رجل الاحلام. أصبح كل مايحيط به مشحوناً بسحره. أصبح حضوره يقتحم كل لحظات حياتها اليومية. يختلط بمعطيات ويتوالد عبر احلام اليقظة. حين تنام بجوار زوجها على السرير يصبح الحبيب حياة للفراش تتمدد لصق جسدها، تداعبها وتمنحها الرضى. تسرع دقات قلبها وتكاد تنطلق مسرعة خلفه حين ترى في احد السائرين في الشارع تفصيلاً ما، حركة او التفاتة تذكرها به. كان هنالك روائح ما، رائحة جسده، رائحة العطن في شقته الرديئة التهوية، رائحة القهوة تحملها اليه، تستعيده اليها كملمس، وكرغبة تنبض في أحشائها.

أصبحت اعمال البيت اليومية لغة، ايقاعاً لحضوره في داخلها، تندمج في حلم يقظة نمطي، تحتل فيه دور الفارس الذي ينقذ حبيبته. يأتي الخطر اليه من جهة ما، فتقف بينهما معرضة نفسها للموت. كان هاجسها ان تجعله يعلم بشكل يقيني انها تحبه اكثر مما يعتقد. لهذا السبب كانت تحمل اليه الطعام وتعطيه النقود وتمضي ساعات طويلة في تنظيف شقته وغسل ملابسه. كانت تلك براهين على الحب الذي تحمله، والذي هو اكبر مما يتصور الشاب.

كانت تحب فيه ذلك الترفع الذي يجعله يتقبل كل ماتفعله من أجله دون ان يعترف به، او يشكرها من اجله. في احد الايام فاجأها بقوله انه سوف يتزوجها، وكأنه هو المعني وحده بهذا الزواج قالت:

ـ «ماحنا كويسين كده»

وعلى التو رأت بؤس الشقة، رأت السحر في وجهه يخبو. طالعها المستقبل بالاطفال يتجولون في الشقة. والسجن الابدي في هذه الظلمة، والحاجة الى نقود لن تأتي ابداً. وبدا الرجل عادياً، مفتقداً لكل صفات المحبوب.

ودعته في ذلك اليوم ولم تعد اليه ابداً.

عاشت رعب ان يلاحقها ويرغمها على الزواج منه. فالتزمت بيتها واخذت تكتشف في زوجها مزايا محببة. وعجبت كيف عميت عن هذا الزوج الطيب، الكريم النفس، المتسامح. اصبحت عاشقة، او هكذا خيل اليها. ولكنه اضجرها حين أخذ يلازم البيت فترة اطول من المعتاد، مقتطعاً من ساعات عمله كسائق سيارة اجرة. استمر ذلك حتى جاء الوقت الذي أصبح فيه مجرد ملمسه يبعث قشعريرة في جسدها، فطلبت اليه بحزم ان يعود الى عمله في سيارة الاجرة كالسابق تلكأ، فعاملته بقسوة، وجعلت البيت جحيمًا، فوافق على طلبها في النهاية.

نفورها من زوجها جعلها رغبة خالصة ممنوحة لكل رجل يروق لها. فاقامت علاقات متعددة وسريعة مع العديد من الرجال. كانت علاقاتها خيبات امل متتالية. تبني عالماً من الحلم مع كل علاقة جديدة، عالماً رائعاً يستمد معطياته من احلام يقظة سابقة. ثم يتهاوى الحلم، ويعاودها الضجر. ولكن الحلم يعاودها بقوة، دون ان يفقد شيئاً من جماله، مع كل علاقة جديدة، فتعيش خيبة الامل مرة أخرى. عرفت فتوة صاحب مقهى، ثم هجرته بفظاظة عندما تبين لها ضعفه الداخلي امامها. الح عليها ان تتزوجه فنفرت منه. عرفت طلاب جامعة، وضباطاً فتنوها في البداية، ثم تكشفوا عن كونهم رجالاً كالآخرين، رجال اعمال يملكون سيارات. . وابعدتهم عنها جميعاً.

حبها الأول والحقيقي كان تاجر الحشيش حامد. كان سيد الرجال. يعرف كيف يتعامل معهم، ويسيطر عليهم، ويجعلهم ادوات بين يديه. لم يجعله الثراء مترهلاً. كان يخوض معاركه مع رجال الامن بجسارة. كان دائمًا مستعداً لخوض المعارك. مسدسه جاهز، وكذلك الرشاش الذي يخفيه في شقته بعناية. لم تعرفه صغيراً قط. عندما جاءتها سعاد وأخبرتها، وهي مصفرة الوجه، ان المعلم حامد قد أخذها معه الى البيت، وهنالك افتض بكارتها، جن جنونها. ذهبت اليه في بيته والشر في وجهها قالت له: «تعمل كده مع عيلة من جيل ولادك!»

لم يدافع عن نفسه، بل قال لها: «انا مستعد لايتها حاجة تطلبيها.»

قالت: «فاكرني جايه لك عايزة فلوس؟»

اقسم لها ان هذا ليس قصده. قال لها أنه مستعد للزواج من سعاد. ثم نهض وقال: «بينا عالمأذون.»

قالت منذهلة: «عالمأذون؟»

قال لها، لايكون عندك فكر. بعد المأذون حاتكون شبكتها اللي تقولي عليها، والبيت جاهز من مجاميعه. الاثاث سيأتي غداً. البيت سيكون باسمها، وقائمة الاثاث سوف تكون باسمها. كان المعلم واقفاً قرب الباب يستعجلها. قالت:

- «اقعد شويه دلوقتي يامعلم.»

وهي تعاني ارتباكاً.

أكبرت الرجل عندما علمت - من سعاد فيما بعد - ان سعاد هي التي اغوته اكبرته حين رأت انه لم يخبرها بذلك، بل لم يدافع عن نفسه. بدا لها صورة للفروسية والجدعنة. فمنحته نفسها. لقد الغت ديكور حلمها، وعاشت فتنة الرجل الواقعي الذي حل محل احلام اليقظة القديمة والثابتة. قضت اياماً حلوة معه ولكنها أدركت انها لن تكون الا اداة في يديه. وحين شاركته في تجارة الحشيش كانت

مجرد شريكة صغيرة. تعيش في ظل المعلم الكبير لانه تنازل ورضي بذلك.

طالبها ان تتخلى عن هذه التجارة الخطرة. قال لها ان النقود وافرة، وهي ليست بحاجة الى هذا العمل. ولكنها ادركت ان ذلك يعني ان تتفرغ لمتعته، متعة رجل ليس زوجها، بل مجرد رجل عابر في حياتها. وكأنه ادرك اعتراضها فعرض عليها الزواج. فقالت: «ماانا متجوزة يامعلم.»

ضحك وقال: «لامؤاخذة نسيت.»

كان الزواج منه يعني، بالنسبة لها، ان تلغي نفسها تماماً، وان تصبح أماً لعدد لاحصر له من الاطفال.

وعندما أخذت تسمع عن مصطفى من سعاد أثار أحلام يقظتها بقوة. كان المعلم حامد قد دخل السجن، وكانت هي تعيش في وحدة. تصورت عالماً من الرجال المتعلمين والشجعان، خطراً وممتعاً تشارك اصحابه حياتهم. كان الوجه الآخر لعالم المعلم حامد. وحين جاء مصطفى يبحث عن سعاد فاجأها. كان وسيماً، طويلاً، نحيلاً، فيه نعومة الافندية وطلاب الجامعات. كانت قد رسمت له شكلاً مختلفاً، اقرب الى المعلم حامد.

عندما غاب اخذت صورته تلح عليها. حلم عالم الرجال المثقفين الشجعان جعل تفيدة تعيد صياغة ابطاله. فقبلت مصطفى في خيالها، ثم عاشت معه، وتزوجته. اكتشفت عالماً جديداً ولكنه مختلف عن تصورها. كان يتقاطع في كثير من المواقع مع العالم الواقعي الذي تعرفه. لم يكن كله اثارة.

ولكن هذا العالم شكل تحديا لها. ولّد لديها شعوراً بالدونية، وحافزاً ان تكون مستحقة له، ان يقبلها كفرد فيه. وفيه ايضاً عرفت نوعاً من العلاقات لم تعرفها من قبل. في السابق، كانت علاقاتها بالآخرين تمر عبر جسدها. وقد تكيف جسدها ليستجيب لكل مايواجهها. كان التعبير بالجسد هو لغتها الاساسية. حتى في احلام صباها كانت ترى القاهرة، بمشاهدها المستعارة من الافلام السينمائية، من خلال جسدها. البطل ينجذب الى جسدها، ويستمتع به، آخرون يرغبون في جسدها ولكنها ترفض، الحسّاد يحاولون تشويه صورة جسدها، فيتبدى الجسد جميلاً يتحداهم. . في هذا العالم الجديد تعرفت على العلاقات الانسانية المكتفية بذاتها، التي لاتنفذ اليها عبر جسدها. هكذا كانت علاقتها مع اسماعيل وهنية ونوال ووليد وايهاب ومنصور والآخرون. كانوا يعاملونها بندية. لقد جردهم ذلك من الدفق الانفعالي الرجولي الخشن للراغبين في جسدها، فبدوا لها ـ في البداية ـ وكأنهم جنس ثالث. ولكنها تعودتهم، واكتشفت ان في مخاطبة عقلها سحراً فتنها. من خلال ذلك تولد مفهوم جديد للرجولة.

تأكد ذلك حين تعرفت على المخرج الذي ساعدها على كتابة المسلسل، والذي اخرجه لها. جاءها غازياً. كان من الواضح، وهو قد عرف بعض المعلومات عن ماضيها واعاد صياغتها فحولها الى شبه مومس، انه يعتقد أنها سوف تستجيب له راضية شاكرة بمجرد ان يبدي رغبته. زارها في البيت حاملاً اقتراحات باجراء بعض التعديلات على المسلسل. تعمد ان يلمسها، ومرة امسك يدها وهو يتكلم وضغط عليها. شعرت بجسدها يرفض حضوره.

انتقلت اليه الرسالة. خطوة أخرى وسوف تكون الفضيحة. سيتحول من صديق للشيوعيين

يقدم لهم خدمات في ظروفهم الصعبة، الى رجل يعتدي على زوجاتهم وهم في السجن. فانهى عمله بسرعة وانصرف.

كلمت هنية بالتليفون من عند البقال. دعتها ان تمر هي ونوال. قالت انها أعدت لهما غداء. امامهما لم تكن تفيدة التي تعرفانها. بكت واحتدت وهي تحكي لهما ما حدث. تكلمت هنية بأسلوبها المحايدة المريح الذي أحست به كيد تداعب رأسها قالت:

ـ «معظم الرجال كده. بيحاولوا. والست هيه اللي بتقرر.»

قالت: «لكن ظروفي. والطفلة. ومصطفى في السجن!»

قالت هنيه ان الرجل عبر عن رغبته، وعندما لم تستجب توقف. لايوجد اية مشكلة. قالت نوال ان الرجال يفعلون ذلك في كل الاوقات، في كل الاماكن: الشبابيك، الشارع، على السلم. المهم المرأة، هل تستجيب ام لا.

وفكـرت تفيدة انـه من الغريب ان تنفعل هي بالذات لماحدث ولها كل هذه التجارب مع الرجال. قالت ذلك لهما، فلم تقولا شيئاً. الاغلب انهما طرحا نفس التساؤل على نفسيهما.

قالت هنيه: «باين غياب مصطفى والحمل والولادة اثروا عليك.»

وفكرت تفيدة ان ذلك قد يكون صحيحاً.

وما لم تقله تفيدة ان الكتابة قد اخذت تستولي عليها كلية، وان ذلك جعلها تنفر من كل ممارسة جنسية. لم تكن قد تبينت ذلك بعد. كانت ممارستها للكتابة استجابة لاحساس يلازمها في مواقف عديدة. كانت تجد نفسهـا وهي في قلبُ موقف من المـواقف خارج الموقف، تراه كما ترى مشهداً سينمائياً. في لحظة كهذه كان ما يجري يتحول الى كلام في داخلها، يصف ما تشهده. وكان هذا يترك اثره عليها فتحاول ان تخلق مشهداً مقنعاً.

وعندما تخلو الى نفسها في الليل تكتب مذكرات، . مسجلة بعض احداث يومها. كان الحدث الحار في داخلها يصبح بارداً على الورق. كانت تحاول ان تجعل كل مايحدث فريد، لم يسبق حدوثه، ولكن مايدهشهـا هو تواطؤ اللغة مع التصورات الشائعة، فيصبح ماتكتبه تكراراً نمطياً لما تراه في الافلام والروايات.

هذا المسلسل الاذاعي الذي كتبته تحوّل بفضل تواطؤ اللغة، وتعديلات المخرج الى مسلسل نمطي. لم تكن تعرف ان التوصل الى لغة تستطيع ان تعبر عن الجديد وغير المألوف هو نتاج مجهود ومعـانـاة يخترق الكـاتب برهما ببطء وألم عمومية اللغة. ارادت لبطلة المسلسل، التي جاءت من الارياف الى القاهرة وعانت كثيراً، ثم تزوجت الرجل الذي احبته ان عذابها لم يكن بسبب وحشية المجتمع القاهري، ولم يكن لان احداً قد غرر بها ـ هي شخصياً لم يغرر بها احد، ولم تواجه وحشية تقف عزلاء في مواجهتها ـ ولهذا لم يكن زواجها انتصاراً للخير على الشر. ارادت ان تقول ان احلام الفتاة تحققت دون بطولة، ودون اختيار للخير في مقابل الشر، وانه عندما تحققت احلامها تبين لها ان ماتحقق كان مخيباً للامل.

كان هاجس تفيدة هو ذلك الخداع الذي مارسته عليها الافلام السينمائية والروايات وأوهام

الناس واللغة. ولكن المسلسل جعل النهاية سعيدة انتصر فيها الخير على الشر. لم تدافع عن وجهة نظرها لانها لم تكن تعيها بوضوح بحيث تعبر عنها.

ثم قررت ان تكتب رواية، ان تحول حكاية المسلسل الى رواية. وكان ذلك يعني ان تحكي تجربتها. لم يخطر ببالها قط ان غالبية الروايات الجيدة هي، على نحو ما، سيرة ذاتية. بدأتها مرات عديدة، وفي كل مرة تكتشف ان ذلك لم يكن ماتريد ان تكتبه. كانت تندهش لهذه الرواية التي تمضي في خيالها حارة، سهلة، كيف تتحول، عندما تكتبها، الى كلام فاقد الروح.

اجلت كتابة الرواية وقررت انه عندما يخرج ايهاب من السجن سوف تسأله كيف تكتب الرواية. وشكت له، في خيالها، العذاب الذي عاشته حتى تكتب وفشلها رغم ذلك. سيقول لها مايجب عليها ان تفعله في عبارات موجزة، وعندها سوف تبدأ الكتابة. تصورت ان ذلك يشبه القواعد التي كتبت مسلسلاً اذاعياً على أساسها.

في داخلها تولد اقتناع باطني انه سيصبح باستطاعتها ان تهزم تواطؤ اللغة. لقد فرحت بالحوار الذي حذفه المخرج، والذي تعلن فيه الفتاة عن خيبة أملها. شعرت في تلك اللحظة أنها انتصرت على شيء لم تستطع تحديده.

وخلال ذلك كانت تقرأ كل مايقع تحت يدها من روايات. لم تعد تقرأ لمجرد المتعة، والاسترسال في احلام اليقظة، كما كانت تفعل من قبل، بل لتكتشف كيف كتبها مؤلفوها. ولكن ذلك كان يفلت منها في كل مرة. كانت تنساق مع الاحداث، ثم تتذكر في اللحظة الاخيرة، عندما تتوقف عن القراءة، ان التعرف على الطريقة التي تكتب بها الرواية قد فاتها، فتقول لنفسها: يبدو انني لن اعرف ذلك قط. لم تكن تعلم ان الشكل الروائي يتشكل ويرسخ في داخلها دون ان تعيه.

* * *

كانت تفيدة خلال ذلك، وهي تعيش حلم الكتابة، قد فقدت احساسها بجسدها، او بكلمة اصح قد نسيته. كانت ذكرى العلاقات الجسدية السابقة تتبدى على شكل وقائع فظة، شديدة الخطورة، وغير مؤكدة. تستعيد الاحساس بجسدها عندما تصبح موضوع رغبة. تشعر في تلك اللحظات انها معرضة لعنف مباغت مؤلم يهدد منطقة ثدييها وبطنها فيستجيب جسدها بحالة هستيرية بين التوتر والتيبس. كانت تشعر بجسد الرجل الذي يحاول اقتحام حصانتها الهستيرية، تشعر بتفاصيل جسده وعرقه ولهاثه وافرازاته كمذاق في فمها فتستثار لديها رغبة في التقيؤ. ملمس الرجل الراغب يجعل معدتها تتقلص فتشعر بطعم القيء في حلقها.

قالت لنفسها ان مصطفى سوف يكون مختلفاً. لم تكن تصغي لجسدها وهي تقول ذلك. والصورة التي كانت في خيالها آنئذ صورة مصطفى جالساً على المكتب مستغرقاً في الكتابة. فتحت باب الحجرة بهدوء ووضعت فنجان القهوة على طرف المكتب. انتبه اليها ورفع وجهه نحوها. كان في عينيه تعبير دهشة وتساؤل، ضحكة معابثة، ممازحة. هفت نفسها اليه فمالت نحوه وقبلت جبينه. نهض وجذبها اليه. قالت:

- «مش عايزه اعطلك»

وهو يقبلها قبلات سريعة. قالت:

ـ «اقعد اشتغل.»

تستعيد الموقف فيغلبها الاشتياق. ولكنها عندما رأته داخلاً من باب الشقة بعد غيابه الطويل شعرت بهبوط وارتخاء، جعلاها تبذل مجهوداً حتى تظل واقفة وتتماسك. بدا، بتلك اللهفة التي في وجهه، ودخوله الذي كان اشبه بتسلل خليل متواطيء، واثقاً انها ستمنحه نفسها للتو واللحظة. تصلب جسدها يقاوم اقتحاماً مفتعلاً. الحركات التي تلت ذلك كانت غريبة عليها، كأنها تشاهد امرأة اخرى تؤديها.

كانت الطفلة هي أخصب مافي عالمها. كانت تشكل ارضاء انفعالياً اكثر ثراء وتنوعاً من اية علاقة سابقة بالرجال. كانت تثير فيها مزيجاً من الشفقة والتوق الى ضمها الى حد الرغبة في ايذائها. مشاعر حادة يثيرها فيها ذلك الجسد الناعم، البلوري المتفلت، مشاعر لاتفتر، بل يزيدها التقبيل والضم حدة. كان ذلك يشبه مايحدث في الاحلام، عندما تكون عطشى، فتشرب دون توقف ولا ترتوي.

كانت مناغاتها لها هذياناً تهدد فيه الطفلة بأنها سوف تأكلها تضع أصابع الطفلة في فمها وتهدد بقضمها. وعندما تنام الطفلة في حضنها كان ملمسها الناعم، الدافيء، الطري يثير موجات من الحنان والشفقة تهدد بالتحول الى بكاء. كانت تلك المشاعر تضغط على عينيها.

خطر لتفيدة انها في كل ماقرأته لم تجد من يصف هذه الاحاسيس التي تثيرها الطفلة. حاولت ان تضع هذه الاحاسيس في كلمات فبدت معيبة. فاحتفظت بها كسر مخجل.

كانت تفيدة تراقب الطفلة في لعبها وعبثها، فتخيلت اهدافاً ومقاصد لكل حركة تقوم بها، ولكل كلمة تنطق بها بطريقتها التي تشوه الكلمات. ثم أخذت تعتقد أنها أمام طفلة معجزة، لها عقل الكبار وذكاءهم، ولكنها عاجزة عن الافصاح عن ذلك. حكت ذلك لصديقاتها فرأت الضحك في وجوههن، وأدركت ان جميع الامهات يعتقدن ان اطفالهن معجزات حقيقية. فتوقفت عن الحديث عن ذلك. كانت تعرف داء الامهات ذاك، ولكنها متيقنة ان سناء معجزة حقيقية وليست وهماً صنعته ام محبة.

الفصل السادس

يوم الجمعة كان يوم المشي.

مساء الخميس، اليوم الثالث للقاء زينب وايهاب، سار الاثنان من ميدان الدقي في شارع الدقي، اخترقا حديقة الدورمان، وعبرا شارع الجيزة الى كوبري الجامعة. كانت زينب تسكن في العمارة التي يطل جانب منها على الكوبري، والجانب الآخر على القصر العيني الجديد. كانت عمارة تمليك دفعت مقدماً للشقة، وتم تقسيط ماتبقى على مدى عشرين سنة.

كان ايهاب يشعر بخدر في جسده، وببلادة ذهنية اما زينب فقد كانت منتعشه ومرحة. صعدا في الاسانسير وسبقته زينب وفتحت الشقة ودخلت. تردد قليلاً، فالتفتت اليه وقالت:

- «مكسوف؟ ادخل.»

تبعها وجلس على أول كنبة صادفته. جلست على طرف الصوفا وقالت:

- «بقيت مكسوف ليه لما دخلت شقتي؟»

لم يكن مسكوفاً، بل خائفاً، ارتسمت على شفتيه ابتسامة خجلة، معتذرة وجلس في حالة تهيؤ. كان مبعث خشيته شعوراً مبهماً من ان يفاجأه احد من اهل زينب ويسأله عن سبب وجوده في بيت فتاة تعيش وحدها. لن يجد مايقوله سوى توريط زينب. كان يعلم ان ذلك غير محتمل، بل مضحك، ولكن الخوف استمر في داخله، شيء آخر كان يتوقع حدوثه، دون سبب منطقي، وهو ان تلتفت اليه زينب وتقول انها ضجرت منه وتأمره بالانصراف.

قالت زينب وهي تضحك:

- «ماقلتش. مكسوف ليه؟»

كانت عيناها تبرقان بضوء شيطاني اسود ممزوج بلمعة بنفسجية. ولبشرتها الغامقة السمرة تلك الطزاجة، تلك النداوة التي توحي لمن يراها انها استحمت للتو وتعطرت. كانت تكثر من الحركة. قال:

- «مش مكسوف. يعني مكسوف شويه. بس يعني مش قوي.»

قالت:

- «يعني، يعني»

ونهضت واتجهت الى الداخل.

كان الصالون الذي يجلس فيه واسعاً، مدهوناً باللون الابيض، ولكنه وكأنه لم يكتمل. كان له طابع الحجرات في الدوائر الرسمية. على الجدران صور فوتوغرافية كبيرة الحجم، بالاسود والابيض صور لمارلين مونرو ولممثل شبه عار، شعر كثيف على رأسه وصدره وذراعيه وساقيه، وجهه مألوف ولكنه لا يتذكر اسمــه، صور لزنجية تمسـك بيدهـا مايكــروفـون تضعـه قرب فمهـا المفتـوح على سعتـه، بوسـترات يعلن احدها عن اوبريت «بيتر و الذئب» والموسيقى من تأليف شوستاكوفتش. كان الاثاث كنبات ضخمة، قبيحة، بنية، قد رسمت عليها اغصان بارزة فوق المخمل. والكثير من الطرابيزات ذات السطح الزجاجي والخشب الأسود.

الحرية التي شعر بها بعد انصراف زينب جعلته يجازف بالوقوف. ولكنها دخلت في تلك اللحظة تحمل صينية فوقها زجاجة نبيذ روزيه وكأسان واطباق بها مزة. شعر بالخجل من وقفته فجلس.

قال:

- «الروزيه العظيم!»

ودهمته الرغبة في الكلام مبعثها احساسه ان زينب ضجرة وان عليه ان يكون مسلياً. شعر انها اخذت تزهد فيه. قال وهو يراقبها تملأ الكأسين بالنبيذ. ان هنالك حكاية، ليست حكاية بالتحديد، بل ذكرى يريد ان يحكيها لها. مال جسدها من جذعها، باستقامة الى الامام وادارت وجهها اليه الذي كان متشوقاً لسماع الحكاية. استثير حسه التشكيلي وهو يراها تجلس على طرف الكنبة. اقترحها لوحة عنوانها «تحفز».

قالت: «ايوه».

قال انه سكن فترة، وهو طالب، في احدى جواري السيدة زينب. لايذكر اسمها الآن. الليلة ليلة الجمعـة. اليس كذلـك؟ اتذكر المشهد الصباحي ليوم الجمعة. المياه تغمر الشارع الضيق، المتعرج، المليء بالحفر. للماء المخلوط بالصابون لون اسمر عميق مع لمعة زرقاء قاتمة. كان ذلك اعلاناً عن ليلة من الجنس.

تهلل وجه زينب وقالت:

- «الحمام بالفريك وجوزة الطيب طبعاً.»

قال ايهاب:

- «والحشيش. كان الواحد بينسطل من الريحة.»

قالت:

- «يعني انت ماكنتش بتحشش؟»

قال:

- «كنت. بس ماكنتش حشاش قراري. مرة في الشهر او حتى في الشهرين. وصدفة. ماكنتش بدور عليه.»

- «المهم»

قال ليس هذا المهم، بل طقوس القاء الماء في الشارع. قالت:

- «وطقوس الجنس.»

وضحكت.

أراد ان يبعد ذهنها عن موضوع الجنس. قال تقف المرأة ممسكة بطشت ماء الاستحمام وتقول:

- «يقطع الحموم وسنين الحموم. هده في الليل وهده في النهار.»

بهذا تعلن عما حدث البارحة. تعلن انها استمتعت حتى أجهدت. تقول أخرى ضاحكة معربدة:

- «قطيعة تقطع الحشيش واهله.»

وتقطع كلامها بضحكة مصهللة. لقد أعلنت ان زوجها يطيل ممارسة الجنس. ثم تحدث معركة صباح الجمعة المتكررة بين سعدية الوش وسعدية حاف سعدية الوش متزوجة. وسعدية التي بدون وش هجرها زوجها بعد ان انجب منها خمسة اطفال. شرفة كل منهما في الطابق وتقابل الشرفة الأخرى. تبدأ سعديه الوش:

- «يقطع الحموم وسنينه. يابخت اللي ماعندها راجل يهدها بالليل وشغل البيت يهدها بالنهار.»

سعدية حاف تدخل شقتها وتغلق شيش شرفتها بصخب وعصبية. سعدية الوش تنوّع على نفس الموضوع. يرتفع صوتها زاعقة:

- «حاسب ياللي ماشي!»

وتلقي الماء وتواصل:

- «قال بيحسدونا. تعالوا شوفوا الهم اللي احنا فيه. ياهنيالك ياللي ماعندك جوز.»

سألته زينب:

- «واسمها وش ليه؟»

قال:

- «مش واضح من تصرفها ان عندها وش في مخها؟»

قالت زينب:

- «دي هرشه مش وش.»

- «هرشه وش المهم ان اسمها سعدية الوش.»

وأضاف ايهاب: حتى تكون الصورة واضحة سعدية الوش تعمل خادمة. المهم تواصل سعدية الوش تنويعاتها على نفس الموضوع، تنويعات مضحكة ومبتكرة. فجأة ينفتح شيش سعدية الاخرى بفرقعة وتقول:

-«غرايب. همه الخدامين اللي بيشتغلوا عند العزاب والسواح ناقصهم هموم؟ ماهية النجاسة طايلاهم في كل ساعة وكل دقيقة.»

وتعلق بين الاثنين. تقول سعدية الدش:

ـ الشغل مش عيب. بناكل وبنوكل اولادنا من عرق جبينا، مش زي اللي عاملات هوانم وبياكلن من عرق كذا . . »

ضحكت زينب وقالت:

ـ «يعني ايه كذا؟ هي قالت كذا؟»

قال:

ـ «لا. قالت كلمة قبيحة.»

قهقهت زينب وقالت:

ـ «ياحبيبي يأمؤدب وبعدين؟» قال ترد سعديه حاف:

ـ «قال بتاكل من عرق جبينها، قال. فاكراني كروديا. عرق جبينك يااختي والا عرق البتاع!»

مع هذه العبارة الموجهة مباشرة الى غريمتها تبدأ المعركة الحقيقية التي تنتهي بالهبوط الى الشارع. تهبط الاثنتان الى الشارع وتقفان متواجهتين. ويبدأ الزعيق. تعلن سعدية الوش:

ـ «ودين النبي حاقلع لك اللباس.»

قالت زينب: «وقلعته؟»

قال ايهاب:

ـ «كانت احياناً بتقلعه»

وأضاف ايهاب: كانت المشاجرة تتصاعد الى التماسك بالايدي وشد الشعر. عراك النساء غريب، عندما تتمكن من شعر المرأة فانها تصبح مشلولة. ثم ذلك العنف غير المدرب وغير الفعال. الايدي التي لاتتقن تصويب الضربة. الاثداء والعجيزة التي تعرقل الحركة السريعة . .

بدا ايهاب منتعشاً. الكلام يجعله هكذا.

قالت زينب:

ـ «بتتكلم عن الستات السمان. انا بمشي وبتحرك زي الصبيان.»

قال ايهاب لنفسه: بجسدها هذا الذي يشبه السهم يبدو ذلك صحيحاً. ونظر الى جسدها كأنه يراه لاول مرة. تملّى تلك الرشاقة المشحونة بالعنف، ذلك العنف الذي يحس به آلاماً وارهاقاً في عضلاته.

استقام جذع زينب، تنهدت وقالت:

ـ «نسينا الاكل»

ونهضت بوثبة واتجهت الى الداخل.

كان النبيذ خفيفاً له طعم مر تتقبض له عضلات الفم بعث فيه نشوة خفيفة. عادت زينب بعد قليل تحمل طبقاً كبيراً من السلطة وقطعاً كبيرة من كستليته البتلو. أكل بشهية. بعد ان انتهيا قالت زينب:

ـ «عجبك الاكل؟»

ـ «تستاهلي بوسه.»

- «بس؟ مش عايز اقلع لك اللباس؟»
احمر وجهه وارتبك قالت:
- «مكسوف؟»
قال:
- «لا. بس. . انت غريبة.»
وضحكت تلك الضحكة التي تعلن انها ارتكبت حماقة. أو مزاحاً ثقيلاً، وقد حان الوقت للتوقف عن ذلك.

في تلك الليلة رأى ايهاب زينب اخرى. بسطت له وجهاً جديداً من الثقافة الفرنسية لم يكن يعرفه، اثار خياله. حدثته عن غاستون باشلار كعالم جمال. قالت انه في كتابه «جماليات المكان» يتحدث عن دلالات القبو والعلية. ترجمت فقرات من هذا الجزء:

«بغض النظر عن ذكرياتنا فالبيت الذي ولدنا فيه محفور، بشكل مادي في داخلنا، انه يصبح مجموعة من العادات العضوية. بعد مرور عشرين عاماً، ورغم السلالم الكثيرة التي سرنا فوقها، فاننا نستعيد استجاباتنا «للسلم الاول»، فلن نتعثر بتلك الدرجة العالية بعض الشي. ان الوجود الكلي للبيت سوف ينفتح بامانة لوجودنا. سوف ندفع الباب الذي يصدر صريراً بنفس الحركة كما نستطيع ان نجد طريقنا في الظلام الى حجرة السطح البعيدة. ان ملمس اصفر ترباس يظل باقياً في يدينا.»

«اما بالنسبة للقبو فلسوف نجد له منافع دون شك. . ولكنه. . اولاً، وقبل كل شيء هو الهوية المظلمة للبيت، هو الذي يشارك قوى العالم السفلي حياتها. فحين نحلم بالقبو فنحن على انسجام مع لاعقلانية الاعماق.» حكت له كيف يرى باشلار الخزائن والادراج والاعشاش والقواقع والصناديق والعلب.

لو ان ايهاب قد قرأ باشلار لعلم ان زينب لم تستوعب كتابه بشكل جيد، ولكن ملاحظاتها السريعة عن الكتاب، والمقاطع القليلة التي قرأتها ولّدت عالماً ورؤية جديدتين في داخله، وكان ذلك مثيراً ومبهجاً حتى أنه لم يستطع الجلوس.

تواردت الأفكار مسرعة في ذهنه حتى انه لم يستطع ان يبدأ. قال:
- «عايز اشرب قهوة.»

وعندما نهضت تبعها الى المطبخ. حدثها وهي تعد القهوة عن رواية لعبد الحكيم قاسم عنوانها «ايام الانسان السبعة» لم تنشر بعد قال ان البيت الريفي الذي تصفه هو تعبير عن رؤية الانسان الريفي للعالم. تحت الفرن، والنار طبعاً، والظلام في حجرة التموين والجرذان كذلك. في هذا الجزء من البيت تتم محاولة اغتصاب، وفيه تتفتح رغبات الفتى المراهق واحلامه الجنسية وهو يراقب النسوة يقمن بعملية الخبيز. وحديث النساء في هذا المكان مليء بالتلميحات الجنسية. في الطابق الارضي تتم ممارسة الحياة اليومية، حياة العمل والتبادل، البيع والشراء. وعند الغروب يجتمع الدراويش في العلية. ضوء الغروب الناعم، الذي لامصدر له. يقول الدرويش الاكبر: «الغروب جوهرة فالتقطوها» نتابع هذا الضوء في الرواية. نراه في جامع ابو العباس، حيث يكون الضوء هو انعكاس ضوء الشمس الساقط على البحر.

اكمل كلامه وهما يشربان القهوة. قال: اليست هذه رؤية الريفي للعالم؟ الجزء السفلي مشحون بكل رموز الموت والانحلال والظلام والخطيئة. الحياة الدنيا في الجزء الاوسط والجنة في العلية. حتى مستويات الاماكن وعلاقتها رؤية: «الفرن وحجرة التموين تحت، وبيت الحياة اليومية في الوسط، والجنة فوق.

كان ايهاب منتشياً ببهجة الاكتشاف، ومفتوناً بهذا الوجه الجديد لزينب الذي انكشف: الوجه المثقف الحساس الذي يعرف كيف ينتقي موضوعه، وكيف يصغي بمتعة حسية. هكذا كانت تصغي اليه.

قطع حديثه فجأة وقال:

ـ «على فكره انا بحبك.»

قالت:

ـ «عارفه»

قال مشحوناً بانفعال متصاعد:

ـ «انا بتكلم عن شيء جديد خالص. بتكلم عن ارتباط دائم وعظيم، عن تنوع عن.. حب لانهاية له..»

قالت:

ـ «تقدر؟»

ـ «طبعاً.»

ضحكت وقالت:

ـ «ايه اللي حصل بالضبط؟»

ـ «انت بتمتلكي الشيء النادر جداً، جداً. القدرة على التنوع والتجدد..»

قالت:

ـ «ممكن بس دا له ثمن باهظ دفعته وبدفعه في كل لحظة وانت يمكن تدفعه.»

شعر بقلبه يتقلص. كانت عبارتها والطريقة الشبيهة بالاعتراف التي قالتها بها اشبه بالنذير.

قال:

ـ «كل الاشياء الجميلة ثمنها باهظ.»

وهو يلاحظ انه تكلم بنفس طريقتها. نظرت اليه نظرة تقول شيئاً محدداً. شيئاً مخيفاً، ذلك الخوف الذي تثيره ظواهر كونية خارقة. ثم اغمضت عينيها ومالت بجسدها على مسند الكنبة وصمتت. كان ايهاب خائفاً ومرتبكاً.

همست زينب وهي مغمضة العينين بشيء لم يتبينه. مال نحوها وهمس:

ـ «قلت ايه؟»

قالت:

ـ «بوسني.»

احتار كيف يفعل ذلك وهو في مكانه، وهي بعيدة عنه. لم يخطر له ان يقف. الحت:

- «بوسني.»

نهض وجلس جوارها. قبل عينيها فابتلت شفتاه بالدموع. بدت كالنائمة بسكونها وانتظام تنفسها. همس:

- «زوبة.»

اصدرت صوتاً من حنجرتها بدا كسؤال. قال:

- «عايزاني امشي؟»

انفتحت عيناها على سعتها كأنها استيقظت من نومها على مفاجأة غير متوقعة، طالعت الحجرة، ثم دفنت رأسها في صدره وهي تتشبث بكتفه وقالت:

- «مستحيل حبيبي مستحيل.»

وجهها يزيد الضغط على صدره، ويداها تزدادان تشبثاً. انفاسها الساخنة على صدره اثارت رغبته. كان في قبضتها وهي في قبضة انفعال مجهول. ثم شعر بقبلاتها ودموعها على نحره. وأخذت تتكلم بابهام. كان حديثها مناغاة وضراعة ثم نهضت. كان وجهها مبللاً. امسكت بيده وقادته الى حجرة النوم. في السرير كانت تتلوى بمرونة وعنف مذهلين وقد اجتاحتها رغبة لاتنطفيء. وعندما استهلكته نام وهو يمارس الجنس. ايقظته وجعلته يواصل. وعندما انتهيا للمرة الأخيرة استقلت على ظهرها. ذهب الى الحمام وعاد. تمدد بجوارها. نهضت ووقفت بجوار السرير عارية، وقالت:

- «نام. انا حاعمل لنفسي فنجان قهوة واقعد شويه.»

لم يقل شيئاً لأن النوم غشاه على الفور

في الصباح ايقظته. كانت تقف بجوار السرير، تحمل صينية وتدخن. كانت نضرة ومرحة. قالت:

- «اصحى. اليوم الأخير في شهر العسل.»

قال وهو يتثاءب:

- «الساعة كام؟»

- «ثمانية.»

- «وصحيت الساعة كام؟»

- «ستة ونص.»

- «مانمتيش يعني»

- «نمت خمس ساعات.»

كان صباحاً جميلاً. الجو بارد، والهواء نقي، والسماء كأنها مصبوغة بلون أزرق غامق. اجتازا كوبري القصر العيني، وسارا في شارع القصر العيني الى ميدان التحرير. في صباح الجمعة هذا كان المارة قلائل. بدت القاهرة لايهاب في تلك اللحظة كمدينة دخلها بالامس فقط، مثلما بدت له حين قدم اليها اول مرة: حبلى بالتوقعات.

توقفت زينب امام مقهى استرا وقالت: «نشرب قهوة.» اكتشف، فيما بعد، خلال مسيراتها الطويلة انها تحب ان تجلس في المقاهي التي يصادفانها، لتغذي حيويتها التي لاتهمد بالقهوة السادة.

في داخل المقهى، وقد جلسا بجوار شباك يطل على شارع، ويقابله سور الجامعة الامريكية، بدوا كعاشقين التقيا على موعد. نفس التحرج والخشية، والمحاولة المجهدة لايجاد موضوع للحديث. منذ ان غادرا شقته في ميدان الدقي وايهاب يعيش حالة من توقع أن ترفضه زينب او تشعر بالملل منه، خاصة عندما تصمت وتبدو مستغرقة في افكار لايستطيع حدسها. قالت وهي تحدد النظر في اتجاه باب المقهى:

- «تعرف اني كنت منظمة؟»

- «تنظيم ايه؟»

- «مش مهم.»

ضحك ايهاب وقال:

- «اخوان مسلمين؟»

قالت بجدية:

- «تنظيم شيوعي.»

- «وبعدين؟»

- «سبت. مافيش افق. بدل من نغيّر العالم العالم غيّرنا. غيّر الشيوعيين لغاية ماحلوا انفسهم.»

- «صحيح.»

قالت:

- «انت عارف الباقي.»

- «احكي لي.»

قالت:

- «بعدين.»

وصمتت.

احب الطريقة التي تشرب بها القهوة، وكل ماتشربه. طريقة تنتسب الى شخصية رقيقة، متأنقة، كأنها تذوق ماتشربه لتتبين جودته. كانت تضم طاقتي أنفها وتجذب شفتها العليا الى اسفل ثم تضم شفتيها فتبدو وكأنها على أهبة التمطق قال:

- «ودلوقتي انت ايه؟»

- «بحب.»

- «بس؟»

- «يعني بستمتع.»

- «بتتسلي؟»

قالت.

ـ «حبيبي بلاش نكد عا الصبح . »
وضعت شلناً على المائدة ونهضت . قال :
ـ «نستنى الجرسون . »
قالت :
ـ «سبت له بقشيش . »
من هناك سارا الى باب اللوق . قال لها وهو يشير الى شارع صغير كان على يمينه : سكنت في هذه المنطقة وانا طالب عند سيدة ايطالية . مدام الغا . كانت تؤجر ثلاث حجرات وتقدم ثلاث وجبات . سكنت عندها سنتين . كان واحداً من الطلبة المستأجرين عشيقاً لها .
قالت :
ـ «انت؟»
ـ «لا»
ـ «ليه؟»
قال : لم تخترني . ولم أكن أرغب في ذلك . سألته عن السبب قال : «عندما كانت تصحو في الصباح كانت تظهر تجاعيد في وجهها ، وكانت عيناها عكرتين ، محتقنتين ، كانت تحتاج لبعض الوقت حتى تستعيد حيويتها . كانت تقول انها مصابة بمرض في الكبد . اعتقد ان السبب انها كانت متقدمة في السن . قابلتها بعد عشر سنوات تألمت . كانت قد اصبحت عجوزاً ، بيضاء جداً ، بيضاء ذلك البياض المميت ، كبياض القطن ، سمنت ، وأصبحت العينان بقعتين حمراوين لاتستطيعين تحديد الحدقة والبوبؤ من البياض . كانت اشبه بالعمياء . سألتها عن احوالها . تفحصتني بنظرة قصار النظر ، ثم قالت بصوت زاعق :
ـ «هيهاب ايسايك؟»
سألتها عن امها . كانت عجوزاً جافة ، محنية الظهر ، قالت :
ـ «ماما؟ آه ماما . كان عيان كتير وبعدين مات . »
خطر لي هل مازال لها عاشق من مستأجريها . كان مجرد التفكير في ذلك مؤلماً .
قالت زينب ان للقاهرة تاريخ عنده . قال لها : في قريتنا ، عندما يقترب الانسان من الموت يدقق في كل شيء . يطالع كل ماحوله بذلك التركيز الغريب ، المتصل ، كما يفعل قصار النظر ، يقول أهل القرية عندما يشاهدون ذلك : الرجل يودع الدنيا .
انخطف وجه زينب وقالت منزعجة :
ـ «ايه اللي جاب سيرة الموت؟ مااحنا ماشيين مبسوطين . . »
قال انه نوع من توارد الخواطر . رفعت يده التي تمسك بها وقبلتها وقالت :
ـ «فكر باشياء مفرحة . »
قال لها وقد اقتربا من سوق باب اللوق انه يحب هذا السوق ، تنفتح شهيته عندما يرى هذه الاكداس الكبيرة من الخضار والفواكه واللحوم . تعرفي؟ نفسي ابوسك . سوف تكون شفتاك مثلجتين . الشفاة المثلجة طعمها لذيذ . ثم اضاف :

- «تقدري تقولي لي احنا رايحين فين؟»
قالت:
- «رايحين الفورية والحسين وبين القصرين نشوف البيوت القديمة والجوامع ووكالة الفوري والمسافر خانة الى آخره.»
- «مين اللي قرر؟»
- «احنا الاتنين.»
- «امتى؟»
قالت:
- «قررنا في داخلنا، من غير كلام او اتفاق، اننا نشوف القاهرة القديمة بعدما تكلمنا عن غاستون باشلار.»
قال:
- «زينب. انت، انت.»
- «ايه؟»
- «انت، انت.»
- «ايه؟»
- «آلهة.»
- «ماكنتش عارف؟»
- «تسو.»
- «أعرف بقى.»
بعد فترة صمت قال لها:
- «هنية صديقتك. مش كده؟»
- «طبعاً.»
قال:
- «حاولت ليه تبعدك عني؟»
قالت:
- «مش عارفه.»
قال:
- «وانت بتقولي مش عارفه، واضح انك عارفه. قولي لي قالت كده ليه؟»
ابتسمت تلك الابتسامة التي يتمدد فيها انفها وفمها، وتضيء عيناها بوهج شرير، وقالت:
- «يمكن كانت عايزاك لنفسها.»
كانت في تلك اللحظة في قمة انوثتها. قال لها ان ذلك غير معقول. لقد كان امامها لمدة خمس سنوات. ولم تقم باية خطوة لاقامة علاقة. قالت:
- «يمكن كانت مستنياك تاخد الخطوة الاولى.»

قال :

- «في الحالات دي النساء همه اللي بيقرروا . »

أطلقت ضحكة صاخبة وقالت :

- «معاك انت بس . »

بعض المارة التفتوا اليهما .

قال بعد فترة صمت : احب مرافقة يحيى حقي في جولاته في منطقة الغورية والحسين قاهرة أخرى يبنيها وهو يسير بجسمه القصير جداً، وعصاه، ووجهه الاحمر، ونظارته السميكة العدستين. يحكي عن نمط المعمار، عن الزخارف على الجدران، عن اسلوب الحياة القديم، عن عادات وتقاليد مندثرة . وحكايات . يحكي حكايات كثيرة .

قالت :

- «يحيى حقي شفته مرة . قصير جداً وأحمر زي الجنبري . وبيلفظ حرف السين بطريقة غريبة . لما زار خردشوف مصر شفته . كان شبه يحيى حقي، باين ان اصل يحيى حقي تركي . »

قال :

- «ماهيه دي المسألة الغريبة . »

- «ايه هيه؟»

قال : الناس الذين من أصول غير مصرية اكثر الناس ارتباطاً بمصر . اعتقد ان ذلك نوع من تأكيد هوية مشكوك فيها . يتعصبون لمصر وللاسلام وليس للعرب . اعرف شخصاً من العائلة الملكية . مازال يعيش في مصر . القاه كثيراً يسير في مناطق القاهرة القديمة : القلعة، الغوريه، جامع الرفاعي ، الازهر، الحسين . اراه في حر الصيف، في القيظ الشديد، ساعة الظهر يسير عرقانا، احمر، لاهثاً في تلك المناطق ، يتأمل البيوت والزخارف والبشر بنظرة من يودّع الدنيا . حدثتك عنها منذ قليل .

قالت :

- «ايوه كلمتني . »

قال : وفي ايام البرد كنت اراه أيضاً، يواصل تجواله دون كلل في الشوارع الموحلة وفي كل مرة تلتقي عيوننا يحدث نفس الشيء . يحني رأسه لي، ويرفع عينيه نحوي ورأسه محني، وتعبير حزين على وجهه ، تعبير غريب جاد، كأنه يشهدني على كارثة حلت، بسبب حماقة ارتكبها البعض . مدانة منا كلينا . أهز رأسي موافقاً، فيغمض عينيه ويتنهد، ثم يستدير مبتعداً .

قالت زينب :

- «بتعرفه شخصياً؟»

قال انـه تعـرف عليه من خلال بعض المـراسلين الصحفيين الغربيين . وقد كان أفراد هذه المجموعة مصابين بالشذوذ الجنسي .

- «وهوه؟»

قال انه ايضاً شاذ جنسياً، ولكنه كان يختلف عن المراسلين الصحفيين في انه يتعامل مع من يقيم معهم علاقة جسدية تعامل السيد مع الاجير . اما هؤلاء الصحفيون فقد كانوا يقيمون علاقات

غرامية. قال لي مرة أحدهم أنه يقضي مع صديقه ساعات طويلة، يمسد شعره ويمسك يده، اما الجنس فهو آخر مايخطر له. كان الصحفيون يقيمون علاقات مع سائقين، ميكانيكيين وانماط مشابهة، ولم اسمع ان علاقة قامت بين صحفي وآخر. سمعت احد هؤلاء يشرح لصاحبنا مشكلته مع صديقه الميكانيكي.

قالت زينب:

- «يعني حبيبه.»

قال: حبيبه. كان يقول ان حبيبه اصبح منذ فترة وهو يزوره زيارات قصيرة، ثم يعتذر انه مضطر للانصراف لان اعمالاً مهمة تنتظره. ولكنه، وفي اكثر من مرة، رآه يجلس في المقهى مع بعض اصحابه بعد مغادرته له بقليل. يقول الصحفي:

«يراني، فيدير وجهه. هذه هي الاعمال المهمة التي تنتظره كيف تفسر هذا؟ هل يمكن لحبيب ان يتصرف هكذا؟» يسأله صاحبنا الذي من العائلة الملكية: «اما زلت تحبه؟» فيرد الصحفي: «ماذا تتوقع؟ انني احبه اكثر من أي وقت مضى. اصبحت ابكي امامه فلا يجد ما يقوله سوى ان عليه ان ينصرف بسرعة». يسأله صاحبنا: «هل يقترض منك كثيراً؟» تردد الصحفي قليلاً، ثم قال: «في الفترة الاخيرة. يقول ان بعض الظروف قد طرأت جعلته بحاجة الى النقود. على كل حال ماأهمية ذلك؟» قال الآخر: «بل مهم جداً. انت بالنسبة له مصدر نقود وخمرة جيدة وسهرات.» قال الصحفي: «لاأعتقد ان علاقتنا تقوم على هذا فقط.»

قال ايهاب: مرة أخرى كنت مع رجل العائلة الملكية وصحفي غربي آخر.

كان الصحفي في حالة جنونية. كان صديقه ينوي الزواج فيشرح لنا بعصبية ان حبيبه اعترف له انه يحب الفتاة التي سيوف يتزوجها. في البداية قال ان امه ارغمته على الزواج منها، اما الآن فانه يحبها. يقول له صاحبنا:

- «وماذا كنت تتوقع؟»

قال الصحفي:

- «قلت: وانت ايضاً احبك»

قال صاحبنا:

- «يجب ان تفعل مثلي. تستأجره لفترة محدودة ثم تصرفه بحق الله ماذا كنت تنتظر؟ ان يحبك حتى آخر لحظة في حياته.»

قال الصحفي:

- «تعني ان استأجره للجنس فقط؟ انني بحق الله عاشق والجنس يأتي في المرتبة الثانية.»

قالت زينب وهي تضحك ضحكة طويلة:

- «انت غريب»

- «زهقتك؟»

قالت:

- «بالعكس. كلامك غريب.»

- «غريب ازاي؟»

قالت:

- «بتنط من موضوع لموضوع، وبتتكلم عن أغرب الاشياء كأنها مسائل عادية. انت بتجمع الحاجات دي علشان تكتب؟»

- «ايوه مع كل أسف..»

- «ليه بتقول: مع كل أسف؟»

قال:

- «انا بحب الحياة لكن مابعيشها. براقبها بس. الحياة بقت هامشية، مجرد مادة للكتابة ماعدا..»

ابتسم وصمت. قالت:

- «ماعدا؟»

- «ماعداك انت.»

ضغطت يده بقوة وقالت:

- «تتكلم جد؟»

قال: معك استغرق في اللحظة، اندمج، لا اراقب. اتعرفين لماذا ومتى اراقب؟ عندما اشعر بالملل. معك لاأشعر بالملل، احب ان اعيش الحياة هكذا. دون ملل. كانت السياسة بالنسبة لي في السابق تشبه مايحدث بيننا: الاستغراق في اللحظة، والاحساس بالقدرة على تغيير التاريخ. كنت أشعر بأنني امسك التاريخ في قبضة يدي. لقد قلت منذ قليل شيئاً كهذا، وأنا متفق معك. اما الآن، فنقبع ساكنين حتى تقرر البورجوازية الطفيلية والبورجوازية البيروقراطية ان تبنيا الاشتراكية.

قالت زينب:

- «انت لسّه طالع من السجن، عايز ترجع له تاني؟»

- ضحك وقال:

- «غريب اسمع منك الكلام دا.»

ضحكت وقالت:

-«فوّت. ماانا بقول نفس الكلام ليل نهار.»

بعد فترة صمت قال ايهاب:

- «وصلنا، او على الاقل وصلت انا لموقف مريع. صرت مجرد مراقب محايد، ساخر للحياة ماليش دور. حتى يكون لحياتنا معنى، لحياتي انا معنى لازم اعيش كفاعل.»

قالت:

- «علشان كده بتفعل بيا.»

وضحكت:

باغتته بذاءتها كلطمة. نظرت اليه وقالت بهمس:

- «آسفة. بس حبكت.»

قال:

- «كان ضروري تحبك بالاسلوب دا؟»

قالت:

- «زهقت من كلام السياسة المكرر.»

خطر له انها تهرب الى الجنس عندما تضجر. واتاه الشعور المزعج انه اصبح غير مرغوب فيه.

في شارع عبد العزيز قال:

- «سكنت هنا سنتين. عند ست اسمها مدام زوزو. دي كانت حدوته.»

لم ترد. فكر انه يكرر نفسه وقد أصبح مملاً. لاحقه هذا الشعور وهما يجتازان ميدان العتبة ويدخلان شارع الازهر. اصبح حديثهما مبتوراً وهما يسيران في شوارع ام الغلام وقصر الشوق والسكرية اراد ان يحكي لها قصة ام الغلام. كان جند يزيد بن معاوية يلاحقون الرجل الذي جاء برأس الحسين الى مصر. في هذه المنطقة احاط الجند بالرجل فقامت ام الغلام بانتزاع رأس طفلها الذي كانت تحمله وقذفت به الى الجند، الذين التهوا به عن رأس الحسين، واستطاع حامله ان يفلت منهم.

قال:

- «بتعرفي حكاية ام الغلام؟»

هزت رأسها، فقال؟

- «سمعتيها والا عايزة تسمعيها؟»

قالت بضيق:

- «مش حكاية الست الفظيعة اللي قطعت رأس ابنها؟ حكاية مقرفة. مفروض انها بطلة؟»

شعر ان كل شيء ينتهي بينهما. قال:

- «تعبت؟ تحبي نقعد في الفيشاوي؟»

قالت:

«لا نروح.»

استوقفت سيارة اجرة ووجهت السائق الى عنوان بيتها، طيلة الطريق كانت صامتة، غير راغبة في أي حوار. وخلال ذلك كان ايهاب يتساءل: «هل انتهى كل شيء بيننا؟»

عندما دخلا الشقة عانقته، وسكن رأسها على صدره. قالت:

- «حبيبي، مشتاقة لك.»

وجسدها يحاول اقتحام جسده وهي تردد:

- «مشتاقة لك. احضني جامد.»

كان يحس بجسده كاضافة ثقيلة، فائضة عن الحاجة. فكر، وهي تقوده الى السرير عنوة كأنها تجره خلفها، انها لم تكن متعبة من السير بل فاجأتها الرغبة فاسكتت جميع استجاباتها الانسانية. قالت وهي ترى عدم استجابته:

- «انت نسيت؟»

قال:

- «نسيت ايه؟»

قالت:

- «ان النهاردا هو آخر يوم من أيام شهر العسل.»

قال:

- «وبعد كده كل واحد يروح لحال سبيله؟»

قالت:

- «لا طبعاً. لكن فيه شغلي وفيه شغلك، وكتابتك والقراءة. لازم بعد كده ننظم لقاءاتنا والا ايه؟»

- «طبعاً»

قالت:

- «نتقابل وقت العشا. عشا وحب ونوم.»

قال:

- «طبعاً»

واستغرقا في حمى الجنس.

الفصل السابع

كان موعده مع هدى في التاسعة صباحاً في مقهى (سيموندس). اتفق معها ايهاب على اللقاء للذهاب معاً الى وكالة أنباء المانيا الديمقراطية (أ. د. ن) لأن الوكالة، كما أخبرته هدى، بحاجة الى مترجم من اللغة العربية الى اللغة الانجليزية. وهو قد مارس هذا العمل لثماني سنوات في وكالة أنباء الصين الجديدة (صينهوا).

هبط ايهاب من الاتوبيس في التاسعة الا عشر دقائق في الموقف الذي يلي كوبري الزمالك، واخذ يسير نحو (سيموندس). عندما اقترب من المقهى دهمه اعياء جسدي وانطفاءَ ذهني. يحدث له ذلك دائمًا عندما توشك أحلامه على التحقق، او عندما تتوهج الأفكار في ذهنه ويجلس لكتابتها. لم يكن موضوع أحلامه العمل الذي سوف يوفر له سبل العيش بل هدى. لقد عاش في ليلة البارحة لحظة اللقاء معها مرات لاعد لها في احلام يقظته، وفي كل مرة تكون النتيجة بداية علاقة بينهما. لقد رسخت صورتها في خياله بتقاطيعها الحادة، وتلك الجدية الصارمة التي تسمها، وتحولت، خلال ذلك، من عشيقة الى زوجة ترتدي ملابس النوم الشفافة الرقيقة، تتحرك في البيت بجديتها وجسدها المتماسك.

عند باب المقهى ود لو يعود. لم يكن مستعداً للقائها. ولكنه رآها ورأته عبر زجاج الباب. عندما دخل المكان كانت هدى تجلس على أحد الكراسي العالية، وتتكيء بكوعيها على البار الذي يشكل قوساً يقف خلفه النادل الذي يقدم طلبات الزبائن. كان امامها فنجان قهوة بالحليب وطبق صغير به قطعتا كراوسا، رغم أنه وصل في الموعد.

سار نحوها وهو يكتشف انها مختلفة عن الصورة التي رسمها في خياله. لم تكن بشرتها نقية وكان أنفها أطول مما يتذكر. ولكن ساعديها فتناه. كانت رشاقتها وتناسقها وتلك النعومة والاناقة اللتان يتميزان بها شيئاً نادراً بالفعل. وكان شعرها قطعة سوداء متماسكة كالشعر الذي يغطي رؤوس بعض التماثيل الفرعونية.

قالت بعد ان سلم عليها:

-«لسّه فيه وقت. بتشرب ايه؟»

اشار الى الفنجان والطبقين اللذين امامها وقال:

- «زيك.»

نادت الجرسون:

- «واحد كافيه اوليه واتنين كراواسايا محمود.»

احب الفتها مع المكان التي جعلتها تنادي النادل باسمه. كانت مؤدبة وجادة، فلم يعرف كيف يبدأ، رغم أن سيناريو هذا اللقاء كان معداً في ذهنه مسبقاً. ولكنه يرى الان ان لامجال لتطبيقه. سألها ان كان قد تأخر عليها فقالت:

- «انا اللي جايه بدري. كل يوم بفطر هنا قبل مالروح الشغل.»

قال:

- «بتشتغلي في رويتر مش كده؟

- «ايوه»

قال:

- «الشغل في رويتر احسن من الوكالات الشيوعية؟»

قالت:

- «بيدوا مرتب اكبر.»

من جانبها شعر انها تود ان تقول: «وتحتاج الى كفاءة اكبر.» قال بنبرة حاول فيها إن يزيل الكلفة بينهما وسألها رغم أنه يعرف الاجابة:

- «انت ياهدى مش متجوزه، والا ايه؟»

كانت الجملة ثقيلة ورأى الكدر في وجهها، وقالت بهمس:

- «مخطوبة.»

قال:

- «آه مخطوبة، مخطوبة.»

ثم أضاف وهو يدرك سخف ماسيقوله:

- «لكن ياهدى مش انت صغيرة على الشغل والخطوبة؟ يعني سنك.»

لم تقل شيئاً لبعض الوقت. اشعرته انه ذهب الى ابعد مما يسمح به الذوق.

قالت بعد قليل وكأنها تخاطب نفسها:

- «عمري ستة وعشرين سنة. نمشي؟»

ثم رأت انه لم ينته من قهوته، فقالت:

- «آسفه. خلص قهوتك.»

قال وهو يهبط من فوق كرسيه المرتفع:

- «لا. مش مهم.»

وهو يعلم ان هدى لن تكون عشيقته. لم يعد يرغب في ذلك. ركبا سيارتها (نصر) واتجها الى البناية التي فيها الوكالة. قابلهما المدير الالماني وكان ضخماً، وله وجه طفل. انصرفت هدى بسرعة معتذرة ان عليها ان تعود الى العمل. وتم الاتفاق على العمل في دقائق. من الواضح ان هدى قالت

لهم كل شيء عنه. فلم يعد هنالك مايقال سوى تحديد المرتب الشهري الذي كان اكبر مما يتوقع: ستون جنيهاً في الشهر.

شرح له المدير أسلوب العمل. يبدأ في الثامنة صباحاً وينتهي في الثانية ظهراً. يتلخص عمله في اختيار الاخبار والمقالات المهمة وكتابة عناوينها، وكل مايتصل بالمانيا الديمقراطية، ثم ترجمة كل ماليس موجوداً منها في النشرة الانجليزية لوكالة الانباء المحلية: وكالة انباء الشرق الاوسط.

كان ايهاب يعلم ان هنالك وقتاً رسمياً وآخر فعلياً. ان عملاً كهذا لن يستغرق فعلياً اكثر من ساعتين يومياً. فهو لهذا يستطع ان يأتي متأخراً قليلاً في الصباح ويغادر العمل مبكراً كثيراً.

قال له المدير:

ـ «تستطيع ان تبدأ الآن.»

شعر ايهاب انه يختنق. قال:

ـ «سابدأ غداً.»

عندما خرج من الوكالة واصبح في الشارع كان الخوف كطبقة من الجليد تحت جلده، شعر أنه يدخل في سياق كابوسي سوف يفقد فيه حريته، اذ بدا له العمل في الوكالة كضمير اجتماعي يدين علاقته بزينب وسوف يسعى الى تحجيمها وربما منعها. اتصل من (سيموندس) بهنية بالتليفون في عملها. كان صوتها مستوياً وعملياً. قال لها انه يريد ان يراها. دعته للغداء معها. قال أنه يدعوها للغداء في أي مطعم تشاء،قالت بصوتها الرسمي

ـ «تعالى لي البيت الساعة واحد ونص.»

فكر ان يتصل بزينب، ولكنه استبعد الفكرة. توقع ان تحاصره زينب باسئلتها، فيكشف لها انه سوف يتغدى مع هنية، فتقحم نفسها عليهما في حين كان يرغب في الاختلاء بهنية. خطر له: هل ستحاول هنية اغتصابه؟ لن يستطيع ان يقاوم، ولكن ذلك سيضعه في ورطة. بعد قليل تحول هذا السؤال الى أحلام يقظة مريحة، وبدت زينب مجرد عنصر ازعاج في علاقة ممتعة.

نظر الى ساعته. مازال امامه ساعتان. شعر، لاول مرة منذ خروجه من السجن ـ انه حر تماماً، تلك الحرية التي كانت أعز امانيه وهو في السجن. ولكنه، الآن، وقد امتلكها فقد هاجمه الملل. وعاش مرة أخرى تلك اللحظات التي تتوقف فيها الساعة عن الحركة. عرف ذلك في السجن الانفرادي. سار في شوارع الزمالك حتى بلغ طرف الجزيرة وعاد الى شارع حسن صبري، ثم اتجه الى كوبري الزمالك وعاد الى كوبري ابو العلا كل ذلك لم يستغرق اكثر من ربع ساعة.

بدا له وكأن العالم يحاول ان يقنعه ان هذه الحرية التي لاحدود لها هي افظع مايمكن ان يواجهه الانسان ولكن أخذ الوقت فجأة سرع . . ' ـ في صالة سميراميس وطلب فنجاناً من القهوة، وأخذ يراقب الجالسين، فاكتشف ان ساعة ونصف الساعة قد مرت ولم يبق على موعده مع هنية الا نصف ساعة.

حاسب الجرسون وقرر ان يسير في منطقة بيتها حتى تأتي، كانت تسكن شقة صغيرة في جاردن سيتي، في المنطقة الواقعة خلف فندق شبرد. كانت هنية تمتلك شارات الطبقات العليا دون ان تنتمي اليها: السكن في جاردن سيتي، السيارة، العمل في هيئة تدفع مرتباً كبيراً، والعلاقات المفيدة. كانت

تستطيع ان تنسجم مع المجتمعات المترفة والمتحذلقة دون ان تفقد طبيعتها فحين يلتقي ايهاب اناساً من هؤلاء في بيتها فانها لاتتخلى عن علاقتها الخاصة به حرصاً على رضى هؤلاء ولكنها في الوقت ذاته لاتجعلهم يشعرون بانها غريبة عنهم.

كان يمر أمام البناية التي تسكن فيها عندما سمع صوتها يناديه: قالت وهي تمد رأسها من شباك السيارة:

- «تعالى شيل معايا.»

على مقعد السيارة الخلفي كان هنالك عدد من الاكياس الورقية الممتلئة. حملاها سوياً ودخلا البناية. قالت:

- «اشتريت فاكهة في طريقي.»

وقف معها في المطبخ وهي تجهز الغداء، تضع الحلل لتسخن على النار وتعد السلطة. بعد ان انتهت من ذلك عادا الى الصالون. صبت لكل منهما كأس ويسكي مع الثلج والصودا. في الصالون تلك الاناقة واللمعان اللذان يخيفان قليلاً: وفرة الزجاج اللامع والكريستال والتحف الدقيقة، لوحات يابانية معلقة على الجدران، صورتان لمودلياني صور تظنها لبيكاسو ولكنها ليست له ثم الاثاث الحديث الذي يتوزع في الصالون بتنسيق مريح.

قالت:

- «هه. ازاي شايف الدنيا خارج السجن؟»

قال:

- «عظيم.»

قالت:

«اخدت على الحياة؟»

قال:

- «الحياة اجتاحتني.»

ضحكت وقالت:

- «الحياة يعني زينب.»

قال:

- «زينب وغيرها. كل الناس عايزة تعمل لنا حاجة.»

قالت:

- «طبيعي.»

صمتا. شربت الجرعة الأخيرة في كأسها ونهضت لتضع الغداء على المائدة. عاونها في نقل الاطباق. عندما جلسا صب لنفسه كأساً من الوسكي، ووضع قطعة من الثلج وشرب جرعة كبيرة وقال:

- «ايوه. زينب»

نظرت اليه تطالبه ان يستمر. كيف يبدأ؟ قال:

- «صديقتك؟»

هزت رأسها.

قال:

- «بتعرفي عنها ايه؟»

- «حاجات كتيرة. عايز تعرف ايه؟»

- «كانت شيوعية منظمة؟»

- «كانت.»

ثم أضافت: كانت زينب اسطورة في نطاق الحركة الشيوعية. جرأتها وحيويتها كانتا مدهشتين.

فكر ايهاب: «مازالت كذلك. فما الذي تغير فيها سوى انها لم تعد منظمة، ولاسباب معروفة؟»

قالت هنيه انها لاتعتقد انها عرفت فتاة بتلك الديناميكية. كان ذلك في اواخر الخمسينات، فترة الاعتقالات. ضحكت هنية قالت: «كم كانت ساذجة!» كانت كلمات حب وجنس وعلاقة مع الآخر كلمات بذيئة بالنسبة لها.

قال ايهاب وهو يضحك انه يتمنى ان يرى زينب وهي تحمر خجلاً عندما تذكر كلمة جنس. شاركته هنية الضحك، وقالت انها لم تكن تخجل، بل كانت تغضب. ومع غضبها تنطلق كليشيهات: انحلال بورجوازي تفسخ، وحتى خيانة وعمالة.

- «وبعدين؟»

قالت هنيه:

- «وبعدين حصل الانهيار اللي انت عارفه. كان بالنسبة لها اعنف من المعتاد.»

قال ايهاب:

- «جنس وحشيش و..»

- «انطلقت بدون ضوابط وانكشف وجه جديد، وجه السخرية من كل شيء.»

- «انطلقت، يعني ايه؟»

قالت:

- «زي ماقلت انت. جنس بدون تمييز، خمرة، حشيش.. يعني...»

- «ودلوقتي؟»

قالت:

- «من ست سبع شهور تغيرت حقيقي.»

اعقب ذلك فترة صمت طويلة. قال ايهاب فجأة بصوت أعلى مما كان يريد:

- «انا مش بعاتبك. صدقيني. عايز اعرف بس. صحيح ان زينب سألتك عني وقلت لها انك ماتعرفيش تتصلي بيا؟»

قالت :

- «قبل مايعتقلوك؟»

- «قبل الاعتقال .»

قالت :

- «صحيح»

- «ليه؟ بسأل انا بس .»

لاحظ انها كانت تشرب نبيذاً ابيض . رشفت من كأسها جرعة صغيرة وقالت :

- «كنت خايفة عليك .»

- «كنت؟ ودلوقتي ؟»

صبت له كأساً من النبيذ، وضعته امامه . لاحظ ان حمرة جميلة انتشرت في وجنتيها قالت :

- «دلوقتي؟ دلوقتي زينب تغيرت . قلت لك : زينب من ست سبع شهور بقت انسانة أخرى . ليلة ماكنا سهرانين عند وليد ونوال قالت لي انها تغيرت كلياً . قالت انها حاتحافظ على نفسها وعليك .»

- «وانت ايه رأيك؟»

قالت :

- «انا بصدقها . زينب انسانة ديناميكية . قادرة تتغير الى النقيض . لازم تديها فرصة .»

سادت فترة صمت استغرقا خلالها في الطعام والشراب . فكر ايهاب ان هنية كانت متعاونة اكثر مما توقع . ولكن هنالك شيئاً ما، شيئاً مهمّا ومخيفاً في الوقت ذاته لم تقله . استدل على ذلك من طقوس الوسكي والنبيذ، وفترات الصمت المتكررة، واستغراقها في تأملات خاصة بها، تعود اليه بعدها بعد ان تطرد تلك التأملات برمشات متوالية من عينيها . كل ذلك جعله يتأكد أنها تحاور نفسها : هل تبوح ام لا . قالت فجأة :

- «فيه فكرة جواز؟»

كانت جادة تماماً وهي تسأل . قال :

- «ماتكلمناش في الموضوع .»

- «عندك انت؟»

قال :

- «ماطرحتش المسألة على نفسي .»

تردد قليلاً ثم اضاف :

- «ولا هيه .»

قالت بحسم :

- «مافيش داعي للاستعجال .»

- «ليه؟»

- «انت لسّه في البداية .»

هذا الحوار اقلق ايهاب . كان حواراً لا تواصل فيه، على الاقل من جانب هنية بدت له وكأنها

تحاور معطيات في داخلها. يعرف تحفظها، ولكن هذا ليس تحفظاً، بل هي تسأل نفسها: هل تقول ام لا؟

طالت فترة الصمت. قال ايهاب فجأة، بحدة غير متوقعة:

- «فيه حاجة بتخبيها عني.»

كان على وجهها بسمة وتعبير تساؤل، كأنها تقول له: حاول ان تخمن ذلك الشيء الذي أخفيه عنك هل تستطيع؟ قالت:

- «ايوه»

- «ايه هيه الحاجة؟»

قالت:

- «زينب صديقتي.»

- «وانا؟»

قالت:

- «انت اكثر من صديق. انت واحد من عيلتنا الكبيرة. يعني لازم انسى صداقتي مع زينب علشان ادافع عنك.»

ربما بسبب الخمر التي شربها، وهذه الصداقة التي انفتح لها بعد غير متوقع، امتلأت عيناه بالدموع، وامسك بيد هنية وقبلها. مر الانفعال بوجهها لوناً أحمر. ومضى واختفى مخلفاً خجلاً عذرياً. قالت:

- «زينب كان لها علاقات سابقة كثيرة.»

- «بعرف»

- «قالت لك؟»

- «لا.»

- «عرفت ازاي؟»

- «يعني؟»

- «قول.»

احمر وجهه وصمت. قالت:

- «مكسوف؟»

قال:

- «انت عارفه. مش عذراء، والخبرة.. الجسد. جسدها حر، ممنوح.. يعني.. مش واضح؟»

تضرج وجه هنية وانفجرت بضحكة طويلة، وقالت:

- «انت مش معقول.»

تكثفت حمرة وجه هنيه فبدت عذراء تقاوم الاغتصاب. ولاحظ ايهاب جمال عينيها السوداوين

وهما تضيئان بخجل اصيل. واصلت ضحكها. وضحك معها. قالت بحيوية تكاد تقترب من التهريج. قالت:

- «مش دا اللي كنت عايزة أقوله من الطبيعي ان فتاة متحررة ومستقلة وعمرها ستة وعشرين ويمكن اكثر يكون لها علاقات جسدية وخبرة. لكن، بالنسبة لزينب كانت علاقاتها عابره. . فاهم؟ علاقات سريعة. .»

قال:

- «علاقات جنس.»

قالت:

- «بالضبط. علاقات جنسية ونقطة. علشان كده علاقتها معك خاصة.»

كانت زينب تتوهج في داخله بقوة. ثم أحس بطعنة الغيرة في داخله. قال:

- «كانوا نماذج رديئة؟»

قالت:

- «مابعرف. كانت علاقات رديئة.»

فكر ان يسألها ان كانت هذه العلاقات مستمرة، ولكنه عدل عن ذلك قالت:

- «طبعاً دا كله كان في الماضي.»

بعد الغداء عادت هنية من المطبخ تحمل صينية عليها زجاجة كونياك مارتيل وكأسان وفنجانا قهوة. صبت كأسي كونياك وقالت:

- «ارجوك ماتتصور اني كل يوم بشرب وسكي قبل الاكل، ونبيذ مع الاكل وكونياك بعد الاكل. انا مش مليونيرة ولا مدمنة. كنت بحتفل بيك بس.»

قال:

- «فاهم.»

قالت له وهو يودعها:

- «بعد يومين، تلاتة تتعشوا عندي انت وزينب حاكلمها بكرة واتفق معها.»

قال ايهاب:

- «احنا اللي لازم نعزمك.»

قالت:

- «لاتزر وازرة وزر اخرى. اعزمكو وتعزموني.»

وانصرف.

في الشارع، وهو يسير على كورنيش النيل، كان عاشقاً لهنية واستغرق في احلام يقظة. انحرف الى النيل وصعد الى شقة زينب. حين دق الجرس تأخرت. اصبح عصبياً ودق الجرس مرة ثانية وقد خطر له ان رجلاً معها. حين فتحت الباب جعله تعبير وجهها يتذكر مشهداً رآه في فيلم. يدق العاشق جرس الباب فتفتحه حبيبته. فيدخل فتقول له حبيبته، وعلى وجهها تعبير ذعر: «بحق السماء لماذا جئت؟» ويجيء صوت القاتل من الداخل: «دعيه يدخل» رأى هذا التعبير على وجه زينب

تعبير تساؤل مستنكر. قال:

- «باين جئت في وقت مش مناسب.»

قالت بلهفة وهي تمسك يده وتجذبه الى الداخل:

- «كل وقت مناسب. ادخل ياحبيبي.»

قال وهو يدخل ويغلق الباب خلفه:

- «ماقدرتش اصبر للساعة تسعة.»

قالت:

- «ولا انا.»

عانقته وهي تردد «ولا انا» ثم أضافت وهي تقوده الى الصالون: طول الوقت عايزاك، ولكنني لاأريد لهذه العلاقة ان تجعلك انساناً ضائعاً. يجب ان تعمل وتقرأ وتكتب. وانا أيضاً كنت انسانة ضائعة وأريد من خلال هذه العلاقة ان استعيد نفسي.

قال:

- «امشي وارجع الساعة تسعة زي مااتفقنا؟»

قالت وهي تضع رأسها على كتفه وتحيطه بذراعيها:

- «يامجنون. ودا معقول؟»

كان هذا اليوم من اكثر ايامهما استغراقاً في الممارسة الجنسية الخالصة. كان الاثنان يشعران برعب الانفصال فكان التصاقهما الجسدي هو الوسيلة الوحيدة للتغلب عليه. الخطر على هذه العلاقة كان حرية طرفيها في اتخاذ القرار.

في الساعة الثانية عشرة ليلاً قال ايهاب وهو ينهض:

- «الساعة تناشر.»

قالت زينب:

- «ماانا عارفه. وقفت ليه؟»

قال:

- «قضينا يوم عسل رابع. بكره الساعة تسعة؟»

قالت:

- «حبيبي، لازم ننضبط شوية. لازم، احنا الاتنين، نبقى احسن واخصب من خلال علاقتنا»

قال ايهاب:

- «انا عندي الارادة.»

- «وانا كمان.»

قال:

- «دول أربع ايام. مش مشكلة. امشي؟»

وضعت كفيها على كتفيه واخذت تنظر اليه بعينين مفتوحتين على سعتهما.

قال:

- **«امشي؟»**

قالت بهمس:

- **«لا.»**

- «فيه ايه؟»

قالت:

- «خايفة.»

- **«من ايه؟»**

- «خايفة انام وحدي»

- **«معقول؟»**

هزت رأسها وقد ارتسم تعبير طفولة على وجهها. قالت:

- **«معقول»**

- «تمام» دخلا السرير وناما في الحال.

الفصل الثامن

الوقت أواسط شهر أيار لعام ١٩٦٧ .

كان مصـطفى وتفيدة يجلسان في الصالون يراقبان التلفزيون . أصبح التلفزيون حلاً للتوتر الخفي الـذي يشعـران به عنـدمـا يكونان وحيدين . ونادراً مايكونان كذلك . تكون تفيدة مشغولة بدراستها الجامعية ، او بالطفلة ، وأعمال البيت ، او بالزوار سواء من حارتها الشعبية او من عالمها الجديد .

مصطفى كان يخرج كثيراً . عندما يعود يقرأ ، او ليتفرج على التلفزيون ، او يلاعب الطفلة . كان يكلمها كثيراً بمونولوج طويل يبدأ بالاعجاب وينتهي بالتأنيب المحب :

«سناء حلوة ، البت دي زي القمر ، وحبيبة بابا . . بس حاتبتدي تسخّف زي عاداتها ، ديل الكلب مابيتعدل . . »

ويستمر هكذا .

سعاد كانت ترضع الطفلة في حجرة النوم استعداداً لتنويمها في الساعة الثامنة . اصبح وجود سعـاد ضرورياً مع وجـود الخـادمة ام محمد . تفيدة أصبحت مدمنة قراءة ، خاصة بعد ان أصبح بالامكـان قراءة كتب باللغة الانجليزية ، فقراءتها تشكل ، بالنسبة لها متعة مزدوجة : عالم الكتاب نفسـه ، ونشوة الانتصار على لغة غريبة . عدم اتقانها لهذه اللغة بشكل كامل كان يتيح لخيالها ان يضيف معان جديدة لما تقرأ ، فكانت ، في قراءتها ، كمن يؤلف كتاباً موازياً للكتاب الذي تقرأه .

عندما ينفردان يسود جو من التوتر المهذب ، تكون تفيدة في حالة تحفز ، وفي العمق احساس بالذنب . لقد كانت مقتنعة ان لزوجها حقوقاً جسدية لاتفي بها وانها بذلك تجاوزت حدود اللياقة وأصبحت لاتولي بالاً الا لرغباتها وحدها . اما مصطفى فقد كان يحاول الا يشعرها بالالم العميق الذي يحدّ له موقفها منه . ولكنه في العمق ، كان يشعر بالاهانة .

شعرت تفيدة بمصطفى يركز نظراته عليها . اربكها ذلك ، فتظاهرت بالانصراف التام الى مشاهدة التلفزيون . لم تكن تفقه مايقوله الممثلون ، بل ترى تتالياً غريباً وغير مفهوم . كان السؤال الذي يلح عليها : هل يبدأ الانفجار الآن؟ شعرت بجسدها يخذلها . لم تكن مستعدة لذلك الآن . فوجئت بمصطفى يمسك يدها ، يرفعها ويقبلها باطناً وظاهراً . التفتت اليه فقال :

- «بحبك. كنت عايز اقول بحبك بس. تفرجي على التلفزيون دلوقتي» ارخى يدها فامسكت يده وأخذت تتفرج على التلفزيون. قالت دون أن تنظر اليه:

- «استحملني شويه يامصطفى. انا حبيبتك.»

- «عارف.»

- «حاتستحملني؟»

- «انا بحبك.»

رفعت يده وقبلتها. ملمس شفتيها بعث الرغبة في جسده كصدمة مفاجئة. انطفأت بسرعة. أخذ يراقب تفيدة. لقد فقدت خشونتها وسمنتها، لم تعد تستعمل ذلك الاسلوب القاطع المتوتر في الحديث، واكتسبت - هكذا سريعاً - رشاقة وحضور سيدة مجتمع رصينة. واصبح ماكان اندفاعاً وتعبيراً حيوياً عن الذات عندها صلابة داخلية تختفي تحت رقة انثوية.

اما المهانة التي تولدت داخل مصطفى لامتناع تفيدة عليه فقد انتج مشاعر عشق ومودة وخشية ان تهجره تفيدة. رافق ذلك احساس بالذل امامها حاول ان يتجاوزه.

نهضت تفيدة واغلقت التلفزيون وعادت لتجلس بجوار مصطفى. قالت: اسمع يامصطفى. انت تقول لنفسك هذه المرأة منحت نفسها للقهوجي، وتاجر الحشيش والطالب. حتى زوجها السابق التافه كان له حصته الليلية. اما انا، الذي منحتها كل شيء، ورفعتها الى مستوى لم تحلم به فتمتنع علي. وهذا ليس مجرد نكران للجميل، ولكنها، ايضاً، لعبة خسيسة. وانت محق حين تفكر هكذا، غير انني اقسم لك انني لاأستطيع.

قال مصطفى:

- «مين قال لك اني بافكر بالطريقة «دي؟»

قالت:

- «لو كنت مطرحك كنت فكرت كده.»

قال:

- «ولا انت حاتفكري بالطريقة دي. انا اعرف كويس قوي انك كنت صادقة في حياتك السابقة ودلوقتي، وبعرف كويس قوي انها حالة وحاتعدي.»

قالت:

- «حالة غريبة»

وضغط البكاء على عينيها.

في تلك اللحظة دق جرس وسمعا سعاد تفتحه وصوت رجل يقول:

- «مصطفى موجود؟»

وسعاد ترد:

- «تفضل ياإستاذ اسماعيل.»

دخل اسماعيل الصالون وهو يقول:

- «لامؤاخذة ياجماعة. طبيت عليكو من غير موعد. ازيك ياتفيدة؟ ازيك يامصطفى؟»

قالت تفيدة :

ـ «موعد ايه ياابو السباع؟ بينا مواعيد؟»

نظر اسماعيل اليهما وجلس . قال :

ـ «حاسس اني جيت في وقت مش مناسب . فيه حاجة؟»

ضحك مصطفى وقال :

ـ «خلافات عائلية عابرة . »

احمر وجه تفيدة وابتسمت .

قال اسماعيل :

ـ «خلافات عائلية . ايوه . »

قال مصطفى :

«عابرة . »

وضحك . قال اسماعيل :

ـ «زي خلافات العائلة الكبرى . يعني الشيوعيين . »

قال مصطفى :

ـ «عندك حاجة عايز تقولها»

ـ «فعلاً . »

نهضت تفيدة وقالت :

ـ «حاعمل لكو قهوة . »

قال اسماعيل :

ـ «اقعدي ياتفيدة . مافيش اسرار عليك . »

قالت تفيدة :

ـ «مش عايز تشرب قهوة؟»

قال اسماعيل :

ـ «خلي سعاد تعملها . »

نادت تفيدة سعاد وطلبت منها ان تعد القهوة . سادت فترة صمت . ثم اخذ اسماعيل يتحدث . قال انه منذ فترة وهو يفكر في أحوال الشيوعيين المصريين . قال انه تذكر كلام مصطفى في السجن حين قال : اننا نقف بين مطرقة الحل وسندان التيار الصيني . فاكر يامصطفى؟

قال مصطفى :

ـ «فاكر طبعاً . »

أضاف اسماعيل : سوف نضيع بين الخيارين . انصار حل الحزب عاجزون وامام التيار الصيني العديد من المسائل التي لايستطيعون الاجابة عليها . ونحن لانبحث الا عن اللي يفرقنا . لماذا لانبحث عن اللي يجمعنا؟»

قالت تفيدة :

ـ «فعلاً.»

قال مصطفى:

ـ «يبدو اننا كلنا بنفكر بنفس الاسلوب.»

قال اسماعيل انه بالامس قابل ايهاب وصديقته. كانا هما البادئان بالكلام. قالا الشيء ذاته. من الواضح، قال، ان هنالك حاجة موضوعية للخروج من المأزق.

لم يستمر اسماعيل طويلاً في مناقشة هذا الموضوع، فعندما دخلت سعاد وقدمت لهم فناجين القهوة، واستدارت لتخرج، قال لها اسماعيل:

ـ «اقعدي ياسعاد.»

نظرت سعاد الى تفيدة وجلست. قال اسماعيل:

ـ «اخبارك ايه ياسعاد؟»

ـ «كويسه.»

كان مصطفى يطالع سعاد ببسمة تشجيع وترقب. كان يخشى ان تقول شيئاً غير مناسب. قال مصطفى:

ـ «عايزين ندخلها معهد السكرتارية.»

قال اسماعيل:

ـ «شيء عظيم.»

قالت سعاد:

ـ «حادخل المعهد ازاي؟ وسنسن مين حايقعد معاها؟»

في موقف كهذا لم يكن اسماعيل يراعي المواضعات. قال:

ـ «سناء مشكلة اهلها. لازم تفكري بمستقبلك.»

قال مصطفى:

ـ «دا صحيح.»

قالت تفيدة:

ـ «مؤكد يااستاذ اسماعيل انا لما فكرنا ندخل سعاد معهد السكرتارية ماكناش بنفكر في سعاد كمربية.»

لم تقل ذلك بعتاب، وانما للتوضيح. ولكن اسماعيل لمس نبرة الاحتجاج الكامنة، فقال:

ـ «انا متأكد من دا. بس كنت برد على كلام سعاد.»

انتقل الحديث بعد ذلك الى قضية الساعة: اعلان جمال عبد الناصر اغلاق مضيق شرم الشيخ امام مرور السفن الاسرائيلية، وطلبه الى قوات البوليس ان تنسحب من قطاع غزة وجميع الحدود بين مصر واسرائيل كان رأي اسماعيل ان اعلان عبد الناصر كان رداً متسرعاً. لم يتحدث عن التفاصيل.

كان احترام الحاضرين لاسماعيل هو الذي منعهم من ابداء استنكارهم صراحة او الرد عليه بشكل قاطع. قال مصطفى:

ـ كنت أتصور موقفك حايكون مختلف . رأيي انه قرار شجاع . ايه اللي متسرع فيه؟»

قالت تفيدة :

ـ «القرار ضد امريكا واسرائيل؟ انت معترض على ايه؟»

قال اسماعيل :

ـ «القرار دا معناه الحرب . »

قال مصطفى :

ـ «افرض . »

قال اسماعيل :

ـ «واحنا مش مستعدين للحرب . »

قالت تفيدة :

ـ «ليه؟»

قال اسماعيل :

ـ «حدودته طويلة . نتكلم فيها بعدين . انا مرتبط ولازم امش . »

ونهض .

قالت تفيدة بخيبة امل حقيقية :

ـ «كنت فاكره اننا حانتعش سوا . »

قال اسماعيل :

ـ «خلال الاسبوعين الجايين لازم نرتب سهرة كبيرة . »

وانصرف .

جمعت سعاد فناجين القهوة وانصرفت الى المطبخ . أحست ان هنالك حديثاً خاصاً بين مصطفى وتفيدة .

قالت تفيدة :

ـ «ماعرفتش سبب زيارة اسماعيل . ماكانتشي مجرد مرور . حسيت ان عنده حاجة عايز يقولها وماقالهاش . »

ـ «قالها . »

ـ «قال ايه؟»

ـ «ابو السباع بيعمل جولة استطلاع . »

ـ «بيستطلع ايه؟»

قال مصطفى :

ـ «واضح انه في ذهنه هدفين : التخلص من ورطة الخط الصيني ، وتوسيع التنظيم . عايز يوحد الشيوعيين . وخطوة زي دي لوناقشها داخل التنظيم حاتعني انشقاق . عايز يحط التنظيم امام الامر الواقع . »

أضاف مصطفى ان حواراً قد دار بينه وبين اسماعيل حول هذا الموضوع وانه قد قال لاسماعيل :

اننا بين مطرقة حل الحزب وسندان الخط الصيني نهرس هرساً.

كان مصطفى آخر الذي يقول: «ان علينا ان نقوم نحن أيضاً بجولة استطلاعية.

كانت تفيدة قد أخذت تنشحن بروح جديدة. شيء جميل وطازج أخذ يتفتح في داخلها. ودت ان تعانق مصطفى. هفت اليه، ولكنه كان منتشياً بالحديث عن الخط الجديد الذي سيسود الحركة الشيوعية.

***

أصبح حسن وانصاف عاشقين. غابت تماماً صورة الفتى الذي عرفه في السجن. في اليوم التالي لخروجه من السجن. ناما متجاورين دون ان يلمس أحد منهم الآخر. ود ان يعتذر لها ويقول ان وجود الاقارب جعله في حالة عصبية فظيعة. ولكنه خاف ان يجرحها. فهي مازالت تعتبرهم الكبار الذين يعرفون ماينبغي فعله.

في ليلة السهرة في بيت وليد حدث لحسن صدمة اعادت اليه توازنه. فما كاد يدخل بيت وليد حتى اجتذبته زينب بعنف. كانت واقفة. عندما دخل التفتت اليه. في تلك اللحظة ارتعش جسدها ارتعاشات موقعة تخللته كموجات، نفذت الى حسن كصدمة كهربائية. كانت حركة الردف هي التي شدته. للحظة بدا وكأنه استقل عن جسدها وانفصل ثم عاد الى موضعه. وعندما صافحها شعر بيدها تنفلت من يده قبل ان يرضي رغبته في الاستمتاع باحتوائها. كانت يداً مرنة، لينة الغضاريف ولكنها قوية. راوغته وانسلتت منه فظلت يده معلقة في الهواء.

في تلك اللحظة شعر حسن بكل التوتر الخانق الذي لازمه طيلة فترة السجن ووصل قمته ليلة البارحة ينساب منه. وفي الوقت ذاته شعر بطاقة تندفع وتنعشه وترخي اعصابه المشدودة. كان ذلك يشبه اثر الخمر الجيدة يشربها انسان اعصابه مشدودة. قال بمرح:

ـ «الاخوات والاخوان. بعرفكم كلكم ماعدا الاخت.»

وأشار الى زينب. ضحكت زينب ضحكة طلقة ونظرت في عينيه بوقاحه وقالت:

ـ «زينب بتاعة ايهاب.»

ثم رجهت كلامها للحاضرين:

ـ «كنت فاكراه حايلقي خطبة لما قال: الاخوات والاخوان.»

وضحك الجميع وكان حسن اكثرهم اغراقاً في الضحك. قالت نوال:

ـ «اعرفك على هدى ومحمود وتوفيق وماجدة..»

وضحك الجميع أيضاً. كان تعريف نوال لحسن بهؤلاء بقصد النكتة. فحسن لم يكن يعرف كثيراً من الحاضرين، ولكن زينب وحدها هي التي اجتذبت انتباهه.

اخذ حسن يتأتىء ضاحكاً:

ـ «كانوا، دول كانوا على يميني وانا داخل.. يعني»

قالت نوال:

ـ «مابشوف اللي على يمينه. اصله يساري.»

خلال الضحك نادت تفيدة

- «تعالى ياانصاف انت وحسن. فيه مكان جنبي.»
تجاهلته زينب تماماً بعد ذلك وانصرفت الى حديث مع هنية امتد الى آخر السهرة. وكان حسن كلما نظر اليها يشعر بتلك الصدمة تنفذ اليه.
عند عودته مع انصاف الى البيت اعتذر لها عن ليلة البارحة. فاجأته انصاف بقولها قبل ان يتم اعتذاره:
- «فاهمة ياابو علي. دخلوك عليا زي مايكونوا بيدخلوك على مومس.»
اندهش حسن واخذ يراها بعين جديدة. قال:
- «بصراحة وجود جماعتنا بيخنقني.
لما عادا الى البيت، اعتبرت انصاف وجود الاقارب مانعاً من ممارسة الجنس. كانت رغبة حسن خانقة. ولكنها ابتعدت عنه وغطت رأسها باللحاف وقالت:
- «تصبح على خير.»
وأصبحت ممتنعة عليه. كان احساساً غريباً عليه ان يشعر بزوجته كأحد المحارم وان يشتهيها بكل هذه القوة. شعر أنه يدخل عالماً جنسياً بلا ضوابط ولا قيود. اقترب منها وضمها اليه. تمتمت بكلام غير مفهوم، فعرف انها نائمة.
في صباح اليوم التالي كان عليه ان يسمع النصائح ذاتها بتنويعات مملة. قال خاله:
- «الناس في البلد مايعرفوش انك دخلت السجن. واللي بيسألنا عنك نقوله له: حسن العقبى لاولادك بقى في العالي فوق، حسن بقى ضابط في المخابرات. اي والله. تسأل ايتها واحد في البلد عن حسن يقول لك: دا بقى ضابط في المخابرات.»
نظر حسن الى انصاف وقال:
- «كده؟»
قالت انصاف:
- «كلام ايه ده اللي بتقوله ياعمي. لما تقول على واحد شيوعي انه ضباط في المخابرات تبقى عايز تفضحه وتخرب بيته.»
قالت لها امها:
- «ايه الكلام اللي بتقوليه يابنتي؟»
قال الخال:
- «انا؟ انا اللي عايز افضحه واخرب بيته؟ وانا عايز اعمل له مقام في البلد، بدال مايضيع نفسه في اللي اسمها ايه..»
بعد هذا الحوار اختلت انصاف بامها وطلبت منها ان تجعل الجميع يغادرون الى القرية. قالت لها ان اعصاب حسن تعبانة، وانهم يزيدونها تعباً. حاولت الام ان تشرح موقف الاقارب ان قلبهم على حسن، وانهم اسياد القرية ويملكون نصف زمامها.. ولكن انصاف قاطعتها بحدة ان عليهم غداً صباحاً ان يغادروا الى القرية، وأضافت:
- «وحكاية ان حسن ضابط في المخابرات مش عايزة حد يلت ويعجن فيها.»

لم ترها امها ابداً بهذه الحدة. ولكنها حدست ان شيئاً خطيراً قد دفعها الى قول ماقالته فوافقت وهي تختنق بالبكاء والاحساس بالاهانة، وبخوف من تدبير مجهول له صفة قدرية.

عند خلو البيت من الاقارب اصبح حسن لايرتوي. الرغبة في لمسها كانت تلازمه طيلة الوقت.

عندما دق جرس الباب كان حسن جالساً، وكانت انصاف تضع رأسها على كتفه. قالت وهي تبعد رأسها عن كتفه وتسوي ملابسها:

- «مين دا اللي جاي في الساعة دي؟»

كانت الساعة تشير الى التاسعة والنصف. نهضت انصاف وفتحت الباب، ثم سمع حسن صوتها فرحاً يقول:

- «أهلاً ابو السباع. خطوة عزيزة.»

نهض حسن ودخل اسماعيل.

كانت هنالك علاقة عميقة وشديدة الخصوصية تربط حسن باسماعيل. فلقد كان حسن تلميذه في فترة العمل الفدائي ضد الجنود البريطانيين وضد بعض السياسيين المتعاونين معهم. وعندما تعرف اسماعيل على الشيوعيين في المعتقل وانضم اليهم انضم اليهم حسن بشكل تلقائي. كان منطقه: انه مادام اسماعيل قد فعل ذلك فلابد ان يكون صحيحاً. كان اسماعيل يقدر في حسن اطاعة الاوامر وشجاعته. كان يواجه المواقف الخطرة باندفاع.

ثم انطفأ حماسه لحسن لم يكن حسن يتطور، وكان عجزه عن فهم النظرية الماركسية نموذجياً. كما ان قدرته على المبادرة على تجنيد الاعضاء كانت شبه منعدمة ورغم هذا فقد صعد على المستوى التنظيمي بسبب تاريخه السابق، أو على الاقل اسطورته. ظل حسن، على اية حال، المنفذ الشجاع الـذي يمكن الاعتماد على صلابته والمناضل المستعد لاستعمال عضلاته دون ان يهاب احداً، وان يتحمل كل انواع التعذيب دون ان يفوه بكلمة واحدة.

وعندما انتقل اسماعيل الى الحركة ذات الاتجاه الصيني كان حسن معه حتى دون ان يعرف الفارق بين الخط الصيني والخط السوفييتي. علم فقط ان الخط الصيني يدعو الى العنف.

بدأ اسماعيل بالحديث مع انصاف. لم يكن حديث من يتواضع او يجامل انساناً لاشأن له. بل كلمها بجدية. كان ذلك جزءاً من طبيعته. يتحدث مع الجميع بالمستوى ذاته دون ان يخشى الا يفهموه كان قادراً ان يكون واضحاً لكل من يتحدث اليه.

قالت انصاف فجأة وهي تنظر الى ساعة يدها وتنهض:

- «ياخبر. الكلام خدنا والساعة بقت عشرة. حاحضر لكو لقمة تاكلوها.»

وانصرفت الى المطبخ.

بدأ اسماعيل حديثه بالشكوى: التزام الخط الصيني بعد تأييد الصين لمذابح الشيوعيين في العراق، والحكايات المضحكة عن معجزات الرفيق ماو والعلاقات الاقتصادية التي تقيمها الصين مع جنوب افريقيا وغيرها كثير يصعب الدفاع عنها. نحن نتفق مع الخط الصيني في المسائل الاساسية

ولكن ذلك لايعني تبنيه . كم من الكوادر الشيوعية المناضلة والشجاعة والتي تعارض حل الحزب بعيدة عنا وضائعة لمجرد اننا نسمي انفسنا ماويين؟

استمر اسماعيل يتحدث ذاكراً تفصيلات جديدة عن الموضوع . قرر ان يستمر في حديثه الى ان يتوصل حسن بنفسه الى النتيجة المطلوبة . قال لابد من عمل شيء .

قال حسن :

ـ «والرفاق؟ ايه رأيهم؟»

ضاق اسماعيل به . الرجل غير قادر على اتخاذ قرار او اصدار حكم .

قال اسماعيل :

ـ «ماتكلمتش معهم . انت ايه رأيك؟»

قال حسن :

ـ «كلامك صحيح . الخط الصيني مشكلة . انا موافق على كلامك . »

اضاف حسن بعد قليل :

ـ «على كل حال لازم نبحث الموضوع مع الرفاق . »

قال اسماعيل :

ـ «مااحنا رفاق وبنبحث . »

ـ «يعني في اجتماع . على كل حال ، انت عارف يعني ، ثقتي بك مطلقة ابو السباع . »

* * *

عندما اخذ اسماعيل يصعد السلم المؤدي الى شقته استطاع ان يميز في الظلمة كتلة سوداء ، اشد كثافة من الظلام ، تقف في البسطة التي تفصل شقته عن شقة فاطمة ، متكئة على درابزين السلم الخشبي . كانت دفاعات اسماعيل امام الخطر الجاهزة تلقائية وسريعة . صعد السلم ركضاً بخط متعرج دون ان يصدر عنه صوت . كان الآخر ، المنتظر على بسطة السلم ، هو الذي فوجىء عندما أصبح ذراعه ملوياً خلف ظهره ، وذقنه مستقراً على الدرابزين . سمع صوت الرجل يقول لاهثاً :

ـ «ايه الحكاية يااستاذ اسماعيل! انا منير . »

ـ «منير مين؟»

ـ «منير رفيقك في المعتقل . »

في تلك اللحظة أضيء المصباح الكهربائي القائم فوق باب شقة فاطمة . عرف اسماعيل ان فاطمة تراقبه من شق الباب الذي شعر به ينفتح . استجابة لنظرة فاطمة احتفظ بمنير ملوي الذراع ، محنياً ، وقال له :

ـ «عايز ايه يامنير؟»

قال منير بصوت لاهث مختنق :

ـ «سيبني الاول ودخلني . فيه موضوع مهم عايز اكلمك ياابو السباع . »

اجرى له اسماعيل تفتيشاً سريعاً ثم ادخله شقته .

تعرف اسماعيل على منير في معتقل مزرعة طره . كانت تهمته تلك التهمة الملتبسة : النشاط

المعادي. كان بالامكان رؤية منير بجسده الطويل جداً والنحيل في كل مكان في المعتقل. كان يثير مناقشات حادة، بأسلوب تهريجي واستفزازي. الوحيدون الذين كان يتعامل معهم بجدية هم المعتقلون الوفديون.

ناقشه اسماعيل مرة فاكتشف اسلوبه في النقاش. يلجأ للهجوم ويجعل محاوره في حالة دفاع. سأله اسماعيل عن سبب اعتقاله فقال:

- «علمي علمك.»

قال له اسماعيل:

- «سألوك عن ايه في التحقيق؟»

- «عن اسمي واسم امي.»

في مرة أخرى قال لاسماعيل

- «انتو الشيوعيين بتوع السلطة. عاملين ماويين للتضليل.»

قال اسماعيل:

- «بنضلل مين؟»

- «الغلابة اللي زينا.»

- «انت غلبان؟»

ثم انهى معه الحديث وقد تكونت شكوك لديه ان هذا الرجل على صلة بأجهزة الامن.

عندما دخلا الشقة قال منير:

- «ياسلام على كباية شاي ياابو السباع.»

قال اسماعيل:

- «بطل حركات سخيفة وخش في الموضوع. قل لي: عرفت شقتي ازاي؟ مين دلك عليها؟»

قال منير:

- «اللي يسأل مابيتوه.»

قال اسماعيل:

- «ايه التلويع دا ياوله! اللي يسأل مابيتوه. سألت مين؟» وشقتي قهوة والا سينما تقوم تسأل يدلوك عليها؟»

تعمد اسماعيل ان يربكه، وكان مرتبكاً بالفعل. سادت فترة صمت اصبح فيها لكل حركة صوت. لاحظ اسماعيل ان الضوء مازال مشتعلاً على بسطة السلم. علم ان فاطمة تصغي للمايدور، وقدّر ان هذا الصمت يخيفها. كانت عيناه مركزتين على وجه منير بثبات وحدّة. قال منير فجأة:

- «انت يعني.»

- «انا ايه؟»

قال منير:

- «سمعتك بتقول في المعتقل انك ساكن في (بين السرايات) وصفتك للناس اللي في الشارع دارني.»

- «كده؟»
قال منير:
- «وبالامارة جارتك اسمها فاطمة.»
قال اسماعيل:
- «اسمع ياوله لو مابطلتش تلويح حاتكون الليلة آخر ليلة في حياتك.»
فتح منير فمه قليلاً وأخذ ينظر لاسماعيل بوجه ثابت الملامح. قال اسماعيل وكأنه يمازحه.
- «مين بعتك؟»
- «ماحدش بعتني. انا جاي لك من نفسي في موضوع كده.»
- «موضوع ايه؟»
قال منير:
- «موضوع خطير شويه.»
قال اسماعيل بغضب:
- «ياأخي فلقتني. تكلم.»
قال منير:
- «بالمفتشر؟»
قال اسماعيل:
- «ايوه تكلم بصراحة.»
قال منير:
- «بصراحة؟ انا جاسوس صيني.»
انفجر اسماعيل بضحك لم يستطع السيطرة عليه. قال منير:
- «بتضحك؟ انا بتكلم بجد.»
قال اسماعيل:
- «والمخابرات الصينية باعتاك تتجسس عليا؟»
بلهجته التهريجية التي كان يستعملها داخل المعتقل والتي يبدو انه استعادها بسبب ضحك اسماعيل. قال:
- «عيب ابوالسباع.»
قال اسماعيل:
- «امال جاي تجندني؟»

قال منير بجدية:
- «ندخل في الجد شوف ياسيدي. فيه جاسوس صيني...»
ضحك اسماعيل وقال:
- «جاسوس صيني تاني؟ غيرك؟»

ابتسم منير:
- «واحد تاني غيري اجهزة الامن هنا بتدوّر عليه. كنا مخبينه في مطرح وباين المخابرات بتاعتنا شمت ريحته.»
ونظر الى اسماعيل. قال اسماعيل:
- «وعايزني اخبيه عندي. مش كده؟»
قال:
- «لا طبعاً.»
قال اسماعيل. بحده:
- «فلقتني ياأخي. امال عايز ايه؟»
أخذ منير يتحدث همساً.
- «يعني تتصل بمسؤول المخابرات الصينية في السفارة وتشرح له الوضع، وتطلب منه يهربه للصين، او يشوف له صرفه.»
كان للصفعة على وجه منير دوي. كانت أشبه باصطفاف باب وتتالت الصفعات. اندهش اسماعيل ان منير لم يقاوم ولم يحاول حماية نفسه. حاول النهوض فلكمه اسماعيل على بطنه فعاد الى الجلوس وهو يضغط بيده على بطنه، وقد تشنج وجهه من الالم.
قال له اسماعيل وهو ينحني فوقه:
- «طلع المسجل ياابن الشرموطة.»
قال منير بلهاث:
- «سيبني!»
وأخذ يضغط بطنه. فقال اسماعيل:
- «اهتدي بالله وطلع المسجل.»
عندما فتح منير فمه كان الدم يلون اسنانه بلون أحمر خفيف. تأتأ وقال:
«مسجّل؟»
- «طلع المسجّل.»
- «مسجّل ايه؟»
انحنى اسماعيل فوقه واخذ يفتش جيوبه. كان يرتدي بذلة بنية وقميصاً زهرياً. مد يده في جيوب جاكتته الداخلية فاخرج قلم حبر والبطاقة الشخصية ونقوداً. من الجيب الخارجي اخرج كبريتة ونقوداً معدنية وولاعة غريبة الشكل وسجاير روثمان. امسك بالولاعة والكبريت وقال:
- «ولاعة وكبريت؟»
ثم واصل التفتيش فاخرج شيئاً اشبه باصبع الروج. تأمله وقال:
- «بتتمكيج ياوله؟»
وضع اسماعيل النقود والبطاقة الشخصية في جيب منير الخارجية، ثم سار بالباقي الى الشباك. فتحه والقى كل مابيده الى الشارع. دفعه اسماعيل الى الباب وقال:

ـ «اجري دوّر عليها، واوعى توريني وشك تاني.»
وقف اسماعيل وراء منير قبل ان يفتح الباب وسأله:
ـ «مخابرات والا مباحث؟»
فتح منير الباب وخرج دون ان يقول شيئاً. كان ضوء البسطة مطفأ، وكذلك شقة فاطمة. كان منير يهبط ببطء متحسساً موقع قدمه. رأى فاطمة تخرج من شقتها. اقتربت منه، وضغطت وجهها على كتفه، وقالت بهمس وهي تخفي ضحكها:
ـ «طفيت النور علشان يوقع على السلمة المكسورة.»
واخذا يصغيان. فجأة سمعا صوت جسد يسقط وسباب بذيء وارتفع صوت منير:
ـ «علشان كده طفيتوا النور؟»
وضعت رأسها على صدر اسماعيل وأخذت تضحك وقالت:
ـ «اهه وقع.»
قال اسماعيل وهو يتجه الى شقته:
ـ «ادخلي يابطة.»
قالت فاطمة:
ـ «لا تعالى انت. عامله لك حاجة حلوة.»
ـ «تعشيت.»
قالت:
ـ «انت ناسي؟ ادخل وانا حاطفي نور شقتك واجيب جلابيتك. حاتنام عندي.»
تذكر أنه اليوم هو الخميس وهذه الليلة ليلتها. سبقها الى شقتها وقال:
ـ «سيبي نور الشقة والع. هاتي الجلابيه بس.»
بدت شقة فاطمة متسعة في الظلام واليفة. كان عطر النعناع والبخور يعبق في جو الحجرة. كان يعرف انها بدأت يومها بافطار من عسل النحل والزبدة البقري. نظفت الشقة حتى أصبحت تضيء، وغيرت ملاءات السرير وأغطية الكنبات. دون ان يشعل الضوء رأى القلل القناوي موضوعة فوق الصينية تغطي فوهاتها مفارش صغيرة تتخللها قطع الدانتيلا. يعرف أيضاً انها اعدت له غداء من الكوارع، وانها نظفت جسدها بالحلاوة بعد قيلولة الظهيرة، واستخدمت الحجر الخفاف لتنظيف كعبي قدميها، واستحمت وتبخرت، وتعطرت.
كانت أغطية الكنبة ناصعة البياض، واضحة ومحددة. سار وجلس على احدى الكنبات دون ان يشعل الضوء. اخذ جو البيت الذي صبغ بجو الحب والرغبة الجسدية يتسلل اليه ملمس الجسد المبخر، المعطر، الناعم استدعته ذاكرة الجسد. كان عليه ان يشاركها الغداء فالكوارع قد اعدت كجزء من ذلك الطقس الجسدي.
اضاءت فاطمة النور وقالت:
ـ «قاعد في العتمة ليه؟»
كانت تلبس روباً أزرق، ومن فتحته يبدو قميص النوم الناري. قال:

ـ «بربّح عيوني.»

للمراة العاشقة لحظات توهج تكسر رتابة العلاقة عندما تمتد في الزمن وتتآكل لحظاتها الحادة. ليلة الجمعة تحاول ان تكون كذلك، واما ماحدث الليلة مع منير فهي لحظة اختراق تنطبع في الذاكرة وتستعاد ممتزجة باحلام اليقظة، وبالدافع العميق لخلق اسطورة البطولة، وبدينامية الذاكرة التي تخلق عصراً ذهبياً من ذكريات الماضي. كانت فاطمة تعيش حيوية هذه اللحظة باقبال وشهية معديين. كانت حباً خالصاً ورغبة خالصة. اعادت اليه ذكرى الايام الاولى لعلاقتهما.

جلست في مواجهته تاركة الروب ينحسر عن قميص النوم والنحر النقي وقالت وهي تضحك:

ـ «اما كانت علقة!»

قال:

ـ «كان بقى له زمان واقف الوقفة دي؟»

قالت:

ـ «ساعة ماالمسلسل ابتدا تصور قال كان عايزني ادخّله شقتك. قال ايه؟ قال الاستاذ اسماعيل صاحبه.»

ـ «هوة دق عليك الباب؟»

قالت:

ـ «اسكت. اسكت. دا كان عايز يقعد يستناك عندي. دق الباب وهات يارغي. قال الاستاذ كلمني عنك. دا الاستاذ كانشي له موضوع غيرك، وكان نفسي من زمان اتعرف عليك. وكلام وكلام تقولشي بالع راديو.»

ـ «طبعاً وهات ياغزل.»

ـ «قال دا الاستاذ مدح لي فيك كثير، لكن الحقيقة اكثر من الوصف يامانفسي اتجوز واحدة زيك.»

ـ «وانت، طبعاً دبت!»

قالت، وهي تحني رأسها:

ـ «الا دبت. شاب حليوة ومعجب.»

ضحك اسماعيل وقال:

ـ «كده؟»

قالت بجدية وبنبرة اقرب الى الشكوى:

ـ «أول ماشفته جتتي تلبشت. عامل زي عصاية الفرن. قلت له:

اسمع ياجدع، ياتمشي بسكات والا الم البناية والحتة كلها عليك.»

وشمخت بعنقها فانحسر قميص النوم عن منبت النهدين، بتماسكهما، فمد اسماعيل يده ولمس وجهها. وقال:

ـ «تعالي اقعدي جنبي.»

قالت بدلع اصيل:

- « يوه! بتكسف ياسي اسماعيل . »

قال :

- «قربي ياشيخة . عايز أقول لك حاجة في ودنك . »

قالت :

- «بس كده؟»

وجلست الى جواره . ضمها اليه . بادلته القبلة ، ثم قالت :

- «يوه . نسينا البراندي . »

وانفلتت منه . جاءت بالبراندي والمزة ، وسيجارتين حشيش . وتوالت الاطباق بعد ذلك : الحمام بالفريك المحوّج بالفلفل الاسود وجوزة الطيب والكراويا والقرفة ، ثم اللحمة المقلية ، والخضار المطبوخة . ثم الشاي الثقيل والبن المحوّج .

في البداية كان الحوار الجنسي بالكلام والضم الذي كانت تنفلت منه لانها كانت تتذكر ان عليها ان تفعل شيئاً ما .

في الساعة الثانية صباحاً انتهيا الى السرير .

الفصل التاسع

جاءت زينب الى شقة ايهاب في الساعة الثانية ظهراً. كان ايهاب يجلس في الصالون، امامه كأس براندي، تطفو على وجهه شريحة ليمون، وقطع ثلج مسطحة، رقيقة قالت:

ـ «ابتديت الشرب بدري النهاردا.»

قال ايهاب:

ـ «ايه الطهرانية اللي نازله على دين اهلك؟»

قالت بجدية:

ـ «مااحنا الليلة حانشرب عند مصطفى.»

قال مراضياً:

ـ «دا كاس واحد. فاتح للشهية. بتشربي؟»

ـ «لا.»

قال وهو يقلص المسافة بين سبابته وابهامه حتى كادا ان يتماسا:

ـ «كاس صغير. كده يعني.»

قالت:

ـ «بتحاول تعتذر؟ لما عايزه حاشرب من كاسك.»

اغتاظ ايهاب على هذه القفزات في حديث زينب. عرف ماتعنيه بعبارة بتحاول تعتذر؟ وذلك ان في وصفها بالطهرانية تلميحاً لعلاقاتها السابقة. لم يقصد ايهاب التعريض بها، وكانت تعرف ذلك.

جلست زينب على الكنبة واشعلت سيجارة وجعلت الدخان يتسرب من طاقتي انفها. قال ايهاب:

ـ «مافيش بوسه لله يامحسنين؟»

ـ «لا.»

ـ «ليه؟»

أجرت زينب حواراً تقلد فيه صوتها كأنها امرأة أخرى وكذلك صوت ايهاب:

ـ «علشان عايزه افكر. بتفكري في ايه يازينب؟ بفكر في التطورات السياسية الاخيرة. بتكفري في ايه بالتحديد؟ بفكر في الحرب حاتحصل والا لا. ممكن تديني بوسه ياحبيبتي، بوسه صغيرة؟ لا ليه؟ لاني مش عايز اعمل جنس. بس انا بحبك ياحبيبتي.. حبك برص ياحبيبي. انت عايز جنس. امال عايزه ايه ياحبيبتي؟ عايزة اتغدى وانام. الى آخره، الى آخره. اختصرت عليك نص ساعة من الحوار الممل. ابتدي انت دلوقتي من الى آخره.

شرب ايهاب جرعة كبيرة من البراندي وقال:

ـ «تعرفي انك لذيذة؟»

ـ «عارفه.»

ـ «واني بحبك؟»

ـ «عارفه.»

ـ «واني حاكون اسعد انسان في الدنيا لما اتجوزك»

ـ «انت اللي مش عارف.»

ـ «تعرفي...»

ـ «نكتة عبد السلام عارف. سمعتها.»

ـ «تعرفي انك جنيه؟»

نهضت وقالت:

ـ «حاقوم احضر الغدا.»

فكّر ايهاب: لقد تغيرت زينب. هاجسان، الآن، يشغلانها: قيام حزب جديد لاعلاقة له بالخطين الصيني والسوفييتي، والحرب التي ترى انها قادمة. نهض ممسكاً كأسه وسار الى المطبخ: اراد ان يفاجأها ولكنها التفتت فجأة ورأته وهو داخل. كان يريد ان يقول لها ان جوهر الحياة الزوجية هو الملل. وهذا مايقتلها. ولكن الحياة معها لن تكون مملة، وهذا يعني ان زواجهما لن يكون مملاً، سيكون نوعاً جديداً من الزواج.

قالت عندما رأته يدخل المطبخ:

ـ «جاي تتفلسف في مسألة المؤسسة الزوجية. مش كده؟»

بدا الذهول في وجه ايهاب. قال:

ـ «انت بتقري الافكار. بتكلم جد.»

قالت:

ـ «افكار الولاد الحلوين اللي بحبهم هيه اللي بقراها. يله بقى اجرى وما تعطلنيش.»

أخذ يتأملها. خطر له انه منذ هبطت فورتها الجنسية اصبح يشتهيها طيلة الوقت. قالت:

ـ «تعالى بوسني. عارفه انك مش حاتستريح الا لما تبوسني.»

قبّل شفتيها. ابتعدت وقالت:

ـ «فاكر اول مرة شفتك فيها؟ من اول مادخلت باب الاوده قلت لنفسي حاتكون علاقة بيننا تصدق؟ جسمي انغلق عن كل انسان آخر من ساعتها.»

قال:

- «فاكر حبيبتي، فاكر.»

قال ذلك بحس مأساوي، كأنه اصغى لحقيقة مؤلمة، وهاهو يعترف بها. قالت وهي تضحك:

- «ايه التراجيديا اللي نزلت عليك؟ اجري بقى.»

عاد الى الصالون وأخذ يعيش حلم يقظة متكرر. يرى نفسه يخاطب صديقاً يحكي له عن زينب. لم يكن صديقاً محدداً، ولكنه مجموعة من الصفات. الاتزان والفهم السريع، القدرة على الانفعال وعلى تقييم اللمحة الذكية. يستطيع الخروج بأحكام عامة صائبة من خلال أصغر التفاصيل. اخذ يحكي له عن زينب عن طاقتها الجسدية التي لاتنضب. وكان ايهاب يقدر ذلك تقديراً عالياً، وعن ارادتها القوية. قدرة عالية على التركيز على موضوع محدد سواء أكان الجنس، ام القراءة ام العمل. حدثه عن ثقافتها، معرفتها الممتازة باللغتين الانجليزية والفرنسية، عن تجددها في كل لحظة، حيويتها. ثم أخذ يصف جسدها الذي لايعرف الترهل، عضلاته مشدودة، مرنة، ناعمة وصلبة..

انزعج ايهاب عندما دخلت زينب وانقطع حلم يقظته. قالت:

- «سرحان في ايه؟»

حكى لها انه كان يصفها لصديق خيالي، يقول انها امرأة لامثيل لها، وانه انزعج عندما دخلت وقطعت عليه حلم يقظته. اطلقت ضحكة صافية، ولم تقل شيئاً. سكبت الطعام في الاطباق واخذت تأكل. قال ايهاب:

- «ايه الأخبار؟»

- «مافيش جديد.»

- «فيه حرب؟»

قالت:

- «جالنا صور فيها جنود الجيش الاسرائيلي بيستحموا في البحر في مستعمرة ناتانيا.»

- «يعني ايه؟»

قالت:

- «عايزين يقولوا لنا ان اسرائيل مش ناوية تحارب.»

- «وانت، ايه رأيك؟»

توقفت عن تناول الطعام، واستغرقت في التفكير، ثم قالت:

- «اصلها على الجهتين مستحيلة.»

- «يعني؟»

قالت:

- «اغلاق المضايق في وجه الملاحة الاسرائيلية بيفرض على اسرائيل تحارب، والا حاتنتهي. واذا حاربت فهيه بتغامر بوجودها. انت عارف انه اذا انهزمت اسرائيل انتهت.»

قال:

ـ «مالهاش عمق ستراتيجي ومش عارف ايه.»
صمتا واستغرقا في الاكل. قالت زينب:
ـ «لازم نروح بيت مصطفى بدري. الساعة خمسة. علشان نساعد تفيدة في تحضير الاكل. يعني لازم نصحى الساعة أربعة.»
ـ «طبعاً.»

لم يستيقظ ايهاب في الرابعة فذهبت زينب وحدها الى بيت مصطفى. لبيت مصطفى طابع خاص اصبحت زينب تعشقه. ذلك المزيج من الحياة اليومية لبيت مصري عادي وفوران حسي يشيع في المكان.

من الصعب تحديد سبب ذلك الفوران. كان للمرأتين ـ تفيدة وسعاد ـ طابع غير محايد. فالحيوية الجسدية التي تسمهما لها ملمس عدواني. عندما تراقب المرأتين وهما تباشران اعمالهما اليومية تتشكل تكوينات جسدية تضج بدعوة مباشرة حسية وعنيفة. وفرة الطعام، المتوفر في جميع الاوقات، سعة البيت وامكانية الحركة فيه دون قيود يجعلانك تشعر ان كل شيء مسموح به في هذا المكان. كما كان يحيط بجو البيت جموح له صفة القدرية، القدرية التي توحي بها انفعالات تبلغ من التأجج والعنف حداً يجعل المأساة والبطولة ماثلتين في كل لحظة.

اقامة علاقة جسدية مع تفيدة جامحة وحرة من كل القيود كان حلم يقظة يتسلل الى الكثيرين في لحظات استرخائهم، ولكنه لايصل ابداً الى مرحلة التنفيذ. وكان هنالك اسطورة مصطفى وتفيدة، صاغتها حياة تفيدة السابقة، تحولاتها الغريبة، وجمالها الباذخ الذي يزداد سطوعاً في كل يوم، ومواجهتها مع السفاح. وكانت تلك الاسطورة، في جو الشيوعيين تكتسب ملامح عصر ذهبي سابق. (تسأل زينب نفسها: هل يتحدثون في المستقبل عن اسطورة زينب وايهاب؟»

لقد قال لها ايهاب:
ـ «انت وتفيدة بقيتو اصحاب.»
فقالت:
ـ «انا مفتونة بيها.»
قالت زينب وهي تقف في الصالة الواسعة:
ـ «ايهاب ماجاش معايا. ماقدرتش اصحيه.»
ضحكت تفيدة وقالت:
ـ «كان حايعمل ايه»
ـ «يعمل السلطة على الاقل.»
قالت تفيدة:
ـ «سيبيكي. كان حايلخبط كل حاجة.»
قالت زينب وهي تتنفس بعمق»
ـ «عارفه.»

كانت سعـاد تقف في المـطبـخ الكبير، امام رخامة الحوض، تغسل الرز في المصفى ، بهمة واستغراق . رحبت بزينب بحرارة، وتوقفت عن العمل . كان ترى في زينب صورة لها . كما يجب ان تكون وتشعر ان زينب وقد تجاوزتها تمنحها شرفاً لاتستحقه عندما تعاملها بندية .

* * *

بدأ المدعون يفدون ابتداء من الساعة الثامنة . نوال ووليد، هنية، حسن وانصاف، منصور، هدى وماجدة وخطيباهما وآخرون . اسماعيل جاء في التاسعة . كان جو حفل حقيقياً . تركز الحديث على ايهاب . قالت سعاد انه وعد ان يحضر كل شيء ، وان ماعلى تفيدة وسعاد وزينب الا ان يجلسن كضيفات :

علا صخب ضحك وتعليقات . قال اسماعيل خلال ضحكة وتعبير دهشة على وجهته :

- «ايهاب قال كده؟»

قال ايهاب :

- «انما الاعمال بالنيات . على فكره، ماصحيتنيش ليه ياآنسة زينب؟ كنت ناوي . . »

قالت زينب :

- «حقد . »

تحول الحديث بشكل تلقائي الى موضوع احتمالات الحرب . كان ذلك هاجس الحاضرين منذ اعلان إغلاق المضائق . ورغم الآراء القاطعة التي يدلون بها، فهم في اعماقهم، كانوا شبه مقتنعين ان النصر غير مؤكد . لقد بنيت آمال على حربي عام الثمانية والاربعين والستة والخمسين، وخابت . ولكن احلام النصر المؤكد هي التي تطفو على وعيهم . كان كل من يعبر عن شك في النصر يثير الرعب الداخلي الكامن في الاعماق، فيردون عليه بعنف حتى يسكتوا قلقهم الداخلي .

كانت البداية سؤالاً ان كان هنالك اخبار جديدة عن ازمة المضائق ، فقالت هنيه :

- «بتهيأ لي ان الاسرائيليين في مأزق حقيقي . فهمه لازم يحاربوا لأن اغلاق المضائق ضربة قاسية للاقتصـاد الاسرائيلي، ولثقـة الاسرائيليين بأنفسهم . اذا سكتـوا معناه انهم قبلوا الهزيمة، وبالتالي قبلوا نهايتهم . لكن، بالطبع ، اللي بيقرر الحرب ميزان القوى . »

قالت زينب :

- «صعب الاسرائيليين يحاربوا اذا ماكانوش ضامنين النصر ميه الميه الهزيمة معناها النهاية . جت إلنا صور فيها العساكر الاسرائيليين بيستحموا في البحر، في مستعمرة ناتانيا . »

قال حسن :

- «مادام بيستحموا يعني مافيش حرب؟»

قالت انصاف :

- «ياريت . »

وضحكت .

قالت زينب :

- «مادام الاسرائيليين بيوزعوا صور زي دي ، معناها انهم عايزين بقولوا انه مافيش حرب . »

قال مصطفى :

ـ «مش متصور ان اسرائيل مش حاتحارب، ومش متصورها تحارب.»

قالت هدى :

ـ «دي فزوره؟»

من الطريقة التي القت بها سؤالها كان واضحاً انها لم تقصد النكتة. ولكن الجميع ضحكوا.

قال مصطفى وهو يضحك :

ـ «مش فزوره ولا حاجة. موضوعياً اسرائيل مش ممكن تسكت على اغلاق المضائق. وفي ذات الوقت مش ممكن تحارب.»

كان اسماعيل يتابع كل مايقال بيقظة. مد يده نحو مصطفى وقال :

ـ «ليه؟»

قال مصطفى :

ـ «ليه ايه؟»

قال اسماعيل :

ـ «ليه اسرائيل مش حاتحارب؟»

قال مصطفى بنبرة دفاعية :

ـ «مصر قوة عسكرية كبيرة.»

ابتسم اسماعيل وقال :

ـ «اكبر قوة ضاربة في الشرق الاوسط. مش كده؟»

كان اسماعيل قد أثار اعصاب الجميع. قالت زينب بحدة :

ـ «دا المعهد البريطاني للدراسات الاستراتيجية بيقول كده، ودا معهد دقيق في..»

قاطعها اسماعيل :

ـ «بلا معهد! بلا زفت!»

قال ايهاب :

ـ «عايز تقول ايه ابو السباع؟»

قال اسماعيل :

ـ «عايز اقول ان الجيش المصري مش حايصمد قدام اسرائيل اكثر من اسبوع... ويمكن اسبوع كتير..»

ضحك مصطفى وقال :

ـ «فال الله ولا فالك. على ايه باني كلامك؟»

قال اسماعيل :

ـ «ماعندناش جيش. دا الجيش مجرد عزبة لعبد الحكيم عامر، مجرد غرزة. انتو عايشين في الوهم.»

وارتفعت الاصوات

- «لا، بقى تسمح النا بقى. مش معقول دا كلام؟ دي مبالغة ابو السباع. .»

قال منصور وهو عامل ضخم الجثة، صموت، وله تاريخ طويل في النضال العمالي:

- «سيب خلافاتنا مع السلطة على جهة. عندنا جيش قوي ومسلح تسليح ممتاز.»

قال اسماعيل:

- «وفي ست ساعات حايدخل تل أبيب؟ اوهام.»

- «يعني؟»

قال اسماعيل:

- «اوهام واحلام صنعتها السلطة وانتو صدقتوها.»

قالت زينب بحدة:

- «اوهام ايه؟ وأحلام ايه؟ المسألة مسألة حساب. واحد زائد واحد يساوي اتنين.»

قال اسماعيل:

- «نيجي لمسألة الحساب يازينب. المعهد الاستراتيجي بتاعك بيقول ان عدد الجيش الاسرائيلي ربعمية وعشرين الف مقاتل. ومن اوليات العلم العسكري ان المهاجم لازم تكون قوته تلات اضعاف المدافع. قواتنا اللي على حدود اسرائيل كام مقاتل؟ ستين الف.»

قالت زينب:

- «تمانين الف.»

- «تمانين الف ياستي. خمس أو اقل من خمس الجيش الاسرائيلي. يعني واحد على خمستا شر من القوة المطلوبة. ياجماعة اللي بيتعمل دا تهريج.»

قالت هدى:

- «ماهوه لما تحصل الحرب حايبعتوا الجيش اللي هنا.»

قال اسماعيل:

- «اسرائيل بتعتمد على الحرب الخاطفة. حاتضرب ومش حاتستنانا لغاية مانبعث الجيش.»

قال مصطفى:

- «معقول ابو السباع ان عبد الناصر والقادة العسكريين مش واخدين بالهم من مسائل اولية زي دي؟ يعني دي مسائل من اختصاص العلم العسكري، واحنا مش عسكريين.»

قال اسماعيل:

- «رجعنا تاني لحكاية السلطة اللي بتعرف كل حاجة، وانه احنا قاصرين عن فهم مقاصدها العميقة؟ رجعنا تاني لتأليه السلطة واعتبار الشعب عاجز، ومحتاج لرعاية؟»

صمت الجميع. شعروا ان اسماعيل يماحك فقط. قطع اسماعيل الصمت:

- «انتو فاكرين انه فيه في الجيش تدريب وانضباط وتربية سياسية؟ عندنا اسلحة صحيح، ولكنها اسلحة روسية، واللي تدربوا عليها في روسيا طلعوهم من الجيش. . . .»

لم يعد احد يصغي. شعروا ان اسماعيل تجاوز كل حد، وأصبح يناقش البديهيات. لم يكونوا يرغبون في مناقشة التفاصيل لأنها تحطم كلية الحلم الجميل. يبررون ذلك بقولهم: لسنا خبراء

عسكريين. لم يكن منطقياً الا يكون لمصر جيشاً قوياً. لقد تحملوا كل شيء حتى يتم بناء هذا الجيش، وانها خديعة لاتحتمل ان يضحي الجميع من اجل بناء جيش غير قادر على النصر. هذه المسألة بالذات غير خاضعة للنقاش كانوا يفهمون اسماعيل تماماً. انه من ذلك النوع الذي يرى مبرر وجوده في معارضة السلطة، حتى لو كان ذلك بلا مبرر منطقي. كانت خيبة املهم فيه كبيرة: اهذا هو اسماعيل الاسطورة! هاهو يتكشف عن طفل مشاكس!

قالت تفيدة:

- «انت نسيت ضيوفك يامصطفى. كلهم تقريباً كاساتهم فاضية.»

قال مصطفى:

- «لا مؤاخذة يامدام تفيدة. ياأخي انتو ضيوف؟»

وقف ايهاب وقال:

- «ضيوف ونص. انا البارمان الليلة.»

أخذ ايهاب يصب البراندي في الكؤوس.

أدرك اسماعيل ان الجميع اصبحوا لايرغبون في النقاش. اي بؤس هو هذا تصنع لهم السلطة احلاماً، تنوّمهم بها، ولايستطيعون الخروج منها. ثم يقنعون انفسهم ان تلك الاحلام هي نتيجة اجتهاداتهم الخاصة. ويزعمون بعد هذا انهم ماركسيون. التفت الى هنية وقال:

- «عامله ايه ياهنية؟»

قالت:

- «غرقانين في معبد ابو سمبل. هيئة اليونيسكو مطلعة عيوننا على المليمين اللي حايدوهم لنا.»

- «همه لسّهماابتدوش شغل فيه؟»

- «لسّه.»

قال:

- «تصورت من اللي بتكتبه الجرانيل ان الشغل فيه خلص.»

كان من الواضح ان الحديث قد سقط في هوة لن يخرج منها بسهولة. قد يكون المخرج، فكر اسماعيل ان تعلن تفيدة ان العشاء جاهز فتنتهي السهرة في موعد مبكر. ثم خطر لاسماعيل: الايجوز ان اكون مخطئاً؟ هل يمكن للجميع - عبد الناصر والقادة العسكريين والجماهير المتحمسة ورفاقه هو- ان يكونوا مخطئين وهو وحده على حق؟ ثم استعاد تماسكه: ماهذا ياأبو السباع؟ انك تعرف الوضع جيداً وانك تخدع نفسك بمنطق ان الاكثرية على حق هل تسمح لنفسك ان تعيش ذلك الاسترخاء، ذلك الحلم الخامل. لقد تقدمت في السن ياابو السباع. وهؤلاء الشبان المستغرقين في احلام صنعتها السلطة سوف يفيقون منها. ان اسرائيل لن تتأخر في الهجوم. نحن الآن في الخامس من حزيران. الاغلب انها ستهاجمنا قبل نهاية هذا الشهر.

مالت زينب نحو ايهاب وهمست له:

- «اسماعيل شخصية غريبة. انا بكره التعصب.»

قال ايهاب بصوت مرتفع :

ـ «مين عارف .»

وتنهد .

قالت :

ـ «ايه يعني؟»

قال هامساً :

ـ «مايمكن يكون هوه على حق واحنا الغلطانين .»

قالت زينب بغيظ :

ـ «دا رأيك؟»

كانت تختنق بغيظها . لم يرها ايهاب هكذا من قبل . قال وهو يضع ذراعه على كتفها :

ـ «حبيبتي . ابو السباع قدم اسباب ومعلومات . احنا ماقدمناش حاجة غير عموميات . مين بقى المتعصب؟ دا طبعاً ، مش معناه اني موافق على كلامه . انا ماليش رأي .»

ابعدت ذراعه عن كتفيها وقالت :

ـ «اسكت .»

ـ «انت غريبه . ايه اللي حصل؟»

قالت بصوت مرتفع :

ـ «ارجوك تسكت .»

قالت تفيدة وهي تضحك :

ـ «مالكو؟»

قال ايهاب :

ـ «تخانقنا لاسباب موضوعية خالصة .»

نهضت زينب بقوة وعصبية ، وقالت لتفيدة :

ـ «قعديني جنبك .»

انزاحت تفيدة وجلست زينب بجوارها محنية الرأس ، شعرها يسقط امام عينيها . رفع اسماعيل كأسه وقال بصوت مرتفع :

ـ «نشرب في صحة زينب .»

قال ايهاب وهو يرفع كأسه :

ـ «آي والله .»

وارتفعت الكؤوس والضحكات وزينب ماتزال محنية الرأس ، عابسة .

قال اسماعيل :

ـ «اختلاف الرأي لايفسد للود قضية يازينب .»

قالت :

ـ «لا . يفسد .»

قهقه اسماعيل وقال لايهاب :

ـ «زينب رائعة .»

نهضت زينب وخرجت من الحجرة . عادت بعد قليل وقد غسلت وجهها . كانت تبتسم وتنظر الى الارض . قالت :

ـ «أنا متأسفة ياأستاذ اسماعيل»

قال ايهاب :

ـ «شفت النهاردا حكاية غريبة .»

انتبه الجميع اليه فأضاف : حوالي الثانية عشرة ظهراً كنت سائراً على كوبري قصر النيل . طلعت بدري من الشغل . وقفت متكئاً على حاجز الكوبري فجذب انتباهي شاب يقف قريباً مني . كان يلتفت نحوي وينظر في عيني مباشرة . كان في عينيه شيء اشبه بالضحك . لمعت عيناه بدهشة ومضى يطالعني بنوع من الشقاوة . ادار وجهه بعيداً وبدا أنه يخفي ضحكاً لم يستطع التحكم به : ثم عاد والتفت الي تصورت انه يعرفني وسوف يتقدم لمصافحتي ، فاستدرت نحوه . ولكنه بدلاً من ان يتقدم نحوي صعد فوق حاجز الكوبري والقى نفسه في النهر .

قالت هدى :

ـ «مش معقول .»

لاحظ أن زينب تنظر اليه بحدة .

مضى ايهاب يقول : سقط في الماء وغاب مخلفاً دوامة صغيرة . تم ذلك بسرعة مدهشة . بعد قليل صعد على وجه الماء وفمه مفتوح . ثم غطس مرة أخرى وصعد على وجه الماء . في تلك اللحظة اخذ قارب يتجه نحوه ، وعندما حاذاه ، مد المراكبي ذراعه وجذب الفتى الى القارب . استخرج المراكبي فوطة ومدها للفتى ، فتناولها وأخذ يجفف نفسه .

انطلقت ضحكة عالية متصلة من زينب وقالت :

ـ «ظريف قوي .»

قال ايهاب : «الشيء الغريب وغير المتوقع كان ردود فعل الناس لما حدث . السائرون توقفوا واخذوا يراقبون الفتى . كان الجميع ، على الاقل الذين سمعتهم ، غاضبين لان محاولة الانتحار لم تنجح . رجل عجوز كان يقف على يميني كان يزعق بحماس حتى انني خشيت ان يصاب بأزمة قلبية . كان يصيح مخاطباً الفتى :

ـ «نشف نفسك كويس احسن تاخد زكام .»

ثم ينادي على المراكبي :

ـ «اعمل له شاي ياريس واديله اسبيرين .»

وكأن المراكبي ، الذي لم يسمعه ، استجاب لامره ، فاخرج براد شاي وملأ كوباً وقدمه للفتى ، فصرخ العجوز وهو يمد جسده فوق الحاجز . ويلوح بيديه :

ـ «نسيت الاسبيرين . اديله اسبيرين .»

ثم نظر الي وقال:

- «شفت والنبي!»

ثم عاود الزعيق. قلت له:

- «حاسب ياعم احسن توقع من فوق الكوبري.»

التفت الي وقال:

- «حاجة تغيظ.»

- «ايه اللي غايظك؟»

قال:

- «الواد الدلوعة اللي عايز يعمل راجل وينتحر. ناقص المراكبي يجيب له سيشوار يسشور شعره.»

قلت:

- «زعلان اللي ماماتشي؟»

قال بضيق:

- «لا زعلان ولا حاجة.»

زعق رجل وهو يقهقه ويشير بيده الى المركب:

- «شوفوا ابن العبيطة بيضحك.»

كان الفتى بالفعل يرفع وجهه الى الجمهور الذي ازدحم خلف الحاجز واخذ يبتسم. قالت امرأة تلبس الملاية اللف:

- «جتها نيله اللي عايزة خلف!»

- «ومئات التعليقات. حاجة غريبة جداً. الناس كانوا زعلانين لانه ماماتشي. كأنهم بيتفرجوا على تمثيلية انقطعت من نصها.»

قالت تفيدة:

- «الناس كانوا زعلانين لانه حاول الانتحار.»

قال اسماعيل:

- «اعتقد دا صحيح.»

رغم استمتاع الحاضرين بالحكاية التي رواها ايهاب فانها لم تثر الكثير من التعليقات. ولكنها أخرجت السهرة من ركودها. أصبحت سهرة منوعات. حكايات تقاطعها. نكات نكات تستدعي نكات.

ثم أصبح الجو اكثر حميمية واثارة. كان الحديث يتركز حول احد الحاضرين. تتوالى التفاصيل والحكايات الصغيرة عن تلك الشخصية، ويوضع ذلك في سياق رؤية العاشق لحبيبته، حيث تبنى من معطيات الحياة اليومية نماذج محاطة بهالة اخاذة، ترقى الى مستوى الاسطورة. فيكتشف الشخص المعني في نفسه تفرداً وتميزاً لم يخطر له. كان ذلك يفتنه ويضعه في حالة من النشوة ترتفع به عن سياق الحياة اليومية.

وكان التركيز على تلك الشخصيات الملتبسة، المفتوحة لاحتمالات السقوط، والمعرضة للمطاعن تفيدة، زينب، سعاد، وبمنطق ورؤية مستمدتين من معطيات النظرية الماركسية والتقاليد الشعبية. وبدا اسماعيل انه الاكثر براعة في هذا النوع من الحديث حتى اصبح مركز السهرة. تألق عن تعمد حتى يزيل التوتر الذي أثاره النقاش حول الحرب.

كان أكثر الحاضرين انتشاء بهذا الحديث، وخجلاً في الوقت ذاته، هي سعاد. وكانت خائفة ايضاً، اذ انها وقد بنيت شخصيتها من مواد هشة، وغير مفهومة لها، تخشى ان تسقط لسبب غير مفهوم ايضاً، فأصبحت يقظة، مرتبكة، سريعة الضحك، خفيفة الحركة، سرعان مايحمر وجهها من كل عبارة او نظرة توجه اليها. تحدث عنها اسماعيل فقال: انها الفتاة التي امسكت بقدرها بدلاً من ان يمسك بها. قالت عنها زينب:

ـ «اللي بيعجبني في سعاد اصالتها. بتبني حياتها في جو غريب عنها، جو المثقفين. ورغم دا مافقدتش الصفات الجميلة لبنت الشعب.»

قال اسماعيل:

ـ «صفات الجدعنة والشهامة.»

ودت سعاد ان تسأل عن معنى كلمة «اصالة» ولكنها خجلت. قال ايهاب:

ـ «والفهلوه.»

قالت هدى:

ـ «الفهلوة مش صفة اصيلة في شعبنا. دي رد فعل دفاعي ضد القهر الواقع عليه.»

قالت تفيدة:

ـ «الفهلوة عندنا اصبحت مقصودة لذاتها. الانسان المصري بيشعر بالاهانة لوحد ضحك عليه، وبالاعتزاز اذا استكرد حد.»

قالت هدى:

ـ «دي حاجة ايجابية؟»

ـ قالت تفيدة:

ـ «لا.»

قال حسن فجأة:

ـ «ياجماعة دي ليلة جميلة جداً. زي السجن.»

اندهش الحاضرون، وصدرت تعليقات: «قال الله ولا قالك ياشيخ» فضحك حسن وقال:

ـ «كلام خايب فعلاً.»

ثم أضاف:

ـ «انا بتكلم عن ليالي السجن. السهرات اللي كنا بنظمها. كانت جميلة جداً. روح الاخوة والحب كانت عالية جداً.»

قال ايهاب :

- «صحيح .»

انتقل الحديث الى ذكريات السجن . الحاضرون ، الذين لم يدخلوا السجن ، اخذوا يكونون افكاراً خاطئة عن السجن . بدا لهم معرضاً للبطولات وللحكايات المسلية .

نظرت هدى الى ساعتها وقالت :

- «الساعة بقت اتنين . تصوروا .»

نظر الحاضرون الى ساعاتهم . اطلق بعضهم صفرة ، واعلن البعض ان عليهم ان ينصرفوا .

قال مصطفى :

- «العشا .»

قال اسماعيل :

- «عشا ايه؟ حد جعان؟»

ارتفعت أصوات :

- «كلنا .»

- نهضت تفيدة وسعاد وهدى متوجهات الى المطبخ . رفعت زينب وجهها نحوهن وقالت بلهجة قاطعة :

- «انا ضيفة . قوم معاهم ياايهاب .»

قال ايهاب :

- «طبعاً ودي عايزه كلام .»

انتهوا من العشاء في الثالثة . قال ايهاب والجميع يستعدون للانصراف :

- كانت سهرة رائعة . لازم نسميها سهرة الخامس من يوليو .»

قالت تفيدة :

- «بقينا ستة يونيو .»

الفصل العاشر

دخل ايهاب الوكالة الصحفية فرأى مدير الوكالة هيلموت يقف في الصالة. قال:

- «صباح الخير، مستر ايهاب. هل من أخبار؟»

قال ايهاب:

- «لم اسمع شيئاً بعد.»

قال هيلموت:

- «اعتقد ان فرص الحرب قد تضاءلت. هنالك مبعوث امريكي سوف يصل اليوم الى القاهرة.»

دخل ايهاب الى حجرته. كان زميله قاسم يقرأ الصحف. رفع رأسه وقال:

- «باين حاتولع يارفيق ايهاب.»

قال له ايهاب:

- «مستر هيلموت بيقول انه فيه مبعوث امريكي جاي القاهرة.»

قال قاسم:

- «سيبك من هيلموت. المرة دي اسرائيل حاتاكلها.»

وقف هيلموت بباب الحجرة وقال:

- «سوف افتح الراديو حتى نكون على الجانب الامين.»

قال ايهاب:

- «الى اللقاء في تل ابيب.»

ابتسم هيلموت وقال:

- «علي ان أعد النشرة. برلين سوف تتصل بالتليفون بعد ساعتين.»

وانصرف الى حجرته. انهمك ايهاب في قراءة الصحف وفي التأشير على الاخبار المهمة وترجمة عناوينها. قال لقاسم:

- «تفطر؟»

نادى قاسم طابع النشرة:

- «افطار زي كل يوم ياعباس.

بعد قليل خرج ايهاب الى الصالة. كان الراديو يذيع برنامج «ربات البيوت». كانت سامية صادق تشرح الطريقة التي تعد بها ربة البيت «دقية البامية». توقف الارسال فجأة وانطلق من الراديو مارش عسكري. رأى ايهاب هيلموت وقاسم يقفان ببابي حجرتيهما. قال هيلموت:

- «ماذا حدث؟»

قال ايهاب بانفعال:

- «انها الحرب.»

في تلك اللحظة انطلق صوت المذيع يقول ان اعداداً كبيرة من الطائرات الاسرائيلية قامت بمهاجمة اهداف عسكرية داخل مصر، وانه قد تم اسقاط اربعين طائرة. خرج هيلموت من حجرته وقال:

- «ماذا حدث؟»

حكى له ايهاب، فقال:

- «دع الصحف الآن، رجاء وتابع الاذاعة.»

توقف المذيع فعادت سامية صادق تشرح طريقة اعداد «دقية البامية». كانت الطريقة شديدة التعقيد. قال هيلموت:

- «ماذا تقول؟»

قال ايهاب:

- «تصف طريقة اعداد طعام ما. اعتقد انهم بحاجة الى بعض الوقت حتى يغيروا برنامج الاذاعة.»

في تلك اللحظة دخل عباس يحمل طعام الافطار. قال:

- «ايه الحكاية؟ فيه حاجة حصلت؟»

قال له ايهاب:

- «الحرب قامت.»

قال عباس:

- «وصلنا تل ابيب؟»

قال ايهاب:

- «بعد ست ساعات.»

في تلك اللحظة انطلقت صفارات الانذار. انقطع الارسال ثم انطلق مارش عسكري. قال عباس بحماس:

- «المسألة بقت جد. حانخلص على اسرائيل.»

احاط قاسم كتفي عباس بذراعه وقال:

- «ياأخي شعبنا أصيل!»

دق جرس التليفون فنادى هيلموت ايهاب واخبره ان هنالك من يطلبه. سمع ايهاب صوت

زينب. كانت منفعلة. قالت ان الجيش المصري دخل اسرائيل تقدم في منطقة الكونتيلا، واننا اسقطنا اربعين طائرة اسرائيلية ثم أضافت:

- «احنا اللي ابتدينا الحرب. دايان قال كده والجيش كله تحرك لسينا.»

قال:

- «عظيم.»

قالت:

- «الجيش السوري والاردني دخلوا الحرب. باي. حااتصل تاني كمان شويه.»

عندما وضع ايهاب السماعة تذكر اسماعيل: ماذا سوف يقول امام هذه الحقائق المذهلة؟ حكى لهيلموت وقاسم ماقالته زينب. قال هيلموت:

- «يبدو ان الوضع خطير.»

قال قاسم لايهاب:

- «ممكن امريكا تسكت وهيه بتشوف اسرائيل بتنتهي؟»

قال ايهاب:

- «حاتعمل ايه فيه توازنات دولية.»

وضع عباس الطعام على مائدة منخفضة امام الراديو. كان جبنة صفراء، وبصلاً ايطالياً أحمر، وزيتوناً وخبزاً. كان ايهاب يرى هيلموت وهو يكتب تقريره اليومي على الآلة الكاتبة ناداه ايهاب:

- «تفضل افطر معنا يامستر هيلموت.»

قال:

- «شكراً. ابلغوني بكل خبر جديد، رجاء.»

قال قاسم لعباس:

- «تعالى افطر وايانا.»

- «فيه العافية يابيه. سبقتكم.»

قال قاسم:

- «كنتو بتغلطونا لما كنا بنراهن على عبد الناصر.»

قال ايهاب:

- «الواقع هو اللي بيحدد على مين نراهن.»

- «الواقع حدد ايه دلوقتي؟»

- «حدد ايه؟»

- «حدد القضاء على اسرائيل.»

قال ايهاب وهو يدرك ضعف حجته:

- «احنا لسّه في اولها.»

قاسم عضو في «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» المعروفة باسم «حدتو»، الذي أول من

طالب بحل الحركة الشيوعية. عن هذا التنظيم انشقت معظم التنظيمات الشيوعية. وقد كان لحدتو صلة وثيقة بحركة الضباط الاحرار قبل قيام حركة يوليو. ويقال ان الحركة كانت تطبع منشوراتها في مطبعة حدتو السرية. كما ان عدداً من اعضائها الضباط كانوا اعضاء في حركة الضباط الاحرار. وبعد قيام حركة يوليو تصرفوا وكأن الحركة جزء منهم. ورغم ان عبد الناصر قد اعتقلهم في عام ١٩٥٩ الا انهم ظلوا على ولائهم ورفعوا شعار حل الاحزاب الشيوعية لان عبد الناصر سوف يحقق الاشتراكية. وكانت قمة مفاخرهم هو قولهم، الذي يفتقر الى الدليل، ان النظرية السوفييتية حول الطريق اللارأسمالي الى الاشتراكية هي نظريتهم هم وان السوفييت اقتبسوها عنهم.

وقاسم احد الذين اعتقلوا عام ١٩٥٩ وافرج عنه عام ١٩٦٤ بمناسبة زيارة خروشوف لمصر. وهو الآن، يطالب ايهاب باعتراف صريح بان حدتو كانت دائمًا على حق ولم يكن ايهاب مستعداً للاعتراف بشيء كهذا.

دفق الحماس المنبعث من الراديو اوقف الحوار بين الاثنين. استعيدت اغاني حرب عام ١٩٥٦: (والله زمان ياسلاحي) (حانحارب) (دع كنالي) (الله اكبر فوق كيد المعتدي). وتوالت المارشات العسكرية، يتلوها صوت احمد سعيد هادراً: «تقدم ياأخي الى تل ابيب اسحق العدو الجبان...» وشعارات يلقيها مذيعون متحمسون ومذيعات هستيريات، وبيانات عسكرية لاتقول شيئاً محدداً، ولكنها توحي باروع النتائج.

تليفون آخر من زينب. قالت ان الجيش المصري توغل داخل اسرائيل، وان الجيش السوري بلغ بحيرة الحولة. وقالت انها سوف تنتظره في البيت، في الثانية. حكى لقاسم ماقالته زينب قفز عباس الذي كان يصغي وصرخ:

ـ «الله اكبر.»

خرج هيلموت من حجرته وقال:

ـ «ماذا حدث؟»

اعاد ايهاب رواية ماقالته زينب. اصغى هيلموت بوجه عابس ثم قال:

ـ «ارجو ان يكون هذا صحيحاً.»

قال قاسم:

ـ «انه مؤكد.»

في تلك اللحظة دخل السائق وقال لهيلموت:

ـ «مستر هيلموت يهودي مافيش. كابوت يهودي.»

ابتسم هيلموت ودخل حجرته. قال السائق:

ـ «اسرائيل خلصت ياجدعان.»

قال عباس:

ـ «في ستين داهية.»

حتى الساعة الثانية ظهراً لم يكن قد اتضح شيء. غادر ايهاب الوكالة وسار في شارع البرازيل.

كان هنالك انذاراً بغارة جوية والسيارات واقفة بانتظار صفارة الامان. على ناصية الشارع المتفرع عن الشارع الرئيسي كان هنالك مقهى صغير شعبي يجلس فيه بوابو وخدم المنطقة. امامه كان يقف رجل نوبي عجوز يرتدي جلابية بيضاء وعمامة. كان ينظر الى السماء وهو يظلل عينيه بكفه. قال:

- «الاولاد ماوصلوش تل ابيب يعني.»

قال ايهاب لنفسه: ذلك دأب البوابين عندما يشاهدون مباراة كرة قدم. قال له شاب انفتحت جلابيته فظهر شعر صدره الكثيف:

- «عرفت ازاي انهم ماوصلوش؟»

قال العجوز:

- «الراديو ماقالشي.»

قال الشاب:

- «دي اسرار عسكرية.»

كانت زينب قد سبقته الى البيت. كان الغداء موضوعاً على طرابيزة في الصالون، وكذلك زجاجة نبيذ روزية. نهضت عندما دخل وعانقته وقالت وهي تتنهد:

- «ايهاب.»

فتنهد وقال يقلدها:

- «زينب.»

- «ايهاب.»

قال مقلداً عبد الوهاب في اوبريت «قيس وليلى»:

- «زيناب.»

ضحكت زينب وصبت لنفسها كأساً من النبيذ وشربته دفعة واحدة فتضرج وجهها بحمرة قانية. سكبت لنفسها كأساً آخر فقال لها ايهاب:

- «شوية شوية حبيبتي انت مش ناقصة جنان.»

قالت بحيوية:

- «حاوريك الجنان اللي على اصوله.»

جرعت جرعة من النبيذ، وقالت:

- «ماتبوسني ياواد يالذيذ.»

قال:

- «لاياأختي. انا بتكسف.»

قالت:

- «وانت وش كسوف بوسني ياوله.»

ضمها اليه واستغرقا في عناق طويل. قال لها فجأة:

- «بالمناسبة ايه اخبار الحرب؟»

قالت وقد استغرقت في تناول الطعام:

- «انتصرنا.»
- «يعني؟»
نظرت اليه وقالت:
- «مش فاهمة حاجة. التقارير والاخبار متضاربة.»
قال ايهاب بحدة:
- «بتقول ايه التقارير؟»
- «الطيران بتاعنا انضرب.»
- «مين اللي ضربه؟»
- «مين حايضربه.»
ثم أضافت:
- «كان المشير عامر في الجو، فما قدروش يضربوا على الطيران الاسرائيلي.»
- «والاربعين طيارة اللي وقعناهم؟»
قالت بهمس:
- «ماوقعناش حاجة.»
كان الكلام يتكون على شفتي ايهاب دون ان يقول شيئاً. قالت:
- «بس قواتنا بتتقدم داخل اسرائيل.»
- «بتتقدم ايه؟ صلي عالنبي ياشيخه.»
قالت:
- «العصر حاارجع الوكالة واشوف الاخبار.»

واصلا تناول الطعام في صمت. ثم تمددا على السرير دون ان يتماسا. شعر الاثنان انهما يخفيان سراً مخزياً. في الصمت المشحون اخذت زينب تبكي. راقبها ايهاب دون ان يقول شيئاً، ثم جذبها نحوه. اخفت رأسها في صدره وأخذ جسدها كله يرتج بالبكاء.

* * *

عندما غادر البناية كان الظلام سائداً. كان عالماً غريباً في الخارج انوار الشوارع والبيوت مطفأة. السيارات، وقد دهنت مصابيحها بلون أزرق قاتم، كانت تسير ببطء، ولمحات الضوء الابيض تبدو خلف زجاج المصابيح وتنبسط شاحبة على أرض الشارع. كانت وهم ضوء، تراه لانك تتوقع ان تراه.

سارا مشياً في اتجاه كوبري الجلاء. المارة قلائل، ورجال الدفاع المدني يعلنون عن انفسهم بصرخة: «اطفي النور.» في ارض المعارض استوقف ايهاب سيارة اجرة، وسارت بهما ببطء، وسط الشوارع المظلمة حتى وصلا باب الوكالة التي تعمل بها زينب. قال لها انه سوف يمر بها في التاسعة. هبطت وعاد بالسيارة الى ميدان سليمان باشا. دخل مقهى ريش. كان المطعم في الداخل مضاء، اما المقهى المغطى بقماش ابيض، خشن، سميك فكان يستمد ضوءه من المطعم عبر الشبابيك العالية.

شاهد مجموعة من اصدقائه جالسين في المقهى وهم في حالة مرحة جداً. اكتشف ان سبب مرحهم الصـاخب هو عادل. وهو أحد صعاليك القاهرة المعروفين. يبدأ يومه في السابعة مساء، وينتقل من ريش بعد ان يغلق في الحادية عشرة الى مقهى سوق الحميدية في باب اللوق، ويظل هنالك حتى الثالثة بعد منتصف الليل ثم يتوجه الى شارع التوفيقية وقد توهج بزحام الخارجين من النوادي الليلية ـ زبائن وراقصات ومومسات ـ والمتسكعين، والباحثين عن البيرة، او عن وجبة سريعة.

في حوالي الرابعة يتجه عادل ومجموعته الى مقهى «كازابلانكا» الذي يطل على ميدان التوفيقية. يجلس هنـاك حتى تصدر الصحف الصباحية. يقرأها ثم يتناول افطاراً مكوناً من الفول والبيض والسلطة، ثم يسير الى حي الحسين، الى الفندق الذي يسكنه.

وفي هذا اليوم خرج من الفندق في الساعة السابعة. رأى الاظلام المفروض على المدينة فاعتقد ان التيار الكهربائي مقطوع، ولكنه اندهش عندما رأى مطعم ريش مضاء. وعندما سأل الحاضرين قالوا ان التيار الكهربائي مقطوع، ولكن المطعم في حالة كهذه، يشغّل موتوراً.

عندما اقترب ايهاب من المجموعة، قال احدهم:

ـ «اهه ايهاب. مش فيه موتور في المطعم؟»

واخذ يهز رأسه ويغمز بعينيه. فقال ايهاب:

ـ «طبعاً.»

اتضح لايهاب ان عادل بالفعل لم يسمع ان الحرب قامت، وانه يظن ان مايحدث هو بسبب انقطاع التيار الكهربائي. لم يتحمس ايهاب للاستمرار في اللعبة. كان خبر كارثة الطيران يثقل عليه قال لعادل:

ـ «ياراجل فوق. دا احنا حاربنا ووصلنا تل ابيب وانهزمنا، وانت غايب في التيار المقطوع.»

قال عادل بدهشة:

ـ «حاربنا؟ حاربنا مين؟»

قال ايهاب وسط ضحك صاخب:

ـ «يعني حانحارب مين؟ الصين؟»

هدأ الصخب وتحـول الحـديث الى الحرب. تبين لايهاب ان مصدرهم الوحيد للاخبار هو الاذاعة المصرية، ومجموعة من الاشاعات التي تروي باعتبارها حقائق مؤكدة. تمنى ايهاب ان يكون مثلهم متفائلاً، لم يسمع، حتى الآن، عن بوادر الهزيمة. قال أحدهم:

ـ «بيقولوا قرّبنا من تل ابيب. بس الاسرائيليين بيقاوموا بعنف.»

قال آخر:

ـ «ماحلاهم وهمه مش حايقاوموا.»

ـ «اسرائيل حتاكل ضربة ماحصلتشي.»

ـ «هوه حايبقى فيه اسرائيل.»

قال عادل:

- «اهه الحشيش نفع .»

شعر ايهاب انه لن يستطيع اختراق هذا الجو المتحمس. اي كلام سوف يقوله لن يصغي اليه احد ولكن، هل للطيران مثل هذه الاهمية؟ وكأن محمود كان يقرأ افكاره، اذ قال:

- «النهار دا اسقطنا اربعين طائرة اسرائيلية .»

قال آخر:

- «اربعين ايه؟ ستين طيارة .»

قال محمود:

- «صحيح. اربعين اللي وقعوا الصبح .»

قال ايهاب بنبرة منطقية، خالية من الحماس، انه تابع الاخبار طيلة النهار، ولم يسمع عن طائرات اسقطت، الا ماجاء في البيان الاول. قال انه يشك في الرقم لان بدء القتال كان في التاسعة، وبشكل مفاجىء، والبيان اذيع في التاسعة والنصف. ومن غير المعقول ان يقوم هجوم وغارات واسقاط اربعين طائرة، واحصاء ماسقط، وابلاغه لقيادة الجيش، وابلاغ قيادة الجيش الخبر للاذاعة في نصف ساعة.

صمت الجميع فجأة، ثم ابتدأ الزعيق. تصاعدت التعليقات: اتهموه بالحذلقة وانه يتحدث عن مسائل عسكرية لايفقه فيها شيئاً، وقال آخر انه يشبه عواجيز الفرح، وانه أصبح خبيراً عسكرياً، واقترح آخران يسلّموه قيادة الجيش. صمت ايهاب مذهولاً. لم يكن اصدقاؤه يخاطبونه بمثل هذه الحدة. فكر ان يغادر، لانه يعرف ان هذه الانفعالات سوف تتصاعد، وتتحول الى اهانات حقيقية. ولكن انصرافه سوف يستفزهم اكثر، والساعة مازالت الثامنة والنصف، وهو لن يجد مكاناً آخر، بهذا القرب من الوكالة التي تعمل بها زينب، يذهب اليه وبالاضافة الى هذا فان خبر كارثة الطيران يلح عليه، ولكنهم لن يستمعوا اليه، وهم في حالتهم هذه. لم يكن امامه سوى الصمت حتى تخف حدة استنكارهم.

تحوّل الاهتمام الى قادم جديد.

- «اخباري ايه يااحمد؟»

- «اخباري شخصياً واخبار الحرب؟»

- «اخبار السيدة والدتك .»

ابتسم احمد وقال:

- «الجيش السوري وصل جوة خالص. الحولة، مش عارف ايه .»

- «اخبارك بايته. والجيش المصري؟»

- «شغّال .»

لاحظ ايهاب ان الحماس السائد ولد تحليلات بالغة التفاؤل، وان تلك التحليلات اعادت صياغة الاخبار التي سمعوها، فتولدت اخبار جديدة. مثال ذلك الخطة العربية لالتقاء الجيش الاردني والسوري والمصري في القدس، حتى لايعود امام اسرائيل سوى التراجع والغرق في البحر. قالت

التحليلات لو ان كل جيش من الجيوش الثلاثة سار في طريق مستقيم لاصبحت القدس هي نقطة التقائها. ثم تحوّل ذلك الى خبر يروى للقادمين الى تلك الجلسة.

تحدث أحدهم عن طائرات السوخوي المصرية. قال انها قاذفة مقاتلة، وانها تصيب الهدف عن بعد سبعين كيلو متراً، وان اصابتها شبه مستحيلة.

غادرهم ايهاب. شعر، وهو يسير في شارع قصر النيل، والظلام يجعل الفراغ لانهائياً، بانه وحيد، وبلا اصدقاء. كان شوقه الى زينب شوقاً الى الامان والخلاص من الاهانة. بدت مشعة بفتنة حنونة رآها تقف في الشارع، يوطر جسدها الضوء الخائر، الاعمش، المنبعث من باب بناية الوكالة. كانت عيناها تضيئان بضوء مكتوم، مبلول، اسود حين قالت له:

- «طلعوا دينك. مش كده؟»

- «مين؟»

- «بتوع ريش.»

- «عرفت ازاي؟»

ابتسمت وهي تمسك يده، وقالت:

- «بالتلياتي. تعالى سيارة الوكالة حاتوصلنا.»

قال ايهاب

- «فيه ايه اخبار؟»

قالت وهي تتجه الى السيارة ممسكة بيد ايهاب:

- «مافيش حاجة واضحة. فيه قتال. وكل جانب بيقول انه منتصر.»

قالت ذلك دون اهتمام.

في داخل الشقة كانا مرتبكين جلسا على الصوفا، ووضعت زينب رأسها على صدر ايهاب، وصمتا. بعد قليل ابعدت رأسها، قبلت خده، ثم قالت وهي تنهض:

- «قهوة.»

- «رائع»

دق الجرس فخرجت زينب وفتحت الباب. هتفت بحرارة:

- «اسماعيل. احنا لسّه واصلين.»

دخل اسماعيل وهو يقول:

- «عارف الوقت مش مناسب.»

قالت زينب:

- «مناسب جداً، جداً.»

جلس اسماعيل، ثم قال:

- «عاملين ايه؟»

قال ايهاب:

- «تمام. ايه الاخبار؟»

قال اسماعيل:

- «انتو بتوع الاخبار. ايه الاخبار الجديدة؟»

حكت له زينب آخر الاخبار وقالت انه يبدو ان طيراننا تم تدميره، وحكت له عن طائرة المشير التي كانت في الجو. قال:

- «باين مش عارفين كل الاخبار.»

قال ايهاب:

- «فيه اخبار تانية؟»

قال انه ليلة البارحة اقيمت حفلة للطيارين. «وشرب ورقاصات ومغنيات» للساعة الخامسة صباحاً. الطيران الاسرائيلي ضرب قواعدنا وطيارينا سكرانين.

قالت زينب:

- «دا بيفسّر كل حاجه.»

ثم نهضت وقالت:

- «حاعمل لكو قهوة.»

اخذ ايهاب يحكي بصوت شاك ماحدث في مقهى ريش. كان يتوقع من اسماعيل تعاطفاً وادانة حازمة للشلة. ولكن أسماعيل قال:

. «دا طبيعي مع كل الدعاية والاوهام اللي خلقتها السلطة. لما يعرفوا انا انهزمنا حاتكون فاجعة.»

قال ايهاب:

- «بس احنا لسّه ماانهزمنا.»

ضحك اسماعيل وقال:

- «حانكرر نقاش مبارح؟»

قال ايهاب:

- «الحرب داخل ارض اسرائيل دلوقتي.»

قال اسماعيل مؤجلاً الموضوع:

- «على كل حال بدري نحكم.»

دخلت زينب تحمـل صينية القهوة. وزعت فناجين القهوة بصمت. شربوها بصمت. كل معرفة في تلك اللحظة كانت فتحاً لجرح. حتى اسماعيل بدا محرجاً.

قالت زينب فجأة:

- «باين شغل الموساد. الحفلة.»

قال ايهاب ان ذلك مؤكد. ونظر الى اسماعيل متسائلاً. قال اسماعيل:

- «ولا موساد ولا حاجة. دي مجرد بنت صحفية في مجلة الاذاعة اقترحت الحفلة، والمسؤولين وافقوا عليها. على اية حال، في حالات زي دي مافيش فرق بين الغباء والخيانة. يعني الموساد هوة

اللي خلاهم يدفعوا الامور للحرب، في الوقت اللي فيه الجيش مش جاهز للقتال؟ الموساد هوه اللي خلاهم يجيبوا اسلحة من الاتحاد السوفييتي ويطردوا اللي اتدربوا عليها باعتبارهم شيوعيين؟ . . »

قال ايهاب:

- «الصورة مش قاتمة للدرجة دي . »

قال اسماعيل:

- «اكثر وحياتك . ايه رأيك يازينب؟»

قالت:

- «صحيح . بس عايزين نعرف الوضع العسكري بشكل مؤكد . »

قال اسماعيل:

- «مع مقدمات زي دي النتائج معروفة . »

قال ايهاب:

- «يعني؟»

- «الهزيمة . »

قالها اسماعيل ونهض . الحت زينب عليه ان يبقى للعشاء معهما، ولكنه اعتذر وانصرف . كانا خائفين من الوحدة . قال ايهاب انه سوف يستحم، وقالت زينب انها سوف تستحم بعده . بعد الاستحمام وارتداء ملابس النوم اقترحت زينب ان يتعشيا، قال ايهاب: «فكرة عظيمة جداً ولم يكن يشعر بشهية للطعام . دخلت زينب بعد قليل تحمل زجاجة براندي وكأسين، وطبقاً فيه ثلج . أعد ايهاب كأسين، قرع كأس زينب، وشربا جرعة، انصرفت بعدها زينب الى المطبخ .

بعد الجرعات الاولى التي جعلت ايهاب يشعر بغثيان خفيف اصبح للبراندي اثر مريح . حمل كأسه وكأس زينب ودخل المطبخ . استدارت برأسها فقط اليه ويداها في وعاء فيه رز وماء . كان في وجهها تعبير تساؤل . قال ايهاب:

- «في صحتك يازوبه . »

ومد لها كأسها . قالت:

- «شرّبني . ايديا وسخة . »

رفع الكأس فشربت جرعة بتلك الرقة التي يحبها . ود ان يقول لها انه يحبها . شعر دون سبب واضح، ان ذلك غير لائق . شرّبها جرعة اخرى وعاد الى الصالون . رسم خطة عسكرية للقضاء على اسرائيل: يتم انزال نصف مليون جندي مصري بشكل مفاجيء وسريع . نصف الجيش يتجه شمالاً الى تل أبيب، والنصف يتجه جنوباً ليحاصر القوات الاسرائيلية في قطاع غزة . فيصبح الجيش الاسرائيلي محصوراً - في الجنوب - بين جيشين مصريين، وفي الشمال بين الجيش المصري والجيش السوري، والجيش الاردني يتقدم من القدس . . لم يكن حلم اليقظة يمضي بسهولة، هنالك مقاومة اسرائيلية غير متوقعة وانذارات امريكية ومظاهرات في اوربا، نادى زينب، قالت انها قادمة . لايعرف لماذا ناداها، يوجه نداء الى الاسرائيليين: «لن يكون هنالك من نتيجة لاستمرار القتال سوى ابادة

عشرات مئات الالاف منكم.» كانت دعوة للاسرائيليين للاستسلام دون قيد او شرط. لم يشعر بزينب حين دخلت. فوجىء بها تسأله ان كان جائعاً جداً، قال: «لا» ثم استعاد يقظته فقال انه مشتاق. نظرت الى زجاجة البراندي وقالت له لقد شربت كثيراً. سيطر على غضبه وقال:

- «احنا جايبينه علشان نتفرج عليه؟»

شعرت بغضبه فقالت:

- «كنت عايزة اقول انك ماسبتليش حاجة.»

نهض وقال ان هنالك زجاجة اخرى. فقالت انها كانت تمزح معه. امسكت كأسها وشربت منه جرعة. قال ايهاب:

- «نوّرت يازينب.»

فوجئت وارتعش الكأس في يدها. وضعته امامها وبدأت تأكل. سألها ايهاب: «سرحانه في ايه؟» رمشت عيناها عدة مرات وقالت:

- «قلت ايه؟»

- «سألتك سرحانه في ايه؟»

- «سرحانه في الدنيا الزفت.»

بعد فترة صمت قالت ان اسماعيل كان على حق. قال:

- «مين اللي على حق؟»

- «اسماعيل.»

- «بس بيبالغ شويه؟»

اكملا عشاءهما في صمت. سألته ان كان يريد أن يشرب قهوة، قال انه لامانع لديه. بعد شرب القهوة جلسا متجاورين على الصوفا، وضعت رأسها على صدره. لم يكن وضعاً مريحاً لكليهما. قال:

- «بتفكري في ايه؟»

- «نعم؟»

- «سألتك: بتفكري في ايه؟»

- «مافيش حاجة محددة.»

شدد ضغطه على كتفها وجذبه. لم تقاومه، ولكنها لم تستجب. قال لها:

- «مالك؟»

رفعت وجهها اليه. قالت:

- «قوم ننام.»

- «قومي نامي، وانا حاحصلك.»

- «بتكرهني؟»

- «لا. بس انت غريبة الليلة.»

- «ازاي؟»

- «عاملة زي الجيلي. فيك حاجة ماتت.»

ضحكت وقالت:

- «قوم على السرير، وانا حااوريك انه مافيش حاجه فيا ماتت.»

ووقفت امامه. لم يتحرك. قال:

- «حانعيش ايام صعبة يازينب.»

جلست واخفت وجهها بكفيها. أخذ ايهاب يوجه نداءات للاسرائيليين ان يستسلموا دون شروط. دايان بالذات يجب ان يضعه على خازوق.

أخـذت زينب تنشج. راقبها دون دهشة. شعرها الاسود ينساب هابطاً وقد أخفى وجهها وكفيها. اخذ شعرها يقفز ويعود الى مكانه مع نشيجها. قال لنفسه: «ولكن علي ان أقول شيئاً، ان أفعل شيئاً» بدت صغيرة الحجم، وهي محنية الرأس والجسد، فبدت مشوّهة. احاط كتفيها بذراعيه وقال:

- «بطّلي عياط حبيبتي.»

احس بالافتعال في كلماته. مد يده وامسك ذقنها، ورفع وجهها اليه. بدا وجهها المبلل بالدمع مثيراً للشفقة والضحك. قبل خدها فابتلت شفتاه. قال:

- «مش كفاية بقى!»

هزت رأسهـا عدة مرات، ولكن دموعها استمرت في التساقط. حاولت ان تحني رأسها مرة أخرى ولكنه قاوم محاولتها وظل ممسكاً بذقنها. اخذ يقبلها ويردد:

- «كفاية حبيبتي.»

نهضت فجأة، فقال:

- «رايحه فين؟»

قالت:

- «حاغسل وشي»

وخرجت. فكر ايهاب انه لن يكون للطيران دور حين تلتحم الجيوش. سيقول هذا لزينب. حاول ان يتصور جيوشاً متلاحمة. برزت امامه مشاهد سينمائية بالالوان لفرسان يهجمون من جهتين متقابلتين يتحاربون بالسيوف ويحاولون التحكم بخيولهم. في معركة كهذه، مقاتل ضد مقاتل، كيف يمكن لجيش ان ينهزم. ولآخر أن ينتصر؟ كيف تتلاحم الجيوش في حرب الدبابات؟ «القتال يعني ابادتكم كلياً..» دخلت زينب. كانت تبتسم بحزن وخجل. اصبح وجهها رقيقاً، شفافاً. لمسه بأطراف اصابعه وقال:

- «بقيت حلوة بشكل مش معقول.»

ابتسمت واحنت رأسها. همست:

- «قبل كده كنت وحشة؟»

- «نص. نص.»

- «مجرم.»

- «علشان بقول الحق؟»

قالت:

- «لا علشان انت لذيذ.»

ناما متجاورين ضمها اليه. كان ذلك يشبه ان تضم اليك احد المحارم.

الجزء الثالث

(عالم بلا أوهام)

الفصل الأول

شعر حسن بالراحة لانصراف اسماعيل. كان ماقاله حكاية مثيرة: حفلة شرب فيها الطيارون حتى الفجر، وطائرة المشير في الجو، وغارات اسرائيلية دمرت الطيران المصري. . . كل ذلك بدا مثيراً، كما تبدو له التحليلات الماركسية، ولكن الحقيقة شيء آخر: اسقاط عشرات الطائرات الاسرائيلية، التوغل داخل اسرائيل، وصول الجيش السوري الى طبرية والاردني الى القدس. . اما ماقاله اسماعيل فيدخل ضمن الدعاية التي يقوم بها الحزب ضد السلطة، والتي لااعتراض له عليها. لو صدق اسماعيل لكان اليهود الآن في القاهرة.

كانت انصاف تنقل اطباق العشاء المتسخة الى المطبخ. عندما عادت وانحنت لتحمل بقية الاطباق ناداها لتجلس بجواره. قالت:

ـ «دقيقة لما اغسل الاطباق.»

ـ «سيبي الغسيل دلوقتي.»

قالت بنفاذ صبر:

ـ «طيب، ادخلها.»

ليته الليلة يريحها. كل ليلة، كل ليلة أصبح ذلك مرهقاً. رغبت ان تجلس بجواره ويحدثها عن الحرب. ولكنها، بمجرد ان تجلس، سيحيط عنقها بذراعه، وتتسلل يده الى نحرها، ثم بين ثدييها. اصبح ذلك مملاً. لن يثيرها ذلك في هذه اللحظة. ستشعر برغبة في الضحك حملت بقية الاطباق، وعادت بخرقة، واخذت تنظف المائدة. اخذ حسن يتوتر. تبتكر اعمالاً حتى تطيل بعدها عنه. هذا الاسلوب النسائي الرخيص في اثارة الرجل وتركه معلقاً!

عندما انتهت انصاف جلست بعيداً عنه. قالت:

ـ «اسماعيل كان متضايق.»

قال:

ـ «متضايق.»

عرفت انه غاضب. قررت ان تواجهه. قالت:

ـ «مالك؟»

ـ «ماماليش.»

ـ «مش عايز نتكلم؟»
ـ «تكلمي . »
قالت :
ـ «انت مش طبيعي . انا داخله أشطّب المطبخ . »
فتح الراديو بعد ان غادرته . سمع أغان حماسية ، تلاها بيان عسكري مبهم : «ماتزال قواتنا تخوض معارك البطولة ، تلقن الاعداء درساً لن ينسوه . . »
نادى انصاف وطلب اليها ان تعد له قهوة . خطر له فجأة : لماذا لايتحدث معها بالفعل؟ لماذا لايرى فيها الا جسداً؟ شعر بحنان نحوها تحوّل الى رغبة . صمت جسده وعقله ، ثم خطر له ان البيانات العسكرية لاتحدد شيئاً ، وفجأة بدأ يفهم ماقاله اسماعيل .
دخلت انصاف تحمل صينية القهوة . قالت :
ـ «تأخرت عليك في القهوة علشان كنت بشطّب المطبخ . »
قال :
ـ «ربنا يديك الصحة . »
بعد ان صبت القهوة ، قال لها :
ـ «ايه رأيك في كلام اسماعيل؟»
قالت انها لم تسمعه كله . كانت تعد الطعام ، ولكن اسماعيل كان حزيناً . حكى لها ماقاله اسماعيل . اصغت بانتباه ، ثم قالت :
ـ «انهزمنا يعني؟»
قال :
ـ «لا . بس ماتقدمناش كتير . »
ـ «طيب بيقولوا ايه في الاذاعة؟»
قال :
ـ «مافيش حاجة واضحة . بس حكاية الطيران تلخبط . »
وأخذ يشرح لها دور الطيران في الحرب . لم يكن متأكداً مما يقول ، ولكن حسن استماعها جعله يستفيض . وخلال كلامه اتضحت الصورة له : لو كنا منتصرين لحددوا الاماكن التي وصلنا اليها ولكن هل يعني ذلك اننا انهزمنا؟ مستحيل . سألته انصاف عن السبب الذي يمنعهم من الوضوح في الاذاعة ، فقال ان الاخبار حتى تصل للاذاعة تحتاج الى وقت طويل .
لم تعد انصاف تريد سماع المزيد . ماكان يقوله حسن أخافها ، وجعل الصورة في ذهنها اكثر تشوشاً . كان حسن يرغب في الاستفاضة بالحديث ، لان ذلك يجعل الصورة اشد وضوحاً في ذهنه . ولكن انصاف اقتربت منه واحاطت عنقه بذراعها . كان ملمسها كصدمة التيار الكهربائي ، فتشتت ذهنه . جذبها اليه واحاط خصرها بذراعه وقبّل خدها . شهقت ، وقالت : «ياخبر!» وهمست :
ـ «تعالى ندخل اوده النوم . »

* * *

دخل اسماعيل بيت مصطفى في السادسة من مساء اليوم التالي. كان البيت يغلي بحيوية أهله وزواره. كان هناك سعاد وهنية وهدى، وخطيب او زوج هدى الذي لم يستطع ان يتذكر اسمه. واخريات وآخرون وجوههم مألوفة، ولكنه لايعرف عنهم شيئاً. يصافحونه بحرارة عندما يلتقون به، يحكون له أخبار كثيرة، ويوجهون اليه العديد من الاسئلة ولكنهم كانوا يفلتون من ذاكرته. كانوا يتوزعون على الحجرات ويتبادلون احاديث متصلة. استقبلوه بلهفة وسألوه عن آخر الأخبار. قال:

- «انتو بتوع الاخبار. جاي اسمع منكو.»

قال له مصطفى:

- «اطلع من دول. اكيد جايبه النا اخبار طازجة.»

لم ير مناسباً ان يحكي لهم عن كارثة الطيران. كثيرون من الحاضرين لايعرفهم وقد يفسرون كلامه بانه مجرد شماتة. لكنه اكتشف انهم يعلمون بها، ولكنهم لايولونها اهمية كبيرة. كانت ضربة أولى غير فعالة، استعاد الطيران المصري بعدها زمام المبادرة. المهم ان الجيشين المصري والسوري يتقدمان داخل اسرائيل ويحاربان على أرضها. كانت هدى، بادب واقتضاب، هي التي تروي هذه الأخبار، قال لها اسماعيل:

- «الجيش المصري بيحارب فين داخل اسرائيل؟»

- «جوه.»

- «يعني «فين» جوه؟»

- «في الكونتيلا.»

قال لها اسماعيل ان الكونتيلا على الحدود. ثم أضاف ان هنالك بالفعل قتالاً على الحدود، ولكن القوة الاسرائيلية الاساسية اخترقت الجبهة المصرية، ووصلت الممرات في سينا.

اخذ الجميع يعاملون اسماعيل كطفل مشاكس. يكثرون من الابتسامات والمزاح، ويصححون معلوماته. انهم يعلمون، انه وقد كذبت الوقائع جميع طروحاته، لم يبق له الا ان يكابر.

الفصل الثاني

كانت زينب منصرفة تماماً الى متابعة الاخبار. لم تكن تفكر في شيء آخر. تستيقظ كل يوم مبكرة. تعد الشاي وتوقظ ايهاب. تكون قد سمعت الاخبار من اكثر من اذاعة. تحكيها له، ثم تذهب الى العمل. وعندما يعود ايهاب ظهراً يجدها محاطة بكمية كبيرة من الصحف والتقارير، وقد استغرقت في قراءتها.

ساعة الغداء تصغي للاخبار. ينام ايهاب بعد الغداء وتظل هي بجوار الراديو. عند العصر تعـود للوكالة دون ان يكون ذلك مطلوباً منها. تعود في التاسعة حاملة الجرائد والتقارير تظل تقرأ وتصغي للاخبار حتى ساعة متأخرة. أصبح ادمانها القهوة والسجائر. كان ايهاب يسأل نفسه: هل تأمل بنصر مستحيل؟ انها تروي أكثر الاخبار مدعاة لليأس بحماسها المعتاد. قال لها:

- «عمالك بتعذبي نفسك.»

ركزت نظراتها في السقف ولم ترد. قال:

- «ايه العبارة؟»

قالت:

- «فاكر ليلة كنا سهرانين عند تفيدة؟ فاكر اسماعيل قال ايه، ورد فعلنا كان ايه؟»

- «فاكر.»

- «مش عايزة اكون بلهاء مرة تانية.»

صمتت. اشعلت سيجارة، نهضت وقالت انها ستعد القهوة، وعندما عادت حاملة صينية القهوة. قالت:

- «اللي حايجنني ليلة كنا سهرانين عند تفيدة اني كنت مضحكة. ابشع شيء ممكن يحصل لي اني اكون مضحكة وسخيفة.»

كان وجهها غاضباً وهي تدخن وتشرب القهوة، وعيناها تائهتان. كلمته وعيناها تائهتان:

- «الشيء البشع ليلتها اكتر من كوني مضحكة، اني كنت مفتعلة. بكره نفسي لما اتذكر قد ايه كنت مفتعلة.»

قال ايهاب:

- «ماانت خلاص عرفت الحقيقة.»

قالت:

- «عايزاها ترسخ. عايزاها كابوس يعيش معايا في كل لحظة. عايزة كل ما يحاولوا يخدعوني أقول لنفسي: تذكري ليلة ستة يونيو، والهزيمة، وقد ايه كنت سخيفة ومفتعلة!»

قال:

- «عندك حق.»

قالت:

- «بتاخدني على قد عقلي؟»

كانت غاضبة. قال لها ان احترامه لها لايسمح له بذلك، وأخذ يتذكر. في الخمسينات كنت صغيراً. لم أكن كبيراً، ولكنني كنت أعي مايدور حولي. اعتقدنا اننا حققنا كل شيء. في فترة العدوان الثلاثي على مصر كنا في معسكر للفدائيين قرب بحيرة المنزلة. كانت بطولاتنا تتجسد في الطرف الآخر من البحيرة، في بورسعيد وكنا نعتقد اننا وقد وضعنا ايدينا في ايدي السلطة فسوف نحقق الاشتراكية كنا نحلم حتى جاءت اعتقالات ليلة رأس السنة عام ١٩٥٩. مافاجأنا هو الكراهية والحقد التي عاملنا به عبد الناصر واجهزته. كنا نعتقد انه واحد منا. احدى التنظيمات الشيوعية كانت تقول انه كان عضواً فيها. واذا به يكشف عن كراهية اذهلتنا. في ليلة ستة يونيو اكتشفت اننا نكرر احلامنا واخطاءنا ذاتها التي كانت في الخمسينات.

ثم أخذ يتذكر صامتاً. يتذكر ليل الريف. رائحة الارض، والاشجار السوداء الصامتة المشحونة بحياة غريبة، سرية، يد ناديه في يده. يتذكر جلوسهما تحت الشجرة، وجسد نادية الشامخ، القوي، المرن، وهمسها انها تسمع صوت النسغ وهو ينساب في قلب الحياة النباتية من حولهما، وانها تسمع صوت المجرات وهي تندفع في فضائها اللانهائي. كانا مركز الكون.

قالت زينب تكلم نفسها:

- «لايلدغ المؤمن من جحر مرتين.»

يستعيد صورة نادية في لباسها العسكري، يستعيد ذلك الانفعال، الحب الصافي، يستعيد عالماً مصاغاً الى الحد الاقصى من السعادة الخالصة، الحلم المحض، والشوق للبطولة، فيدهمه احساس ثقيل يضغط عليه كالبكاء. قال:

- «ناديه.»

نظرت اليه زينب باستغراب. قالت:

- «اسمي زينب.»

***

كانا يجلسان في الصالون ساعة الظهيرة. الراديو يذيع مارشات عسكرية، لم تعد تثير الحماس، واغان: «اضرب. اضرب.» «ولايهمك ياريس. من الامريكان ياريس. حواليك اجدع رجال.» زينب تجلس على الكنبة الاسطمبولي، تنظر بثبات ولكنها لاترى شيئاً. في وجهها ذلك الشرود الحزين لامرأة ناضجة. كانت مضحكة بشكل لطيف، قال ايهاب لنفسه، ولكنها خطرة يعرف رد فعلها لو

انه استسلم لرغبته ولمس وجهها. توقفت الموسيقى العسكرية. استيقظت زينب من شرودها، رمشت عيناها عدة مرات، تنفست بعمق، وأصبحت نظرتها محددة. اعلن المذيع عن بيان عسكري. قرأ مذيع آخر البيان بصوت عميق قوي: لقد اكملت قواتنا انسحابها الى الضفة الغربية بنجاح. ثم عاد المارش العسكري الحماسي.

قالت زينب:

- «برافو.»

ثم انطلقت تضحك، وقالت خلال ضحكها:

- «فخور قوي.»

ثم استغرقت في ضحك هستيري. قال لها ايهاب:

- «حاتموتي من الضحك.»

قالت وهي تغالب ضحكها:

- «اصلك مش واخد بالك.»

- «ايه؟»

قالت باللغة الانجليزية:

- «له ذلك الصوت الآمر.. كأنه يلومنا.. كأنه يطلب منا ان نصفق له او ان نهتف.. بحق السماء..»

وانفجرت في ضحك جديد. قال ايهاب وهو ينهض:

- «بتشربي قهوة؟»

قالت:

- «براندي ياواد لذيذ. اسمع وبوسه.»

قال وهو يمسك وجهها بين يديه:

- «البوسه قبل والا بعد البراندي؟»

- «يادمك ياأخي!»

احاطت عنقه بذراعيها وأخذت تقبله باندفاع. ادرك ايهاب انها تقصد التهريج. ولكنه استثير. منذ اسبوع وهي ممتنعة عليه. قال:

- «انت مجنونة شويه؟»

قالت بصوت وديع:

- «شويه.»

- «وكلبه؟»

- «ايوه.»

- «وعبيطة.»

- «بوس بقى.»

أصبحت في الحالة. حاول ان يقودها الى السرير، فقالت بضراعة:

ـ «هنا حبيبي على الصوفا .»

تعريا اخذت تقبل جسده كله، كل جزء فيه، ومنحت نفسها دون تحفظات. لم تفعل ذلك من قبل. فكر ايهاب: الخبرة السابقة. وسمعها تقول، لاهثة، وكأنها ترد على سؤال طرحه:

ـ «ابداً حبيبي. انت اول واحد بعمل معاه كده»

واندمجا في جنون الرغبة. كانت الصوفا مناسبة تماماً. تتيح صلابتها سيطرة على الجسد الآخر غير متوفرين في السرير.

بعدما انتهيا تمددت زينب عارية، على ظهرها مغمضة العينين صدرها يرتفع وينخفض. عاد ايهاب من الحمام، ملتفاً ببرنسه يحمل زجاجة البراندي وكأسين. فتحت عينيها، زحف الجزء الاسود البراق الى طرفي العينين، وقالت:

ـ «تعالى.»

ـ «مش كنت عايزة براندي؟»

ـ «انت لسّه فاكر. تعالى.»

جلس على الصوفا، فاحاطت عنقه بذراعيها. لم يكن راغباً في العناق. قال:

ـ «لما احط القزازة.»

ولكنها تشبثت به، فقال:

ـ «عمالك بتخنقيني.»

ضحكت واطلقته، فانتصب كاليويو. فكر، وهو في الحمام، ان رغبتها فيه قوية، ولكنها تفتقد الود، رغبة عدوانية. تبعته الى الحمام، ثم جلست في الصالون عارية. لم يكن الجسد العاري يثيره جمالياً. قال:

ـ «البسي حاجة.»

ـ «ليه؟»

ـ «احسن تبردي.»

ـ «الجو حار.»

شربت جرعة كبيرة من كأس البراندي، وقالت:

ـ «اقلع البرنس.»

قال:

ـ «ماحبش اقعد عريان. بحس اني مقيد.»

نهضت، ثم عادت تلبس قميص نوم ابيض طويل يكاد يلامس الارض وخيط ابيض يتخلل العراوي التي على جانبي فتحة الصدر ويتدلى منساباً. وكان للقميص ثنيات طولية متوالية، جعلته اشبه بثوب يوناني ترتديه احدى الآلهات.

قالت:

ـ «نعجب؟»

- «قوي .»

- «عايزة اغويك .»

طالع المساحات الظاهرة من فتحة القميص سمراء دافئة، فقال انه عندما جاء القاهرة، كان قد اقتنع من خلال قراءة مصطفى لطفي المنفلوطي وآخرين نسي اسماءهم ان هنالك رفاق سوء في القاهرة يوفرون الخمور الجيدة والنساء والسهرات الحمراء للفتى القادم من الريف. بحثت عنهم في القاهرة، في كل مكان فيها، فلم أجدهم.

ضحكت زينب وقالت:

- «لغاية مالقيت رفيقة سوء .»

قال:

- «بالضبط. وعلشان كده اول مالقيتها قررت اتجوزها على طول .»

عندما قال ذلك شعر بغثيان يصعد من معدته، يصاحبه دوار. شعر بملمس فمها ولسانها على جسده كقذاره. حاول ان يمسك يدها كاعتذار، لكنه لم يستطع.

أخذ يطالعها. ذلك الجمال الانيق الحي، المسيطر على حركته. شعر أنه تحت التناسق والحلاوة يوجد فساد في اللحم نفسه تحت السطح البراق. رآها تنظر اليه بتدقيق وقد اكتسب وجهها طابع عنف. او ربما كانت تمزح. كان تعبيراً غريباً استغلق عليه. لم يكن مريحاً على اية حال. كان خائفاً.

قالت:

- «حاتتجوزني فعلاً؟»

فاجأه رعب اصم. شعر ان سؤالها انذار بالقطيعة بينهما. قال:

- «طبعاً يازوبه. ودا سؤال؟»

- «مش خايف؟»

- «خايف؟»

مد يده وامسك يدها. امتلأ وجهها بالضحك وقالت بارتخاء:

- «انا خلصت .»

- «مش فاهم .»

قالت بصوت غريب:

- «عايزاك .»

نظر الى وجهها. بدا وكأنها على اهبة البكاء. تعانقا وهما يجلسان متجاورين. لم يكن الوضع مريحاً. جذبها واجلسها على ركبتيه. مالت الى الوراء وكادت تسقط لولا انه اسند ظهرها. ضحكت زينب وقالت:

- «نروح للسرير .»

قال ايهاب:

- «ماهوه بين السرير والسرير يعني .»

قالت:

- «طيب واحنا واقفين .»

تعانقا واقفين . قال وفمه ملتصق بفمها :

- «انا أطول منك .»

وعاود ضمها اليه . لم يكن مستعداً للجنس . اخذ يداعب ظهرها بكفيه ويهبط بهما الى عجيزتها . قالت بصوت شاك :

- «حانفضل واقفين لامتى؟»

اثارت شفقته . قال :

- «نشرب كاس براندي وبعدين الى السرير .»

قال ذلك بتهريج ، وعلى الفور شعر بسخفه . قالت بصوت مختنق ، منكسر :

-«يكتّر خيرك .»

شعر بفظاظته . لقد جرحها بغباء . لم يعرف كيف يعتذر . قال لنفسه انه لو اعتذر اليها لكان ذلك توضيحاً لفظاظته وجعلها متقصدة . اعد كأسين من البراندي . وضع كأساً امامها، ثم شرب جرعة كبيرة من كأسه . صمتا ، واحس بالصمت مشحوناً بنذر خطرة خاصة وانها لم تشرب من كأسها . رفع كأسه ولمس به كأسها وقال :

- «في صحتك .»

رفعت كأسها وشربت منه جرعة صغيرة . ثم ، ودون سياق منطقي ، مالت بجسدها نحوه وقبلت رقبته . اشتعلت رغبته واخذ يقبّلها بنهم . افلتت منها ضحكة صغيرة . كانت ضحكة انتصارها ، ولكنه لم يعر ذلك بالاً .

قالت وكأنها تحتج على اقباله العنيف :

- «ندخل جوه .»

قال :

- «لا . هنا .»

عراها وأخذ يقبل كل جزء في جسدها ، ثم اخذ يمارس الجنس وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة . لدهشته اكتشف ان رغبته لم تنطفىء بعد انتهاء العملية الجنسية . جلس بجوارها . كانت متمددة ، مغمضة العينين . وعندما جلس ، امسكت يده وهمست :

- «هديتني ياحبيبي .»

استثير واخذ يعانقها . ابعدته عنها وقالت :

- «دقيقة اما ادخل الحمام .»

عندما خرجت من الحمام ناداها من حجرة النوم . قالت :

- «على السرير على طول؟»

- «عايزك .»

قالت :

- «وانا عايزاك . بس مالك ملحوق؟»

قال:

- «عايزك.»

قالت:

- «انت علّقت على عايزك.»

هاجم فمها بفمه ليسكتها. داهمها الضحك، ثم استثيرت بحدة رغبته. كان عنفاً من الجانبين. اصبحت الممارسة الجنسية عنفاً وشتائم بذيئة متبادلة. وعندما انتهيا تمددا على ظهريهما يلهثان. لاول مرة تراه هو البادىء بكل هذا الاندفاع والتصميم. ابتسمت له وهمست:

- «انت غريب النهاردا.»

- «كنت سخيف؟»

قبلته وقالت:

- «كنت رائع.»

عبارتها التي كانت اشبه بتهيدة اثارته. وكانت بداية اخرى. بدا وكأنه لن ينتهي. لم تعتد زينب ان يكون دورها في الممارسة الجنسية مجرد الاستجابة. في قمة نشوتها كانت تشعر انها اهينت وكانت مصممة ان تنتقم.

كانت زينب متمددة على ظهرها عندما قال:

- «مش عارف هوه دا الموت والا دي الحياة الحقيقية.»

قالت وهي مغمضة العينين، متمددة على ظهرها هامسة كأنها تناجي نفسها، او تتحدث في نومها:

- «بلاش سيرة الموت.»

قال:

- «عايز اقول اننا بنعيش خارج سياق الحياة اليومية.»

قالت:

- «فاهمه. بس بلاش سيرة الموت.»

- «ليه؟»

لم يسمع ردها. ثم انتبه الى ان زينب لم تكن بجواره على السرير، وان لحافاً خفيفاً يغطيه. مامعنى هذا؟ هنالك شيء غريب في جو الحجرة، اذ بدا اشد قتامة، كأنه الليل. ادهشه سماع اصوات نسائية قادمة من حجرة الصالون. التف بالبرنس وسار الى الحجرة. رأى زينب وهنية. التفتتا اليه فجأة. قال:

- «ازيك ياهنيه؟»

كانتا تنظران اليه في دهشة. قالت زينب:

- «امتى صحيت من النوم؟»

قال بدهشة حقيقية:

- «ليه، انا كنت نايم؟»

ضحكتا بصخب. نظرت زينب الى ساعتها وقالت:
- «بقى لك اربع ساعات نايم. ماكنتش تعرف؟»
قال:
- «لا والله. غريبة.»
ثم أضاءت عيناها بلمعة ضاحكة، متواطئة. حس ايهاب باللياقة انجرح بهذه النظرة بوجود هنية ولكن هنية. وهي تحني رأسها، وتبتسم ابتسامة لاتكاد تلحظ، بدت وكأنها تعرف سر نومه وتلومه.
قال ايهاب:
- «مادام بتقولوا اني كنت نايم تبقى القهوة حلال. انا حاالبس..»
قالت زينب:
- «اقعد اشرب القهوة دلوقتي، وبعدين تلبس. مافيش حد غريب.»
ونهضت. جلس ايهاب خجلاً. قال:
- «ايه الاخبار؟»
ضحكت هنية وقالت:
- «مش عارف؟»
قال:
- «اكملت قواتنا الانسحاب بنجاح؟ عارف. وبعدْ كده؟»
- «العالم كله بيضحك علينا.»
«غلطانين.»
قالت هنيه:
- «ودي لوقتي طالعين بحكاية اننا لم نخسر الحرب ولكننا خسرنا معركة.»
دخلت زينب تحمل صينية القهوة وهي تقول مقلدة صوت احمد سعيد: «هنيئاً لاسماك البحر.»
ضحكت هنيه وقالت:
- «يجازيك يازينب»
ثم أضافت وهي تدير رأسها يميناً ويساراً، كأنها تستنكر ضحكها:
- «مسخرة.»
مالت زينب وقبلت خد ايهاب وقالت:
- «ولايهمك حبيبي. هو احنا اللي انهزمنا؟»
قالت هنيه:
- «امال مين اللي انهزم! الاسرائيليين؟»
قالت زينب:
- «العفاريت الزرق اللي انهزموا. بس مش احنا واد ياايهاب. ماتقوم تغسل وشك وتلبس وتتشيك. عاجبك الاستربتيز اللي عامله؟»

- «حاضر.»

قالت:

- «وهات البراندي واياك.»

ارتدى ايهاب ملابسه واتى بزجاجة البراندي والكؤوس، وأعدت زينب عشاء خفيفاً: لحوم باردة، وجبنة، وشرائح طماطم، وزيتون. في تلك اللحظة دق جرس الباب. قالت زينب:

- «اللهم اجعله خير.»

فتحت الباب وصرخت:

- «اهلاً ابو السباع.»

رآها ايهاب ترتفع على اصابع قدميها وتقبل اسماعيل على خده. دخل اسماعيل حجرة الصالون وقد احمر وجهه الابيض وسلم عليهم. قالت هنيه:

- «بوسني انا كمان.»

ببسمة خجلة ووجه احمر انحنى اسماعيل وقبل خد هنية. قال ايهاب:

- «وانا؟»

قالت هنيه وهي تنظر الى زينب:

- «وانت ناقص بوس.»

قالت زينب:

- «انت ياحبيبي عايز تتباس؟»

قال:

- «شرقان.»

قال اسماعيل:

- «نوّرونا ياجماعة. فيه ايه اخبار؟»

قالت زينب:

- «سيبك ابو السباع. انت ملك الاخبار. فاكر ليلة ماسهرنا عند مصطفى وتفيدة؟ كنت الوحيد اللي عارف كل حاجة. احكي لنا ايه اللي حايحصل؟»

قال اسماعيل:

- «حايلزقوها بالمسطول عامر وعبد الناصر حايخرج منها زي الشعرة من العجين. طريقته المعروفة.»

قالت هنيه:

- «يعني ايه؟»

قال اسماعيل:

- «في الخمسينات حمّل عبد الناصر اعدام الشيوعيين والاخوان والقمع لاولاد سالم. في الستينات حمّل كل اللي حصل قبلها لكمال الدين حسين والبغدادي. ودلوقتي حاتلزق في عامر. طبقه بتحكم، وحاتكيف نفسها مع الوضع الجديد.»

قالت زينب:

-«حاتّوه المسؤولية. مش حانعرف مين اللي سبب الهزيمة.»

قال اسماعيل:

- «سبب الهزيمة معروف. السبب المباشر ان الجيش كان حصة عامر، وعامر كان عامله غرزة. وراء دا كله سياسة عبد الناصر في خلق مراكز متصارعة، يكون هوه الحكم بينها. دا كان البديل لغياب الديمقراطية.»

قال ايهاب:

- «والحل؟ حانعمل ايه؟»

ضحك اسماعيل وقال:

- «نخرج من كابوس أجنحة السلطة. جناح اشتراكي وجناح متذبذب وجناح مش عارف ايه. الحدوته اللي انتو عارفينها. السلطة بكليتها هيه المسؤولة عن الهزيمة، لازم تعترف انه اللي سقط هيه السلطة كلها مش جناح من الاجنحة. ايهاب بيسأل: «حانعمل ايه؟» انا بقول اننا لازم نقطع الحبل السري اللي بيربطنا بالسلطة. الطبقة اللي بتحكم غير قادرة على حل المسألة الوطنية، ولا قادرة على حل المسألة الاجتماعية.»

قالت زينب:

- «دا برنامج سياسي كامل.»

قالت هنيه:

- «احنا قادرين على تغيير السلطة؟ الحلول مفروض انها تتفق مع الامكانيات.»

قال اسماعيل:

- «أنا ماقدمتش حلول. انا قدمت مااعتقد انه الوضع الصحيح للمسألة. ودي باستمرار لازم تكون نقطة البداية. هل احنا قادرين على تغيير السلطة؟ لا. مش دلوقتي. دي عملية تاريخية. المهم البداية الصحيحة، الوضع الصحيح للمسألة.»

قال ايهاب:

- «ممكن اقناع الشيوعيين اللي حلوا أنفسهم بالحكاية؟»

قالت هنية:

- «مادامت العملية تاريخية الواقع حايقنعهم. الا اذا السلطة غيرت سياستها.»

قالت زينب:

- «اسماعيل قال طبقه بتحكم، ودي طبقه إلها مسيرتها.»

قال اسماعيل ان ذلك صحيح. قال ايهاب:

- «ابو السباع وضع القضية الاستراتيجية الاساسية. اما العمل اليومي، التكتيك..»

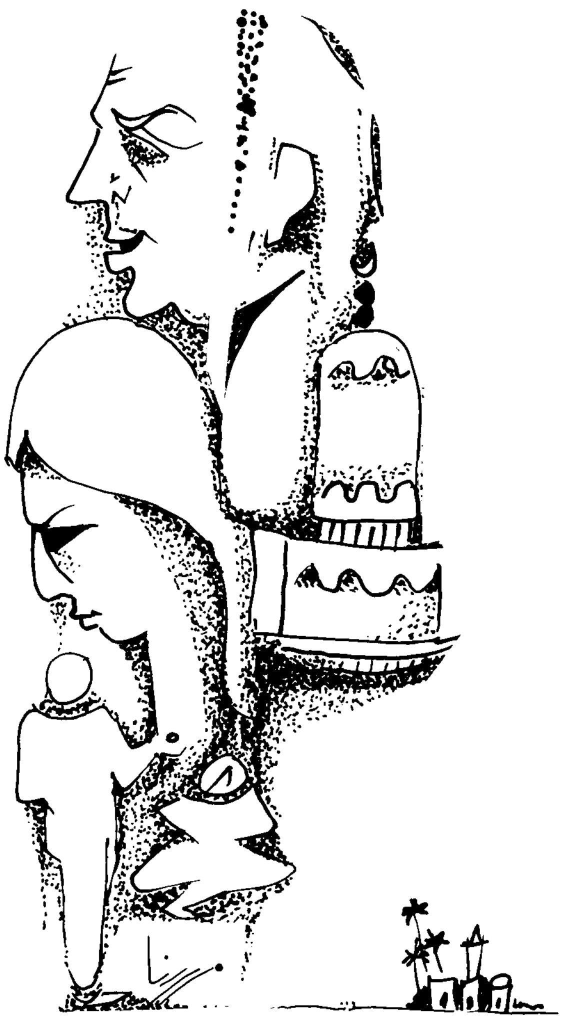
قال اسماعيل:

- «ماهم؟»

- «ماتكلمتش عنهم.»

قال اسماعيل :

ـ «دي حدوته تانية . الحزب بيقررها من خلال دراسة تفصيلية للوضع ، وممارسة طويلة . مش



ممكن نحددها في قعده زي دي . »

قال ايهاب :

ـ «ماهو خوفي ان الاستراتيجية تضيع في التكتيك . اساليب التحالفات والجبهات اللي مفروض انها تكون تكتيك تتحول لاهداف في ذاتها . »

الفصل الثالث

كان حسن قد امضى ما يزيد على ساعتين وهو يسير بين الحشود الهائلة ، التي تجمعت لتثني عبد الناصر عن الاستقالة بعد الهزيمة . اصبحت هذه الحشود تعرف ، فيما بعد بجماهير تسعة وعشرة يونيو ، كانت الهتافات موحّدة : تطالب عبد الناصر بالبقاء في منصبه ، وتطالب زكريا محي الدين برفض منصب الرئاسة . كان الاتحاد الاشتراكي قد استقدم أعداداً كبيرة من الريف وضواحي القاهرة ، كما قام الشيوعيون بدعاية واسعة تقول ان هدف الاعتداء الاسرائيلي على الدول العربية لم يكن بهدف التوسع وفتح المضائق بل اقالة عبد الناصر من منصب الرئاسة .

كان المشهد في ميدان التحرير مهيباً . الجماهير تغطيه كله ، ورغم ذلك كانت سيول البشر تصب فيه من كل الشوارع المؤدية الى الميدان . لم يحاول حسن ان يشق طريقه في الزحام ، بل استسلم لحركة الجموع توجهه . توقف امام الباب الخارجي للمتحف المصري . شعر بقبضة قوية تمسك رسغه . التفت ورأى الوجه . كان يبتسم بتودد . الوجه مألوف ، ولكنه لم يستطع ان يتذكر أين رآه . احس فقط بجسده يرتعش وبركبتيه تصبحان كالماء . في عيني الفتى لمعة ساخرة . قال الفتى :

- « ما عرفتنيش ؟ »

تردد حسن قليلاً ، ثم قال :

- « صالح . »

قال الفتى :

- « عرفتني دلوقتي ؟ »

بدا غاضباً . قال حسن :

- « امتى طلعت من السجن ؟ »

« من شهر تقريباً . »

- الحمد لله على السلامة . »

أراد حسن ان يتخلص منه . كان شعوره نحوه مزيجاً من التقزز والخوف . قال صالح :

« عايزك في كلمتين »

خمّن حسن انه يريد نقوداً . قال صالح :

- « ما تخافشي . مش عايز فلوس . »

قال ذلك بغضب مكتوم . قال حسن بارتباك :

- « انا ما قلتش حاجه . »

رأى حسن العينين تبرقان بلمعة شريرة ، متواطئة فقال :

- « وعامل ايه دلوقتي ؟ »

لم يجب صالح . نظرته المربكة ثابتة على وجهه . ثم احنى الفتى رأسه وقال :

- « تعالى نبعد عن الهيصه دي . »

استدار وسار دون ان يلتفت وراءه . تبعه حسن وهو يعلم ان عليه الا يفعل . كان حركة الجسد امامه رسالة واضحة : الخصر والردفان تمضي في حركة موقّعة .

سارا في الشارع الفاصل بين فندق الهيلتون ومبنى الاتحاد الاشتراكي . كان الزحام هنا اخف . استدار صالح يمينا واصبح يسير في كورنيش النيل وحسن يتبعه . فجأة توقف صالح والتفت خلفه فتوقف حسن . كان على بعد ثلاث خطوات منه . ابتسم الفتى . كانت ابتسامة عارفة لسعت حسن في العمق ، فاختلج قلبه .

قال صالح وبسمته تتسع :

- « وقفت ليه ؟ »

قال حسن :

- « هنا مافيش زحمة . »

- « عايز اقول الحر . حر فظيع . »

مد صالح يده ، فتقدم حسن وامسكها . شبك صالح اصابعه باصابع حسن وسارا جنباً الى جنب . قال صالح :

- « ايدك بتترعش . »

قال حسن :

- « لا . »

ضحك صالح وشدد قبضته على يد حسن ، فبادله حسن الضغط . همس صالح :

- « انت جامد قوي . »

كانت نبرة الصوت تشي بمزيج من الشكوى والخضوع . شعر حسن بالرغبة تنبثق من صلبه نافذة . رفع صالح وجهه اليه . كان ينضح بالعرق . قال وهو يضغط يد حسن :

- « كنت نسيتني . »

كان يلومه . قال حسن بصوت خشن : « لا . » بدا الوجه المرفوع كأنه يتوقع توبيخاً ما ؛ وعندما اقترب الوجه خيّل لحسن انه يتوقع قبلة ، كوجه انصاف عندما يكون راجياً ، منتظراً . وكأن صالح قرأ هواجسه اذ قال :

- « ازاي الست والاولاد ؟ انت متجوز . مش كده ؟ »

قال حسن :

ـ « متجوز . وانت امتى حانفرح بيك ؟ »

ـ « امتّع نفسي الاول »

ـ «ما تمتّع نفسك وانت متجوز . »

لم يجب صالح . تجاوزا مبنى التلفزيون . على الرصيف الآخر المحاذي لنهر النيل رأى حسن شاباً وفتاة يسيران ، ايديهما متماسكة . نظرت الفتاة اليهما ، وبدت نظرتها لحسن محملة بالادانة : قال حسن :

« انت واخدنا فين ؟ »

قال صالح :

ـ « عندي . شايف البنت اللي ماشية ؟ عينيها مليانة رجّاله . »

قال حسن :

ـ « انت ساكن مع اهلك ؟»

« وحدي . هنا ، في بولاق ابو العلا . »

قال حسن :

ـ « طيب . انا عايز أمشي . »

قال صالح بصوت واثق لا مبالٍ ، يعلم صاحبه انه سيطاع :

ـ « نشرب شاي وتتعرف على البيت . »

ما اسرع تحولات هذا الفتى . صوته مشحون بنفاذ صبر خطر . اجتازا امتداد شارع فؤاد . رأى حسن مطعم الفول وقد وضعت خلف فترينته الزجاجية يافطة مكتوب عليها : « اذا خلص الفول انا مش مسؤول . » دخلا حارة ضيقة ، ثم وجد حسن نفسه في قلب الحي الشعبي . لم يكن الحي مزدحماً صاخبًا كما توقع ، فقال بصوت حاول ان يجعله عادياً :

ـ « امال الناس راحت فين ؟ »

ثم تذكر المظاهرات . قال صالح :

ـ « في الهيصه اللي شفتها . »

امام باب كالفوهة لبناية ترتفع خمسة طوابق قال صالح انه يسكن فيها . بدا الباب لحسن كالفخ ، فبمجرد ان يدخله سوف يصبح انساناً آخر . تردد ولكنه لم يجد وسيلة للتراجع . امسكه صالح بكوعه وقاده عبر الباب . قاده الى السلم واخذا يصعدان . كان حسن يتوقف عند كل طابق متوقعاً ان ينتهي الصعود عنده ، ولكن الصعود تواصل . قال حسن :

ـ « انت ساكن فين ؟ »

قال صالح :

ـ « على السطوح . »

وهل كان حسن يتوقع غير ذلك ؟ سأله صالح ان كان تعب ، وضحك . فرد حسن بالنفي وهو يلهث .

على سطح البناية كان هنالك عدد كبير من الحجرات التي تنفتح على الداخل ، تحيط بالسطح على شكل مربع . وكان هنالك غسيل منشور في كل مكان في حوش السطح . فوجىء حسن بالمرأة تخرج من بين صفوف الغسيل المنشور . كانت ترتدي قميص نوم زهري اللون ، يكشف ذراعيها ونحرها حتى منتصف الثديين . عندما رأتهما ضمت ياقة القميص على صدرها وصدرت عنها شبه صرخة : « يوه ! »

اقترب منها صالح وقال :

ـ « ما تسيبينا نمتّع نظرنا . »

دفعته وقالت :

ـ « امشي ياابن القحبة . »

وانسلت بين صفوف الملابس المنشورة . قال صالح ضاحكاً :

ـ « وليه ملبن »

جاء صوتها عبر الغسيل :

« امك الملبن . »

عندما فتح صالح الباب قال :

ـ« لا مؤاخذه . مش قد المقام . »

والتفت الى حسن مبتسمًا واضاف :

ـ « ما انت عارف . ما بقى ليش شهر طالع من السجن . »

كان فم حسن جافاً . فقال :

ـ « ايوه »

كان هنـالك سرير سفري مغطى ببطانية رمادية ، ذكّرت حسن ببطاطين السجن ، ومائدة خشبية عليها وابور جاز وبراد شاي وكؤوس صغيرة ، وكرسي قاعدته من القش ، وبعض الملابس المعلقة بمسامير على الجدار . كان حسن يشعر بالانقباض . شعر انه لابد من قول شيء . قال :

ـ « بتشتغل ايه يا صالح ؟ »

ـ « بدوّر على شغل . »

ـ « وعايش ازاي ؟»

قال صالح :

ـ « عندي صحاب بيساعدوني . »

ثم ابتسم وبرقت عيناه وقال :

ـ « صحاب خواجات انجليز وفرنساوية وامريكان . بييجو هنا ، وبيسهروا للفجر . السرير نظيف . ما تخافشي . »

جلس حسن على طرف السرير . انحنى صالح بشكل غير متوقع وامسك بقدمي حسن ، رفعهما ، ووضعهما على السرير ، لم يقاوم حسن . قال صالح :

- « مدد يا راجل . »

وقف صالح عند نهاية السرير واخذ يفك رباطي حذاء حسن . فك الرباطين ، وخلع الحذاء من القدمين ، ثم امسك باحدى قدمي حسن واخذ يداعب باطنها باصابعه وقال :

- « بتغير ؟ »

كان حسن يكركر بالضحك ، وقال :

- « طبعاً . سيب رجلي . »

ترك صالح قدم حسن تسقط على السرير ، وسار نحو المائدة ، واخذ يشعل وابور الجاز . استغرق في عمله ولم يلتفت الى حسن . وضع البراد فوق الوابور ثم استدار . كان في وجهه غياب واستغراق ربة البيت . سار بهذا التعبير وجلس على طرف السرير . كان ظهره لصق خاصرة حسن الممدد على ظهره . لم يقل شيئاً . عيناه كانت تتابعان الوابور المشتعل .

رغب حسن ان يستمر هذا الوضع دون تغيير . لم يرد للفتى ان يلاحظ علائم رغبته . ولكن من يستطيع ان يتنبأ بخطواته التالية ؟ نهض الفتى فجأة . كان الماء يغلي . فتح براد الشاي ووضع فيه الشاي ، ثم اطفأ الوابور على الفور واعاد غطاء البراد . كانت حركات الصبي - فيما بدا لحسن - بطيئة ، متعمده البطء . كان يريده ان يعود الى مكانه على طرف السرير .

استدار الفتى بوجه غائب . لمعت عيناه للحظة عندما رأى بنطلون حسن مرتفعاً بين ساقيه ، واصل مسيرته برأس محني ، وقف امام حسن ، نظر في عينيه ، فابعد حسن اتجاه نظرته . جلس صالح على طرف السرير دون ان يدع جسده يلامس جسد حسن ، ثم قال بصوت هاديء :

- « حاسيب الشاي شويه لما يخمر . »

ثم اخذ ينظر الى وجه حسن . كانت نظرة حزينة ، مؤدبة ، كأنها لا ترى الا احزان صاحبها . ثم مال بجسده فوق جسد حسن ، خصره يلامس خصر وبطن حسن ، واتكأ بكوعه على الطرف الآخر من السرير وقال :

- « مضايقك ؟ »

ادرك حسن بغموض ان لحظة الاختيار قد حانت . قال : « لا . » الفتى ادرك ذلك ايضاً ، فابتسم وضغط بجسده على جسد حسن ضغطاً خفيفاً وقال :

- « جسمي مهدود النهار دا . »

واسبل جفونه . كانت تلك حركة وصوت زوجة تشكو متاعب جسدية نسوية ، اذ تضغط بكفها على ظهرها وتقول بذلك الصوت المتألم المغوي : « ظهري بيئلمني » .

قال الفتى :

- « عايز الشاي تقيل ؟ »

« وسط »

انقلب الفتى واستقر ظهره على بطن حسن واخذ يضغط به وهو يتثاءب ويفرد ذراعيه . ارتفعت رغبة حسن الى القمة ثم داهمه ارتخاء وخدر . قال الفتى :

- « وسخت هدومك . »

قال ذلك وكأنه ينقل اليه خبراً عادياً . قال حسن وهو مغمض العينين :

ـ « عارف . »

وقف الفتى ومال فوق حسن ، وفك حزامه وازرار بنطلونه . ثم انتزع البنطلون وقال بذلك الصوت الغائب الحنون :

ـ « حا نفظفهولك . باين ما عندكشي صبر . »

احس به حسن وهو ينظف بين ساقيه بفوطه مبلولة ، ثم لمحه وهو ينظف البنطلون في طسُت وراء المائدة الخشبية ، ثم وهو يعلقه على مسمار مثبت بالجدار . في تلك اللحظة انفتح الباب ، ودخلت المرأة التي تلبس قميص النوم الزهري .

شهقت وقالت :

ـ « يا خراشي . »

ثم انطلقت بضحكة مصهللة ، ممتدة . همس لها الفتى شيئاً فضحكا معاً . ثم سارت المرأة واقتربت حتى حاذت السرير واخذت تنظر اليه . بادلها حسن نظرة سريعة ، ثم اغمض عينيه . لم يشعر بأي حرج واكتراث . هبط عليه النوم كاغماء . وعندما استيقظ كان الفتى يتمدد عارياً بجواره ، يبتسم له .

★★★

عندما دق جرس الباب قال حسن لانصاف :

ـ « اذا كان اسماعيل اللي على الباب قولي له اني مش موجود . »

بدا الذهول على وجه انصاف . اسرع حسن الى الداخل ، وفتحت انصاف الباب . قالت :

ـ « اهلاً ابو السباع . تفضل . »

لم يسأل عن حسن ، ولم يتح لها اسماعيل ، حتى لو ارادت ، ان تنفي وجوده . دخل اسماعيل ، وسأل انصاف عن احوالها ، ونادت سي :

ـ « ابو السباع يا حسن . »

وانصرفت الى المطبخ . دخل حسن حجرة الصالون وصافح اسماعيل . كان اسماعيل يطالعه بنظرة اقلقته . كانت نظرة غائبة رغم ثباتها على وجهه ، وكأن اسماعيل حين حوّلها عنه ، يعلن انه حالة ميئوس منها ، نظرة تقول هذا بالضبط ما كان يتوقعه .

قال حسن :

ـ « انت غريب النهار دا . »

فوجىء اسماعيل ، وقال :

ـ « انا ؟ ازاي ؟ »

ـ مش عارف . مش زي عاداتك . »

ومرت فترة صمت بينهما . وفكّر اسماعيل : لا يستطيع الرجل الطيب ان يخفي ما في داخله . من المؤكد ان شيئاً قد حدث له . لم يعرف اسماعيل كيف توصّل الى هذه النتيجة ؛ ولكنه متيقن من ذلك . كان حسن يجلس ، واضعاً ساقاً على ساق ، طاوياً ذراعيه على صدره ، وعيناه مركزتان على ركبتيه . بدا وكأنه يجلس بانتظار ان يعلن اسماعيل انصرافه .

قال اسماعيل :

ـ « شفت المظاهرات النهار دا ؟ »

قال حسن :

ـ « لا . يعني شفتها . »

وصمتا .

دخلت انصاف تحمل صينية القهوة في جو من الحيوية والمرح . رجاها اسماعيل ان تجلس ، وسألها إن كانت قد شاركت في المظاهرات ، فقالت : ومن يقوم باعمال البيت والاولاد ! ثم اضافت انها تعتقد ان ما حدث كان لعبة . هل يترك الحاكم السلطة برضاه ؟ ثم قالت وهي تضحك :

ـ « وحكاية انه كان فاكر ان طياراتهم راح تيجي من الشرق قامت جت من الغرب . يعني كان الاسرائيليين حا يقولوا له ! »

شاركها اسماعيل الضحك وقال :

ـ « كان لازم الاسرائيليين يبلغوا برج المطار . »

كان شعور حسن حاداً بخيانه انصاف له . فقد ادخلت اسماعيل رغمًا عنه ، ثم ها هي تتخلى عنه وتنصرف الى اسماعيل . الكتف المبتعد عنه والمتوجه الى اسماعيل اثار غيرة خنقته . قال فجأة :

ـ « سيبنا لوحدنا يا انصاف . »

نظرت غير مصدقة . نهضت ووضعت فناجين القهوة الفارغة على الصينية وخرجت . قال اسماعيل :

ـ « ايوه يا حسن . »

كان حسن قد استعاد ملمس الصبي وهو يتمدد عارياً بجواره ، ولحظة المتعة الفائقة التي تلت ذلك . رافق ذلك احساس بالقذارة . تخترق الاحساس ذكرى المتعة فتبعده .

قال حسن وهو يحاول ان ينتزع نفسه من ملمس الفتى العالق بجسده :

« ايه الاخبار ؟ »

قال اسماعيل :

ـ « ما تدخل في الموضوع يا حسن . »

كان حسن مرهقاً بثقل حضور اسماعيل . قال حسن : « يعني . »

صمت اسماعيل واستغرق حسن مرة اخرى في صورة الفتى العاري الذي كان ممداً بجواره . **حين استيقظ من نومه اكتشف إنه يضاجع الفتى وهو نائم. كيف تم ذلك؟ للفتى خبرة. فوجىء** باسماعيل ينهض. قال:

ـ « مستعجل ليه ابو السباع ؟ »

قال اسماعيل :

ـ « انا مش عارف ايه اللي جرى لك النهاردا . على كل حال انت عارف بيتي . »

قال حسن :

- « تعبان شوية . »

قال اسماعيل :

- « لما تكون قاعد في الصالة ، وتتكلم بصوت عالي ، اللي واقف ورا الباب بيسمعك . على كل حال انت حر . »

وخرج .

على الفور استعاد حسن صورة الفتى ممدداً بجواره .

الفصل الرابع

قالت زينب :

- « سمعت آخر نكته ؟ »

قال ايهاب :

- « هاتي . »

قالت : احـد الضبـاط المصريين جاء مسرعاً من سيناء الى قنال السويس وطلب من احد المراكبية ان ينقله الى الضفة الاخرى من القنال . فقال له المراكبي انه يفعل ذلك مقابل ان يعطيه كل نقوده وملابسه وساعة يده . فقال له الضابط ان هذا كثير جداً ، فقال له المراكبي :

- « ما هو موسم يا سعادة البيه ، كل سنة وانت طيب . هوه يعني احنا بنشوفكو الا كل عشر سنين مره . »

ضحك ايهاب طويلاً . قالت زينب :

- « اسمع دي كمان . قريتها في جريدة امريكية . »

قالت : اراد عقرب ان يجتاز قناة السويس الى الضفة الاخرى . فاقترب من ضفدع وطلب منه ان ينقله على ظهره فقال الضفدع : « لن افعل ذلك . فقد تلدغني واغرق . » فقال العقرب : « هل هذا معقول ؟ اذا غرقت انت غرقت انا » اقتنع الصفدع وحمل العقرب . في منتصف الطريق لدغ العقرب الضفدع فغرقا معاً . كان هنالك ضفدع عجوز حكيم يراقب ما حدث . هز رأسه وقال :

- « كل شيء ممكن في الشرق الاوسط . »

ثم فتحت زينب شنطتها وقالت :

- «حزّر فزّر جايبه لك ايه ؟ »

واخذت تفتش في الشنطة . قال ايهاب : « جمل . »

- « ازغر شويه . »

- « جاموسة ؟»

قالت وهي تخرج كرة من الورق المفضض : « حشيش . »

قال ايهاب : « هاشيش ؟»

قالت :

- « اما حته ايه ! غباره ! فضّي لك شوية سجاير . »

اخذ ايهاب يدير السيجارة بين سبابته وابهامه ، ثم يفرغها من التبغ . افرغ ثماني سجاير من التبغ . قالت زينب : « كفاية » كانت خلال ذلك تقطع الحشيش باظافرها قطعاً صغيرة جداً فصنعت كومة صغيرة . قالت :

- « شايف الزيت على صوابعي ؟ حشيش نقي . »

قال ايهاب : « نسيت ابوسك . »

قالت : « لما نخلّص . »

قالتها بجدية اضحكت ايهاب . قالت :

- « بتضحك على ايه يا واد يا لذيذ ؟ »

قال : « بضحك على واحدة صاحبتنا هبله . »

قالت : « نفسي آكل منك حته . »

- « حتة بس ؟ »

قالت : « حته ورا حته لغاية ما اخلّص عليك . »

كان ايهاب خلال ذلك يمزج كومتي الحشيش والتبغ ، ثم عبّأ الخليط في السجاير المفرغة . كانت زينب خلال ذلك قد جاءت بالبراندي والثلج ، وبأطباق فيها لحوم باردة ، وزيتون وطماطم ، ثم جلست . شربت رشفة من كأسها وقالت :

- « وانت ؟ »

- « وانا ايه ؟ »

- « مش عايز تاكلني ؟ »

اشعل سيجارة وجذب نفساً عميقاً منها ، ثم قدمها لها وقال :

-« عفّري . ليلتنا مملكة . »

ابتلعت نفساً واحتفظت بالدخان في صدرها ثم اخذت تخرجه من انفها ببطء .

قال ايهاب : «زينب . احنا تغيرنا . »

قالت : « حانبتدي مواعظ ؟ »

- « لا . »

قالت : « بحسب»

انصرفا الى تدخين الحشيش والشرب في صمت . لاحظ ايهاب ان زينب متوترة . كانت تدخن وتشرب ولا تكاد تأكل شيئاً . يرافق ذلك غياب يجعلها تراقب ما حولها بدهشة للحظات ، ثم تغيب في افكارها الخاصة . بما تفكر ؟ ان ما تفكر فيه يثير غضبها . احبها ورغب ان يقبلها وهي تشرب البراندي بتلك الاناقة المدهشة . قالت فجأة وهي تميل بجذعها الى الامام ، وتحني رأسها ، فتهدلت خصلات من شعرها في الفراغ :

ـ « احنا تغيرنا فعلاً . انت بطلت تكتب ، وانا بطلت اقرأ .
قال ايهاب :
ـ « الكتابة حاله . »
قالت : « عزي نفسك . »
قالت وهي تؤكد كل كلمة :
ـ « الحقيقة انه انا عمالي بسقط وعمالي بجرك ورايا . »
قال ايهاب مواصلاً لهجته الساخرة :
ـ « والحل يا ماما ؟ »
قالت زينب بحدة متصاعدة :
ـ « ايهاب ابعد عني ، ابعد عني ، ابعد عني . انا انسانة مدمِّرة . عمالي بدمر نفسي وبدمر كل اللي حواليا . »

ثم اخفت وجهها بكفيها واخذت تنشج . استمرت في ذلك بعض الوقت . قال ايهاب لنفسه انها لعبة ميلودرامية تخرج بها زينب لبعض الوقت من رتابة الجنس والشرب . ولكنه ، في داخله ، كان يعيش لحظة توقع فاجع .

نهضت فجأة وسارت نحو الباب وهي ما تزال تخفي وجهها بكفيها . بقي ايهاب وحيداً . كان خائفاً . غابت وقتاً تصور انه طويل . والتوقع الفاجع يكبر في داخله . عادت بعد قليل مغسولة ، نضرة ، مبتسمة . رمقته بنظرة معابثة ، ولكن الخجل مما حدث قبل قليل جعلها مرتبكة كأنها صبية مراهقة . قالت وهي تجذب جونلتها فوق ركبتها بحركة انثوية نموذجية :
ـ « آسفة . »
ـ « آسفة على ايه ؟ »

قال وهو يلمس خدها برؤوس اصابعه :
ـ « كل حاجة بتعمليها جميلة . راكبة عليك تماماً . »
في تلك اللحظة دق جرس الباب . اسرعت زينب نحو باب الشقة . ناداها ايهاب :
ـ « استني يا بنت المجنونة لما نخبي السجاير . »
قالت :
ـ « حايكون مين يعني . »

سمع ايهاب صرخة زينب المرحة وطرقعة القبلات . كانت هنية . قالت وهي تدخل الصالون :
ـ « ارجو اني ما اكونشي جيت في وقت مش مناسب . »
قال ايهاب :
ـ « كل الاوقات مناسبة بالنسبة ليكي . »
اخذ ايهاب يقع في حبها ، كما يحدث عندما يراها . كان لها طلعة امرأة تعيش في ضوء النهار ،

خارج الابواب المغلقة . امرأة لم تعزل نفسها في قوقعة الشرب والجنس والرثاء للذات . قالت لزينب :

- « مريت لك عالبيت مبارح ماكنتيش موجوده . »

قال ايهاب : « يعني جايه لزينب . »

قالت : « هو حد يقدر يشوف الواحد منكو من غير التاني . دا انتو عاملين زي التوأم السيامي . قعدوني يا اولاد . »

قال ايهاب : « يا خبر ! انا اسف . »

وأجلسها بجواره . كانت زينب فرحة لمجيء هنية . وضعت امامها كأس براندي وشوكة ، وقبلتها على خدها ، وقالت :

- « مشتاقة لك يا بنت الايه . »

سألها ايهاب عن الاخبار فقالت لا اخبار سوى صراع ناصر وعامر . واشاعات كثيرة . سألتها زينب ان كانت ترى الشلّة . تفيدة واساعيل ونوال . فقالت هنية :

- « طبعاً . انتو مش بتشوفوهم ؟»

قالت زينب : « انا بشوف ايهاب . »

قال ايهاب مقلداً طريقة زينب في الكلام :

- « وانا بشوف زينب . »

انفجرت هنية ضاحكة وقالت :

- « انتو تحف . »

قالت زينب :

- « طلع السجاير يا ولد. حشيش يا اختي . »

اشعل ايهاب سيجارة ومدها الى هنية . تناولتها وهي تقول :

- « حا اسوق السيارة يا اولاد . »

جذبت نفساً ثم مدت السيجارة الى زينب . قالت زينب :

- « اشربي . انا شربت . »

جذبت هنية نفساً آخر ، ثم مدت السيجارة لايهاب . جذب ايهاب نفساً وخرج الدخان من منخريه ، ثم اتبعه بنفس آخر . كانت زينب تراقبه بنظرة ، محايدة ، ثم مدت ذراعها وقالت :

- « هات نفس لاختك . »

فمد لها السيجارة . قالت هنية :

- « بتكتب يا ايهاب ؟»

قال : « بكتب كتابي . »

قالها بلهجة مأساوية فلم يضحك احد . اخذت زينب تدخن وتشرب بشراهة . كان من الواضح ان فرحها لمجيء هنية قد انتهى . سأل ايهاب هنية ان كانت قد سمعت آخر نكتة ، ثم حكى لها قصة الضابط الذي أراد ان يعبر قناة السويس . ضحكت هنية كثيراً وامسكت يد زينب

وقالت : « شغل تحشيش . » وحكت زينب نكتة العقرب والضفدعة . ثم قال ايهاب :

ـ « دورك يا هنية تحكي لنا آخر نكتة سمعتيها . »

قالت : « بسمع نكات كتيرة وبنساها . »

قالت زينب : « طيب قولي اي نكتة . »

قالت هنية وهي تكركر بالضحك .

ـ « واحد راح يقعد عالقهوه قعد عالشاي . »

استغرق ايهاب وزينب في الضحك وقال ايهاب : « رائعه »

قالت زينب : « وجديدة . »

قالت هنية وقد تضرج وجهها :

ـ « ايوه . شجعوني كده . »

قال ايهاب : « كمان نكته يا هنيه . »

قالت : « هيه ايه ! انت حاتنهب . »

قال ايهاب بعد قليل : « جعان يا جماعة . »

قالت هنية : « ما هو الأكل قدامك . »

قال : « لا . عايز ، عايز . . »

واخذ يرسم بكفيه شكل كرة . قالت هنية :

ـ « عايز ايه بالضبط ؟ »

نهضت زينب وهي تقول : « عايز أكل سخن . »

خرجت وبقيا وحيدين . اعقبت ذلك لحظة صمت . الاثنان استعدا للبوح . هنالك كلام يجب الا يقال بحضور زينب ، وكانت تعلم ذلك . ولكنها سوف تقرأه في وجه ايهاب .

وكانت اللحظة لحظة عشق محبط . هذا الحضور الودود ، الذي بلغ قمة الانوثة ، هو ملاذه . غير انه وقع في شبكة تلفه بالف خيط . وكانت لحظة حزن ، ذلك الحزن المتولّد من الوجود ذاته . ها هي وقد بلغت قمة انوثتها . سوف تعيش على عرشها سنوات قليلة ، ثم سوف تهبط في الكهولة ، وتوالي الهبوط . سوف تقاوم ولكن ذلك لن يفيدها في شيء . قالت زينب «انا بهبط وبجرك ورايا . » هذا فعل الارادة لا فعل الوجود. هبوط زينب لا يثير هذا الحزن الشفاف ، بل احساساً مصمتاً بالفجيعة .

قالت هنية : « مالك ؟ »

قال : « عايز ابكي . »

رأى عينيها تغيمان . اصبحت مودة خالصة . قالت وهي تتنهد وتنظر امامها :

ـ « زمن صعب . »

واحنت رأسها . كانت حركة رائعة ، اضفت عليها تلقائية وتحكمًا في جسدها . فكرت هنية : امامه ايام عصيبة ، ايام من الغيرة والحب الجنوني والانهيار . لقد عادت زينب الى طريقها القديم عودة نهائية . وحتى لو سعت هي الى انتشاله فسوف يعود اليها . ستظل زينب الحقيقة الوحيدة في

حياته حتى الكارثة . هل سيخرج منها ؟ مد ايهاب يده ووضعها فوق يدها التي كانت تستقر على متكأ الكنبة الاسطمبولي . وضعت يدها الاخرى فوق ظاهر يده واخذت تداعبها برفق ؛ وهو ينظر اليها تلك النظرة المضببة بغشاء قرمزي ، نظرة يحتبس فيها بكاء وشكوى وقهراً وعشقاً . ثم سمعت خطوات زينب فجذبت يديها واخذت تداعب فخذيها جاذبة فستانها فوق ركبتيها ، وتنهدت . لم تدخل زينب ولكن استعادة اللحظة كان مستحيلاً . قالت هنية :

- « هيه زينب بتعمل ايه ؟»

- « بتشوي انتركوت . »

قالت هامسة : « تعالى بكره تغدى عندي . »

هز رأسه دون ان يقول شيئاً. قالت لنفسها انه خائف. انها تسد عليه كل الطرقات. قالت هامسة:

- « تعالى لوحدك . ماتقولشي لزينب . »

- « عارف . »

ثم صمتا . دخلت زينب تحمل الطعام . قالت

- « ما لكم نازل عليكو سهم الله . »

لم تقل ذلك بالمرح الذي توحي به العبارة ، بل بدت وكأنها مشمئزة لجلوسهما صامتين . وضعت طبقاً امام هنية ، وآخر امام ايهاب بوجه جاد . قال ايهاب :

- « وانتِ ؟ مش حاتاكلي ؟»

قالت : « مش دلوقتي تفضلوا انتو . »

وتناولت كأسها وشربت جرعة كبيرمنها . ادرك ايهاب انها على نية شر . كانت تجلس صامتة ، نظرتها ثابتة . تناولت هنية وايهاب طعامهما صامتين . قالت زينب دون ان يغادر الشرود نظرتها :

- « ولع لي سيجارة . »

اخرج ايهاب سيجارة من علبته واشعلها . قالت زينب بعصبية :

- « لا من التاني . »

- « حشيش ؟»

قالت : « ايوه يخليك لامك . »

اشعل ايهاب سيجارة حشيش دون ان يجذب منها نفساً وقدمها لها . قالت :

- « ما شربتش منها ليه؟ »

- « ماليش نفس . »

- «عقّلتك هنية ؟»

- « لا . بس ما ليش نفس يا زوجتي العزيزة . »

قالت هنية : « حقه يا اولاد . حاتتجوزوا امتى ؟»

قالت زينب : « ونتجوز ليه ؟ »

قالت هنية باستنكار : « وحاتتجوزا ليه ! »
مدت لها زينب سيجارة الحشيش وقالت :
- « مساء الفل . »
تناولت هنية السيجارة وشربت منها نفساً سريعاً واعادتها الى زينب . قالت :
- « فعلاً حاتتجوزوا امتى ؟»
قالت زينب :
- « اذا كان الجواز علشان واشارت بأصابعها اشارة بذيئة) فدا متوفر والحمد لله . »
قال ايهاب : « انت فقدتِ عقلك . »
- « لا . مافقدتوش . شوف قصدي ايه . انت وهنية مثلاً عايزين تعملوا جنس ، ادخلوا السرير واعملوا . لما نتجوز حريتك حاتكون مقيده . فهمت دلوقتي ؟»
قال ايهاب بحدة « زينب . اتلمي بقى . »
قالت :
- « خليني اكمل حبيبي . تعرفي يا هنية ؟ ايهاب عايزك فاكرة ليلة سهرنا عند وليد بعدما طلعوا من السجن ؟ ايهاب جابك معنا هنا . كان حياكلك . »
قالت هنية : « انتِ سكرتِ . »
قالت زينب وهي تبتسم : « لا . »
قال ايهاب : « وبعدين معاكِ !ة
قالت بلهجة من يدلع طفلاً ويهدأه :
- « خليني اكمل حبيبي ، خليني اكمل حياتي . مثلاً انت وهنية عايزين بعض . أنا متأكدة . طيب قوموا ادخلوا اودة النوم ، وبلاش حكاية حا تتجوزا امتى . والامومة . . . »
قال ايهاب : « انا آسف يا هنية . »
قالت هنية : « انت غريبة يا زينب . »
ثم وقفت وقالت لايهاب الذي وقف :
- « خليك قاعد . بعرف اخرج لوحدي . »
ومضت مسرعة واغلقت الباب وراءها . لحق بها ايهاب فامسكت به زينب وقالت :
« سيبها تروّح حبيبي »
قال ايهاب : « انت فظيعة . »
تخلص منها وسار نحو الباب . عندما فتحه رأي نصف هنية الاعلى داخل المصعد ، الذي كان يهبط بها . عاود الجلوس مقطباً . قالت زينب تقلد هنية :
- « خليك قاعد بعرف اخرج لوحدي (قهقهت) زي الافلام الامريكية .(1) Please don't bothet to walk with me. Jknow the way out
قهقهت ، ثم نهضت بخفة وجلست على ركبتيه وقالت .
- « حبيبتي زعلانه ؟»

حاول ان ينهض ولكنها تشبثت بعنقه وقالت : « زعلانة مني يا حلوة ؟»
قال بضيق : «بطّلي سخافه .»
قالت : « شكلك حلو لما تزعل . زي البيبي الحلو القمور .»
قال بحدة : « عايزة ايه دلوقتي ؟»
قالت بسذاجة مصطنعة : « عايزة اغتصبك .»
افلتت منه ضحكة وقال : « انت فظيعة »
قالت بجدية : « انا عاشقة .»
ـ « طيب ، ايه دا اللي عمليته ؟»
قالت وفي عينيها نظرة تائهة : « عملت ايه ؟»
ـ « حاتستعبطي ؟»
ـ « اللي عملته مع هنيه ؟»
ـ « ايوه مع هنية .»
نظرت اليه وهي تضع شفتها السفلى بين اسنانها وقالت :
ـ « كنت غيرانه . دخلت الولية علينا دخله حسيت انها حتاخدك مني . فقدت اعصابي .»
صمتت قليلاً ثم قالت : « كنت سخيفة ؟»
ـ « قوي .»
ـ بكرة حا اكلمها واعتذر . تقيله عليك ؟»
ـ « لا . زي القطة .»
ـ « علشان بخرمش ؟ بعرف ابوس كمان .»
وقبلته . قال :
ـ « حبيبتي .»
ثم اضاف :
ـ « مش عايز اللي حصل الليلة يتكرر .
قالت وهي تقبله في كل مكان في وجهه :
ـ « حاضر . بس ضمني .»
ضمها اليه . قالت بهمس مشحون :
ـ « ضمني جامد . ضمني لغاية ما تسمع عظامي بتطقطق .»

الفصل الخامس

كان حسن يجتاز كوبري ابو العلا نحو الزمالك بذلك العنف الذي يجعل القادمين من الجهة المقابلة يبعدون عن طريقه : كان غاضباً ذلك الغضب العنّين الذي يبحث عن منفذ فلا يجده . يستعيد ما حدث منذ قليل ، يعيشه لأنه عالق بجسده . وعندما يصغي بجسده تستثار الرغبة . والمهانة عالقة به ، ولكن الاحساس بها مؤجل . قال الفتى :

ـ « ايدك على خمسة جنيه . »

ـ « خمسة جنية ؟ خير ان شاالله »

« جدعنه . »

« مش فاهم . »

قال الفتى :

ـ « جارتنا عندها ظرف قصدتني بخمسة جنية . »

يشرح له حسن : لست سائحاً سعودياً ، ما يدخلني لا يكاد يكفيني . رغم ذلك فقد اعطيتك جنيهين البارحة . والآن تريدني ان احل مشاكل جارتك المالية . يهمل الفتى موضوع النقود ويلعب لعبته المكررة . يتحدث عن نفسه باعتباره زوجه حسن ، وعن انصاف باعتبارها ضرته . يقول ذلك بجدية ، ويقرنه بحركات نسائية عريقة . يستثار حسن خلال ذلك حتى الالتباث ويدفعه نحو السرير . خلال ذلك يقوم الفتى بتفتيشه ويتناول الخمسة جنيهات من جيبه ، ويقاوم حسن ، ويقول :

ـ « مش النهار دا ابو علي . عندي ظرف »

يقول حسن بحدة :

ـ « ظرف ايه ، ومصايب !»

ـ « حاجات حريمي يا سيد الرجاله . »

يتحدث اليه الفتى ، وكأنه يكلم طفلاً : فوّت هذا اليوم يا ابو علي . انه يوم ضرتي . اذهب لانصاف . انها زوجتك ايضاً ، ولها عليك حق . حقها الشرعي يا اخي . امنحها يوما في الاسبوع . . ومضى يثرثر .

يقول حسن وهو يعلم انه مضحك : « هات الخمسة جنية . »

يكركر الصبي بالضحك ويخرج مغلقاً الباب خلفه . ينتظر حسن نصف ساعة فلا يأتي . يخرج ليبحث عنه ، يدق باب الجارة . تخرج اليه لابسة قميص نوم . تبتسم وتقول :

ـ «أهلاً ابو علي تفضل .»

يقول : « ما شفتيش صالح ؟ »

تقول : « نزل من شوية وزمانه جاي . اتفضل استناه .»

تجذب يده وتدخله . يتردد . يقول :

ـ « معلهش . انا لازم امشي .»

تقوده الى الداخل . تقف امامه وترفع وجهها اليه ، وتلعب عيناها بمعابثة ساخرة . ها هي تشبه صالح . تقول :

ـ « واحنا نعجب كمان .»

كانت تمسك بكتفيه . قال : « لازم امشي .»

واستدار . تمايلت قليلاً وتشبثت به وقالت شاكية ، بصوت طفلة ، وهي ترفع وجهها اليه :

ـ « كنت حاتوقعني .»

كان حسن قد اجتاز الكوبري واصبح في الزمالك . المارة قلائل . من الواضح انهم من سائقي السيارات الخاصة والبوابين وخدم المنازل . قلائل من أهل الزمالك يسيرون على اقدامهم في عصر يوم من ايام اغسطس . على الرصيف المقابل رأى محل سيموندس . على الفور شعر برغبة ملحة في أكل الحلوى . كانت . حادة كالعطش الشديد . اجتاز الشارع نحو المحل وجلس فوق احد المقاعد المرتفعة وطلب قطعة كبيرةمن التورتة وشاياً . أكل بنهم ودون ان يستطعم ما يأكله . توقف عندما شعر بغثيان . طلب فنجان اكسبرس بدون سكر .

تذكر في لحظة الغثيان السريعة وهي تضمه وتداعب ظهره وعجيزته ، وخلال ذلك تشكو انه كان سيتسبب في سقوطها . ارتفع جسدها فجأة وقبلته وقالت :

ـ « من زمان وانا عايزاك .»

ثم ما تلا ذلك ، وهما عاريان ، وحسن يعلو المرأة ؛ يدخل صالح ، يتأملهما ، يخبط حسن على عجيزته . ويقول : « يا خاين » ويستمر حسن ويسمع ضحكة المرأة من تحته . فاجأه المذاق اللاذع للقهوة . كان يتوقع طعمًا سكرياً . توقف المشهد الذي في خياله : صالح يخبطه والمرأة تحته ، واندرج في السياق ذاته الصوت الذي يقول « ازيك يا استاذ حسن ؟» توقع ان يرى تلك المرأة . عندما رأى الوجه تذكر . انها تلك الفتاة التي رآها عند وليد ومصطفى . ما اسمها ؟ وبمجرد ان مد يده ليصافحها وقال : « اهلاً » تذكر وقال : « ازيك يا هدى ؟» وكان صوته مضحكاً اذ بدا كأنه يستغيث ، ولكن وجه هدى ظل يحمل تعبيره المؤدب ، المتماسك ، الذي اشعر حسن بانه يواجه اتهاماً ما . اكـدت ذلك بقولها : « ليه ما حدش بيشوفك ؟» قال : « تايه يا هدى » قالت : « آخر مرة شفتك فيها كان عند مصطفى ليلة ستة يونيو» هز رأسه عدة مرات وردد بصوت غائب: «خمسة يونيو، خمسة يونيو؟»إبتسمت وقالت : «حاتندب؟»

قال دون سياق واضح :

- « بطلع من الشغل الساعة اتنين (تعثر صوته قليلاً ونَحُلَ) بعدين الواحد يخلص شوية حاجات ، وبيرجع البيت زي دلوقتي مهدود . »

قالت : « باين . سألت اسماعيل عليك . »

فاجأه اسم اسماعيل . دتقت هدى النظر في وجهه وقالت باهتمام حقيقي :

- « فيه حاجة ؟ وشك اصفر . »

قال : « الاجهاد . »

شعر انها اجابة غير كافية . رأى نفسه يندفع في حديث طويل ، لم يكن له سيطرة عليه : لقد تهت . لن اقول كل شيء ولكنه دمار حقيقي . سأقول كل شيء في وقت آخر . فقدت الثقة ، فقدت الامل . يخطر لي احياناً ان الموت هو الخلاص الوحيد . لكن انصاف ، ما ذنبها ؟ والاطفال ؟ على ان اعيش رغماً عني . تصوري اعيش رغمًا عني .

قرأ الاهتمام في وجهها ، ثم قرأ الالم ، ثم الخوف والرغبة في الهرب . مؤلم ان يجعل هذا الوجه الودود يرغب في الهرب منه . قالت ببطء واجفانها ترتعش :

- « كل دا بسبب سته يونيو ؟»

كانت تحاول ان تفهم . قال :

- « سته يونيو كان البداية . وبعدها كان الانهيار . اسمعي يا هدى . ما فيش انسان بيراوح مكانه ، اما بيتقدم او بينهار . اللي بيراوح مكانه بيفقد كل يوم شيء صغير ، بيربي عادات ضارة ، بيبعد عن علاقات ومواقف وعادات كانت بتخليه ينمو ويتطور . البداية فقدان معنى كل شيء . صديق يقول لك نكتب بيان نجمع عليه تواقيع . تفكر في الكابوس الكبير وتقول : ايه فايدة البيانات ؟ ايه فايدة مظاهرة ؟ ايه فايدة قراية كتاب ، او اجتماع حزبي ؟ تصبح عايز فعل واحد بس ، الفعل اللي يزيل الكابوس مرة واحدة . فعل زي دا مش موجود . يبدأ الانهيار والموت في الداخل نقي .

قالت هدى وهي تتنفس بعمق : «انت بتفاجئني . »

- «ازاي؟»

- «كلامك رائع . »

وكان هو ايضاً يفاجيء نفسه . لم تخطر له هذه الافكار قط ، ولم يعرف عنه قدرة على استكشاف الذات ، او على استشراف موقف . ولكنه ادرك وهو يتحدث انه يستعيد واقعة انتهت من حياته . لم يشعر بالندم لحدوثها ، بل بدت له ضرورية كوسيلة للشفاء من هاجس تولّد في السجن وتغذى بلحظة الهزيمة .

اعتذرت هدى وانصرفت وواصل حسن مسيرته بدا له صالح وتلك المرأة وحجرة السطح الضيقة احداثاً من ماض بعيد . فمنذ تبادل الحديث مع هدى اخذ يستعيد هويته السياسية . اخذت الدلالات السياسية تتوالد من الاماكن والمشاهد التي تعرض له وعبارات المارة . عندما وصل البيت كانت انصاف جالسة في الصالة تقرأ مجلة مصورة . حياها فنظرت اليه بدهشة ودّلو يجلس بجوارها

ولكنه شعر بجسده نجساً قال لها انه سيرتاح قليلاً، ثم سيخرج للمرور على اسماعيل. لم يستطع النوم. نهض واستحم. احساسه بلسع الماء البارد رافقه احساس بالتطهير. عندما خرج من الحمام رأى انصاف في حجرة النوم. قالت:

- «حاتغيب؟»

- «لا. نيمي الاولاد بدري، حضري عشا كويس.»

لم يجد اسماعيل في البيت. سأل عنه صاحبة البيت التي الحت عليه ان يدخل. اعتذر وطلب منها ان تبلغ اسماعيل ان ينتظره في الثانية ظهر غد قال:

- «قولي له حسن.»

قالت: «وانا مش عارفاك.»

عاد الى البيت. كانت انصاف تستحم. وبعد ان نام الاولاد بدأ حديثه معها بأن كرر ماقاله لهدى. اكتشف افكاراً جديدة تتولد. ودّلو يجيء اسماعيل.

***

بدا المكان مألوفاً لحسن، كأنه بيت طفولة نسيه. وكان كل مايحدث يبدو وكأنه حدث من قبل. هذه الورود التي تحيط بالقصر، والتي تهبط الى البحر على شكل مدرجات والبحر تحت كأنه مصبوغ بلون أزرق، دون امواج أو ضجيج، والجو شفاف، كالبّلور. كانت هنالك فتاة تسير بين الزهور بانسيابية راقصة، ترتدي ثوباً حريريا ابيض يصل حتى الارض، وردنيين طويلين. كان مشهدا مستعاراً من افلام قديمة. وعندما اقتربت وهمست همساً مبحوحاً: «حسن» كان صوتها يحمل ذلك الهياج واللهفة ويشبه صوت الفتاة التي تؤدي اعلان لاكتويل في التلفزيون. انتظر حسن ان تقترب اكثر ولكنها استدارت ومضت مبتعدة. اكتشف انها تطير. فكر حسن ان يلحق بها، ولكنه ادرك ان اقترابها وابتعادها يتم وفقاً لطقوس يفترض فيه انه يعرفها.

ثم اخذ يعيش مشهدين في وقت واحد. هنالك قاعة مزدحمة، واضواء نيون باهرة، ورجل يخطب. كان حديث الخطيب حميًا، يتحدث بذلك الاخلاص الذي يكاد يتحول الى بكاء. كان يشير الى ذلك الرجل الذي حمل السلاح ضد الجنود الانجليز، عن مقتل العديد من جنود الاحتلال، له عقل ماركس وقلب جندي شجاع. ارتفع صوت الخطيب فجأة: «ودخل بورسعيد البطلة وقاتل العدوان الثلاثي.» ثم اخذ الخطيب يذكر احداثاً اسطورية اندفع البطل فيها نحو دبابات العدو الغادر المتقدمة، وتفجير الدبابات.

كان حسن يعلم انهم يتحدثون عنه. اقترب من احد الحاضرين وسأله وهو يشير الى الخطيب:

- «بيتكلم عن مين؟»

نظر اليه الرجل بذهول ولم يقل شيئاً. ثم رأى فتاة قادمة عبر حوض الزهور.

قالت: «عن حسن.»

قال: «حسن مين؟»

كان يريد ان يتأكد تماماً . انه هو المقصود . تحدثت الفتاة طويلاً . قالت شيئاً كهذا : **لا وجود للبطل الفرد** . الجماهير هي البطل . نابليون ابن طبقته . مفهوم البطل الفرد صاغه عثمان بن عفان . هنالك علاقة جدلية بين الاثنين : الجماهير تخلق البطل والبطل يخلق الجماهير . ثم الموت . ما هو الموت ؟ الموت هو الحياة .

كان حديثاً مملاً ، ومخيباً للامل . قال وقد بلغ به اليأس اقصاه :

- « اسكتي خلينا نسمع . »

قالت : « حا تسمع ايه ؟ بيتكلم عن بطولات فردية منعزلة . . . »

قاطعها حسن : « اسكتي ارجوك . »

كان للفتاة وجه منفر ، ذو تقاطيع حادة . قالت :

- « ضيق افق بورجوازي صغير . »

كان حسن يختنق . قال :

- « انا ابن دين كلب . بس اسكتي . »

قالت : « انت مش طبيعي ابو علي . »

قال لها : « انا جغرافي . »

واستيقظ . كان النهار طالعاً ، وانصاف لم تكن بجواره .

★★★

في اليوم التالي ذهب حسن الى بيت اسماعيل . لقيه منتظراً . رحب به اسماعيل ثم جلس صامتاً . قال حسن .

- « كنت ضايع الفترة اللي فاتت . شاعر بيأس وبأن لا فائدة من اي عمل . »

قال اسماعيل :

- «ما هو دا اللي عايزين يوصلونا له . »

قال حسن وهو يفرك وجهه بكفه : « كان كابوس . »

قال اسماعيل : تمر في حياة المناضل ساعات يحتاج فيها لان يراجع نفسه ، لأن يرتاح ، ويعيد تقييم كل شيء . ذلك له جانبه الايجابي ، على شرط الا يصبح ذلك أسلوباً للحياة .

قال حسن المسألة كانت بالنسبة اليه هي الشعور بعدم فائدة العمل السياسي اليومي ، ويأخذ الانسان يحلم بتغيير شامل يتم بضربة واحدة ، يحلم ، صحيح ، لان ذلك واقعياً مستحيل .

قال اسماعيل : « انت بتفاجئني ابو علي . »

تذكر حسن ان هدى قالت نفس العبارة . اضاف اسماعيل :

- « كنت رجل فعل . رجل شجاع . كانت بتنقصك الحتة النظرية . انت دلوقتي بتفكر بشكل كويس . من الواضح انك كنت بتقرا الفترة اللي فاتت . »

قال حسن : «أبداً كنت ضايع بس» .

انتقل الحديث الى وضع الحزب . قال اسماعيل ان الحزب قرر ان يتخلى عن تبني الخط

الصيني ، او على الاقل ، ان يتوقف عن اعلان تبنيه لهذا الخط . اثيرت اعتراضات حول مفهوم الاممية . هل نعلن براءتنا منها ؟ الن ننتسب الى المعسكر الاشتراكي ؟ ثم اتفقنا ان جوهر الاممية هو النضال ضد الاستعمار والاستغلال الطبقي تحت راية الماركسية اللينينية . في نشاطنا قررنا التركيز على الطلبة والعمال . فعلياً نجحنا بين الطلبة .

تساءل حسن ، وهو ؟ كيف وضعه ؟ اجاب اسماعيل سيناقش ذلك داخل الاطار الحزبي : ما زلت عضواً في الحزب ، قال اسماعيل ، ولم يتخذ اي قرار ضدك .

خرج حسن من بيت اسماعيل . شعر وهو يسير في الشوارع كأنه يكتشفها . قال لنفسه ان ذلك يشبه احساسه في الايام التي تلت خروجه من السجن . كان فرحاً متلألئاً ينبثق من العالم المحيط به . حين دخل البيت رأى الاطباق موضوعة على المائدة ، لامعة ، ومنتظرة ، ورأى السلطة . سأل انصاف عن سبب تأخرها عن تناول الطعام ، قالت انها كانت تنتظره . كانت خجلة ، تضرج وجهها عندما التقت عيونهما ، واسرعت الى المطبخ . تبعها حسن الى المطبخ ، فالتفت اليه بتلك النظرة الملتبسة الخجولة المترددة ، والنفّاذة في الوقت ذاته . قبلها وخرج .

بعد الغداء تمددا على السرير فلم يأتهما النوم . وعندما تعانقا. شعر بغرابة ان يتم بينهما هذا الالتحام الجسدي .

★★★

انـدمـج حسن في النشاط الحزبي بسرعة . ادهشه ان العمل الحزبي اصبح مألوفاً بسرعة رغم انقطاعه التام عنه لثلاثة شهور ، كما ان احداً لم يشر الى هذا الانقطاع . تبين له ان رفاقه لم يكونوا يعرفون انه ابتعد هذه الفترة . تُرى ، ماذا قال لهم ابو السباع ؟ كما انه نسي صالح تماماً . انمحت تلك الفترة من ذاكرته . يحدث احياناً ان يركب اتوبيساً يعبر به كوبري ابو العلا الى بولاق ابو العلا . يشاهد المحلات ، والناس ، ومطعم الفول المكتوب عليه « اذا خلص الفول انا مش مسؤول. » ولكن ذلك لم يرتبط ، أو يذكّره ادنى تذكير ، بتلك الفترة الغريبة من حياته . حتى الاحلام التي كان يرى صالح فيها ، كان ينساها تماماً في اليوم التالي

★★★

في عصر احد الايام عاد مرهقاً . لاحظ اللهفة في وجه انصاف . سألها عما بها . قالت :

- « فيه مخبر ساب لك ورقه . »

سألها ضاحكاً . ان كان هذا الذي ازعجها فقالت :

- « جتني بتتلبش لما اشوفهم . »

اخذ منها الورقة وقال : « يا ستي ! » قرأ الورقة : الرائد سمير يرجو حضوره الى مبنى المباحث العامة في الساعة السابعة مساء . قال :

- « طز . مش حاروح . »

قالت انصاف : « مش حايعملوالك حاجة ؟»

قال : « حايعملوا ايه يعني ؟»

قرار عدم الذهاب استمر خلال قليلولة بعد الظهر . ولكنه عندما استيقظ شعر بالتحدي ينبثق ممتزجاً بغضب جامح . دفعه ذلك الى استعادة احساس الارهابي القديم قبل تنفيذ العملية : خطوة نحو المجهول وليحدث بعدها ما يحدث . في تلك اللحظة يختفي الغليان الداخلي خلف سطح من التهذيب . يصبح التهذيب جواز مروره الى الخطوة الحاسمة .

كان المشهد في ذهن حسن وهو يتجه الى مبنى المباحث العامة ، الواقع في شارع نوبار ، يتكون من محاولات الرائد ان يبدو اكبر من سنه : الوقار المرسوم ، والملاطفة التي تبدو تفضلاً ، والتهديد المبطن ترافقه ابتسامة خجولة ، يردد خلالها كلمة «يعني» يفعل ذلك وهو مقتنع ان حسن سوف ينهار بين الخوف والرجاء . سوف يحطم ذلك التماسك . وابتسم . ودخل المبنى رجلاً هادئاً . سلم ورقة الاستدعاء الى رجل الاستعلامات ، وقبل ان يجلس مع مجموعة المنتظرين ، قال له الرجل دون ان ينظر اليه :

ـ « تفضل استاذ حسن . الدور التالت . الاوده اللي في آخر الممر اللي على اليمين . »

فكر حسن ان هذا التكريم غير متوقع . ما الحكاية بالضبط ؟ سار وراء المخبر الذي كان يقف بالباب المؤدي الى الداخل . لم يتوقفا امام المصعد ، بل اخذا يصعدا السلم بسرعة . فكر حسن انها اللعبة القديمة ، ادخل اليه لاهثاً ، عرقاناً ، عاجزاً عن قول جملة متماسكة ، فيقوم بدور المضيف الكريم ، الواثق من نفسه ، فيكسب الجولة الاولى ، ويصبح سيد الموقف . تباطأ بالصعود ولكن المخبر واصل صعوده السريع ، يقفز درجتين في كل مرة ، حتى كاد ان يغيب عنه ، فأسرع حسن خلفه .

استقبله الضابط بتهذيب، وادار معه حديثاً عن حر اغسطس، وقارنه بجو سبتمبر اللطيف . ثم تحدث عن عمله وزوجته واطفاله . قال ان زوجته كانت عصبية جداً بسبب حر اغسطس . ثم ابتسم وقال انها حامل . لم يشجعه حسن على الاستطراد . سادت فترة صمت ، اخذ حسن خلالها يشرب قهوته باستغراق . كان الضابط ينظر الى حسن ، ويبدو وكأنه على اهبة ان يقول شيئاً ، ولكنه يواصل صمته ، عندما انتهى حسن من شرب قهوته ، نظر في عيني الضابط بثبات وقال :

ـ « ممكن اعرف استدعيتني ليه ؟»

دون ان يحوّل عينيه عن عيني الضابط . احمرّ وجه الضابط وارتعشت اجفانه وقال :

« بقى لنا زمان ، يعني ، ما شفناك . »

قال حسن وهو يضحك ضحكة محملة باللوم :

ـ « اشتقت لي ؟»

لم يقل الضابط شيئاً . قال حسن بحدة ، انسجاماً مع المشهد الذي رسمه في خياله للقائه مع الضابط ، وهو في طريقه الى مبنى المباحث :

ـ « مش معقول تستدعيني الساعة ستة وفي الحر دا لمجرد انه بقى لك زمان ما شفتنيش . »

نظر الضابط الى ساعته التي كانت تشير الى السابعة والنصف وبضع دقائق ، وادارها نحو ، حسن ليراها ، ولكن حسن واصل قائلاً :

ـ « هو ، دا تطبيق شعار : الشرطة في خدمة الشعب ؟»

قال الضابط :

- « الموعد الساعة سبعة . »

قال حسن :

- « اعرف ان الموعد الساعة سبعة . بس لازم ، علشان اوصل ، اصحى الساعة خمسة ، وانا برجع البيت الساعة اربعة . (وعلا صوته) يا اخي مش معقول : الواحد يروّح بيته عايز يرتاح ، وبعدين يستدعى . قال ايه ؟ قال بقى لنا زمان ما شفناك . »

افتعل حسن الغضب فاصبح غضبه حقيقياً . خلال ذلك كان الضابط يزداد ارتباكاً . احنى رأسه ورسم تكشيرة على وجهه . وساد الصمت . نهض الضابط وقال :

- « عن اذنك دقيقة . »

وخرج . اشعل حسن سيجارة واخذ يدخنها بنهم ، كان غضبه يتصاعد والكلام الكثير ينتظم ، الكلام الذي يلوم نفسه لانه لم يقله للضابط . قال لنفسه ان الضابط سيعود وسيسمع منه (من حسن) الكثير وبعد قليل انفتح الباب ودخل رجل لم يره حسن من قبل . دخل الرجل وهو يدمدم بما بدا لحسن تهديداً . وقف حسن استعداداً لمصافحته ، ولكن الرجل باندفاعه الغاضب تجاوز حسن وجلس خلف المكتب حيث كان يجلس الرائد سمير ، الذي تبعه ووقف بجواره .

كان الرجل طويلاً وضخماً ، كبير الرأس ، يرتدي ملابسه التي كانت مفصّلة بذوق عصر سابق ، باهمال . كان وجهه البني مع صلعته اللامعة السمراء يبدو وكأنه منحوت من خشب السنديان . يداه كبيرتان مشعرتان خشنتان كيدي فلاح يعمل في الارض .

عنف الرجل ، ودخوله الغاضب استلبا المبادرة من حسن . احنى الرجل رأسه فبدت قمة صلعته وكأنها تهشمت يوماً ما ثم جرى لصقها ، مليئة بالبروزات والمنخفضات . زاد ذلك من الاحساس بالصلابة ، اذ بدت كصخرة مدهونة باللون البني . رفع رأسه ودفع كتفيه الى الامام بقوه ، وتوتر منخراه ، وصوّب نحو حسن نظرة بيضاء صارمة . قال بعد قليل :

- « افندم ؟»

قال حسن بهدوء :

- « انتو اللي استدعيتوني . »

قال الرجل : « فعلاً »

قال حسن : « ممكن اعرف السبب ؟»

قال الرجل بحدة وهو يركز عينيه في عيني حسن ؟ :

- « بقى لك زمان مارحتش بولاق ابو العلا . قطعت ليه ؟»

لم يفهم حسن في البداية معنى السؤال . بولاق ابو العلا ؟ سأل نفسه . ثم تذكر . هل هذا معقول ؟ هل كانوا يعرفون طيلة الوقت ؟ كان الرجل يتكلم . لم يكن حسن يفقه شيئاً مما يقوله . سمع الرجل يناديه بعد قليل . التفت اليه . لم يكن وجهه واضحاً تماماً . قال الرجل .

- « اشرب الميه . »

رأى حسن مخبراً يقف امامه يحمل كأس ماء . كيف نبت هذا ؟ تناول كأس الماء وشربه ببطء .

ثم اشعل سيجارة . كان يحاول ان يلملم نفسه عندما فاجأه الرجل بالسؤال :

ـ « كان الوليه اسمها ايه ؟»

قال حسن : « صالح »

ثم انتبه للمطب الذي وقع فيه . افلتت ضحكة من الرجل ، فالتفت اليه حسن . استعاد الرجل وقاره وقال :

ـ « كل واحد يا استاذ حسن له حياته الخاصه »

حاول حسن ان يقول شيئاً فلم يجد ما يقوله . قال الرجل :

ابتسم حسن وقال : « أحسن . »

قال الرجل :

ـ « اعتقد اننا رجال ناضجين وفاهمين على بعض . »

لم يقل حسن شيئاً . يعلم ان صمته يعني استسلامه . ولكن ماذا عساه يقول ؟ قال الرجل :

ـ « باين عليك مرهق . »

اخذ حسن يتأتيء . قال انه منذ الصباح لم يأكل شيئاً . عاد في السادسة الى بيته ليأكل شيئاً ، ويستريح قليلاً ، فلقي الورقة فجاء . العمل مرهق . قال الرجل :

ـ « كنت تيجي بكره يا اخي . الدنيا ما طارتشي . »

قال حسن : « اللي حصل . »

قال الرجل :

ـ « احنا يا استاذ حسن بنقدر ماضيك . العمليات اللي كنت بتقوم بيها ضد الجيش البريطاني في منطقة القنال والقاهرة بنعتز بيها . دا ماضي كلنا بنعتز بيه . »

ثم اخذ ينظر الى وجه حسن بقلق ، فاضاف :

ـ « باين عليك التعب . اتفضل دلوقتي وتجي بكره او بعده ، حانخلي السيارة توصلك . »

اعتذر حسن عن ركوب السيارة وعندما خرج كان المصعد ينتظره مفتوح الباب ، يقف امامه مخبر دعاه للدخول . في داخل المصعد وفي طريقه عبر الساحة الى الشارع كان حسن يشعر بالضحك يضغط على حلقه . قاومه ولكن ابتسامة طغت على الوجه لم يكن يعلم انها هناك . لم يكن يرى الاشياء بوضوح وهو يجتاز الشارع الى الرصيف الآخر . تبين له ان عليه ان يعود الى الرصيف الاول ، فمن هناك سيكون طريقه اقصر . عاود عبور الشارع ، وهو في منتصفه ادرك ان عليه ان يعود الى الرصيف الذي غادره فمن هنالك يستطيع الذهاب الى باب اللوق ثم الى الطريق المؤدي الى بيته . استدار من منتصف الشارع ليعود الى الرصيف فصدمته سيارة. طار قليلاً في الهواء ثم استقر على ارض الشارع . وقبل ان يفقد الوعي سمع صرير فرامل السيارات وهي تتوقف ، وشتائم ، ورأى اعداداً كبيرة من الناس تتجمع .

الفصل السادس

اطل مدير المكتب الالماني من باب حجرة المترجمين وقال :

- « مستر ايهاب . لحظة واحده من فضلك . »

وعاد الى حجرته . عندما دخل اليه ايهاب رآه يكتم ضحكه فقال :

- « ماذا حدث ؟»

مد اليه المدير ورقة كان ايهاب قد ترجمها منذ قليل وطلب اليه ان يقرأ ما تحته خط . قرأ :

« نضال الشعب الفيتنامي ضد ناصر . » « اسرائيل صديقة الاتحاد السوفياتي وليست عميلة له . » ضحك ايهاب وقال :

- « يبدو انني فقدت القدرة على التركيز . »

قال المدير : « هل هنالك مشاكل ؟»

- « الكثير منها . »

- « هل استطيع ان اساعدك ؟»

ضحك ايهاب وقال : « انها مشاكل غرامية . »

ابتسم الالماني وقال : « غرامية ؟ عليك ان تحلها بنفسك تزوج . لماذا لا تتزوج ؟»

قهقه ايهاب وقال : « باعتبار الزواج نهاية الحب ؟»

قال الالماني وهو يهز سبابته في اتجاه ايهاب .

- « مستر ايهاب ، مستر ايهاب . خفّض صوتك . زوجتي في الحجرة المجاورة . »

كان ايهاب مستغرقاً في رسم صورة لزيارته لهنية يرى نفسه يدق جرس الباب ، الذي ينفتح وتظهر هنية خلفه مرتدية بيجامتها ، التي بلا ياقة ولا كمين . يشعر بشفتيه تلمسان ذلك النحر النقي ونبض خافت ، مداعِب ينتقل الى الشفتين . لقد تم البارحة التمهيد لكل شيء عندما امسكت يده وضغـطتهـا بين كفيها . ويتابع ايهاب الخطوات التالية التي تنتهي الى السرير ، كانت نهاية مخيبة للامل . يراها الآن ، في خياله ، امرأة تكبره بخمس او ست سنين على الاقل . يتصور ان ما يبدو خلف الثوب من بروزات كبيرة ، مستديرة ، ومثيره سوف تكون لحمًا قد اخذ يفقد صلابته . يتذكر النساء على بلاجات الاسكندرية . يتذكر واحدة منهن بالتحديد . رآها قادمة من بوابة بلاج سان

ستيفـانوا . اثارته ببروزات جسدها وانحناءاته الثرية . ثم رآها وهي تخرج من احدى الشاليهات لابسة المايوه البكيني. بدت مترجرجة كقطعة كبيرة جداً من الجيلي .

ودّ لو تعفيه هنية من هذه العلاقة ، ان يظلا صديقين . ولكن الخجل ، الخشية من أن يجرحها سوف تمنعه . وزينب ؟ لقد كانت حاضرة في خياله كخلفية قاتمة ، مرنةوشرسة كالنمر ؛ ولم تكن احكامه على هنية سوى نتاج مقارنتها مع زينب ونتاج الخوف منها . خاصة ما فعلته البارحة . كانت زينب ، بحضورها العدواني الملح ، تهديداً ماثلاً يستلب هنية ويحيلها الى امرأة غير مرغوبة . يوتّره استحالة تحقيق الفردوس الجنسي: علاقة مع امرأتين ، ليستا زينب وهنية على أية حال .

غادر المكتب مبكراً واخذ يسير في شوارع الزمالك دون هدف . مرأى النساء يجتذبه بقوة . بَدَون له نساء ممنوحات دون تعقيدات ، خلافاً لنسائه هو- زينب هنية هدى- حيث تجسدن امام عينيه كشباك منصوبة ، بمجرد ان يلمسها تشل حركته آلاف الحبال المتينة . تاق الى حياة لا يقترن فيها العطاء بالمسؤولية، ولا تنتهي فيها المتعة الى نتائج مؤلمة .

الساعة تشير الى الواحدة . سوف يسير الى جاردن سيتي مشياً . عبر كوبري ابو العلا - وسار على الكورنيش . بعد ان تجاوز مبنى التلفزيون توقف امام امرأة تجلس على الارض ، امامها وابور جاز مشتعل ، فوقه حلة. كان للمرأة وجه فاتن . وجه ابيض مشوب بحمرة ، يعلم انه كلما ازداد تأمـلاً فيه ازداد فتنة . كانت الدموع تتساقط من عينيها . عندما رأته يتوقف قريباً منها ضحكت ومسحت دموعها بكمها . وقال :

-«بتعيطي ليه؟»

قالت : « من البصل »

لم يفهم وادركت ذلك . اضافت : « قطّعت البصل . »

قال : « ايوه ، ايوه ، بتطبخي ايه ؟ »

قالت وهي ترفع وجهها اليه وتبتسم تلك الابتسامة الخفيفة الظل : « بطاطس . » علم منها ان زوجها مراكبي اتى بها وبالاولاد ليفسّحهم في المركب . ثم تركها تعد الغداء وغادر لعمل ما وسوف يعود . فقالت :

- تفضل تغدى معنا . »

قال : « عزومة مراكبية ؟»

ضحكت كثيراً وقالت : « لا والله بجد . »

انعشتـه اللحـظات التي تحدث فيهـا مع المرأة . اية امرأة تستطيع ان تتحدث بهذه الالفة وتضحك بهذا الصفاء مع انسان لا تعرفه ! اية مودة تشيع منها . هذه علاقة انسانية بلا نتائج مؤلمة . ولكن ، بمجرد ان دفع هذه العلاقة خطوات قليلة في خياله ، تولّدت تعقيدات الزوج والاطفال والفارق الطبقي ، ولكن ، اية عينين !

توقف ايهاب امام شقة هنية ودق الجرس . عند انفتاح الباب مصير كامل سيتقرر . انفتح البـاب ورأى هنية ترتـدي ملابسها كاملة . في وجهها دهشة وابتسامة المضيفة المؤدبة . رحبت به

وادخلته ففوجيء بوجود اسماعيل . اظهر فرحاً مبالغا فيه ليخفي خيبة امله . وضعت هنية كأس وسكي امام ايهاب وقالت انهما قبل مجيئه كانا يتحدثان عما حدث لحسن . فبدت الدهشة على وجه ايهاب وقال :

ـ « ماله حسن ؟»

قال اسماعيل بصوته المنغّم : « انت ما سمعتش ؟» وحكى له ان حسن استدعي الى مبنى المباحث العامة ، وانه عند خروجه صدمته سيارة . قال ايهاب : « حالته خطره ؟» قال اسماعيل وهو ينظر الى كأسه :

ـ « شوية عنده ارتجاج في المخ وكسور . ولكن سليمه . »

قالت هنية وهي تتنهد وتمرر يديها على ساقيها : « سليمة ان شاء الله . »

قال ايهاب ان المباحث العامة هم الذين عملوها . قال اسماعيل : « اشك » ثم اضاف :

ـ « أصله حا يعملوها ليه ؟»

قالت هنية وهي تجذب طرف جونلتها فوق ركبتيها ورأسها محني :

ـ « فعلاً . اشمعنى يعملوها مع حسن بالذات ؟»

قال ايهاب : « يخوّفوا بيه الباقيين . »

قال اسماعيل وهو ينظر الى صورة معلقة على الجدار :

ـ «على كل حال مسكوا السوّاق ، والشهود قالوا ان حسن وصل لنص الشارع ورجع . »

شعر ايهاب بشيء غريب يحدث عندما لاحظ التوافق بين اسماعيل وهنية . لم تكن هنالك صداقة خاصة بينهما في السابق .

خلال تناول الطعام وبعده تركز الحديث حول ايهاب . بدأ اسماعيل بـ« ايوه يا ايهاب اخبارك ايه ؟» ثم « ما فيش رواية جديدة في الافق ؟» كانت اجابة ايهاب انه يعيش فقط . قال انه يعيش حياة محضة ، ليس للكتب والافكار علاقة بها . كان اسماعيل مهتمًا لان يعرف ما يعنيه ايهاب بالتحديد . قال ايهاب : كنت اعيش حلقة مفرغة ، تبدأ بالقراءة وتنتهي بالكتابة . اصبحت الحياة بهذا بين قوسين ، مستلبة . القراءة تحدد لي الرؤية ، تحدد لي ديناميات الكتابة ، وتحدد اختياراتي . ان هذا لا يجعل التجربة مستلبة فقط ، ولكنه يجعلها ، في سياق غير سياقها الحقيقي . اعني ان الحياة تصبح مجرد مثال توضيحي .

كانت هذه هي المرة الاولى التي تخطر فيهـا هذه الافكار في ذهن ايهاب . قال اسماعيل : « والنتيجة قال ايهاب : المطلوب ان نعيش الحياة كما يعيشها الاناس العاديون . قالت هنية :

ـ « لو دفعنا ما تقوله الى نهايته المنطقية تبقى الكتابة وقفاً على الانسان الامي . وهي نظرة رومانسية . »

استفزت كلمات هنية ايهاب ، ولكنه سيطر على توتره وقال بلهجة محايدة :

ـ « ببساطة كان التوازن عندي مختل لصالح التجريد . دلوقتي بعدّل التوازن لصالح التجربة . »

قال اسماعيل : « بتعني ايه بالتجربة ؟»

قال ايهاب : « الحياة الخام . »

قال اسماعيل : « عايز اناقش معاك مفهوم التجربة والحياة . وحتى اكون صريح معاك اكتر عايز اناقش مسألة اعتبارك انه نمط الحياة اللي بتعيشه هو التجربة . القراية تجربة . الشغل في وكالة الانباء تجربة . النضال تجربة . مفهومك للتجربة غريب ، والا انا غلطان ؟»

قالت هنية بشيء من الحدة :

- « مفهوم التجربة عند ايهاب هو الطرافة والغرابة »

استفز ايهاب وخطر له ان يقول لهما انهما يتحدثان عن مسائل لا يعرفان عنها شيئاً . ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك . ادرك انه يكابر ، وتلبسته حالة من الاعتراف ورغبة في اهانة الذات . قال انه بالفعل يدرك ان مفهومة للحياة ساذج ، شديد السذاجة ، كما قالت هنية ، وانه حدد التجربة بما هو غريب وطريف . قال ، بعد تردد ، ان الحياة هي الافكار ايضاً . قال ان حياته محصورة في زينب ، وهو يعلم انها حياة ضيقة .

تبادلت هنية واسماعيل نظرة سريعة عرف ايهاب ما تشير اليه : زينب هي الموضوع . مرت فترة صمت توجهت بها هنية الى العناية بايهاب . وضعت طعاماً في طبقه وملأت كأس النبيذ . قال ان هذا كثير ، فقالت ان عليه ان يتغذّى ووضعت يدها على كتفه ، ثم ابتسمت . كانت اشراقة ودودة ، استجاب لها ايهاب برغبة في البكاء ، رغم علمه ان هذا الود قد مر عبر نواطؤ بين هنية واسماعيل .

ثم اخذت هنية تتحدث . قالت : اسمع يا ايهاب . سوف اكون صريحة معك ، وتأكد ان حديثنا (حديثنا ؟ قال ايهاب لنفسه) مبعثه الحب والحرص عليك . ومثلما قال لي اسماعيل (فكر ايهاب : هذا حديث زوجة عن زوجها) انت موهبة كبيرة ، ويجب ان نحافظ عليها .

لاحظ ايهاب ان اسماعيل قد احنى رأسه عندما قالت ذلك باسلوب من يؤيد كلامها . اضافت هنية : انا اعرف زينب جيداً ، وهي صديقة عزيزة ، وانا متعودة على انفجاراتها كما حدث البارحة (ابتسمت) . جاءت اليوم الى مكان عملي . اعتذرت وبكت . المهم . زينب انسانة تمتلك طاقات غير عادية . ثقافتها عميقة ، ولكنها مزاجية . تصل احياناً الى حالة تدمر فيها نفسها . في فترة وجودك في السجن وبعد خروجك اصبحت انسانة جديدة . او استعادت شخصيتها الاولى ، شخصية زينب المناضلة . ولكنها بعد الهزيمة انهارت ، وتواصل انهيارها .

قال اسماعيل :

- « دا دليل حساسية مفرطة . ولكنها كان عليها تقاوم . »

قالت هنية :

- « وهنا بيجي دورك . وتنقذ نفسك . »

كان ايهاب يرغب بقوة في المغادرة . كان قد فهم جيداً ما قيل ، واتخذ قراراً بالتنفيذ السريع . لم يعد امام هنية واسماعيل سوى ان يكررا ما قالاه . وكان يخشى شيئاً آخر : ان يقودهم الحديث الى فكرة جديدة تلغي كل ما قيل . فهو قد خبر طبيعة تكوّن الافكار لديه وسيرورتها . اذ ما يكاد يتوصل الى فكرة ، ويستكشف جوانبها ، حتى يتولد نقيضها في داخله . كان ذلك واضحاً في كتابته حيث

تكون الفقرة التالية استدراكاً لما قبلها . ولكن الانصراف سوف يكون غير لائق ، والبقاء غير محتمل . فهو يشعر انه ، على نحو ما ، قد فقد هنية ، وان ذلك قد تم غدراً .

قال ايهاب انه سوف يفعل ما في استطاعته ، ولكنها مرحلة صعبة . لقد ضحكوا علينا وخدعونا . قال اسماعيل : المطلوب ان نتماسك في مثل هذه الظروف بالتحديد . قال ايهاب لينهي هذا الحديث الذي اخذ يثقل عليه : ان ذلك صحيح جداً ،

قالت هنية : «الشجاعة والتماسك بتبان في اوقات الشدة .»

قال ايهاب : « دا صحيح . صحيح جداً . »

ورغبة في البكاء تداهمه.

بعد ان انتهوا من تناول الطعام رأى ايهاب بدهشة ان اسماعيل قد اخذ يجمع الاطباق بعد ان يضع بقايا الاكل في كيس نايلون. يفعل ذلك بتلك الكفاءة التي كانت تميزه داخل السجن. حاول ايهاب ان يعاونه فقالت هنية :

- « انت ارتاح . »

وكأنها تقول له : لقد اخترت اسماعيل ، وما انت الا ضيف . سار الى الصالون مثقل القلب ، تنهشه الغيرة ودوار اللطمة المفاجئة ، عليه ان ينصرف بعد شرب القهوة . قال لنفسه . بسخرية سوداء : انصرف لادع للعاشقين فرصة الخلوة .

★★★

كانت زينب حزينة ، مستسلمة ، وديعة . حين تكون هكذا ترق ملامحها ، حتى جسدها يصبح جسد فتاة مطيعة . يضمر بروز الصدر ويتضاءل شموخ العنق . تصبح سمرتها وداعة : غشاء رقيقاً ، كامداً ، يجللها برقة ، يشكل تعابير وجهها . تبدو محتواة داخل سمرتها . لم يحدث ما كان يخشاه ، ان يجدها غاضبة ، فلم تسأله اين كان . قال ، وهو يجلس قريباً منها : « تغديتِ ؟»

هزت رأسها ، ثم مالت ووضعت رأسها على صدره ، ذلك الملمس الوديع الناعم على صدره كان أنّة شكوى ، اثارت حناناً وشعوراً بالذنب . ها هي وديعة ، متسلمة وقد كنا منذ قليل نحلل انهيارها . وفي داخل كل منا ذكرى تاريخ لها حافل بالعلاقات الجسدية المهينة ، وتحلل بلا رادع . سيبرز هذا التاريخ في اوقات كهذه فيجعل كل فعل تقوم به فضيحة .

ولكنه ، شعر هو ايضاً ، بتاريخها يعيش متحفزاً في داخل وداعتها السمراء ، التي بدت له ، في تلك اللحظة ، وكأنها تغلّف بنعومتها مخلباً وانياباً . شعر وهو يحتويها وكأنه يحتضن نمراً بفرائه الناعم الجميل ، قد ينطلق بكل وحشية في كل لحظة . وما كان يعنيه بتاريخها هو تلك العدوانية الجنسية المرهقة ، تلك الانفلاتات العصبية التي لا تراعي الظروف ، ولا تكترث باحد ، كما حدث البارحة مع هنية . يعني بها ايضاً فرض سياقها الخاص على العلاقة ، وتوترها الذي يجعل البيت مسكوناً بالمخاطر المحتملة ، وكأن كل خطوة مجازفة ، وكل عبارة فخ .

بدت وداعتها اشبة بقنبلة موقوته ، فعندما قبّل شعرها ودفن وجهه فيه خشي ان يطلق طاقاتها

الجسدية العدوانية . ولكنها رفعت وجهها اليه . كان هادئاً ، يحمل بسمة خجلة ، كأنها تعتذر . قالت : « قوم ننام . »

احتضنها واستغرق في نوم عميق مريح ، صحا منه نشطاً . قالت وهي تدخل حجرة النوم حاملة كنكة القهوة : « بلاش كسل . قوم اكتب في الرواية . »

قال ان هذا ما كان يفكر فيه بالفعل ، واضاف :

- « انت جنيه يا بنت . »

وابتسمت تلك الابتسامة التي صارت تميزها ابتسامة خفيفة تنفرج فيها الشفتان انفراجة ضيقة فتكشف عن اسنان لامعة البياض ، متناسقة ، ويكون جفناها مسبلين كأنها تبتسم لنفسها ، يحيطها هدوء غريب وتماسك ، وثقة بالحركة ، كأنها تقوم بطقس مجاملة تود ان تنسحب منه بسرعة الى ذاتها . كانت تلك الابتسامة الجديدة بداية غربة بينهما .

جلس ايهاب وقرأ الفقرة الاخيرة من الرواية التي انقطع عن كتابتها منذ اربعة شهور . رأى ان جملة تنقصها . وكانت الجملة جاهزة ، كتبها باستعجال . ثم توقف . جاءته الرغبة في ان يتمشى ، دخل حجرة النوم فرأى زينب واقفة امام دولاب الملابس . التفتت اليه وقالت :

- « مش قادر تكتب ؟ »

قال لها ان الكتابة تأتيه على دفعات . يكتب صفحة او فقرة او حتى جملة وَاحدة ، ثم يشعر انه لا يستطيع المضي . يتمشى ، او يعد القهوة ، وخلال انشغاله تأتي الدفعة الثانية . وهكذا بين كل مقطع وآخر تمشيه وانشغال انتظاراً لما يأتي . قالت :

- « الكتابة يعني مش عملية ممتعة . »

- « موحشه . »

وهو يتحدث اليها جاءته الكلمات الاولى لموقف تكوّن بشكل غائم . غادرها وعاد الى الحجرة . عندما انتهى من تلك الفقرة كانت الفقرة التالية جاهزة . فكر ان ينهض ولكنه خجل من مواجهة زينب ، كتبها ، واعاد قراءتها ففرح لانها اعجبته ، داهمه حماس الكتابة فنسي زينب . في تلك اللحظة انفتح الباب . فوجىء . كانت زينب تحمل صينية القهوة ، وقد ارتدت ملابس الخروج ، اصابه الذعر . تصور انها قررت ان تهجره لانه انصرف عنها الى الكتابة . منذ أن جلس وراء مكتبه كان هنالك شعور بالذنب يلح عليه ، لا لانه اهملها فقط ، بل لأنه ، على نحو ما ، يخونها . سألها : «رايحه فين؟»

وضعت الصينية فوق المكتب وقبلت وجنته وضحكت . انحناؤها عليه جعله يعاود الجلوس بعد ان استعد للنهوض ، فطوّق خصرها بذراعه وجذبها اليه وكرر سؤاله . قالت :

- « واضح حبيبي انك ما بتعرف تكتب وفيه حد في البيت . »

- « بلاش اكتب . »

ضحكت وقالت : « بلاش جنان حبيبي . بقي لي اسبوع ما رحتش شقتي . اروح دلوقتي انظفها ، واجهز عشا عظيم ، وانت تعال على مهلك . »

- « امتى ؟»
- «لما تخلص. الساعة دلوقتي سبعة. تعال بين العشرة والحداشر.»

بعد خروجها لم يعد يشعر برغبة في الكتابة. بدت الشقة مقبضة كسجن. كان حضور زينب امراً بالكتابة امتثل له وهو يعاني مشاعر الندم والخوف. اما الآن فهو يشعر بحرية افقدته القدرة على ضبط الذات.

رغم ذلك واصل الكتابة. كانت الكتابة عسيرة. ولكنه ادرك ان ما يكتبه يبلغ حداً من الشفافية والصدق ادهشاه. نظر الى ساعته فشعر بخيبة امل. كانت تشير الى الثامنة. قالت: «بين العاشرة وحداشر» عليه، اذن ان يكون هناك في العاشرة والنصف لو وصل بيتها في العاشرة فسوف يبدو سخيفاً.

ثم تذكر زينب. هل هجرته؟ هل سيذهب الى بيتها قبل الموعد فلا يجدها؟ دخل حجرة النوم محاولاً ان يقرأ مقاصد زينب فيها. اذ خطر له انها أخذت كل ملابسها وان خروجها كان قطيعة. رأى قميص نومها معلقاً على الشماعة. امسك ياقته وشمه. استنشق مزيجاً من رائحة عطرها وعرقها. أحس ببهجة تشيع في كل جسده.

عاد الى الكتابة مقاوما رغبته في الخروج. كان يعرف من تجاربه السابقة انه يستطيع ان يمضي ساعات طويلة هكذا. تأتيه الصور والكلمات بطيئة، تتولد بمجهود يشعر خلال ذلك ان الرواية هبطت في مطب. ولكنه عندما يعود اليها في الكتابة الثانية، يدهشه نفاذها وتركيزها.

نظر الى ساعته كانت تشير الى التاسعة وعشر دقائق. اخذ يرتدي ملابسه. . ارتداء الملابس والمشي سيراً على الاقدام من ميدان الرقي الى اول حي المنيل سيجعله يصل في العاشرة والنصف.

وهو في المصعد الى شقة زينب نظر الى ساعته. كانت تشير الى التاسعة والنصف. وعندما فتحت له الباب وتعانقا كعاشقين لم يلتقيا منذ زمن بعيد.

الفصل السابع

اصبحت الوداعة والرقة سمتين لزينب الجديده ، لافي تعاملها مع ايهاب فقط ، بل مع الجميع . كانت هنية تقول لايهاب ان زينب تغيرت كثيراً . اصبحت تقرأ بجدية . هوسها ، حالياً ، علم الجمال . لم يكن ايهاب يعرف ذلك . قال : ماذا تقرأ مثلاً ؟ قالت هنية ان زينب بدأت بفن الشعر لارسطو . لا تتصور يا ايهاب مدى المجهود الذي تبذله حتى تفهم ما تقرأ . توقفت طويلاً عند كانت وهيجل . قال : « ما كنتش اعرف . » صعقت هنية . قالت : « ما كنتش تعرف ؟» كان لقاؤه بزينب ، في الواقع مقتصراً على الأكل والجنس . قالت هنية : « لازم تتجوزوا . مستنيين ايه ؟»

شعر بضيق من سؤالها . ولما كان ايهاب من ذلك النوع الذي لا يسمح لضيقه ان يعبر عن نفسه الا اذا كان هنالك اسباب مقنعة، بالاضافة الى احترامه لهنية ، شرح لها اسباب احجامه عن الزواج ، حالياً .قال انه سيتزوج بعد ان يتم الرواية . قالت : « اشمعنى ؟»

تبين له ان الاجابة جاهزة. قال ان الرواية حياة كاملة بسياق كلي؛ إن خرج منه فسوف تضيع الرواية. علاقته بزينب، الآن، حددتها الرواية التي يكتبها، وهي الاكثر مناسبة، لايستطيع الاستغراق في سياقين في وقت واحد. الزواج تغيير شامل، غير مستعد له الآن. على كل حال فهو سوف ينتهي من الرواية بعد ثلاثة شهور ، وسوف يحتفل بالانتهاء منها بالزواج من زينب .

رأى شفتي هنية تتشكلان بالكلام فادرك اعتراضها على ما قال ورد عليه . قال : هل يعني ذلك انني ساتوقف عن كتابة الروايات عندما اتزوج ؟ طبعاً لا . ولكنني سأكتبها في سياق جديد .

قالت هنية وهي تعيد تعديل جلستها على الكنبة : « انا خايفة يا ايهاب . »

قهقه وقال : « لا . حطي في بطنك بطيخة صيفي ، ما فيش حاجة تخوّف . صدقيني . »

وما لم يقله ايهاب لهنية ، ولا حتى لنفسه ، انه حين فقدت زينب حماسها الملتاث لمتعها الجسدية ، اخذت عيوب جسدها تتسرب عبر وداعتها وخضوعها . لم يكن لثدييها ، مثلاً ، تلك الصلابة التي كانت لهما في لحظات الهوس الجنسي . يحدث احياناً ان تخلع البلوزة والسوتيان فينسابان متباعدين ، مترجرجين ، وحين يحتويهما بيديه يكونان زلقين ، مبللين بالعرق . يكون لهما رائحة نفّاذة حين يضغط بوجهه عليهما . يظل الثديان حاملين لتلك الرائحة عندما ترتسم صورتها في خياله حتى بعد ان تستحم . كانت العيوب الطارئة في كل جزء من جسدها تلتصق بذلك الجزء حتى بعد ما

تزول تلك العيوب الطارئة ، مثل الجسد العرقان ، او لزوجة البشرة عندما يختلط الكريم بالعرق ، او رائحة فمها عندما تغديا فسيخاً مع البصل .

شعر لفترة باعجاب مقترن بالتحدي لقراءاتها التي اخبرته عنها هنية . ولكن تبين ان استيعابها لعلم الجمال هو تجميع للمعلومات ، وليس معرفة خلاقة بالفن ، أو هكذا استنتج ، واراحته هذه النتيجة كثيراً .

كان يستعيد حبه لزينب عندما يكونان في سهرة سوياً . يراها بعيون الآخرين مشتهاة ، ويعجب بحديثها وكمية معارفها . كما ان تخليها عن عصبيتها قد جعل الجميع يقبلونها بود . كما كان يعجب بذكائها العملي . يحبها هكذا وهي ليست موضوعاً للجنس . وعندما يعودان ـ الى بيتها الآن ـ كان يواصل الحديث والسهر معها ، يريد ان يحتفظ بها وقد صاغتها عيون الآخرين .

لم يكن يحب ضعفها . وما يسميه ضعفها كان يعني به ودها ووداعتها . كان يتصور انها بذلك تحاول ان تجعله يتزوجها . كان يشعر ان هنالك تواطؤاً بينها وبين الاصدقاء ، الذين يلحّون على سؤاله عن موعد الزواج . كان ذلك يثير غضبه خاصة عندما تتكرر هذه الفكاهة .

ـ « مش حاتخلص الرواية بقى علشان نفرح بيك ؟»

يقول لنفسه دون اقتناع : سأتزوجها بالطبع ولكن ذلك لن يكون بسبب ذلك التواطؤ . ولكن العلاقة استمرت ببرنامجها اليومي السابق : اللقاء ظهراً في شقة ايهاب ، وتناول الغداء ، والنوم ، وانصرافها عصراً الى بيتها . وفي غالب ايام الاسبوع كان يذهب الى شقتها ليلاً ، ويتعشى هناك ، ويمارسان الجنس كل يوم رغم انه فقد حدته ونشوته السابقتين . اصبح ايهاب ينتهي من ممارسة الجنس وهو مستغرق في افكار اخرى .

لم يحاول أي منهما ان يعترف بالفتور الذي طرأ على علاقتهما . كان ايهاب يفزع من مجرد الاشارة اليه . يشعر عندئذ انه مطالب ان يقوم بشيء لم يكن قادراً عليه ، مطالب باستعادة ذلك الوهج القديم . رغم ذلك فانه التزم بهذه العلاقة بدقة واخلاص نادرين ، لم يكن يتخلف عن موعد ، يمارس الجنس بانتظام ، ويتخذ وضع العاشق في جلسته معها رغم ان وضع رأسها على صدره وضغط وجهه على شعرها كانا يخلقان حالة هي اشبه بحالة الربو. يسأل نفسه احياناً: ما بال زينب التي كانت تحدس افكاره حتى قبل ان تكتمل في رأسه لم تعد تدرك ما وصلت اليه العلاقة بينهما ؟

وما لم يقله ايهاب لاحد انه توقف عن المضي في كتابة الرواية . كان قد عوّد نفسه الا يفكر في الرواية التي يكتبها الا عندما يجلس وراء مكتبه امام الورق. فعل ذلك أخذاً بنصيحة هيمنغويه ، ولم يأسف على ذلك ابداً . يجلس للكتابة فيجد المشهد جاهزاً . يكتبه ببطء محاولاً ان يجعل كل عبارة استجابة للهفة داخلية تسعى للتجسد بكلمات .

ولكنه فجأة اخذ يفكر في الرواية في ساعات فراغه ، فيما كتبه وفيما سيكتبه . الاحساس الغالب ، في هذه اللحظات ، كان الخجل ، شعور من ارتكب فضيحة ، كان هنالك شخص آخر في داخله ينطلق باسم الرأي العام او الحس السليم ، شخص يسخر من كل مبالغة او خروج عن المألوف . كان هذا الآخر يبرهن له ان كل ما كتبه هو ميلودراما ومبالغات سنتيمنتاليه ، يفعل ذلك بسخرية صلفة . عندها يعزم ايهاب ان يعيد كتابة الرواية حاذفاً كل ما وصفه الآخر بالافتعال .

تكـرر ذلك كثيراً في البداية ، ولكنه كان ينتهي في اللحظة التي يستغرق فيها في الكتابة . يجتاحه عالم الرواية فيقف الآخر موقف المهزوم . كانت كل جملة تحدياً له ، الآ الذي يتخذ صورة احد اصدقائه ، المعروف بسخريته من كل شيء ، والمتعالي على كل ادب يُكتب باللغة العربية . كان الآخر هو جمهوره المتحدي ، وكانت الكتابة فعل تحد . في لحظات توهج عشقه لزينب كان يراقب ، في خياله ، كل عبارة يكتبها وهي تتسلل اليها ثم وهي تنطبع على وجهها اعجاباً او تساؤلا ، خشية او فرحاً . كانت هي الآخر ، وكانت في توافق مع اللحظة الروائية .

بعد مرور الوقت اخذ الآخر يصبح اكثر ايجابية في ساعة الكتابة ، يجعله يلغي مشاهد بكاملها يضفي رتابة واتزاناً على نمو الشخصيات (لم تعد تلك الشخصيات تفيض بتلك الانفلاتات غير المتوقعة ، وان حدثت فانه يضعها في سياق السخرية منها ، يساعده على ذلك اكتشاف الدور الذي يلعبه ضمير الغائب في السرد : « عندما رآها تقف امام الشباك ، تنظر بثبات الى قمم الاشجار ، شعر بانها تبتعد عنه ، فنهض ووقف بجوارها واعلن لها انه يحبها . (تحبني انا ؟) قالت بدهشة . ثم اخذت عيناها ترمشان وفركت انفها وقالت : الست جائعاً ؟» ذكّره ذلك بتلك الرموز المضحكة في رواياته السابقة ، التي لم تعرف طريقها للنشر ، حيث تصبح المرأة رمزاً للارض ، والايقاع الجنسي يندمج بالحركة الكلية للكون ، والجو الخماسيني يتخذ شكل الكابوس السياسي . يحاول ايهاب ان يقاوم . يقول للآخر : « ولكن الرمز لم يكن في ذهني وانا اكتب . » يجيب الآخر :

- « صحيح ، ولكنك اكتشفت ذلك فيما بعد واعدت كتابة المشاهد والمواقف حتى تنسجم مع الرمز . »

يذكّره الآخر بالوهم الكبير ان العقل قادر على تغيير العالم ، وكذلك وهم الاعتقاد بانك ترى خلف مشاهد الحياة اليومية عقلاً كلياً يتحرك نحو طموحات اجتماعية وروحية كبرى . كانت تلك هي لحظة التوقف عن الكتابة ، عندما اكتشف ما سماه بوهم انكشاف وهم وجود العقل في العماء الكوني .

ولسبب لم يتوقف عنده اخذ اسماعيل يثير اعصابه ، خاصة ببسمته الواثقة ، وذلك الاصغاء الذي يقول : انني استمع لكل كلمة تقولها ، واحترم رأيك ، الذي هو خاطيء تماماً ، واليك الرأي الصحيح . في لحظات كهذه كان يسأل نفسه : هل افعل ذلك بدافع الغيرة لانه تزوج هنية ؟ كان يشعر ان هنية قد هبطت عن مستواها عندما تزوجت اسماعيل .

★★★

في ظهر احد الايام كانت زينب في شقته ، ولاول مرة منذ زمن تتخلى عن عادتها في الامتناع عن الشرب ظهراً . فتحت زجاجة نبيذ روزيه ، فقال ايهاب : « حاتشربي الظهر ؟»

قالت : « وحاتشرب انت معايا . »

شيء من زينب القديمة ينبعث . شربا ومارسا الجنس ، شعر ايهاب بالرغبة في النوم . قالت زينب : « حتنام ؟» قال : « تمام » شعر انها تلومه ، ولكنه لم يكترث لذلك . استغرق في النوم فوراً . كان يشعر بها تتقلب بجواره ، ولكنه كان يعود الى نومه ، ويسّجل في لاوعيه ان شيئاً غريباً يحدث .

بعد ان استيقظا من النوم لم تنصرف زينب كما اعتادت . بعد ان ارتدت ملابسها ، وشربا القهوة قالت : « ايه رأيك نطلع نتمشى شويه اجّل الكتابة النهار دا . »

استجاب وهو يشعر ان شيئاً غريباً يحدث . كان خائفاً من خلق موقف يضطره الى المواجهة . لم يكن سعيداً بوضعهما ، ولكن كسله منعه من المواجهة . زينب صامتة . بدت منذرة بعنف ما . قال بعد قليل :

- « عاملة ايه ؟»

قالت : « بقرا وبلخص . »

- « بتقري ايه وبتلخصي ايه !»

كان يفترض ان ما قاله كان نكته ، اذ قالها بايقاع النّدابات ، غير انها اجابت بلهجة محايدة انها تقرأ كروتشه وصمتت . سارا في اتجاه حديقة الاورمان . الوقت في اواخر الشتاء ، وكان الغروب فاتناً . الاطفال والعشاق في طرقات الحديقة بدوا لايهاب صورة رائعة للجمال الانساني ، صورة ترسبت في ذهنه من تعاليم الواقعية الاشتراكية . انها اللحظة المشحونة بالخير والجمال التي ينتصر فيها الخير على الشر . عاش ايهاب اللحظة كما يعيش مشهداً سينمائياً ، كمراقب مفتون ، يترقب ، في الوقت ذاته ، وقوع الكارثة . فطن الى مصدر تلك الخشية التي تسللت الى المشهد : انها تلك المعلقة بذراعه بصمتها المنذر بالشر هي التي تستلب منه جمال اللحظة . كانت تقوده الى باب الحديقة المؤدي الى جامعة القاهرة بخطوات من يريد ان يدرك قطاراً بدأ التحرك . قال :

- « مستعجلة ليه ؟»

قالت : « مش مستعجلة . »

وتباطأت خطواتها . قال ان الجو جميل والسير في الحديقة في اللحظة التي تسبق الغروب ممتع . قالت :

- « وبعدين ؟»

شعر في تلك اللحظة انه يكرهها . الا تستطيع ان تتذوق هذا الجمال ؟ كان يعلم انها غاضبة ، وانها لهذا السبب تتصرف على هذا النحو . تجولا في الحديقة ولكن لحظة الاستمتاع قد انقضت . قال :

- « استمتعتِ خلاص ؟ تعالي نقعد في حته . »

قالت : « نقعد عندي في البيت . »

كان ذلك معقولاً . فزينب في بيتها تصبح اقرب الى نفسه . في البيت سيطر عليها اعتزاز المضيفة الخجول ، وفاض كرمها وداً خالصاً حتى كاد ان يحبها . قال في محاولة لتصفية الجو : « غظتيني . »

قالت : « عارفه . »

سألها عن السبب قالت : « حا اقول لك . اسمع يا ايهاب انت وقفت كتابة الرواية . »

تردد قليلاً ، ثم قال : « صحيح »

- « ليه ؟»
قال دون تفكير : « احلف لك بايه انه مش علشان مسألة الجواز . »
فوجئت وقالت : « مسألة الجواز؟ طز في الجواز . اللي عايزاك تقول هو لي : ليه توقفت عن الكتابة ، اولاً ، وثانياً : ليه كنت بتتظاهر انك بتكتب ؟»
قال : « عايز اشرَب براندي . »
توقع ان تقول انه شرب ظهر اليوم وان تدعوه الى عدم التهرب من اسئلتها ، ولكنها قالت : « حاضر . » جاءت بالبراندي والجزر والفستق السوداني وجلست . شرب نخبها فشربت ، ثم قالت : « ايوه ؟»
قال : كنت فاكرك نسيتِ . »
لم تبتسم . كان وجهها جاداً وعيناها ثابتتين على وجهه في انتظار اجابته . قال :
- « ارجوكِ تصدقيني اني ما بحاول تأخير مسألة الجواز . »
قالت : « ايه حكاية تأخير مسألة الجواز دي ؟ شايفني ملحوقه عالجواز ؟ انت عيل صحيح ، يا اخي طز في الجواز . حتى لو تجوزنا ، ما احنا حانطلق كمان شوية . انا عارفه . (ثم اخذت تتكلم بحرارة) اللي يهمني انت كانسان . انت مش عارف ايه دلالة اللي بتعمله ؟»
قال : « لا . ايه دلالته ؟»
قالت : «عايز تعرف دلالة الخواء والكذب؟»
قال : حا نفضل نرد على اسئلة بعض بأسئلة ؟»
قالت : « اللي بتعمله نوع من الانتحار . حياتك اصبحت جنس وأكل . »
صمتا . قال ايهاب بلهجة حزينة : « حتى دول - الجنس والاكل - ما بعملهم كويس . »

توقع انفجاراً عاطفياً من زينب تعتذر فيه عما قالت . ولكنها ظلت على تجهمها . غادرها في العاشرة ليلاً ، لم تصر على بقائه . في طريقه الى شقته رغب بقوة في انهاء العلاقة .
شعر بالارتياح عندما لم تجيء للغداء في اليوم التالي . عليه ان يزورها بعد الظهر . بعد ان استيقظ من نوم ما بعد الغداء قرر ان يزور مصطفى وتفيده . قال ساجلس معهما حتى العاشرة ثم اذهب الى زينب . لم ينتبه للوقت . نظر الى ساعته فرآها تشير الى الحادية عشرة والنصف . قالت تفيدة : « بتبص في الساعة ليه ؟»

قال : « كان مفروض امر على زينب الساعة عشرة . »
قالت : « ايه اخبار زينب ؟»
لم يرد .
- « يعني متخانقين ؟»
- « شوية . »
اغرقت تفيده في الضحك ، ثم قالت : « ايه اخبار روايتك ؟»
- توقفت عن كتابتها . »

قالت باهتمام حقيقي : « ليه ؟»
قال مصطفى : « دي اسئلة مع السلامة عايزة تمشّي الراجل من غير عشا ؟»
قالت : « لا . بس وقفت كتابه ليه ؟»
قال ايهاب انه شعر انها ميلودراما سخيفة . اصبح يخجل منها .
قالت تفيده بذهول : « بتخجل منها ؟»
قال مصطفى : « انت اكتب وخلّي الآخرين يحكموا . »
قالت تفيدة : « الغلط فيك انت ، مش في الرواية . نتعشى دلوقتي وبعدين نكمل كلام . »

الفصل الثامن

كان قد مر خمسة ايام على انقطاع زينب عن ايهاب . لم تعد تأتي وقت الغداء ، ولم يحاول زيارتها ليلاً الا مرة واحدة ، ولكنه لم يجدها . كان ذلك في الليلة الثالثة لانقطاعها ، في الساعة الحادية عشرة ليلاً . سار نحو بيتها يحدوه شعور بالذنب ورغبة الا تكون في بيتها . رأى من طرف الكوبري ان شباك حجرة نومها مضاء . صعد الى شقتها ودق الجرس . لم يفتح احد الباب . انتظر قليلاً ، ثم دق الجرس بالحاح . التفت الى الخلف فرأى المصد في مكانه فهبط . قدّر انها غادرت البيت ونسيت ان تطفيء الضوء .

في فترة الانقطاع هذه شعر براحة عميقة . الّحت عليه الرواية فاخرجها فاكتشف ان غلافها الخارجي مترب . نفض الغبار عنها وأخذ يكتب ، اكتشف ان الكلام جاهز بغزارة ، فأخذ يكتب بسرعة . كتب كثيراً ؛ وهو قد ذهب الى بيت زينب ليخبرها عن ذلك . كتب بالاندفاع ذاته في اليوم التالي ، وكتب في الوكالة باستغراق جعل الضاربة على الآلة الكاتبة تقول وهي تضحك : « دا مش هنا خالص . باين رسالة غرامية . »

توقف عن الكتابة واتصل بزينب بالتليفون في مكان عملها قيل له انها خرجت منذ قليل . مساء اليوم السادس لقيها في بيت حسن . استقبلته بلهفة ، احس بها شيئاً من الافتعال ، وقالت : « ايهاب حبيبي ، انت فين ؟» وعانقته . قال انه مر على بيتها اكثر من مرة فلم يجدها . قالت : « معليش . فترة راحة واخبارك ايه ؟»

قال : « رجعت اكتب في الرواية »

صرخت : « مبروك يا حبيبي . »

وعانقته . فكر ايهاب : « كل شيء سوف يعود الى حاله الاولى . والرواية ؟»

كان حسن قد خرج من المستشفى قبل اسبوعين . وقد تغير كثيراً . اصبح يخلط الاسماء ، ويعامل بعض الاصدقاء كأنهم غرباء ، لم يرهم من قبل . وقد اثار دهشة عامة عندما قال ان الحادثة وقعت له في بولاق ابو العلا . كانوا يشرحون له كل ما حدث ، فيصغي اليهم بذهول ، ويقول : « غريب ، غريب جداً . » اصبح يردد هذه العبارة كثيراً حتى اصبحت لازمة له . وبعد ان تبين ان اشياء كثيرة قد انمحت من ذاكرته ، واختلطت ، اصبح يضع ابتسامة اعتذار على وجهه كلما

تحدث . ولكنه عندما رأى زينب للمرة الاولى بعد خروجه من المستشفى نهض وحياها بحرارة واخذ يذكر تفاصيل عن لقاءاتها ادهشتها ، لانها نسيتها كلها . اخذت زينب تشعر وهو يكلمها ان رغبته تنبثق حادة نكاد تلمس جسدها ، فراحت ، كلما تحدث اليها ، تطوي ذراعيها وتخفي ثدييها جعلها مرة تصرخ : « انت بتثلمني » عندما صافحها وضغط يدها بقوة ، كانت رغبته فيها تخجلها فتصبح كفتاة مراهقة .

همس ايهاب لزينب : « قبل تلت ليالي مريت عليك بالليل لقيت النور والع . »

قالت : « ما طلعتش ليه ؟»

ـ « طلعت ودقيت الجرس . دقيت كتير ، وما حدش فتح . »

قالت : « اكيد نزلت وسبت النور والع . »

شيء ما في نبرة الصوت اشعره انها لم تكن صادقة . استولى شعور اختناق . قالت : « مالك »

قال : « ماليش . »

نظرت اليه بقلق وقالت : « وشك تغير . عايز حاجة اعملها لك ؟»

قال انه لا يريد شيئاً . يريدها فقط ان تصمت ، احس بنغز في قلبه وبركبتيه ضعيفتين . في تلك اللحظة دخل اسماعيل وهنية ، كانت هنية تضيء . استعادت شباباً نضراً متألقاً . وعندما قالت انصاف : « يا اختي احلويتِ عالجواز » شعر بالغيرة تلسعه : هنية صنع وملكية انسان آخر . لم يطفيء ذلك الالم بسبب شباك حجرة نوم زينب المضاء ، بل شعر بان جداراً من الرفض يحيط به .

بعد قليل جاءت تفيدة ومصطفى . سجّل ايهاب دون لهفة ان المكان قد امتلأ بالنساء الجميلات . وعندما وضعت تفيده يدها على كتفه وقالت : « ايه اخبار الرواية يا ايهاب ؟» شعر بمودتها تنساب اليه ،ودّ لو يبكي ويحكي لها عن ذلك الشباك . قالت زينب : « كل الناس عارفة . » لم تكن عبارة زينب ودودة . شعر بعدائيتها تنفذ اليه . قالت تفيده باستنكار :

ـ « الناس عارفه ايه ؟»

قالت زينب : « انه توقف عن كتابة الرواية . »

قال ايهاب : « رجعت اكتب فيها . عوّضت اللي فات كله . »

قالت تفيدة : « صحيح ؟»

وقبلت ايهاب على خده . قالت انصاف لهنية : « تأخرتوا ليه ؟»

قالت هنية : « مريت انا واسماعيل على جارته القديمة . »

قالت انصاف : « فاطمة ؟ ما جبتوهاش معاكو ليه ؟»

قال اسماعيل : « تعبانه شوية . »

كان حسن يجلس على كنبة كبيرة ، يطالع الحاضرين بعينيه الخضراوين ـ الذهبيتين الواسعتين بدهشة وفرح طفل ، وقد ثبتت تلك البسمة المعتذرة على وجهه . قال شيئاً فصمت الحاضرون وهم يطالعونه بمزيج من اليقظة والشفقة . قال :

ـ « كنت بسأل عن وليد ونوال . »

قالت انصاف : « زمانهم جايين . » بذلك الصوت الذي نخاطب به الاطفال والصم . اضافت وهي تقترب منه : « الساعة ما بقتشي تسعه لسّه . »

قال حسن وهو يدقق النظر في وجه زينب :

- « فاكره آخر سهره يا زينب سهرناها في بيت مصطفى ؟ فاكره ؟ كانت غريبة . »

قالت زينب بارتباك : « طبعاً . طبعاً . دي ليلة ماتتنسيش . »

قال حسن وهو يهز رأسه عدة مرات : « ما تتنسيش فعلاً . ليلة ستة يونيو . »

قالت زينب وقد استعادت تماسكها : « كنا حانخنق ابو السباع . »

ضحك اسماعيل وقال : « فاكره ! »

وعلى الفور لسع ايهاب التذكر : تلك الحجرة المضاءة ، وهو يدق الجرس بالحاح ، وزينب بالداخل لا تفتح الباب تقول لنفسها : انه ايهاب . لقد سئمت ذلك كله . كان ايهاب يسمع الحديث حوله دون ان يفهم ما يقال . التفت الى زينب التي كانت تشارك في الحديثبحيوية فرأى انها استعادت شيئاً كان مفقوداً . استعادت ارتعاشة الجسد الموحية بخفة الدم وخفة الحركة . ادرك انه في تلك اللحظة قد عشقها مرة اخرى ، وانه حين يواصل تأملها سيعاد تشكيلها حتى تصبح روح المكان . نظر الى حسن . كانت عيناه مركزتين على زينب . نظرته اليها كانت رسالة شبق ووجد . قال لعيني حسن إنها لي» دون ان يكون واثقاً مما يقول، وحتى يحسم مسألة ملكيته لها احاط بذراعه كتفي زينب. فوجئت وانحنت لتتخلص من ذراعيه، وقالت: «خضيتني . »

ثم ضحكت وداعبت كتفه بخدها وقالت : « آسفه » ثم التفتت الى اسماعيل الذي كان يقول :

- « مشكلتك يا زينب انك مش شايفه الا السلطة . السلطة انهزمت. صراع المماليك داخل السلطة ، السلطة مش حاتسمح بقيام اي حزب الى آخره . السلطة وبتنسي الناس اللي بيتظاهروا ، واللي بيموتوا في الشوارع ، واللي بيعتصموا ، واللي بيشكلوا الحزب ضد رغبة السلطة . بتنسي دا كله . . »

قالت زينب : « كلام سنتيمنتالي ما بيجيب ولا بيودي . »

قال اسماعيل : « يعني ايه ؟»

قالت زينب :

- « طول عمر الشعب بيقوم بمظاهرات ، وبيستشهد ناس ، دايما فيه شهداء وابطال ، ضحايا وجلادين ، لكن دا ما بغير حاجة في الوضع . السلطة هية السلطة ، والشعب بيضحي وبعدين بيهتف للحاكم . نسيت تسعة وعشرة يونيو؟ حلقة مفرغه . »

ثم توقف ايهاب عن الاصغاء . يستعيد صورة ذلك الشباك المضاء فيغوص قلبه . هل كانت تسمعه وهو يدق الجرس فتبتسم لنفسها وتواصل القراءة ؟ هل . . . ؟ منعه الذعر من القاء السؤال عن الاحتمال الآخر . لا . لم تصل الامور الى هذا الحد . سمع حسن يقول :

- « انا موافق على رأي زينب . التحرك الشعبي العفوي مش حايجيب نتيجة . »

وابتسم لزينب . قال ايهاب لنفسه : هذا الابله يحاول اغواءها ولاحظ عابراً ان ابتسامته جميلة .

قال اسماعيل : « ما فيش خلاف يا حسن بينا . بس زينب بتقول ما فيش فايده . »

قال حسن : « زينب بتقول ما فيش فايده الا اذا ... . مش كده يا زينب ؟»

قالت وهي تتنهد : « تقريباً . »

اخذت تفيده تتكلم فمال ايهاب وهمس في اذن زينب : « الراجل هيمان »

التفتت اليه وهي تبتسم ابتسامة مشرقة وقالت : « يا شقي . »

وانصرفت عنه لتتابع الحديث . دفع ايهاب احساسه بالكرامة ان يبعد ذراعه عن كتفي زينب . استغرقت في الحديث ولم يبدُ عليها انها لاحظت حركة ايهاب .

قالت هنية : « ايهاب ساكت ليه ؟»

قالت تفيدة : « بيفكر في الرواية . »

قال : « فعلاً . »

واخذ يفكر في الرواية . لو استمر بنفس هذا المعدل فسوف ينتهي منها خلال شهرين على الاكثر . سيأخذها معه للمكتب . ان افكاراً ومواقف كثيرة تخطر له وهو هناك سيقرأ لزينب ما كتب ، ستقول تعليقات تفتح امامه افاقاً جديدة . يعرف ذلك . سيذهب اليها . . ثم تبرز صورة الشباك المضاء والباب الذي لم يفتح . لسعة الغيرة وغوص القلب يتكرران كلما استعاد المشهد . لم يعد الشباك محايداً .

قال اسماعيل : « وايه رأي ايهاب ؟»

قال : « في ايه ؟»

ورأى الحاضرين يحاصرونه بنظرات ثابته وافواه مبتسمة . قال اسماعيل :

ـ«سرحان في الرواية . كنا بنقول سمينا السهره اللي كانت عند مصطفى ليلة خمسة يونيو. حسن اللي اقترح دا . ؛ فايه الاسم اللي بتقترحه؟»

قال ايهاب : « كشف المستور . »

استدارت زينب اليه بعنف مندهشة مبتسمة ابتسامة شيطانية وقالت : « ايه العبارة ؟»

تلجلج وقال بلهوجة : « مش عارف . انا قلت ايه ؟»

قال حسن « كشف المستور . »

قال مصطفى : « بيفكر في الرواية . »

قالت تفيدة : « انا عايزه اكتب رواية . ايه رأيك يا ايهاب ؟»

وضحكت خجلة . قال ايهاب بحرارة :

ـ « بجد ؟ انا واثق انها حا تكون رواية غنيه عملت تخطيط لها ؟ يعني ابتديت فيها ؟»

قالت تفيدة :

ـ « مجرد مشاهد وحوادث بتلح عليا ليل نهار . بس صورة كاملة ما فيش . »

قال ايهـاب : « اكيد الاحداث بتتجمع حول موضوع ، حول حاجة بتربطها ببعض . لما تبتدي تكتبي حاتكتشفي ان الحوادث المسيطرة عليك لها نظام . نظام يعني شكل . »

قالت زينب وهي تتنهد : « دا ايهاب بيتكلم . »

قال اسماعيل : « وبيقول كلام كويس جداً . بس عايز اسأل : ممكن الواحد يكون في داخله نظام معين او شكل معين وهو مش عارف ؟ »

قال ايهاب : « طبعاً . الحس الطبقي مثلاً نظام ، شكل لفهم العالم وللسلوك ، وموجود عند كل واحد ، بس قلائل همه اللي بيعرفوا علاقة افكارهم وسلوكهم بالنظام اللي في داخلهم . نفس الشيء الغريزة والعادة . اشكال مش بنعيها تماماً . . . »

قالت تفيدة : « كلام رائع ، بيوضح حاجات كتيره . »

قال مصطفى : « احنا ضعنا . »

قال حسن بحدة : « ما فيش حاجة اسمها غريزة . »

قال اسماعيل : « ودا كلام ؟ الغريزة الجنسية مش غريزة ؟ »

قالت زينب : « كلام حسن صحيح . مفهوم الغزيرة انتهى . »

همس لها ايهاب : « بطلّي لعب . »

★★★

عندما انتهت السهرة جاءت زينب مع ايهاب الى البيت . وضعت زجاجة براندي على المائدة وجاءت بكأسين وقالت : « الا تفيده . »

قال ايهاب : « انتِ شربتِ في السهرة اكتر من اللازم . »

قالت بهدوء : « انت عارف اني ما بسكر . »

- «انت سكرانه فعلاً . »

قالت : « لا . ولكن ايه رأيك ان تفيدة عايزه تغيّر مصطفى . »

ضحك ايهاب وقال : « هوه فستان ؟ »

قالت : « الرجالة عند تفيدة فساتين . »

قال ايهاب بلهجة هادئة حيادية : « هم تفيدة مش الرجاله دلوقتي . »

- « امال همها ايه؟ »

- « عايزة تحقق ذاتها وعندها امكانيات . »

- « حاتكتب رواية ؟ ها ها ها . . . مذاكرات مومس . . خذني بعاري . . . . او ، نار اللذة الحارقة ، بقلم مومس سابقة . »

لم يجب ايهاب . لم يكن وجه زينب يشي بالفكاهة . شربت جرعة كبيرة من كأسها ، وعلى وجهها تعبير رصين يعرفه ايهاب جيداً ، انه تعبير وجهها عندما يكون غضبها قد جاوز كل الحدود . قالت : « انا آسفه علشان اهنت،المومس الفاضلة ، باين مهمة حزبكو الاساسية هيه تحويل كل شراميط البلد الى فاضلات . »

ـ « مش حزبك انت كمان ؟»

قالت وهي تخشّن صوتها : « فشر . »

قال ايهاب : « انا حا اقوم انام . »

قالت : « انت جايبني هنا علشان تمارس معايا الجنس . وانا مصره على كده . »

قال ايهاب : « وكلامك دا تمهيد للجنس ؟»

قالت : « طبعاً . المومس الفاضلة ، وخذني بعاري ونار اللذة الحارقة . . . مش دا تمهيد للجنس ؟ انا الليلة حا اوريك العجايب . »

قال ايهاب : « بتحاولي تكوني Vulgar ؟» (مبتذلة)

قالت : « ايه يعني Vulgar انا بسمي الاشياء بمسمياتها . »

قال : « المطلوب ؟»

قالت : « نبتدي . واحد ، اتنين ، تلاته . »

وبمجرد ان نطقت بكلمة « تلاته » خلعت ثوبها ووقفت بملابسها الداخلية ، ثم اخذت تخلعها بعنف وتطوّح بها في اركان الحجرة ، ثم وقفت وفردت ساقيها وقالت : « نعجب ؟»

نهض ايهاب وقال : « انا داخل انام . »

ولكنها جذبته اليها بعنف واخذت تخلع ملابسه . خلال ذلك كان ايهاب يستعيد ذكرى قديمة ، ذكرى الجنس الخالص والتياث الرغبة . كانت ذكرى المومسات الرخيصات عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية ، ممارسة الجنس دون ود . لايزال حتى الان قادراً على استرجاع الرعب والرغبة اللذين تثيرهما اولئك النسوة باصباغهن التي تلتصق باليد والفم ، يذكر طعم تلك اللزوجة المعطّرة ، الماسخة . كنّ تجسيداً للجنس في ذهن ايهاب بما يحيطه من خوف وشعور بالقذارة والندم ؛ كان للجنس في ذاكرته ، الجنس ـ الخطيئة ـ الحرام ، رائحة اللحم الفاسد . اثارت زينب الاحساس بالجنس ـ الحرام برائحة البراندي تفوح من فمها وجسدها الذي يتفصد بالعرق .

قالت وهي تضم جسده العاري : « موّتني ، كسّرني . » كانت تهذي . « عضني ، هنا ، في كتفي » تتضرع . واستجاب . كان معبّأ بعنف لم يعرفه من قبل . اكتشف ان ممارسة العنف قد اشعلته برغبة اشعلت جسده كله ، وجعلت لحظات ممارسته تشبه لحظة القمة في الجنس ، ولكنها تتصاعد وتوالي التصعيد دون ان تصل الى قمة تتوقف عندها . كان العنف دائرة مكتملة ، يبدأ بشوق اليدين والفم لبذل اقصى طاقة ممكنة ، يجد استجابته في اللحم المرتعش ، في مرونة الجسد ، في الموضوع الذي يستقبل العنف دون ان يصيبه العطب ، في صرخاتها الملتاثة ، وتضرعاتها اللاهثة ، الشاكية ، الباكية ، فيشعر بالرغبة ساخنة ، لاسعة ، تتدفق من حقويه لتشمل جذعه كله ، فتتسرب الى اليدين والفم والساقين واليدين رغبة في العنف على شكل توق العضلات للتمدد الى اقصاه .

حاولت ان تقوده الى الصوفا ، ولكنه حملها الى السرير . وهنالك تبادلا العنف . صرختها المختلطة بلهاثها : « اجمد من كده اجمد . . » اثارت جنونه . وفجأة انفرد جسدها واصبح مشدوداً

كالقوس ، وكان ايقاع جسدها جامحاً ، قوياً حتى جعلته هو مجرد مستجيب ، ثم صدمته صدمة قوية بعظمة العانة ، وصرخت : « ايهاب » وعضلات جسدها ترتعش ثم همدت .

كانت تتمدد على ظهرها ، مغمضة العينين تتنفس بعمق ، وصدرها يصعد ويهبط مع انفاسها . وكان هو يشعر بذلك الاسترخاء الممتع ، الذي يجعل كل حركة خروجاً من استغراق لذيذ . وفكر : هذه متعة تحدث مرة في العمر ، لن تتكرر ، ولن تستعاد . بعد قليل شعر بالرغبة تنفذ اليه . كانت صغيرة ، جزءاً من استرخائه ، اشبه بحلم يقظة جنسي يسبق لحظة الخدر التي يتسلل اليها النوم . انقلب على جنبه وقبّل خدها . ادارت وجهها نحوه وهي مغمضة العينين ، وقبلته على جبينه قبلة لها صوت تمطق ، كأنها تقبل طفلاً ، ثم عادت الى وضعها الاول ساكنة . نهض واتكأ على كوعه

قالت : سخّن ميه علشان نتشطف »

كانت كمية الماء كافية لأن يستحما . عندما جلسا في الصالون امام المدفأة الكهربائية ، سعيدين بالنظافة ، وبالارتواء الذي يتلو المتعة ، قالت : « جعانه وانت ؟»

- « حا اموت من الجوع . »

حاول ان ينهض ، فقالت : « خليك قاعد . انا حا احضر الاكل . »

وانصرفت الى المطبخ . اكلا بنهم . قالت : « ما كنتش عارفة اني جعانه بالدرجة دي . »

قال : « ما انت بذلت مجهود كبير . »

القت نحوه نظر خجلة ، ضاحكة ، ثم حولتها عنه وقالت : « انت قليل الادب . »

وضحكت . كان وجهها رقيقاً ، ناعمًا ، مستسلمًا ، ذلك الاستسلام الذي يخفي معابثة خفيفة الظل . قالت وهي تجمع الاطباق ، تكوّمها الواحد فوق الآخر ، استعداداً لحملها :

« البنت الحلوه مش نعسانه ؟»

قال : « سيبي الاطباق للصبح وتعالي نخش ننام . »

قالت : « حاوديهم المطبخ في طريقي . عايزه اغسل ايديا . »

تذكر ايهاب ان عليه ان يغسل يديه . ارتعش جسده لمجرد تصوره للماء البارد وهو يبلل يديه .

★★★

تمدد بجوارها وقدّر انه سينام على الفور . قلق عندما احس بها قد استغرقا في النوم . امسك كتفها ، كما تعود ، وحاول ان ينام . ثم تذكر الفتاة . تراءى له وجهها الابيض المشرب بحمرة زاهية ، وهي تبتسم تلك البسمة المغتصبة ، وترتعش اهدابها . اسمها رنا . كان يقول:

- « اسمك فعل ماضي ، مش اسم . »

كان ذلك يربكها . كانت شديدة التهذيب ، يوصّلها ابوها الى الجامعة ، ويأتي ايضاً ليأخذها الى البيت . كيف يكون بامكانك ان تشتهي فتاة مهذبة ؟ ولكنها احبته ، وملكت من الجرأة ان تطلب الى ابيها الا يجيء ليأخذها بعد الظهر . سألها أبوها عن السبب قالت انها سوف تتأخر مع صديقها .

ـ « ما حاولشي يمنعك ؟»
قالت : « لا . »
ـ « قال لك ايه لما قلتيله ؟»
قالت : « قال دي حريتك الشخصية . »

كانت منعشة بعد هؤلاء المومسات . ولكنها كانت مشروع زوجة مهذبة وام ، لا عشيقة ، يحمّر وجهها عندما يمسك ثديها وتقول : « لا . »

ـ« لا . ليه ؟»
ـ بتضايق . »

ويتوقف لان الدموع تتجمع في عينيها يقول :

ـ « بابا سمح لك تجي ، وتتأخري عالبيت ، وتيجي لي بيتي ، وما سمحلكيش انك تتباسي . »

تقول بجدية : « مش بابا . انا . »
ـ « ليه ؟»
ـ « ما بحبش . »
ـ « ولا حتى ابوسك ؟»
تبتسم وتقول : « ما انت بتبوسني . »
ـ « لا . يعني ابوس دول . »
ـ ويضع يده على صدرها . تقول : « بوسهم . »
ـ « وانت لابسه ؟»
تومىء برأسها ايماءة موافقة سريعة .
في نهاية الامر وافقت ان تدخل معه السرير . كانت محصّنة ضد كل التجاوزات . تقول :
ـ « رجاء لا . . »
يشعر بخيبة امل تجعله يبتعد عنها . تقول بصوت بكاء : « آسفه . »
ـ « معليش . »
ـ « زعلت ؟»
يقول : « بالعكس . حا افرقع من الانبساط . »
يسألها : « بتعملي كده ليه ؟»
ـ « خايفة . »

ثم وافقت اخيراً على المضي ابعد من ذلك . كان يقول انك زوجتي . فما المشكلة ؟ كان صادقاً. ولهذا يمارسان نصف جنس. كانت تتمدد مغمضة العينين، ساكنة تماماً. يسألها: لماذا لا تستجيبين؟ ارى انك لاتستمتعين. تقول: «بستمتع» يقول «بجد؟» تقول بحماسها الطفولي: «بجد.»

ثم اصبحت لقاءاتهما تثير ضجره . السبب الذي جعله يؤجل انفصاله عنها هو شعوره ان ذلك سوف يكون نهاية عالم المرأة الجميلة ، الحسّاسة ، المثقفة . قال لنفسه : اذن هكذا تكون الزوجات الفاضلات ؟

يتذكر اللقاء الذي انفصلا فيه . ابلغها قراره ، فصمتت . اعتقد انها لم تتبين ما قال ، فحاول ان يبدأ من جديد ، فقالت : « فهمت . »

قال : « حانبقى اصدقاء . »

لم تجب . كان يعني ذلك بالفعل . نهضت وغادرت الشقة . تصرفت بعد ذلك بشكل طبيعي . كان يجلس معها في كافيتريا كلية الاداب فلم تكن تمانع ، يلاحظ شحوبها ، ولكنها لم تتصرف كفتاة اهينت . لم يتصور انها تملك كل هذه الكبرياء . دعاها مرة لمشاهدة فيلم امتدحه لها ، فقالت : « آسفة مرتبطة . »

كان ردها هادئاً فكرر الدعوة . ابتسمت وقالت : « ما تحاول . كل شيء إنتهى . »

اعتقد ان كبرياءها الجريح هي التي تتحدث ، وانها تتمنى استعادة العلاقة . اقترح عليها ذلك فقالت : « صدقني ان كل شيء انتهى . »

لقد كبرت البنت ، تقلبت زينب واصبحت تواجهه ، ولفت ذراعيها حول عنقه . كان جسدها ساخناً . قالت بصوت يثقله النوم : « مانمتش ؟» واستغرقت في النوم .

★★★

كان اليوم التالي يوم اجازتها الاسبوعية : الجمعة ، فتأخرا في النوم ، يستيقظان ، «قومي حبيبتي اعملي فهوه . »

« قوم انت . »

- « يا بليدة . »

ويعودان الى النوم .

ايقظهما جرس الباب . فتحه ايهاب فلم يجد احداً ، ثم اكتشف الاهرام الاسبوعي ملقى تحت الباب . لم يكن ايهاب مشتركاً في جريدة الاهرام ، فلا بد ان موزع الصحف قد اخطأ . عاد واشعل الغاز ووضع كنكة القهوة فوقه . ثم دخل الحجرة واشعل سيجارة . كانت زينب تنظر اليه وسألت : « مين ؟»

قال وهو يسير نحو باب الحجرة : « بتاع الجرايد . »

- « رايح فين ؟ تعال نام . »

قال : « القهوه عالنار . »

- « شاطر . »

وهما يشربان القهوة اقترح ان يخرجا ، قالت : « جنينة الاورمان ؟ مش كده ؟»

- « ايوه . »

قالت : « خلينا قاعدين نستمتع بالكسل . »

وخلال ساعات الكسل الطويل اكتشف ايهاب فقر زينب الروحي . في آخر النهار احس بعبء هذه الجلسة . لم تخلق زينب لحياة مريحة . ختمت النهار بعملية جنسية فاترة . كان لا بد من الشرب لاحتمال هذه الوحدة . التفتت اليه فجأة وقالت :

« تصور المصيبة لو تجوزنا »

لم يحاول نفي خيبة املها .

الفصل التاسع

اتصلت زينب به في المكتب وقالت انها سوف تتغدى عنده. رحّب بها دون حماس. لم تجيء ولم يحزن ايهاب كثيراً لغيابها. استيقظ من نوم بعد الظهر وتذكر ان زينب لم تجيء. لسعته الغيرة للحظات. ثم جلس ليواصل كتابة الرواية. في تلك اللحظة خشي ان تأتي زينب، فمجيئها يعني الخروج من الدائرة المسحورة للرواية. ثم واجه العنف الروائي.

وصلت الرواية الى نقطة عليه فيها ان يبدأ موقفاً جديداً. لم تعد الرواية تكتب نفسها، بل عليه ان يستعيدها كلية ليضع شخوصها في سياق الموقف الجديد. هبط حماسه وتوقف عن الكتابة. سوف يعود اليها غداً عصراً. فسوف تكون الخيوط قد تجمعت. اما في تلك اللحظة فقد كان العمل مرهقاً ومضجراً.

هبط الى ميدان الدقي. شمس باردة تشرف عليه، مهددة بالانطواء، وجو بلّوري غامض يحيط المكان، بدأ يشيع في القلب منه سمرة تمهد لحلكة الليل القادم. السيارات تنطلق بصمت والناس يتحركون وكأنهم منوّمون. البواب الأبيض يقف طويلاً، مستقيمًا، بعنقه الطويل، الشامخ يتكيء بظهره على باب البناية الزجاجي يطالع الميدان بنظرة ثابتة، فبدا كتمثال. جو عالم الطقوس مسيطر بصمت.

سار ايهاب بخشية كأنه يحاذر أن يخدش تلك الممارسة الطقسية، خشية تقبع تحت جلده كالبرد، تجعل سيره زلقاً. كان يشعر أنه يسير فوق جسد حي رجراج تكفي اية حركة خرقاء لكي تسبب له جرحاً موجعاً.

كان يتجه نحو حديقة الاورمان. رغم عشقه للحديقة لم يدخلها، اذ كان يسيطر عليه وسواس انه حين يدخلها ساعة الغروب فان أبوابها سوف تنغلق عليه ويظل في داخلها. سار بمحاذاتها في الشارع المؤدي الى بين السرايات، ثم استدار يساراً وأصبح في مواجهة جامعة القاهرة. الشوارع خالية كأنها ساعة الافطار في رمضان. وحشة تحط على الشارع يؤكدها شجر حديقة الارومان وحديقة الحيوانات. سار في الشارع الفاصل بين الحديقتين، على الرصيف المحاذي لجنينة الحيوانات. تخطى تمثال نهضة مصر وأصبح في بداية كوبري الجامعة. فوجيء: «انني ذاهب الى بيت زينب»، تردد قليلاً، ثم واصل سيره.

من باب البناية شاهد الرجل يتجه نحو بابها. كان طويلاً، اكرت الشعر، كثيف الحاجبين، له جسد رجل رياضي. كان في وجهه عبوس وقتامة رجل جاد، عنيف، جاهز للغضب المفاجىء. شيء ما مألوف في الرجل. انه زميل زينب في العمل، يراه حين يزور زينب في المكتب. كان ايهاب يحييه، وحين حاول ان يتبادل معه الحديث لم ينجح. كان حواراً كالمفرقعات، امتلأ بـ «نعم؟» «مين؟» مش سامع سيادتك كويس» ثم بفظاظة تنهي الحديث «طبعاً، طبعاً.» حين أصبحا متواجهين فوجيء الرجل. تبادلا نظرات تساؤل، ثم ابتسم الرجل، ومد يده وصافحه قائلاً: «اهلاً زينب.»

صافحه ايهاب ضاحكاً فارتبك الرجل وقال جملة غير مفهومة، ثم انتزع يده وقال:

ـ «مع السلامة.»

ومضى مسرعاً. صعد ايهاب الى شقة زينب. كان الضوء يتسرب من عقب الباب. دق الجرس فتأخرت زينب حتى كاد ينصرف. عندما فتحت زينب الباب بدت خيبة الامل في وجهها. قال:

ـ «مالك تخضيتي؟»

قالت «مش موعدك. افتكرت حصل حاجة.»

قال: «طيب خليني ادخل.»

قالت بصخب، وهي تتحرك حركات كثيرة لا داعي لها: «تفضل حبيبي تفضل.»

التفت اليها بعد أن جلس وقال: «شفت زميلك. اسمه ايه؟ الشاب المتجهم؟»

كانت عيناها مستديرتين، تنظر اليه بتركيز شديد كأنه ادانها على شيء ما. قال:

ـ «ياشيخه الراجل اللي لصوته دوي؟»

ـ «مين؟»

ـ «أحمد، محمود، حماده.. كان هنا؟»

ـ «لا.»

ـ «غريبه.»

ـ «ايه هيه الغريبه؟»

حكى لها الحوار الذي دار بينهما فانفجرت ضاحكة: قالت: «حماده دا مسطول.»

ـ «اسمه حماده؟»

ـ «اسمه احمد. بس احنا بنسميه حماده.»

صمت ايهاب. كانت زينب تنظر اليه نظرة تهكمية، ولكنه لم يلتفت اليها. قال بعد قليل:

ـ «ايه اللي خلاه يقول: «اهلاً زينب؟»

قالت: بيعرف اني ساكنه هنا، وانك صديقي. يمكن كان عايز يقول: طالع لزينب؟»

«وعرف ازاي انك ساكنه هنا؟»

قالت: «اوهوه دا تحقيق؟ عايز تقول ايه يعني؟»

كانت غاضبة. لم يقل شيئاً. اضافت:

ـ «يعني حاكدب عليك؟ افرض انه كان هنا، ايه يعني؟ بقيت زوجه في الحريم؟»

لم يقل شيئاً. نهضت وقالت: «بتشرب قهوة؟»
- «بشرب.»
انصرفت الى المطبخ وظل وحيداً، خجلاً من شكوكه. ومنذ تلك اللحظة بدأت عملية التطويع، اخضاع ايهاب لذلك المنطق الكابوسي: تجميع أفكاره عن حرية المرأة عن العلاقة الحرة بين الرجال والنساء، عن الحرية الشخصية ورفعها الى مستوى المسلمات، ثم وضعها في سياق منطقي يلغي كل اعتراض له على ماتفعله زينب. أو تقول له: اذا فعلت هذا او ذاك فلماذا اخفيه عنك؟ هل تعتقد ان لك حقوق علي؟

عندما دخلت زينب حاملة صينية القهوة قال ايهاب: «انا آسف» لم تنظر اليه، صبت القهوة وقدمت له فنجاناً، ووضعت آخر امامها، ثم اشعلت سيجارة، وقالت:
- «المسألة مش مسألة اسف.»
- وأخرجت الدخان من منخريها، خطين غزيرين كأنهما خيطان كثيفان من قطن متسخ، ونفضت سيجارتها بسبابتها دون ان يتكون عليها رماد، وطالعته بنظرة صريحة. قال: «آسف.»

قالت انها تريد ان تكون واضحة: هنالك علاقة بينهما، ولكن هل تسمح معطيات العلاقة ان توضع هي، زينب، في موضع امرأة في الحريم؟

قال ايهاب: «يعني علشان لسّه ماتجوزناش؟»

قالت: «ياخي طز في الجواز. انا مش بتاعة جواز. لو كنت عايزه اتجوز كنت تجوزت من مية سنة.»

وأضافت انها تلتزم بالعلاقة لانها تريد ذلك، وليس لانه يراقبها. وعليه أن يثق انها عندما تقيم علاقة مع آخر فسوف تخبره. ورجته ان ينسى موضوع الجواز لأنهما لايصلحان له. لم يكن امام ايهاب الا ان يوافقها، وان يكرر اعتذاره. في تلك اللحظة شعر ايهاب ان زينب قد أصبحت محرّمة عليه، لايستطيع ان ينالها متى شاء، كما في السابق، كما رافق ذلك هوس ان يستعيدها كما كانت: «ممكنة في كل الاوقات.

قال: «انا بحبك يازينب.»

قالت: «اعتقد انه الاحسن تقول انا محتاجين لبعض.»
- «مش فاهم.»
- «حافهمك.»

قالت ان الحب كعلاقة ومصير هو عطاء دائم، والغاء للذات. الزواج، نتيجة الحب. هو ان تلغي نفسك من اجل اطفالك. كل هذا يحتاج الى قدر من الثبات في العواطف والمواقف. نحن، الاثنين، لم نخلق لذلك. نحب عملنا وانفسنا اكثر من أي شيء آخر. مواقفنا وعواطفنا تحددها مشاعرنا في اللحظة المعاشة. قالت: «موافق؟ فرد بالايجاب.

كانت زينب تتوهج ذكاء وحياة. رآها ايهاب بعينين جديدتين. فتنته سمرتها المختلطة بحمرة قاتمة مشحونة بالحيوية، وبالعينين السوداوين الكبيرتين اللامعتين، وبشموخ العنق، والجذع الذي يشي بطاقة مختزنة. ذكّرته بالفتيات القادمات من المصايف وقد تشبع جسدهن بضوء الشمس واملاح

البحر، وقد اعيد تشكيل اجسادهن بالسباحة. كان ايهاب يختنق بتوقه لملامستها، ولكنه يعلم ان تلك الملامسة سوف تولد خيبة امل. هذا البعد ضروري لادامة العشق.

قال: «بتعني ايه بالاحتياج؟»

كان يتوقع ان تقول انها تعني بالاحتياج سد الرغبة بالممارسة الجنسية. لكنها قالت:

- «الاحتياج زي قعدتنا دي. احتياجنا مثلاً للبوح، مش بس حتى نتخفف من انفعالاتنا، لكن كمان علشان ننظم افكارنا.»

- «بس؟»

- «بقول مثلاً. الاحتياج بيشمل كل الجوانب.»

قال: «بقيت فيلسوفه يازينب.»

سوقية العبارة كانت انتقاماً من زينب لأنها تجاهلت رغبته فيها. وجهها الجاد، وهي تنحني لتضع فناجين القهوة على الصينية وتتجه بها الى المطبخ أنبأه انها تعرف مايدور بداخله. سأل ايهاب: «لماذا تمتنع عني؟» عاودت الجلوس وجلست صامتة. قال ايهاب:

- «ايوه؟ كنا بنقول ايه؟»

قالت: «يبدو، بالنسبة لك، ان الحوار الوحيد الممكن معايا هو حوار الجنس. تلتهب دقيقة. وبعدين تتخلص مني بحجة انك عايز تكتب.»

قال: «كلام غريب.»

- «لكن صحيح. والاكل. نسيت الاكل. حاتقول مش فاهم؟»

- «مال الاكل؟»

قالت: «علاقتنا اصبحت جنس وأكل. بنتبادل الغرائز الاولية. دا حوارنا. فهمت الاكل ماله؟

نهض ايهاب وأخذ يتمشى في الشقة. كان ذهنه مشتتاً كان يشعر ان هنالك خطأ ما في منطق زينب، ولكنه عاجز عن اكتشافه. تبدو وكأنها كانت دوماً على حق وانه هو الذي كان يراكم الاخطاء حتى اوصل الامور الى ماهي عليه. توقف فجأة ونظر اليها، رفعت وجهها. شعر انه ملزم ان يقول شيئاً. قال: «كانت غلطتي لوحدي؟»

قالت: «بالضبط.»

ادرك انـه تورط. فبسؤالـه كشف انـه يوافق على ماقالت. واصل التمشية. قال لنفسه انه سيستعيدها من خلال الطعام. البراندي والطعام سوف يخلقان جواً ينهي هذا الانفصال بينهما. ثم أدرك انه، هنا ايضاً، لايستطيع ان يفكر بزينب الامن خلال الطعام والجنس. ها هو يؤيد اقوالها. كيف يعرفن هذا؟ فوجيء بها ايهاب تنهض وتدخل حجرة النوم. مامعنى هذا؟ فكر ان يتبعها. ولكن ذلك بدا له غير لائق. عليه ان ينصرف. ناداها من خلف الباب المغلق وقال انه سينصرف. قالت من الداخل: «استنى شويه. حاننزل سوا.»

وكما يحدث في الافلام الرديئة انحل كل شيء بيسر. خرجت اليه امرأة أخرى، اعدت نفسها حتى يقـال عنهـا امـرأة مثيرة، اعدت نفسها للاغواء. رغم تعبير الغياب على وجهها شعر ايهاب

بالاعتزاز: انها فعلت ذلك من أجلي، قال لنفسه، كل شيء سوف يعود كما كان. في المصعد كانت منشغلة بنفسها وزينتها، تنظر في المرآة، فتعدّل ملابسها، وتلمس شعرها. ولكن ايهاب فوجيء بها في الشارع تستوقف سيارة اجرة وتودعه. قال بصوت مختنق:

- «مش جايه معايا؟»

قالت بذلك الغياب الوقور: «عندي مشوار.»

قال بالصوت المختنق ذاته: «يعني مش حاشوفك الليلة؟»

قالت دون ان تنظر اليه: «اذا خلصت بدري حاامر عليك.»

ثم أمرت السائق ان يسير. وقف ايهاب مذهولاً وهو يتابع السيارة تبتعد، ثم تغيب خلف سور القصر العيني الجديد. قال لنفسه وهو في طريقه الى بيته: «ماالذي اخرسني وجعلني لا اسألها اين تنوي الذهاب؟ ذلك من حقي.»

كأن ايهاب كان يقف حاجباً عنها تلك الرغبة. فبمجرد انصرافه، وركوبها سيارة الاجرة استغرقت في جو الرغبة، في ذلك المزيج من الرعب الذي يجعلها في كل لحظة تفكر بالعدول عن مشوارها والتوق الملتاث الذي تولده، الرغبة. كان توقع ذلك العنف الذي يسحقها ويهينها يجعلها تشعر انها تودع عالماً اليفاً عزيزاً الى حيث لا رجعة، الحنين اليه يكاد يخنقها، ولكنها ترى نفسها منجذبة الى ذلك الجنون بلا ارادة، كما تنجذب قطعة الحديد نحو المغناطيس. تمنت لو ان سيارة الاجرة، بقرار خاص من السائق، اتجهت الى ميدان الدقي. التفت السائق نحوها وقال:

- «قلتِ شارع ايه؟»

وكأنه يضعها امام مسؤوليتها. تمنت لو امتلكت الارادة الكافية لتقول له: «بلاش جاردن سيتي، وديني ميدان الدقي». ولكن ذلك بدا لها معقداً ويحتاج الى شرح لم تكن مستعدة له. ذكرت اسم الشارع فواصلت السيارة طريقها. شعرت بكره حقيقي للسائق الذي يقود السيارة بهذه السرعة الجنونية نحو ذلك البيت. قالت لنفسها: «ايها القواد.» وقد استولى عليها شعور المراهقة العذراء المهددة بالاغتصاب. كان السائق عجوزاً ضئيل الحجم، اصلع، يلبس نظارة طبية لها اطار معدني، فمه يكاد يكون خالياً من الاسنان سوى بضعة اسنان نخرة سوداء، وقد بدا ان اهم شيء في الدنيا، بالنسبة له، هو أن يقودها الى ذلك المكان المرعب الذي تقصده بأقصى سرعة ممكنة. هذه الجدية الصارمة للرجل العجوز، التي كانت ستضحكها في ظرف آخر، اثارت اعصابها الى حد الجنون. قالت:

- «بلاش تسرع قوي ياريس.»

قال وهو ينظر اليها: «حاضر، حاضر.»

قالت: «الله يخليك بص قدامك.»

قال وهو ينظر امامه: «ماتخافيش، دقيقة ونوصل.»

كان يكلمها وكأنه يتحدث مع طفل صغير.

انزلها امام البناية وقبض اجرته وانصرف مسرعاً. قالت لنفسها: «كأنه قام بعمل مجيد» توقفت السيارة فجأة عند التقاء زاوية الشارع الذي دخلته وشارع القصر العيني. لم تر احداً يركب السيارة.

قالت لنفسها: «الرجل مجنون دون شك.» ولكن السيارة، عندما اضاءت من الداخل، رأت اثنين، رجلاً وامرأة، يجلسان في المقعد الخلفي. تنفست بعمق وكأن هماً قد زال عنها، ودخلت البناية، كان المصعد قابعاً ينتظر: له طبيعته القسرية، يقودك بحتمية لاترد. دقت الجرس وتركت باب المصعد مفتوحاً. صمت في الداخل، ولكنها لم تستطع ان تحزم امرها وتدخل المصعد. دقت الجرس مرة أخرى وجاء الصوت من الداخل عريضاً، قوياً: «سمعتك.»

وانفتح الباب. من خلفه بدا تركي طويلاً، عريضاً، بملابسه المميزة، ثوب أبيض ضاف، وغترة بيضاء فوق رأسه، ووجه قاتم السمرة. قال لها بهمس مشحون:

- «فيه ناس. قرايب. ادخلي اوضة النوم.»

وهو يشير بيده الى باب حجرة النوم. سارت نحوها فقال: «بسرعة.»

ثم سمعت صوته يتحدث الى اناس في الداخل: «هذا البواب.»

دخلت الحجرة دون أن تشعل الضوء واغلقت الباب خلفها بحذر وجلست على طرف السرير. لم تكن تفكر في شيء تركت الاهانة تتخللها ببطء. كانت مندرجة في سياق الخوف الذي تولّده مثل هذه الزيارة. كان للاهانة مذاقها الحرّيف اللذيذ. هاهي المومس في احط درجاتها، التي يخفيها الزبون عن الاقارب لانها عاره وضعفه الخاصين، يدخلها حجرة النوم حتى تنتهي طقوس المجتمع المحترم، وعندما ينصرف الاقارب يمارس معها انحطاطه السري، وليس لها ان تشكو، فكل شيء بثمنه. قالت لنفسها: «هل وصلت الى ذلك الدرك؟» لم يكن تساؤلها احتجاجاً، بل تسجيلاً لحقيقة تكاد تجعلها تنفجر ضاحكة.

جلست طويلاً على طرف السرير حتى احست بظهرها يؤلمها: نهضت وخلعت ملابسها وتمددت عارية في السرير في انفها رائحة الطعام القادمة من الداخل: اللحمة المشوية، والبيرة والبصل. استغرقت في النوم على الفور. استيقظت. كان النور مضاء. لم تر احداً. عاودت النوم. احست بشكل مبهم ان الضوء انطفأ وان شخصاً قد غادر الحجرة. نظرت الى ساعتها. كانت عقاربها الفسفورية تشير الى الثانية وبضع دقائق. اصفت بتركيز. اصوات متفرقة بدت كأنها تكلم نفسها تأتي من الداخل. وهي تعود الى النوم تصورت ان اعداداً كبيرة من الرجال الذين في الداخل قد اصطفوا طابوراً وقرروا ان يضاجعوها بالدور. من ينتهي يقف خلف الطابور، ويواصلون هكذا بلا انتهاء. رأتهم عراة، مهتاجين، يقفون منتظرين.

نامت وجسدها توقع خالص للافتراس. استيقظت فجأة. شيء غريب يحدث. رأت نفسها مكبلة. ذراع تشل حركتها ويد تمسك بثديها وتؤلمها. انتفضت كان النور مضاءً. تركي خلفها متمدداً يضمها ويحيطها بذراعه. تملصت منه واستدارت اليه قالت: «مشيوا؟»

قال: «روّحوا.»

قالت: «جيعانه.»

ضمها اليه وعانقها، رائحة البيرة تنبعث قوية من فمه، تكاد تخنقها. قالت: «سيبني. جيعانه.»

قال: «قومي كلي.»

قالت بحدة: «طيب. سيبني اقوم.»

ابتعد عنها وقال: «طيب قومي.»

حاولت ان ترتدي ملابسها فقال لها ان البيت مدفأ، فسارت عارية الى الداخل. قاومت رغبتها في حماية جسدها. اكتفت بالامساك بثدييها المترجرجين. بدت حركتها كفعل اغواء. احاط بها تركي من الخلف وقال: «احملهن عنك.»

كانت الفوضى تعم حجرة الطعام والصالون الذي تفضي اليه. جرحت احساسها بالانسجام: بقايا الطعام تفوح برائحة البصل والشواء، رائحة السجاير وعطن المكان المغلق، والكنبات التي اصبحت بلا نظام، واعقاب السجاير قد امتلأت بها المطافيء وتناثرت فوق السجاد. قالت:

- «كنتو عاملينها زريبة انت وقرايبك.»

ضحك تركي. قالت: «فين الاكل ياابن القحبة؟»

دخل المطبخ. شعرت بالبرد فعادت الى حجرة النوم. تناولت عباءة تركي من الخزانة والتفت بها وعادت الى الصالون. دخل تركي يحمل حمامتين مشويتين وسلطة قالت:

- «حط الاكل. سخنته؟ صب لي كاس ويسكي.»

جاءها بالويسكي. شربت جرعة كبيرة واقبلت على الطعام. قالت: «كنت حاموت من الجوع»

ضحك تركي. قالت: «مال فشتك عايمه؟ بتضحك ليه؟»

قال: «العباية.»

قالت وهي منهمكة في الاكل: «مالها؟»

قال: «وانت لابستها.»

- «مابتعرف تقول جملة مفيدة؟»

بدأ العراك خلال تناول الطعام. أخذ يفرك جسدها. قالت: «بتعمل ايه؟»

- «ادفيك.»

- «دافيه. سيبني آكل.»

- «كلي مامنعتك.»

أخذ يفرك جسدها بقوة اكثر. قالت: «بعدين في دين اهلك! حايضحك دلوقتي.»

وضحك فعلاً. هجمت عليه، فاستقبلها بالضحك وحاول ان يتحاشاها، ولكنها اندفعت بقوة تعض وتضرب. استجاب للعنف فضربها على عجيزتها. قالت:

- «ضربه. اوعى تضربني على وشي! أي.»

آلمها حين ضربها على ذقنها فصفعته على وجهه. لم يعد يستطع السيطرة على نفسه يدفعه شعور انه اهين. ضمته اليها وأخذت تقبل صدره وهمهمت: «حبيبي»

حملها الى السرير ومارسا الجنس. بعد الانتهاء تمدد الاثنان على ظهريهما فوق السرير. كانت اجسادهما مبلولة بالعرق وكانا يلهثان. عاودتها الرغبة من خلال الالام التي تخلفت في جسدها نتيجة

للمعركة مع تركي . اصبح توجعها ضراعة الرغبة . يبدأ اشبه بالمواء، ثم تحوّل الى انين اشبه بالنداء . يتحرك تركي بجوارها فتقول بصوت صغير، شاك :

ـ «كسرتني يامجرم . »

يحتضنها ، فتقول وهي تستسلم له : «مخاصماك . »

يعالج تركي رغبته المنطفئة بالعنف . ضراعتها تثير شهيته للعنف والجنس فينفتح امامهما مدى المتعة والكره .

في الصباح الباكر استيقظت زينب واستحمت ارتدت ملابسها ، وعندما اتجهت الى باب حجرة النوم فتح تركي عينيه وقال : «وين رايحة؟» قالت انها سوف تنصرف ، سألها عن السبب وهو يمد ذراعه محاولاً الامساك بها ، ابتعدت وقالت : «نام . »

قال : «تعالي شويه . »

قالت بعصبية : «اوعى تلمسني . » وخرجت .

لم تنتـظر صعود الاسانسير هبطت الدرج متعجلة كأنها مطاردة . في الخارج استنشقت هواء الصباح البارد بعمق . كان له فعل المطهّر . سارت باتجاه الكورنيش وعبرت كوبري قصر النيل . اصبح ميدان الدقي قريباً ، فواصلت السير نحوه . فتحت شنطتها ونظرت فيها . اخذ تعد النقود التي وضعها تركي ، كانت ثلاثين جنيهاً . قالت لنفسها ان ذلك اكثر من نصف مرتبها اتسكت قلقها لعدم ذهابها للعمل .

في داخل الشقة خلعت ملابسها وارتدت احدى بيجامات ايهاب ، وأخذت تنظف الشقة ، بجدية واستغراق . شعرت بنشوة وعضلاتها ترهق بالعمل ، والعرق يسيل ويبلل البيجاما ، وكذلك وهي ترى السطوح المغبرة الكابية تكتسب لمعة . امتعها وهي تعاني مستويات جديدة من الارهاق ، وقد تلبستها شخصية الزوجة التي تعد البيت لزوجها .

عندما انتهت استحمت بالماء الذي سخنته ، ثم ارتدت ملابسها ونزلت الى السوق . اشترت كمية من اللحم والخضار والفاكهة تكفيها هي وايهاب اسبوعاً كاملاً . ثم اشترت بطة . ستفاجىء ايهاب بها ، فهو يحب البط .

وهي في داخل المصعد تذكرت نكتة زوجة الموظف الفقير التي كانت تمارس البغاء وتقدم له افخرالاطعمة . وكانت الزوجة تسأل نفسها : الا يسأل هذا الرجل عن مصدر النقود التي توفر له هذه الحياة المترفة؟ الا يشك؟ وحتى تتيقن قدمت له غداء متواضعاً : فول وفجل ، فقال الزوج بغضب : «هل هذا أكل قوادين؟ . فاجأتها النكتة . هل تفعل ذلك لايهاب؟ وجهت حديثها اليه : «ليس لك اية علاقة بهذا . »

اعـدت الطعام باتقان . عندما انتهت كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة . دخلت السرير وتمددت . نامت وجسدها توقع لاستقبال ايهاب وحلمت . كان ايهاب يجلس في تلك الحجرة الواسعة المعتمة ، وفزع غير محدد معلق في الجو يتجسد في سمرة راكدة لها لون الماء في الظلمة . الفزع يتمدد في الحجرة ، يزداد كثافة في فراغات النجفة المعقدة التكوين . ايهاب يجلس على يمينها وتركي على يسارها . كانت تشعر انها حققت نصراً بخلق تفاهم بين الاثنين . فكرت انهما سيندمجان معها في نشوة

ثلاثية، سيكون جسدها لهما معاً، وفي نفس اللحظة. لم تعلن ذلك ولكنهما يعرفانه، ومن هذا تولدت شحنة من الود بينهما تمر عبر جسدها. همست:

- «انا وسيلة، مجرد وسيلة.»

توقعت ردود فعل قوية، مقرونة بالدموع، تقديراً لتضحيتها. كانا صامتين. نظرت الى وجهيهما. فيهما غضب أو عتاب غير مفهوم. كانا غائبين عن اللحظة. عليها أن تكون أكثر وضوحاً. همست:

- «عايزه أقول جسدي».

أرادت أن تشحن الجو بالتوقع. ثم أضافت: «جسدي وسيلة للحب بين الجميع».

ثم دهمها الشعر: جسدي شمعة تحترق، لتضيء لكم، اذا لم أحترق أنا فكيف يخرج من هذه الظلمات نور الخبر والنبيذ هما جسدي ودمي، كلوا واشربوا، انني أعيد اليكم الاصول المنسية، الطوطم الذي يعيد لحمة الوحدة الى صفوف القبيلة، يعيد الحب الذي ضاع...

مدت ذراعيها وأمسكت بيد كل منهما، ووضعت اليدين على ثدييها. همست لهما:

- «وليمة ملكية حافلة. كلوا واشربوا».

تاقت الى ذلك الالم الذي يولّده اعتصار الثديين بعنف الرغبة، أن ترى اليدين ملطختين بدمها، الشفاه ملوثة بالدم والحليب. وأخذت تهذي: جسدي لكم، الحب، كلوا واشربوا.

ها هي تجلس وحيدة في امتداد غير محدد. وهي منزعجة لان القذارة والفوضى تعمّان المكان. قالت لنفسها انني في زريبة خنازير حقيقية. والتيار الكهربائي كان مقطوعاً، وعندما تحاول أن تنهض يصبح للظلمة أيدٍ تغمض عينيها وترغمها على معاودة الجلوس على الكنبة. فتسترخي في انتظار زوال هذا القهر وعودة التيار الكهربائي. وخلال ذلك تعيش كذكرى، وكحضور، ايهاب وتركي يجلسان على جانبيها. يبهظها القهر حتى الاختناق. تصرخ:

- «جسندي غذاؤكم أيها الحبيبين».

تراهما يتبادلان نظرة تواطؤ. يتجاوزانها ويتجاهلانها بتفاهم عميق ليست طرفاً فيه. تنهشها الغيرة، فتسعى لاستردادهما معاً، وتصرخ:

- «لا أملك سوى جسدي أمنحه لكما معاً».

كانا يقولان شيئاً غير واضح عن اصابتها بمرض ما. وعن ضرورة الحذر. ثم اختفيا. الواضح أنها منذ البداية كانا يريدان التخلص منها، وقد نجحا في ذلك. تنهض لتبحث عنهما، تسير في قلب الظلمة وتصغي. في الصمت حركة متربصة لاتستطيع تحديدها. تسير خطوتين وتتوقف منصته، تسمع حركة هامسة. تتجه نحوها. رأت نفسها تمسك مقبض الباب. تدير المقبض فينفتح الباب. في ضوء كضوء الفجر رأت الجسدين عاريين. كان تركي يحتضن ايهاب من الخلف، ووجه ايهاب يتشنج بعذاب صامت، وجسده يهتز باهتزاز الجسد الذي خلفه. صرخت: «كده؟ كده بقى؟».

والغيرة، والاحساس بالهجر يمزقانها. أمسكت بكتف ايهاب وحاولت أن تبعده، ولكن تركي دفعها بعيداً. استيقظت لتجد ايهاب جالساً على طرف السرير يراقبها.

الفصل العاشر

أصبح اسماعيل في حالة يقظة وتوتر دائمين. يستيقظ في الصباح هو وهنية فيغادران السرير فوراً. لحظات الكسل التي كانت تعقب ليلته مع فاطمة، والعناق المتكرر الذي يتحول أحياناً الى ممارسة جنسية صباحية، ثم شرب القهوة والافطار في السرير الذي قد تتلوه غفوة. . كل ذلك قد انتهى. لم يعد يُقبّل هنية الا بعد أن ينظف أسنانه بالفرشة والمعجون، لم تطلب منه ذلك، ولكنه كان يشعر أن من واجبه أن يفعله. ولم تكن هنية متاحة في كل الاوقات. حتى القبلات السريعة أصبحت طقساً يمارسه عند الدخول الى البيت أو الخروج منه.

يتأمل جسد هنية وهي تخلع ملابسها. جسد كامل، ولكنه من شمع. لم يكن ممنوحاً في كل لحظة، ولم تكن عنايتها به تعني أنها تعده لانسان آخر. كان جسداً مكتفياً بذاته. عندما كانت تقبله، خارج اطار العملية الجنسية، يشعر أنها متفضلة عليه. لم يكن لجسدها تلك المراوغة التي لجسد فاطمة، ولا له ذلك الكرم. عندما كان يجذب فاطمة اليه تشعره أنه متفضل عليها. كان الرجل الذي له كل الحقوق. كان يكفيه أن يلمس جسدها حتى يراه يرتعش متعة وعرفاناً.

والنظافة. تعوّدها اسماعيل منذ الصغر في الحي الشعبي الذي نشأ فيه. في السجون التي دخلها كان يلاحق كل اهمال للنظافة بالاحتجاج والشرح، وبالغضب أحياناً. ولكن النظافة، هنا، في بيت جاردن سيتي، لم تكن مهمة صحية أو واجباً دينياً، بل وظيفة جمالية. كل شيء يجب أن يكون لامعاً، متسقاً، منسجمًا مع البيت كله. وهذه الوظيفة الجمالية لها ذلك الطابع المتعالي، القدسي، اذ تخضع كل شيء لها. ولكل أداة هنا وظيفة محددة. معلقة للشوربة، وأخرى للرز، السكاكين والشوك ذات الوظائف المتعددة لا وجود لها هنا، واليدان لا تلمسان الطعام أبداً، فيبدو لاسماعيل وكأن تناوله تمهيد لوجبة حقيقية يجري الاستغناء عنه.

لم تكن هنية من النوع الذي يدقق في أمثال هذه الامور، ولكن نسقاً من النظام كان يفرض نفسه عليه، يبدأ من الشارع المشجّر النظيف، حتى باب البناية اللامع والمصعد الانيق. كان هذا السياق يلاحقه حتى في نومه، اذ يفرض على جسده وضعاً محدداً حتى لايزعج هنية من نومها. وعندما يجلسان سوياً، ويسود الصمت بينهما كان اسماعيل يشعر أن هنية تلومه على شيء ما فعله، أو امتنع عن فعله.

كان يسأل نفسه أحياناً: لماذا لايحتج؟ ولكن على ماذا يحتج بالتحديد؟ انه يعرف أن هنية مبهورة به وعاشقة، وانها مستعدة للتضحية بأسلوب حياتها من أجله. ولكنها بجسدها الذي يتكشف كل يوم عن جمال جديد. وكأنه في غفلة عنها يكتسب شباباً وفتنة، وبذلك التحفظ والسيطرة على حركتها، وبذلك الشح في ابداء عواطفها أصبحت هنية مجموعة من الاعتراضات الضمنية. كانت أحلام يقظته تتركز على فاطمة، ولكنه لم يحاول استعادة الصلة بها. كانت هنية قد أدركت أنه كانت هنالك علاقة بينهما. ومع ذلك فلم تكن تمانع أن ترافقه لزيارتها. في بعض الاحيان كانت هي التي تقترح ذلك، تقول أنها تشعر براحة نفسية عندما تزورها. لم يشعر اسماعيل أبداً أن هنية شعرت بالغيرة، أو بالضيق لان امرأة كهذه كانت على علاقة به. كان ذلك يشعر اسماعيل ببعض الخوف، بأنه في مواجهة تكوين روحي قوي ليس ممنوحاً له كلية.

في تلك الزيارات كانت فاطمة تتخذ دور الام الفخورة بزوجة ابنها الجميلة وذات المستوى الرفيع، اذ كانت تعتقد أن هنية تربة خاصة وأنها تمتلك سيارة. ولكنها كانت دائمًا تعاملها كشيء ثمين، كأنها غير موجودة، اذ تتحدث عنها بضمير الغائب:

- «والنبي ياسي اسماعيل عروستك قمر. كاملة مكملة.»

أو تهتف فجأة: «ايه الجمال دا ياخواتي!» وتقبلها على خدها ولايخطر لها ان نعانقها. وتكون هنية خلال ذلك مبتسمة خجولة وجهها قد تلّون بحمرة خفيفة. اما اسماعيل فيفرحه هذا الود، ولكنه يتصور ان هنية قد أصابها الضجر أو الغضب فيهمس لها: «نمشي؟» فيراها فوجئت. تقول: «نمشي ليه؟ ماقعدناش.»

عندما تقول ذلك يشعر بأن الجو قد أخذ يثقل عليه. ويندهش حين يرى ان هنية قد أقامت علاقة نسوية في العمق مع فاطمة، علاقة تشعره انه أصبح خارج السياق. يكثر اللمس بينهما. تسأل هنية بشغف عن كيفية صنع بعض الاطعمة، وتصغي بجدية لشرح فاطمة. كان ذلك يدهش اسماعيل الذي كان يتصور ان هنية تمتلك تفوقاً يجعلها من عالم مختلف عن عالم فاطمة. اعتقد انها تسخر من فاطمة، فيهمس لها: «ياخبيثة.»

كانت هنية في ذهن اسماعيل مستمدة من تلك النظافة اللامعة، المحايدة، المتعالية لجاردن سيتي، ويعتقد ان جاردن سيتي هي خبرة وانجاز كل فرد من سكانها. تصور أنه لو كانت فاطمة تمتلك مهارات حقيقية لجعلت من حي بين السرايات جاردن سيتي اخرى.

كانت الخبرة البشرية في ذهنه مجزأة حسب المستويات الاجتماعية وغير قابلة للتبادل او التماثل. كان اسماعيل يعيش ضيق افق الاثرياء الجدد الذين يعتقدون أنهم عندما ينتقلون الى مكان وظرف الطبقات العليا فانهم ينتقلون الى انسانية جديدة لاعلاقة لها بالبشر الذين كانوا يعيشون بينهم. لهذا كان يسمع مندهشاً هنية وهي تحدثه عن فاطمة بجدية. تقول هنية، مثلاً، ان فاطمة شرحت لها الطريقة التي يصنع بها الحمام بالفريك، فيتعجب لهنية كيف تعتبر هذه المرأة نداً لها. يتذكر تودد فاطمة المضحك، وآراءها في زواره فلا يجد مايقوله سوى طرائف. اما، بالنسبة للحمام والفريك، فقد كان

مرتبطاً في ذهنه ببذاءة، بذلك الاعداد المضحك لممارسة جنسية تعتقد فاطمة انها بها تضفيه الى الطعام من توابل تجعلها اكثر امتاعاً. لهذا كان يرتبك عندما تتحدث هنية عن الحمام بالفريك باعتباره طعاماً عادياً. كان يشعر ان هنية بذلك تمارس هبوطاً غير لائق عن مستواها. كانت أشبه بطفل يتفوه ببذاءات دون أن يدرك ماتعنيه.

قاوم تحرجه الناتج عن خشيته من الربط الذي قد تقيمه هنية بين ماسيقوله عن الحمام بالفريك وبين علاقته الجسدية مع فاطمة، وشرح لها الوظيفة والدلالة الجنسيتين لهذا النوع من الطعام على طريقة فاطمة. اصغت بجدية، دون ان يبدو انها أقامت الربط الذي يخشاه وقالت بحياد:

- «بيقولوا نفس الشيء عند الكوارع والمنجة.»

نظر اليها اسماعيل بدهشة وتساءل: «هل لها نفس الموروث؟»

لقد تغير اسماعيل. تفيدة عبرت عن ذلك لمصطفى، اذ قالت:

- «مابقتش فاهمة اسماعيل. مابقاش فيه موده.»

وبالفعل اصبح يتحدث عن السياسة بذلك الاسلوب المحايد، اسلوب القادة الذي يجعل كل فعل مبرراً بظروفه. كان ذلك يجعلها تشعر بلا جدوى أي شيء. تذكرت حديثاً دار عن عملية قام بها الفدائيون الفلسطينيون. كانت عملية كبيرة ذهب ضحيتها العديد من الشهداء. كان رد فعل تفيدة لعملية كهذه الحماس والشعور بالذنب لأنها لم تستشهد ولم تكن معرضة للاستشهاد. اتصف تعليق اسماعيل على هذه العملية بالحياد الذي يراد به انهاء المناقشة. قال:

- «من الواضح ان الفلسطينيين عايزين يخلوا امريكا تتحرك.»

شعرت تفيدة، عندما قال ذلك، بلسعة الرصاص في اللحم الحي، بتهشم العظام، مستندة الى ذكرى قديمة عندما كسرت يدها، برعب مواجهة الموت.. بكل ذلك وهو يتحول الى عبارات باردة يطلقها رجال بلا عواطف: «كيف نجعل امريكا تتحرك؟ عملية فدائية يكون فيها ضحايا كثيرون من الطرفين.» فشعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدها.

حدست تفيدة بابهام ان تغيير الموقع الطبقي لاسماعيل هو الذي أحدث ذلك. انها تعرف هنية، وتعلم انها ليست سبب هذا التغيير. تحت المظهر الهادىء، العملي لهنية كان هنالك روحاً حارة، منحازة للفعل الثوري. قال لها مصطفى: «اسماعيل تغير بس مش زي ماانت فاهمة اسماعيل مرتاح دلوقتي وبقى اكثر ثقة.»

وأضاف ان هيكل الحزب، كحزب جماهيري، قد تشكل، وأصبح له انجازات حقيقية خاصة بعد مظاهرات واضرابات الطلبة والعمال. اصبح امام اسماعيل وقت اكبر للقراءة. كما ان معرفة هنية باللغتين الانجليزية والفرنسية جعله قادراً على معرفة مايجري في العالم بدقة. قالت تفيدة لنفسها قد اكون مخطئة. ولكن هذا الثقل ظل يضغط على قلبها، فودت أن تكون الطفلة مستيقظة. نهضت وقالت: «حادخل اشوف سناء.»

ودخلت مشوقة الى ذلك الملمس اللون، الدافىء الحي.

هنية لاحظت، ايضاً، ان غالبية زوارهم اصبحوا من اليساريين اصحاب المناصب الكبيرة في

السلطة، الذي كان اسماعيل يهاجمهم في السابق. سألته عن ذلك، فقال ان علينا الآن ان نحشد كل القوى. وعندما سألته عن بعض العمال والطلبة الذين كانوا يزورونهم، قال انه يقابلهم في الخارج لاسباب امنية فهو لايريد للبيت ان يصبح مراقباً. وتحدث مرة عن اتجاهات داخل السلطة فقالت: «انت كنت ضد الرأي دا.»

حاول ان يتذكر فقالت: «مش فاكر لما طلعتوا من السجن وسهرنا عند وليد، وليلة ستة يونيو في بيت مصطفى. كونت رأي آخر.»

قال: «بالفعل انا ضد النتائج المستخلصة من الرأي دا، مش ضد الواقعة نفسها. في النهاية عبد الناصر مش عامر ولا شمس بدران.»

قالت هنية: «الواقعة بتتضمن النتائج وهيه التحالف مع الوطني واليساري في السلطة ضد المتردد واليميني.»

قال: «المسألة مش مجرده.»

وادركت انه يتحاش الاستمرار في النقاش.

وأخذت هنية تلاحظ رغبته المتوترة في الارضاء عندما يزوره الشيوعيون القدماء، ذوو المناصب. تراه يفتعل المرح ونقاط الالتقاءمع الزائر، دون أية اشارة لموقف التنظيم من حل الاحزاب الشيوعية. تعمدت مرة ان تثير نقاشاً حول هذا الموضوع بالذات. سألت ان كان التنظيم الطليعي (تنظيم السلطة السري) يستطيع ان يقوم بدور حزب شيوعي. ابتسم الشيوعي القديم وقال: «لا طبعاً لا.»

قالت لنفسها انه يحاول ان يستوعبني ويطوّعني كأنني طفلة مشاغبة. قالت: «اذا ليه حليتوا الحزب؟»

رأت الانزعاج على وجه اسماعيل، ورأته يحني رأسه خجلاً. اطلق الشيوعي القديم ضحكة مرحة وقال: «دا موضوع طويل.»

والقى نظرة متواطئة ضاحكة على اسماعيل، وكأنه يقول: «مارأيك في هذه الطفلة اللذيذة المشاغبة؟» قال: «الاحزاب الشيوعية انحلت موضوعياً قبل ماتحل نفسها.»

قالت: «وضّح.»

قال: «السلطة حققت غالبية مطالب الشيوعيين، او حسب التعبير الانجليزي سرقت طبولهم.»

قالت: «يعني ماعادش لها دور؟»

قال: «اصبح دورها تساند السلطة التقدمية، وتمنع بعض الاجنحة من السيطرة على السلطة واعادة البلد الى طريق التطور الرأسمالي. ودا دور مهم في رأيي.»

قال اسماعيل: «فيه ناس بيعتقدوا ان رأسمالية الدولة، وتضخم الطبقة الطفيلية هوه، برضه، سير في الطريق الرأسمالي.»

قال ذلك بلهجة اقرب الى الاعتذار وكأن من يقول بذلك اناس آخرون، وليس تنظيمه بالذات. فقال الشيوعي القديم بحزن: «الظواهر دي مرافقه للبناء الاشتراكي للاسف.»

وعندما انصرف الضيف عاتبها اسماعيل ذلك العتاب الذي لايثير نقاشا، بل اوامر يجب ان تطاع على شكل توضيح مهذب. قال ان الرجل جاء يزورنا وليس من اللائق ان نجعل الزيارة فخاً للهجوم عليه. قال ان هؤلاء الرجال لهم تاريخ، وخبرة طويلة، لهم امجاد. قادوا الحركة في فترة من فتراتها، ولهم نفوذ وكلمة مسموعة. ليس المطلوب، الآن، اثارة عداءهم، وأضاف:

- «دول ناس انا بعرفهم. مقتنعين بمواقفهم ونقاشك معهم مش رايح يغير حاجه.»

قالت: «لا تاريخهم السابق مش معيار للحكم عليهم دلـوقتي، وخاصة انهم ضد التحرك الجماهيري، ضد مظاهرات الطلبة والعمال.»

قال بتلك اللهجة الغائبة، فبدا وكأنه يكلم نفسه، ليعلن انتهاء النقاش:

- «انا بتكلم عن اللياقة في معاملة الضيف.»

ثم أخذت المسألة تأخد ابعاداً أخرى بالنسبة لهنية. زارتها زينب يوماً في المكتب. لاحظت هنية ان زينب قد سمنت واصبحت عصبية. لم تكن قد رأتها منذ زمن. قالت:

- «عمالك بتسمني يازينب. خدي بالك من نفسك.»

فقالت زينب: «سمنت بس!»

- «فيه ايه كمان؟»

قالت زينب: «مصايب كتيرة قوي.»

- «احكي لي.»

قالت زينب: «لما نكون وحدنا علشان اعيط على راحتي.»

ضحكت هنية وقالت: «ايهاب عمل حاجة؟»

قالت زينب: «انا اللي عملت المصايب كلها، المهم، ايه الاخبار اللي بسمعها عن اسماعيل؟»

فوجئت هنية فقالت زينب: «ماتخافيش مابحبش واحدة تانيه.»

قالت هنيه: «بلاش توتريني. قولي.»

- «بيقولوا انه ماشي مع السلطة وبيقولوا انه انت السبب.»

- «انا؟»

- «جاردن سيتي والجو الناعم.»

قالت هنيه: «كلام غريب.»

- «وفيه حد دافع عنك بحرارة.»

قالت هنيه: «بقى كده. جلسـات، وهجوم ودفاع، وانا نايمة في العسل. مين دافع عني؟ ايهاب طبعاً؟»

- «لا.»

- «ايهاب ياكدا به.»

- «مش هوه. بجد.»

قالت لنفسها انها تفيدة.

استأذنت هنية مبكرة وذهبت لزيارة تفيدة. وكأن تفيدة كانت بانتظارها. كان البيت هائصاً

بسعاد وفتاة زميلتها، وامرأتان ترتديان الملابس البلدية، ومصطفى ورجل آخر يجلسان في الصالة، وسناء تحدث ضجيجاً يبدو انه لايزعج أحداً. عانقتها تفيدة وامرت سعاد وزميلتها ان يغادرا الصالون ويأخذا البنت الشلق معهما. ثم قالت:

ـ «طالعه من الشغل بدري.»

قالت هنيه بعصبية: «مرت عليا زينب وقالت لي حكايات غريبة. كنت حاجن.»

قالت تفيدة: «هدي اعصابك.»

قالت هنية بحدة: «ايه الحكاية؟ ايه الموضوع.»

قالت تفيدة وهي تنهض: «حاقول لك. دقيقة سعاد عالباب جابت قهوة.»

تناولت صينية القهوة من سعاد واغلقت الباب وصبت فنجاناً لهنية وآخرلها، وقالت:

ـ «باين فيه خلاف داخل التنظيم، خلاف كبير، ممكن يسبب انشقاق.»

كان ذلك اشبه باللطمة، بالنسبة لهنية. ان يكون هنالك خلاف يعلم به الجميع وهي، زوجة الريس، لاتعرف شيئاً، كان مهيناً، كأنها الوحيدة التي هي اقل من ان يقال لها شيء. قالت:

ـ «اسماعيل ماقالشي حاجة.»

«عارفه.»

ـ «عارفه؟»

تحدثتا طويلاً عن موقف اسماعيل وسخافة الاعتقاد ان هنية وراء ذلك الموقف، وانصرفت عند العصر. كانت مجروحة وخائفة من مواجهة اسماعيل، ومن تصعيد الامور الى نقطة اللاعودة. لهذا طال بقاؤها عند تفيدة. قالت لها تفيدة ان عليها في نهاية الامر ان تواجه اسماعيل. قالت هنيه:

ـ «خايفة.»

قالت تفيدة: «تاريخ الاحزاب الشيوعية في مصر مليان بالانشقاقات. مش حاجة جديدة، حاولي تعرفي الموقف من اسماعيل وتصرفي على أساسه.»

عندما عادت رأت اسماعيل يجلس في الصالون يقرأ الصحف. رفع رأسه وقال:

ـ «اهلاً ياست الكل. تأخرت.»

قالت: «كنت عند تفيدة.»

ضحك اسماعيل وقال: «هريتوا وبرتي طبعاً.»

قالت: «طبعاً.»

لم تقلها على شكل دعابة، بل بهدوء متحفظ مقترن بوجه حزين جعل الكلمة تبدو ادانة. قال اسماعيل، وهو مايزال يضحك: «قالت ايه وقلت ايه؟»

قالت: «قالت هيه وغيرها الكلام اللي مفروض اسمعه منك. لكن باين انا زي الزوج. آخر من يعلم. حتى في الحاجات الي بتخصني، الكلام اللي بيتقال عني انا آخر من يسمع.»

قهقه اسماعيل وقال: «بيقولوا عليك ايه؟»

قالت: «انه انا اللي خليتك تغير مواقفك.»

قال: «كلام غريب.»

ـ «ماسمعتوش قبل كده؟»
ـ «ابداً.»
بعد فترة صمت قالت: «ايه موضوع الخلاف؟ الكل عارفين الا انا.»
ـ «زي الزوج.»
ـ «ايوه؟»
قال: «شوية عيال مغامرين.»
ـ «مغامرين يعني ايه؟»
ـ «عايزين نستعمل اساليب كفاح مش مناسبة للمرحلة، ومش مناسبة لقوانا الذاتية. النتيجة مش حاتكـون تدمـير التنظيم بس، لكن، كمان ـ اعطاء سلاح للقوى اليمينية علشان تجهز على التيارات الوطنية.»
قالت: «التيارات الوطنية داخل السلطة؟»
نظر اليها طويلاً، ثم وضع الجريدة التي في يده بجواره، ثم نهض وابتسم. قال:
ـ «داخل السلطة وخارجها. بتشربي قهوة؟»
قالت: «عايز تنهي النقاش ليه؟»
قال: «مش عايز انهيه. عايز اشرب قهوة.»
قالت: «اقعد. انا حاعملها.»
في المطبخ اعدت القهوة بحركات ميكانيكية. احساس فاجع بنهاية ماكان يستلب منها القدرة على التركيز.

الفصل الحادي عشر

عاودت زينب النوم ثم استيقظت بعد ثوان قليلة. ايهاب الذي كان يجلس على حافة السرير اصبح الآن متمدداً بملابسه كاملة، حتى الحذاء بجوارها، وكان لايكف عن الكلام والتقبيل. كان حديثه هذياناً متصلاً، يخلط التهريج بضراعات عاشق، وكان ذلك غريباً لان جسدها، في تلك اللحظة كان يستجيب لتركي، وليس لايهاب، الذي كان يبتهل:

- «اجمل كلبة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية والمحيط الهندي عايز آكل الشفايف الحلوه دي (يقبلها ثم تنساب يده على عجيزتها) مؤخرتك معجزة، عجيزتك مفخرة (ثم تنساب يده على بطنها وفخذيها) تحت السره يشوبه سرايا بدكاكين، يابربري البوابة، سيد السرايامين؟ سرايا مزروعة بالورد والياسمين والفل، معطرة بالبخور والمر واللبان، صفر عربي، صفر على اليمين، بؤرة الكون، منها تتولد الحياة والفن والفكر، كل الفن محاولة خجولة للاقتراب من الحديقة السرية المختفية وراء غابة مبلولة بالندى.»

قالت وهي تنظر اليه بثبات: «انت سخن.»

اخذ يمر يده على بطنها وفخذيها وهو يواصل هذيانه: «انا بغلي. من هنا اخدوا النار، سرقوا النار من هنا. علشان كده النار في دمي. لما تبعدي عني، البرد، زي الموت، بينتشر في عروقي..»

قالت: «اقلع علشان ننام.»

- «ننام دلوقتي؟»

قالت: «فعلاً. نتغدى الاول.»

كان الكلام يملؤه. وكانت زينب تشعر بالغيظ. شيء ما تريد ان تلومه عليه، ولكنها نسيته، شيء له علاقة بوجهه الذي يتقلص بالانفعال. ثم برز امامها مشهدالحلم. فقالت لنفسها انه مجرد حلم. ولكنها شعرت في اعماقها ان جسد ايهاب قد استبيح. قال: «انت، انت.»

قالت ببرود: «حبيبتك؟»

قال: «مقبرتي، تابوتي، الحياة والموت..»

قالت بلهجة محايدة كأنها تنصح بالامتناع عن فعل لا اهمية له، وليس من الضروري ان يستجيب: «بلاش سيرة الموت.»

قال: «انا بتكلم عن الموت الجميل، عن دفن بين دول (ووضع كفه بين ثدييها) وبين دول (ووضع كفه مبسوطه بين الساقين) فاهمة؟»

تذكرت الحلم فضحكت: «وجه ايهاب وهو يتقلص من الالم وتركي يتمدد خلفه. بدا لها مخترقاً وهو في هذيانه يهذي متعة والما. استثيرت فأخذت تنزع ملابسه. قالت:

- «مافيش فايده. لازم انا اللي اقلعك هدومك.»

وكان ذلك اشبه بالمرة الاولى للاقتراب من المرأة: عدم التصديق ان حلمًا قد تحقق، تلك المتعة المقترنة بانتهاك المحارم، المتعة المسروقة مع احساس بالحرام كان يتخلل لحظات الجنس. وقد كشفت زينب عن فنون من الممارسة الجسدية البذيئة جعلت الجنس بالنسبة لايهاب منذ ذاك هو تلك البذاءة بالذات، مصحوبة بخوف الفقد. واصل ايهاب هذيانه:

- «زينب حبيبتي، هلاكي، موتي، عايز، عايز...»

قالت بذلك الصوت العميق اللاهث: «اسكت.. عض.. ايوه عض...»

كتفها اللدن، المرن، المتين الحبك يتفلت من بين اسنانه، وصرخاتها تدعوه الا يتوقف حتى يحس بطعم الدم مالحاً في فمه.

كانت ساعة الغداء ساكنة، تحني كتفيها، وتخفي وجهها في شعرها المتهدل.. وجهها الناعم، الغامق السمرة، التائه، الخجول المنسحب. تنهي طعامها صامتة. لاتشجعه على ادارة الحديث. تنهض فجأة، تدخل الحمام ولا تعود. يواصل شرب البراندي على امل ان تعود. يقرر ان ينهض بعد انتهاء السيجارة، ولكنه يشعل اخرى. يتبعها يراها في السرير، مستغرقة في النوم.

عندما تكون نائمة ويتمدد بجوارها كانت، عادة، تلتفت نحوه وتضمه مهمهمة بكلمات الحب وهي نائمة، ولكنها هذه المرة لم تستجب لقبلته على مؤخرة عنقها، ولا لذراعه التي مدها فوقها. كان مشحوناً بالعشق والرغبة فلم يأته النوم. ولكنه نام في النهاية وهو يدير لها ظهره. استيقظ وهي تحتضنه من الخلف. استثيرت رغبته بحرارة زينب المسلطة على ظهره. في لحظة كهذه تكون الرغبة جنوناً. التفت واحتضنها ولكنها انفلتت منه قائلة: «مش معقول.»

قال بصوت اخشنته الرغبة: «ارجوك، ارجوك.»

ولكنها نهضت وغادرت السرير. دخل الحمام ومارس العادة السرية. عندما خرج رآها ترتدي ملابسها بوجه غائب، كأن مايشغلها هو ماينتظرها من عمل، قال بلهفة:

- «رايحة فين؟»

قالت دون ان تنظر اليه: «رايحه النقابة.»

- «نقابة ايه؟»

قالت بصوت هادىء غائب: «نقابة الصحفيين. تعالى معايا اذا كنت عايز.»

سألها عن سبب ذهابها فقالت ان هنالك اجتماعاً سياسياً لبحث مسألة حرب الشعب.

سارا مشياً من ميدان الدقي الى مقر النقابة. قال ايهاب ان احداً لم يخبره عن الاجتماع. الصحفيون لم يخبروه ولا التنظيم. لم تقل زينب شيئاً. قال: «اليس ذلك غريباً؟ لماذا لم يتصل به احد؟» قالت: «ايوه.» شعر انها تستفزه. قال:

- «ايوه ايه يعني؟»
قالت: «كل الناس عارفه.»
قال بحدة: «بطلي الحوار السوريالي بسألك، ومافيش الا ايوه، وكل الناس عارفه.»
قالت: «مفروض اقول ايه؟»
- «تسكتي.»
- «احسن.»
سارا صامتين متباعدين. سمعا ضجيج الاجتماع قبل ان يصلا، فاسرعا تلقائياً. قالت زينب وهي تلهث: «باين ابتدوا.»
كان الاجتماع في القاعة الكبيرة. كان يقف خطيباً على المنصة احد زعماء الطلبة المعروفين. كان يتحدث عن فيتنام: اكبر قوة عسكرية في التاريخ تملك احدث الاسلحة، واشدها فتكاً، ووسائل التكنولوجيا المتقدمة، تنهزم امام الفخاخ التي ينصبها الفلاحون الفيتناميون.. ان حرب الشعب هي القادرة وحدها (ارتفع صوته) وحدها على تطهير الارض.
عند دخولهما القاعة رأى ايهاب حماده يلتفت نحوهما، يدقق النظر، ثم يرفع ذراعه، قال ايهاب:
«صديقك حماده بينده لك.»
قالت زينب: «شايفاه.»
جلسا في الصفوف الخلفية. كان كثيرون يقاطعون الخطيب بشعارات: حرب الشعب طريق التحرير سلحوا الشعب. طريقنا طريق الثورة الفلسطينية.
قال الخطيب: «بصراحة تامة السلطة تخاف المدلولات السياسية لحرب الشعب، تخاف الشعب المسلح كما تخافه اسرائيل.»
وقف شخص من الحاضرين وقال: «لا. زودتوها قوي.»
فارتفعت اصوات: «اقعد، اقعد.»
قال الخطيب: «عندما نطالب بتسليح الشعب نبقى زودناها. ولما جيشنا ينهزم في ساعتين نبقى ماخسرناش الحرب، بل خسرنا معركة.»
وعلت ضجة هائلة: «ضحك وتصفيق وهتافات. نهض احمد وسار حتى اصبح بجوار زينب فجلس وقال: «شاورت لك ماشفتنيش.»
قالت: «ماشفتك.»
قال أحمد: «ناس مخاليل. قال عايزين زي فييتنام. سينا مافيهاش جبال ولا غابات زي فييتنام.»
قال ايهاب: «المعارك الاساسية في فييتنام بتدور في دلتا نهر الميكونغ. وهناك مافيش جبال ولا غابات.»
لم يلتفت اليه احمد. قال لزينب: «ماجيتيش ليه النهاردا؟»
قالت: «كنت تعبانه.»

قال احمد: «بقيت تغيبي كتير (ضحك) باين نسيتينا.»
لم تقل زينب شيئاً. شعر ايهاب بالتلميح البذيء في عبارة أحمد. في وجه احمد ايحاء بان عبارته تحمل تلك الدلالة. التفت ايهاب الى زينب وامسك بيدها وقال:
- «فعلاً نسيته ليه؟»
التفتت اليه زينب وقالت بضيق: «ايه حكايتك؟»
قال ايهاب: «نسيتيه ليه؟»
قالت: «مش شغلك.»

قال احمد: «زينب بتنسى حبايبها.»
ابتسمت زينب وقالت: «بلاش بياخه.»
جلس أحمد بجوار زينب.
ثم اخذا يتهامسان. حاول ايهاب ان يسمع مايقولانه فلم يستطع. كان منفياً عنهما. زينب تلتفت بجسدها كله الى احمد، وتضع الساق القريبة من ايهاب فوق الاخرى، واحمد يفعل نفس الشيء. كتفاهما يتلامسان ووجهاهما قريبان جداً. كان وجه احمد متجهمًا بالاصفاء وزينب تقوم بالكلام، وعلى وجهها ذلك التعبير الخجول المرتبك الذي تستعمله المرأة عندما تريد استرضاء شخص غاضب.
انفجر التصفيق في القاعة. التفت ايهاب فرأى الشاعر أحمد فؤاد نجم والمغني الشيخ امام عيسى يصعدان المنصة. ارتفعت الاصوات: «جيفارا ياشيخ امام، جيفارا.»
تنحنح الشيخ امام وقال: «حاضر.»
قال ايهاب: «الشيخ امام يازينب.»
هزت رأسها دون ان تلتفت اليه. بدأ الشيخ امام يعزف مارشاً على عوده. رأى ايهاب أحمد ينهض فامسكت زينب يده وقالت: «اقعد شويه.»
قال: «اصل الراجل الاعمى دا بيقرفني. قومي ياشيخه.»
قالت: «خمس دقايق، خمس دقايق.»
وهي تمسك يده. عاود الجلوس وظلت زينب ممسكة بيده، مديرة ظهرها لايهاب، وهي تبتسم لاحمد تلك البسمة الخائفة، المعتذرة. لم يكن ايهاب غاضباً بل شعر بأنه مشلول، لايرغب في شيء، ولا يحس بان هنالك جدوى لأي شيء. كانت جميع ردود فعله مؤجلة.
كان الشيخ امام يغني:
دا منطق العصر السعيد عصر الزنوج والامريكان.
حدث ثلاثة شجارات. كانت دائرة المتشاجرين تتسع بسرعة وهم يرفعون الكراسي للتهديد، لا للضرب، ثم يهدأ كل شيء ويعودون الى اماكنهم. بدا لايهاب وكأن يداً غير مرئية امتدت ومسحت النتوءات. كان ذلك يشبه الموجه العالية وهي تتقدم نحو الشاطىء، فتصطدم بالشاطىء وتصبح سطحاً مستوياً، مليئاً بالفقاقيع الصغيرة، وفي هذه اللحظة يتلاشى هدير الموجة ليعقبه هسيس

امتصاص الرمل للماء.

بعد انتهاء الشيخ امام من اغنيته وقف طالب واقترح ان يلتحم المؤتمر بالجماهير. سأل رئيس المؤتمر: «يعني ايه؟»

قال الطالب: «مسيرة.»

قال رئيس المؤتمر: «يعني مظاهرة.»

كان من الواضح ان الطالب يدعو الى مواجهة عنيفة مع قوات الامن المركزي التي كانت تقف على اهبة الاستعداد قريباً من النقابة. كان الطالب يقف طاوياً ذراعيه على صدره، كمظهر لحسن النية. وقفت فتاتان واستدارتا نحو باب القاعة وهتفتا: «يسقط المتخاذلون. الى الالتحام بالجماهير.» وخطتا في اتجاه الباب. قال رئيس المؤتمر وهو يبتسم:

ـ قبل الالتحام بالجماهير عايزين نخرج بقرارات.»

ارتفع الضحك والتصفيق. سمع ايهاب أحمد يقول لزينب: «وقعوا في بعض.»

كان الطالب مازال يقف طاوياً ذراعيه، محنياً رأسه. وعندما انتهى الضحك قال:

ـ «ليكن قرارنا الوحيد هو المسيرة.»

قال أحد الحاضرين وهو يقهقه: «الالتحام بجماهير قصر النيل البورجوازية.»

قال رئيس المؤتمر: «اقتراح المسيرة سوف يكون واحد من الاقتراحات التي حانصوت عليها.»

قالت احدى الفتاتين بصراخ متشنج: «العب غيرها.»

كان للفتاة شعر اشقر مضغوط على رأسها، ومفروق من الوسط، وعينان زرقاوان واسعتان، وفم عريض ممتلىء الشفتين، وانف عريض حسي. لجسمها امتلاء الصحة. كانت تلبس بنطلون جينيز، ضيق، بهت لونه عند الركبتين والعجيزة حتى اصبح ابيض، وقميصاً اصفر خاكياً انفتح على منبت الثديين. كانت فتاة تحاول اخفاء جمالها. هتفت:

ـ «تسقط الديموقراطية البورجوازية.»

ثم شقت طريقها نحو المنصة. قال طالب لها: «صلي على نبيك يافاتن.»

قالت له: «صلي عليه لوحدك.»

حاول أحدهم ان يقف في طريقها فاقتحمته بكتفها، فتعثر وسقط في احضان شخص آخر يجلس خلفه. قال رئيس المؤتمر وهو يراقبها تتقدم وتعبير تهريج على وجهه:

ـ «دي رايحة فين؟»

قالت: «بتفسح.»

صعدت درجات المنصة بعدوانية كأنها تقتحم جمعاً يقف في طريقها. قال احمد لزينب:

ـ «دا شغل دعاره.»

التفتت زينب الى ايهاب وقالت بكشرة: «ماتنزل صديقتك..»

لم يجب ايهاب: اقتربت فاتن من المايكروفون ومدت يدها اليه. امسك رئيس المؤتمر يدها وقال بغضب: «مش كده يافاتن.»

قالت وهي تفلت يدها من قبضته: «كده ونص.»

مدت يدها وامسكت بالمايكروفون. كان من الواضح انها على استعداد للمضي حتى النهاية،
قال رئيس المؤتمر: «مش فيه اصول برضه!»

قالت: «اصول مين؟ انا مش بتاعة أصول واتيكيت.»

قال: «طيب تفضلي.»

وقف على جانب طاوياً ذراعيه على صدره، يطالع الجمهور بنظرة من يقول: «دعونا نرى.»
قالت فاتن وهي تمسك بالمايكروفون قريباً من فمها:

- «ايها الرفاق ايها المناضلون! ومعنى ده اني بخاطب المناضلين، المدافعين الحقيقيين عن مصالح الشعب. بستثني عملاء المباحث. انا شايفاهم من هنا. بعض الداعرات، واللي شايلين أجهزة تسجيل في جيوبهم. (أخذت تصرخ) سجلوا للصبح. تعودنا على السجون.»

ارتفع التصفيق والضحك، وبعد انحسار الموجة واصلت فاتن خطبتها:

- «وبستثني الانتهازيين الراقصين على الحبال (ارتفع صوتها وأخذت تؤكد كل كلمة) الذين يقفون موضوعياً في صف السلطة واجهزتها.»

صمتت وساد صمت شامل في القاعة. كانت فاتن تتأمل الحاضرين بنظرة متحدية. تقدم رئيس المؤتمر نحوها وقال: «خلصت؟»

قالت: «لا.»

ابتعد، وارتفع صوت يقول: «لا. زودتيها يافاتن.»

قالت:

- «الحق ثقيل على قلوب البعض. اللغة اللي بتعجبهم هيه لغة الصالونات (ارتفع صوتها) اللي عايزاه السلطة، المخابرات، المباحث، السلطة اللي مستنيه روجرز يحرر سينا وفلسطين اننا نتناقش بين اربعة جدران، وبعدين نروّح وضميرنا مرتاح. دا اللي عايزاه السلطة. اما المناضلين الحقيقيين فمكانهم بين الجماهير بيلتحموا معها..»

ارتفع صوت: «التحمي معها للصبح. حد حايشك؟»

وفجأة انفجر العراك وعم القاعة كلها، دون سبب واضح، كان الجميع واقفين، وكل اثنين يتواجهان، البعض مشتبك بالايدي، وآخرون بحوار يهدد بالتحول الى اشتباك، ولكنه لا يتحول. ورغم كثرة الكراسي المتطايرة فان احداً لم يصب. اما فاتن فقد اختفت.

قال رئيس الجلسة: «أيها الرفاق، ايها الاخوة..»

لم يستجب له احد، ولكنه كرر نداءه مرات، ثم اعلن بصوت يتصاعد علواً:

- «ايها الرفاق. التشنج لن يحل المشكلة. امامنا مجال نتناقش ونصل الى قرارات.»

صعد شاب الى المنبر وتناول المايكروفون وأخذ يصرخ:

- «ان ابشع شيء نفعله هو ان نتبنى اساليب اعدائنا، ان نستبدل الديموقراطية والحوار الحر بالعنف، وان يفرض الاقوى شريعته.»

حدث توقف والتفت الجميع الى المنصة حتى الذين كانوا يحملون الكراسي، توقفت كراسيهم في الهواء. ثم بدأت حركة في اتجاه الجلوس، وبدأ المؤتمر بالتصويت على القرارات.

كانت القرارات معروفة قبل ان تقال: اقامة علاقة عضوية مع الثورة الفلسطينية وتدعيم لجان الدفاع عن الثورة الفلسطينية، الافراج عن المعتقلين السياسيين واشاعة الديموقراطية حتى يتاح للطبقات الشعبية ان تلعب دورها، تدريب الشعب على القتال وتوزيع السلاح عليه، القضاء على الطبقات الطفيلية التي تستنزف دماء الشعب. . وانتهى المؤتمر، ولكن الحضور لم ينصرفوا. بعضهم بقي في القاعة، وآخرون شكلوا مجموعات في الحديقة، وواصلوا النقاش بتلك العصبية والحماس اللذين لايسمحان لأي من المتناقشين ان ينهي كلامه.

نهضت زينب واحمد واتجها الى باب القاعة. تبعهما ايهاب المندهش لكون زينب لم تلتفت اليه. كانا يسيران واجسادهما تتلامس، وزينب تمسك بذراع احمد المتدلي الى جانبه. خرجا من باب القاعة الى الحديقة فاسرع ايهاب وسبقهما ووقف بجوار مائدة لايجلس عليها احد. كانت زينب تنظر الى موقع خطواتها محنية الرأس. قال ايهاب:

ـ «هنا. فيه طرابيزة فاضية هنا.»

نظرت اليه زينب وقالت: «معلهش ياايهاب.»

قال: «مش فاهم.»

قالت: «عندنا مشوار مهم.»

قال: «عايزك في كلمة.»

قالت: «بعدين، بعدين.»

واسرعت هي واحمد. كان أحمد خلال هذه المحادثة يقف متجهًا ناظراً أمامه بنفاذ صبر.

الفصل الثاني عشر

جلس ايهاب الى المائدة، وهو يشعر بارهاق. كان يراقب زينب واحمد وهما يبتعدان. توقع انها ستلتفت اليه قبل ان تغيب، ولكنها واصلت سيرها صامتة، جسدها مائل قليلاً باتجاه أحمد، وذراعها تستقر في ذراعه. وخلال ذلك، وهو يراها تظهر وتختفي وراء قضبان السور اتخذ قراره. كان متأكداً أنه عندما يعود الى البيت سوف يجدها نائمة في السرير. سوف تستيقظ عند دخوله وتعد نفسها لعناقه. سيقف بعيداً عن متناول يديها، وسيبلغها ان كل شيء قد انتهى بينهما. سوف تقول ـ وهي مصيبة ـ ولكن ماذا حدث؟ لقد تحدثت مع مسؤولي في العمل، ثم عدنا لأن هنالك عملاً هاماً ينتظرنا. وقد تصعد ردها وتعرض منطقها: ان علاقتها حرة، وقد اختارته. لم يرغمها هو على ذلك، فكيف يتصرف وكأنه مالكها. لم يتح له الاعياء ان يجد رداً مفحماً. ولكن الرد سوف يولد في ساعتها.

فوجيء ايهاب بالصوت: «استاذ ايهاب.»

ودون مجهود قال: «اهلاً استاذ فهمي.»

تذكر اسمه بسهولة دون ان يتذكر انهما تعرفا على بعض، او ان احداً اخبره عن اسمه. كان ذلك الشاب الذي يجلس في مواجهة باب الصالة الكبيرة التي تجلس فيها زينب وكان هو الذي سأله عنها عندما رآها للمرة الاولى. بدا أصغر سناً، الآن، من المرات التي رآه فيها جالساً وراء مكتبه، ففي قميصه الابيض المطوي الكمين وبنطلونه الرمادي كان كطالب في سنته الجامعية الاولى. دعاه ايهاب للجلوس فقال:

ـ «فيه ناس مستنينك بره.»

نهض ايهاب وقد استعاد حيوية نادرة. عادت زينب. ولكن لماذا ارسلت فهمي ولم تجيء هي؟ سار فهمي امامه وتوقف على طرف الرصيف بجوار سيارة واقفة. ادار فهمي ظهره للسيارة واخذ يتابع ايهاب وهو يقترب. في داخل السيارة رأى ايهاب هنية واسماعيل بجوارها.

فتح فهمي باب السيارة الخلفي ودعا ايهاب الى الدخول، وعندما جلس التفت اليه اسماعيل وقال: «ازيك ياايهاب؟»

قالت هنيه وهي تدير محرك السيارة: «انت زعلان منا؟»

نفى ذلك فقالت: «امال ماحدش بشوفك ليه؟»

قال ايهاب: «يعني.»
عاوده الارهاق فلم يستطع الاعتذار بشكل لائق. سأله اسماعيل عن المؤتمر فقال:
- «جماعتنا زبّطوا الدنيا.»
ضحك اسماعيل وقال: «سمعت البنت فاتن غجّرت.»
قال فهمي: «غجّرت بعقل.»
قال اسماعيل: «لازم نعيد نقاش المسائل.»
سارت السيارة في اتجاه بيت هنية، التفت فهمي الى ايهاب وقال:
- «خلصت الرواية؟»
قال ايهاب: «لسّه. عرفت ازاي اني بكتب رواية؟»
قال فهمي: «كل الناس عارفه. انا في الحقيقة تابعت قصصك اللي نشرتها في جريدة المساء، ومقالاتك في مجلة الآداب.»
قال اسماعيل: «وايه رأيك؟»
قال فهمي: «انا معجب جداً. كتابات ايهاب خلتني اشعر ان كتابنا بيدوروا في حلقة مفرغة. فيه شيء جديد ولامع فيها»
قالت هنيه بدهشة حقيقية: «بجد؟»
قال فهمي: «جد ميه الميه.»
عندما اصبحوا في داخل البيت قالت: «فيه ويسكي للي عايز يشرب قبل الاكل.»
جاء فهمي بزجاجة الويسكي وكؤوس وجردل الثلج. كان يتحرك داخل البيت بألفة. بعد ذلك دخل المطبخ واخذ يساعد هنيه في اعداد الطعام. جاء بعد قليل حاملاً اطباقاً فيها جزر مقطع على شكل دوائر وشرائح قوطة وخيار وطرشي، ثم سكب لنفسه كأساً من الويسكي وعاد به الى المطبخ. وخلال العشاء اكتشف ايهاب ان فهمي يستطيع ان يتحدث بثقة عن عدد من الامور، ويعارض اسماعيل بمعلومات مؤكدة. لم يكن الصبي الذي يقدم خدماته ليصبح مقبولاً.
استدار اسماعيل نحو ايهاب فجأة وقال:
- «شفنا اللي عملته زينب معك النهاردا في المؤتمر»
نظر ايهاب الى فهمي فقال اسماعيل:
- فهمي من رفاقنا الممتازين، ومن المعجبين بيك زي ماشفت.»
قال ايهاب: «انا فعلاً كنت مذهول لسلوكها. دخلنا سوا، واسمه ايه شاور لها فعملت نفسها مش شايفاه..»
قال فهمي: «شفت كل حاجة.»
قال اسماعيل: «مسألة علاقتك بزينب لها جانبين: «الجانب السياسي والجانب الشخصي. والجانبين مهمين جداً.»
قال ايهاب: «الجانب الشخصي عارفه. بس الجانب السياسي... ايه؟»
قالت هنيه: «زينب بتشتغل مع المباحث.»

زعق ايهاب: «ايه؟»

قال فهمي: «كلام هنية صحيح الى حد كبير.»

كان ايهاب يختنق بالانفعال. قال: «ماقلتو ليش قبل كده ليه؟»

قال اسماعيل: «عرفنا دا مؤخراً. عرفنا علاقتها باحمد وتأكد لنا ان احمد عميل عريق للمباحث.»

قال ايهاب لفهمي: «اشرح لي. مستني ايه؟»

شيئاً فشيئاً اخذ وجه آخر لزينب يتكشف، حكاية صغيرة تدخل في سياق اكبر، تنمو في الحجم وفي ادهاشها حتى اصبحت زينب كائناً غريباً ومخيفاً. قال فهمي:

ـ «ماعتقد انك بتعرف ان زينب استاذتي. هيه اللي فتحت عيوني على الماركسية كلمتني عنها، وجابت لي كتب. اعجابي بزينب كان عامل مهم في حماسي للماركسية.»

قال ايهاب: «كان فيه علاقة بينكم.»

ـ «. بس صداقة عميقة. لغاية وقت قريب كنت انا مستودع اسرارها.»

قال ايهاب: «وايه اللي حصل لها؟»

قال فهمي انه منذ خمس سنوات اخذت زينب تتغير. اخذت تقول اننا نسير في طريق مسدود، والبرهان على ذلك اعتقال الشيوعيين في عام ١٩٥٩. اي شيوعيون هؤلاء الذي يمكن جمعهم كلهم في ليلة واحدة ووضعهم في السجن، كانت تقول. حزب يريد ان يكون بديلاً للسلطة، ولكنه لايستطيع الاستمرار الا اذا اغمضت عينيها عنه.

قال اسماعيل: «كلام معقول.»

كانت هنية تأكل في صمت وقد اسبلت عينيها واحنت رأسها وكأن مايدور من حديث لايعنيها. اضاف فهمي انه كانت لزينب آراء نافذة. تقول ان وسيلتنا الاساسية للاتصال بالشعب هي الورق المطبوع، في حين ان ثمانين في المائة من شعبنا امي، لايقرأ.

قالت مرة: انظر الى الاخوان المسلمين. يتصلون بالناس مباشرة، في الجامع، في المدرسة الليلية، مشاغل تعليم المرأة. اما منشوراتنا فهي وسيلة السلطة لاعتقالنا.

قال اسماعيل: «زينب رائعة. بس خساره.»

قالت هنيه وهي تتنهد: «زينب طاقة كبيرة.»

قال فهمي، ثم جاءت مرحلة الضياع. قال ايهاب: «ضياع بمعنى ايه؟ الجنس؟»

قال فهمي: «مش بس الجنس. توقفت عن القراءة الجادة. انشغلت فترة بالفلسفة الهندية، السحر الافريقي، السوريالية، الوجودية. والجنس. في الجنس ماكانشي لها علاقات ثابتة. قالت لي مرة انها بتعامل الرجال كما يعامل الرجل المومسات. يعجبها راجل. تأخذه معاها الى البيت، تمارس معه الجنس وبعد كده تقطع علاقتها بيه.»

قال ايهاب: «واضح ان الرجال كانوا بيعاملوها كمومس برضه.»

قال فهمي: «تستغرب. كتيرين جداً من اللي مارسوا الجنس معاها كانوا عايزين يتجوزوها.»

قالت هنيه: «مافيش واحدة جالها خطاب قد زينب.»

قال ايهاب : «وكانت بترفضهم؟»
قال فهمي : «بعنف .»
قال فهمي : ثم جاءت مرحلة . كنت اسميها في تلك المرحلة قيس بنت الملوح . كان ايهاب يصغي كطفل يسمع حكاية مشوقة ، وانتظر كلمات فهمي كأنها ستقرر مصيره . قال : «ومين ليلى؟»
قال فهمي : «انت »
ضحكت هنية ضحكة طلقة طويلة ، وقال فهمي :
- «قالت لي : «تصور اني حبيته قبل ماشوفه . ماكنتش شفته لمادخل ، بس جسمي كله كان بيرتعش ولما كلمني ، وقبل مارفع راسي واشوفه قلت لنفسي : هودا . فاكره ياهنيه؟»
قالت هنيه لايهاب : «كانت حاتتجنن عليك . الحقيقة انا اللي وقفت في طريقها ، قلت لها بصراحة : شوفي لك حد تاني العبي معاه . قالت لي : صدقيني دي اول مرة في حياتي بحب . »
قال ايهاب : «رحت اطلب منها مقال في مجلة التايم عن انتحار هيمنجويه ، قعدت دقائق . »
قالت هنيه : «وما شعرت انها حبتك؟»
قال : «كانت ودوده . تصورت انها كانت كده علشانك . مشيت بسرعة علشان مااضايقها . »
ضحك اسماعيل وقال : «غريب»
ضحكوا عندما قال ايهاب : «كنت عايز ابرهن لها انه ماعنديش نوايا تجاهها . »
قالت هنيه : «بس كان عندك؟»
قال ايهاب : «ايوه . »
اغرق الجميع في ضحك عام ، ثم اخذت هنية تجمع الاطباق وحملتها الى المطبخ . قال فهمي :
- «انا حاعمل القهوة . »
قالت هنيه : «خليك قاعد . انا اللي حاعملها . »
قالت : «لا . القهوة اختصاصي . »
وقال لايهاب : «دي قهوة حوّجتها امي . »
ونهض . قال اسماعيل : «اهلاً عم ايهاب . عامل ايه في الرواية؟»
- «ماشي فيها كويس . لغاية مبارح على الاقل . »
- «هو دا اهم حاجة . »
ثم صمتا حتى جاء فهمي بالقهوة وتبعته هنيه ، فقال ايهاب :
- «عندي احساس اني لما ارجع البيت رايح الاقي زينب قاعدة مستنياني . مش عارف حاعمل ايه؟»
قال له فهمي وهو يصب القهوة : «مش حاتلاقيها . »
قال اسماعيل : «فهمي حايبات معاك الليلة . »
سادت فترة صمت قدم خلالها فهمي القهوة لهم بادئاً بايهاب . امتدحت هنية القهوة ، وقال ان لها طعمًا غريباً «يعني لذيذ» وسأل « محوّجة بايه؟» قال فهمي :

ـ «الحاجة معتبره التحويجة سر ومش عايزة تقول. اعتنت بها خصوصي علشان هنيه. فيه عشق بين الاتنين.»

قال اسماعيل: «انا عايز ايهاب يعرف كل التفاصيل.»

قال فهمي: «الحقيقة من لحظة مازينب شافت ايهاب اصبحت انسانة اخرى، زينب القديمة. اصبح ايهاب خشبة خلاصها. بس كان ضاع منها. كانت واثقة انها حتلاقيه لذلك قامت تقرأ في السياسة، فلسفة، علم جمال، نقد. كانت شيء لايصدق. تقرأ عشرين ساعة متوالية. قدرتها على الاستيعاب مش معقوله.»

قال اسماعيل: «عايزك تشرح لايهاب خطورة العلاقة..»

قال فهمي: «ماانا جاي لك في الكلام.»

قال ايهاب: «يهمني جداً، جداً، اسمع كل التفاصيل.»

شعرت هنيه والعيون تتجه اليها ومن خلال الصمت انهم يريدونها ان تقول شيئاً تحسم به المسألة. قالت: «من حق ايهاب ان يعرف كل شيء.»

ثم اضافت بعد تردد: «ومن حق زينب.»

تاق ايهاب ان يتوقف كل شيء ـ زينب، هو، فهمي العالم كله، عند هذه اللحظة ان يثبت الجميع عند هذه الصورة المذهلة التي رسمها فهمي لزينب، وان يعاد انتاجه هو كما كانت تراه زينب وتعشقه. رآها، ايضاً، وهي تجمع التواقيع على عرائض الاحتجاج، وتشكل الوفود لمقابلة المسؤولين للمطالبة بالافراج عن المعتقلين، وهي تجمع النقود لترسل بعضها للمعتقلين، والجزء الأخر للعائلات المحتاجة، وهي تكتب البيانات وترسلها الى وكالات الانباء والصحف الاجنبية، حتى اعتقد الجميع انها سوف يتم اعتقالها. كان توق ايهاب انطولوجياً في العمق، احتجاجاً على عامل الزمن الهدام.

قالت هنية: «وحاجات كتيرة تانيه.»

نظرت اليها العيون مستطلعة فقالت: ««مواجهاتها مع الشيوعيين القدامى.»

نظر اليها اسماعيل بعينين ضاحكتين. قال فهمي: «صحيح.»

وأضافت هنية: «لما كنتو معتقلين الشيوعيين القدامى شنوا حمله عليكم، متطرفين، مخربين يقولوا عليكو..»

قال اسماعيل بدهشة: «صحيح؟»

قال فهمي: «صحيح. كانت تجمع عائلات المعتقلين وتقابلهم واحد، واحد.»

قال ايهاب: «باين بعد ماعرفتني خابت كل توقعاتها.»

قالت هنيه وفهمي بصوت واحد: «بالعكس.»

قال ايهاب بمرارة: «اذن، ايه اللي حصل؟»

قال فهمي ان زينب قالت له ان علاقتها بايهاب هي الحلم الوحيد في حياتها الذي تحقق دون خيبة أمل.

قال ايهاب: «اذن، ايه اللي حصل؟»

قال فهمي: «اكتشفت ان علاقتكم مستحيل تستمر، وانك غير قادر على بناء علاقة دائمة.»

لم يقل ايهاب شيئاً. قال اسماعيل: «سكتِ ليه ياايهاب؟»

بدا وجه هنية متلهفاً لسماع اجابة ايهاب. قال «كلام زينب صحيح.»

اضاف بعد قليل: «بعد فترة من العلاقة حسيت بالارهاق حب في كل الاوقات والامكنة. شعرت اني محاصر. والكتابة والقراية...»

قالت هنيه: «ماكلمتهاش ليه؟»

- «كنت مكسوف.»

قال اسماعيل: «المسائل دي عايزه مصارحه، والا بتاخد ابعاد مش ممكن السيطرة عليها. ماكانشي فيه داعي للكسوف.»

قال فهمي ان زينب كانت تعرف ذلك ولكنها لم تستطع التوقف. قالت له مرة:

- «انا عمالي بدمر علاقتي مع ايهاب.»

شعرت بذلك بشكل خاص بعد هزيمة يونيو، قالت: «اما علاقتنا حاتتدمر او ينهار ايهاب زيي.»

قال ايهاب فجأة: «واحمد؟»

قال فهمي: «احمد عميل للمباحث من اتناشر سنة، من ايام الجامعة حاول يعمل علاقة مع زينب، لكنها كانت بترفض. لكن..»

قال ايهاب: «امتى ابتدت علاقتها بيه؟»

- «من شهر تقريباً.»

قال ايهاب: «اشمعنى احمد بالذات..»

قال فهمي: «يبدو انها اختارته حسب نظريتها عن الرجال الموسات. وبعدين علقت مع انه..»

قال ايهاب: «مع انه؟»

قال فهمي: «بيضربها كتير.»

- «بيضربها؟»

شعر ايهاب بقلبه يغوص. حدس عمق الارتباط بين زينب واحمد. انه ليس عمق العلاقة الجسدية العابرة، بل عمق الالفة، الفة الخضوع للرجل. رآها تتلقى الصفعات وهي تغطي وجهها بيديها. رآها تنتحب ذلة، ثم تلقي نفسها عليه وهي تتوجع. يدفعها عنه ثم يستجيب لها. قد يهملها ويطردها فتتضرع اليه ان يبقيها. تصورها وهي تنظف بيته بذلك الاتقان والتفاني، مدفوعة برؤيا انها تعده لحفلة الضرب والجنس. قال بصوت مختنق: «حاقتلها.»

قالت هنيه: «تقتلها ليه؟ اقطع علاقتك بيها.»

قال: «لما اتصور انها بتستغل كل علاقاتي ومعارفي علشان تدي احمد معلومات للمباحث..»

قال ايهاب بعد قليل: «الغريب انها النهاردا جت الصبح وانا مش موجود نظفت البيت وجابت اكل بكميات خرافية، ثمنه مش اقل من خمستا شر جنيه.»

قالت هنيه: «عايزة تحتفظ بيك. بتحبك.»

قال: «تحتفظ بيا مصدر للمعلومات؟»

قالت هنيه: «لا. قالت لي انها لوسابتك حاتتحول لمومس.»

قال ايهاب. «لسّه بتعتقد اننا حانتجوز؟»

قالت هنيه: «طبعاً لا.»

قال: «وعلاقتها بالمباحث؟»

قال اسماعيل: «مافيش خطورة منها. بس الحذر واجب.»

قال ايهاب: «اللي عايز اعرفه. بتتعاون معهم والا لا؟»

قال اسماعيل: «طبيعي مادامت عاملة علاقة مع واحد منهم انها تتعاون بشكل ما تيجي سيرة واحد فتتكلم عنه. انت عارف. تعاون بشكل غير مباشر، ويمكن في المستقبل يكون مباشر.»

أخذ الحديث يكرر نفسه. شعر ايهاب بالارهاق فنهض، قال اسماعيل لفهمي: «ماتسيبه.»

شعر ايهاب بالورطة. رغب ان يبقى وحيداً يعيد ترتيب كل ماحدث في ذهنه. غادرا وسارا مشياً على الاقدام ادرك فهمي حاجة ايهاب للصمت فسار صامتاً. بدا لايهاب ان كل ماحدث ليس حقيقياً رغم هذا الارهاق الذي يتخلل العالم من حوله، الارهاق والسأم. لاحظ فهمي ان ايهاب اتجه الى المنيل. قال:

- «احنا مش رايحين الدقي؟»

قال ايهاب: «خير البر عاجله. نكلمها، وننهي العلاقة..»

- «مااعتقد انها في البيت.»

كانت شقة زينب مطفأة الانوار، فاقترح ايهاب الصعود وكتابة رسالة لزينب تبعه فهمي دون ان يقول شيئاً. كان صمت فهمي المستنكر عبئاً. كتب ايهاب الرسالة: «اتيت فلم اجدك. ايهاب» وقبل ان يطويها اضاف: «اريد ان اراك لامر هام.» ثم دس الورقة في شق الباب.

وهما يسيران فوق الكوبري قال ايهاب: «اعتقد أنه انامسؤول عن ماوصلت اليه زينب. يعني لو كنت اشعرتها بالامان في علاقتنا..»

قال فهمي: «زينب زيك عاجزة عن اقامة علاقة ثابتة، وبعدين دا لايبرر سلوكها، مش معقول ان كل مشكلة تواجهنا حاتخلينا مخبرين ومومسات.»

سأل ايهاب نفسه: من اين لفهمي كل هذه الحكمة؟ وكان ذلك يعني انه هو لم يكن بامكانه التوصل الى استبصار كهذا.

قال ايهاب: «الا حكاية أنه بيضربها».

- «أكيد هيه بتستمتع بكده».

سأله ايهاب فجأة: «كان لك علاقة بزينب»؟.

نظر اليه فهمي طويلاً. ثم قال: «لا».

- «ليه»؟.

لم يكن سؤالاً معقولاً، ولكن فهمي قرر أنْ يحتمل كل شيء من ايهاب. كان يقوم بواجب

حزبي. كان ايهاب يريد أن يخترق حاجز الواجب ويجعل من فهمي صديقاً. لقد رأى فهمي ضعفه وهو لن يستطيع أن يحترم ايهاب الا اذا كان صديقه.

قال فهمي: «لاني بحب واحدة تانية من أيام الجامعة وحانتجوز قريب».

امتنع ايهاب عن توجيه السؤال التالي: «ألم تضاجعها»؟. رغم اقتناعه أن علاقة جسدية قد قامت بين الاثنين، ثم خطر له السؤال الاكثر الحاحاً:

- «عرفت منين أنه بيضربها»؟.

- قال فهمي ان أحمد يقول ذلك للجميع. كل من في الوكالة يعرف ذلك. قال ايهاب:

- «قصده ايه من التشهير بيها»؟.

- «علشان يخضعها ويسد كل الطرق قدامها».

- «معقول».

قال فهمي: «أحمد شرير بلا ضمير أو خلق».

عندما فتح ايهاب باب الشقة كان المطبخ مضاء. قال ببهجة لم يستطع أن يكتمها:

- «مش قلت لك أن زينب موجودة».

لم تكن زينب موجودة.

نام فهمي على الصوفا في الصالون. أما ايهاب فقد أخذ يفتش حجرة النوم بحثاً عن آثار زينب. لقي قميص نومها وبعض ملابسها الداخلية. شعر أنه بذلك قد استعادها على نحو ما. كاد ان يخرج من حجرة يُري ملابسها لفهمي لسبب لا يدريه. غمر وجهه بقميص نومها وشم رائحته. كان القميص حياً بين يديه. في القميص بقايا من عطر الليمون. ورائحة غير محددة.

في سريره استعاد ملمس زينب، ثم تذكر أنها الآن في أحضان أحمد، فأخذ يتقلب في السرير وقد جافاه النوم.

الفصل الثالث عشر

كانت أحلام ايهاب تدور حول عالم خيّر مسكون بالفرح. كان يعيشه كذكرى قديمة، كخلفية بعيدة العهد لاحداث راهنة، وكحاضر. وكانت الاحلام من العمق والنضارة بحيث تصور أنها - في لحظات اليقظة المثقلة بالحذر - ذكريات قديمة حدثت بالفعل. من ضمن أحلامه ذلك الحلم المتكرر، عندما يبدأ حواراً عادياً مع امرأة، ترتفع وتيرته حتى يصبح بوحاً، ثم يتطور الى ممارسة جنسية جميلة لايعبقها شعور بالضيق. حدث ذلك وأناس كثيرون يمرون أو يجلسون قريباً منه دون أن يبدو عليهم أنهم يرون مايدور.

حين استيقظ عاش الهناءة التي ولّدها الحلم. ثم جاءت صورة زينب فبدت الامور بسيطة للغاية: لقد انتهت العلاقة وهذا لصالحه تماماً. نظر الى الساعة كانت تشير الى السابعة. سمع حركة في الصالون فاندهش. ثم تذكر أنه فهمي، واستعاد الليلة الفائتة. أمام شاهد عليه أن يعيش مأساة زينب. نهض من سريره واتجه الى خزانة الملابس. فتحها ورأى ملابس زينب. أمسك بالسوتيان وشم رائحته. كانت رائحة قوية لعرق وعطر. تجسدت زينب أمامه. ثم تذكر أن أحمد يضرب زينب وهي تئن ألماً ومتعة، فاستعاد بؤسه كاملاً.

ثم اتخذ قراره. يجب أن يرى زينب الآن. شوقه اليها بلغ حد اللهفة. أن يراها فقط، عند ذلك ستنفصم تلك الالفة مع أحمد. سيكون حاجزاً بينهما. أخفى ملابس زينب وخرج من حجرة النوم. رأى فهمي خارجاً من الحمام. قال فهمي:

- «صباح الخير. آسف استعملت ماكينة حلاقتك».

قال له: «رجاء تتصل بالشغل وتقول لهم أني حاتغيب النهار دا».

- «حاضر. مش عايز أي حاجة»؟.

قال ايهاب: «لا. لا. شكراً».

من الطريقة التي قال بها ايهاب هذه العبارة اتضح أنه يرغب في مغادرة فهمي للبيت بأسرع ما يمكن. عاد ايهاب الى حجرة النوم. أخذ يصغي بتركيز لحركات فهمي. شعر أن فهمي استغرق وقتاً طويلاً. ثم شعر بالخجل. الرجل تحمل الكثير من أجله وهو لا يستبقيه حتى لشرب فنجان من قهوة. خرج من حجرة النوم فرأى فهمي منحنياً يلبس حذاءه. قال:

- «حا اعمل لك افطار».

قال فهمي: «ماليش نفس. حا افطر في الشغل».

قال ايهاب: «حا اعمل لك قهوة. بتشربها ايه»؟.

- «مضبوط».

بعد أن أعد ايهاب القهوة جلس فهمي وأشعل سيجارة وأخذ يشرب القهوة ببطء.

فكر ايهاب أنه لن يغادر أبداً. قال: «أنا آسف وشاكر تعبتك معايا».

يعلم أنه كان عليه أن يقول كلاماً أكثر حرارة ولكن الكلام كان عبئاً عليه. قال فهمي وهو يطفيء السيجارة:

- «مش حا اسيب الشغل قبل الساعة تلاتة. اذا كنت عايز أي حاجة كلمني بالتليفون. العصر حا تلاقيني عند اسماعيل».

قال ايهاب: «تمام».

وفكر أنه اذا لم يجد زينب فسوف يزور هنية في مكان عملها. قال فهمي:

- «زينب يمكن ما تكونش في الشغل. حا أحاول اتصل بيها واتكلم معاها».

- «حا تقول لها ايه»؟.

- «حا احاول أقنعها تبعد عن أحمد».

بعد خروج فهمي بدقائق قليلة كان ايهاب قد ارتدى ملابسه واستعد للخروج. لم يطق أن يسير الى بيت زينب مشياً. ركب سيارة اجرة وهبط أمام البناية التي تسكنها دون أن يأخذ ما تبقى له عند السائق. في اللحظة التي غادر فيها المصعد رأى رسالته بيضاء في الظلمة مدسوسة في شق باب الشقة. رغم ذلك دق جرس الباب، وجذب الورقة. أعاد قراءتها ثم أرجعها الى مكانها. دق جرس الباب مرة أخرى، ثم اتجه الى المصعد. في الخارج تحيّر أين يذهب فالساعة تشير الى الثامنة والنصف. سار على الكورنيش. توقف عند مبنى منظمة التضامن الاسيوي - الافريقي. فكر أن يزور بعض أصدقائه فيها. ولكن الدوام يبدأ في التاسعة. وينتهي في الواحدة.

منذ زمن طويل لم يعش ايهاب محنة الوقت الطويل المضجر. وقته دائمًا ممتليء ومشحون، دائمًا لايكفيه. عليه أن يقوم دوماً بالغاء مشروع لصالح آخر. كان يرافق ذلك احساس بالفقد، بأن المشروع الذي يلغيه هو ما يتوجب عليه أن يتبناه. لهذا كان الشعور بالذنب يلّح عليه طيلة الوقت.

يعود ويعبر كوبري عباس الى ميدان الجيزة. يقرر أن يشرب قهوة في مقهى سان سوسي. المقهى بأشجاره وأناقته جعله يتساءل: لماذا لم يكن يأتي هو وزينب هنا؟ كان المقهى مغلقاً. ينظر الى ساعته لم تبلغ التاسعة بعد. أخذ يراقب نفسه وهو يعيش اعادة انتاج الخواطر التي تأتي في مثل هذه المواقف: هل تعطلت الساعة؟ بطء ساعات الانتظار، يبدو الزمن وكأنه توقف. . . أية تفاهة أن تعاش حياتنا بصياغات متكلسة!.

ثم جاء الغضب. تصور الصفعة على وجه زينب بكف أحمد الكبيرة. يهتز شعرها اهتزازة سريعة، مفاجئة. يشعر ايهاب بالصفعة على وجهه. أعاد المشهد في خياله: اهتزاز الشعر، الوجه المحمر ألماً ومهانة. شعر بقلبه يغوص. ثم وجد نفسه، دون أن يدري كيف. يدخل منظمة

التضامن. رأى عبد الفتاح وايمي واندهش من حرارة الاستقبال. فيض العواطف أنساه زينب.

قالت ايمي: «عملتها ازاي يا ايهاب وجيت»؟.

قال: «اخدت اجازة النهار دا وقررت أن أقوم بزيارات لناس بحبهم».

قال عبد الفتاح: «عاشق يعني»؟.

قال ايهاب: «بالنسبة لايمي أجل. بالنسبة لك شوف حد غيري».

واستوعبهم المرح والتبادل السريع للاخبار. أية صدفة رائعة قادته الى هذا المكان. انكشف لايهاب بلاهة ذلك الاعتقاد أن الاصدقاء الذين لا نراهم بشكل يومي يتحولون الى أعداء، والاعتقاد الاخر أن الذين ننقطع عنهم ولا نسمع أخبارهم سوف يكونون في حالة تحلل وانهيار.

قالت ايمي فجأة: «عامل ايه في الحب»؟.

قال ايهاب: «بحب النبي».

- «وغيره»؟.

- «سيادة الرئيس».

قال عبد الفتاح: «مش حتبطل حكاية الشذوذ دي»؟.

منذ أن ألقت ايمي سؤالها تشكل مجرى آخر للافكار في داخل ايهاب. نظر الى ساعته. كانت تشير الى العاشرة وخمسين دقيقة. قدّر أن زينب سوف تكون في بيتها الآن. لابد لها أن تعود اليه لتغير ملابسها. لو تأخر أكثر من ذلك فسوف تغادر بيتها.

كانت ايمي تنظر اليه بقلق. قالت: «فيه ايه يا ايهاب»؟.

قال: «مافيش. بس عايز أتكلم بالتليفون».

كلّم الوكالة وطلب فهمي. عرف فهمي صوته على الفور وقال بصوت منخفض:

- «جت وخدت اجازة اسبوع. حاولت أكلمها قالت مستعجلة جداً وحا تكلمني بالتليفون».

- «يعني ايه».

- «مش فاهم».

- «وأحمد»؟.

- «جه الدوام طبيعي».

- «ممكن تسأله عنها»؟.

- «طبعاً لا».

أنهى المكالمة وقال لاصدقائه أن عليه أن يغادرهم. لم يعد يطيق البقاء دقيقة أخرى. اللهفة تكاد تخنقه. قالت ايمي: «ايهاب انت مش طبيعي».

قال: «فعلاً».

قالت: «احنا أصدقاءك. قول النا ايه الحكاية»؟.

- «بعدين».

قالت ايمي: «يمكن نقدر نساعدك».

قال ايهاب بحدة: «أرجوكم سيبوني أمشي. أنا آسف. أنا تافه».

وخرج مسرعاً.

منـذ أن انفتح باب المصعد رأى رسالته في مكانها. سار نحو الباب، دق الجرس، وجذب الرسالة ووضعها في جيبه. ثم خطر له أنها الدليل الذي سيعرف من خلاله ان كانت زينب قد رجعت الى البيت. أعاد الرسالة الى مكانها ودق الجرس، ثم سار نحو المصعد. شعر بخيبة أمل عندما لقي المصعد مكانه. تمنى لو أن أحداً قد طلبه، فقد يجد زينب صاعدة فيه.

حدس وهو يغادر البناية أن زينب في بيته الآن. استوقف سيارة أجرة واتجه الى بيته. لم يجدها. فتح خزانة الملابس. أدهشه أن يكون لزينب بنطلون جينز وقميص أبيض. أيضاً. جمع ملابسها ووضعها على كنبة في الصالون. كان يريدها أن تفهم، ان جاءت. وهو غير موجود، أنه قرر انهاء العلاقة. ثم فتح زجاجة البراندي وصب لنفسه كأساً. قال لنفسه: «على لحم بطني»؟ فهو لم يتذوق طعـامـاً منـذ الصباح ـ ولكن ما أهمية ذلك. شرب الكأس دفعة واحدة دون ماء أو ثلج. أراحه البراندي. ستجيء زينب. لم يعد يفكر في شيء سوى العناق المتوقع، جسدها لصق جسده. وهو يقبلها في كل مكان من وجهها. ثم أخذ يتمشى في الشقة. بعد قليل شعر أنه يختنق. قرر أن يذهب لزيارة هنية في مكان عملها. بدا له ذلك أمراً ذا أهمية قصوى. سار مشياً على الاقدام.

عندما دخل المكان الذي تعمل فيه هنية. لم يعد يرغب في رؤيتها. لن يكون هنالك شيء جديد يقال, واذا أراد المغادرة متى شاء فسوف يكون ذلك صعباً. واصل سيره على الكورنيش. عبر كوبري القصر العيني واتجه الى البناية. صعد الى شقة زينب فوجد الرسالة في مكانها. هبط وسار الى بيته مشياً على الاقدام. دخل الشقة. زينب ليست موجودة وكل شيء على حاله.

انخرط في كليشيهات المحب الغيور. في تلك المسارات التي تحيل الجسد الى كتلة من التحفز والحركة. وأما ذهنه فقد انحصر في اقامة بناء منطقي، متماسك، يسرد علاقته مع زينب، وينتهي بادانة كاملة لها. تكررذلك مرات عديدة، وهو يواصل التمشية داخل الشقة. اللحظة النهائية في ذلك الموقف كانت هبوطاً دراميا: هل يعلن قطع علاقته بزينب؟ ولكن الحياة خاوية ورتيبة دونها. لاشيء غير زينب بعد بتلك الحدة والامتلاء. دونها سوف يكون الانتظار اللانهائي للاشيء.

وضع ايهاب الرواية التي يكتبها بين قوسين. لانه حدس أن سيطرته عليها قد تلاشت تماماً. والسياسة؟ لم يعد لوهم الامساك بالعالم معنى. تكرار لا نهائي: ٥٦ تكررت في ٦٧.. وبالقدر ذاته من البصيرةرأى فراغ الآخر: أن تصبح زينب ممتلكة ومحتواة. سوف يدور في الحلقة المفرغة ذاتها.

يتـوقف ذلك الاستبصار ويستعيد ايهاب ذلك البناء الذي يدين زينب، وقد تكشف زوايا جديدة فيه جعلته أكثر حدة وتماسكاً.

للمرة الرابعة في ذلك اليوم يصعد ايهاب الى شقة زينب، فيجد الرسالة مكانها، ثم يعود الى شقته فلا يجد زينب. كان ذلك مؤلماً ومضجراً في الوقت ذاته. ثم رأى نفسه يصعد الى شقة هنية. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر. رحبت به وقادته الى الداخل. قالت انها لم تشرب قوتها بعد، ودعته الى مرافقتها الى المطبخ. قالت وهي تضع الكنكة فوق النار وتحرك البن والسكر: «عامل ايه»؟.

لم تكن تنظر اليه. بدا السؤال مجاملة، اذ ألقته وكأنها تخاطب الكنكة. قال:

- «حا اتجنن» .

قالت له ان فهمي قد رأى زينب هذا الصباح . قال انه يعرف لانه كلمه بالتليفون . أضافت هنية : «قالت له انها حا تسافر تلات أو أربع تيام تريح أعصابها» . ضحك ايهاب وقال : «أعصابها هيه؟ ما قالت رايحة فين»؟ .

- «لا» .

- «مسافره وحدها»؟ .

ضحكت هنية وقالت : «ما قالت» .

ثم جلسا في الانتريه أمام كل منهما فنجان قهوة وفي يد كل منهما سيجارة مشتعلة . رشفت هنية ما تبقى في فنجانها وأخذت نفساً من سيجارتها بتلك الطريقة التي تدخن بها النساء غير المدخنات - يدخن وكأنهن يهازحن من يجلس أمامهن ، ثم نفضت سيجارتها في فنجان القهوة الذي انتهت من شربه ، وقالت : «انت تاعب نفسك ليه»؟ .

وأخرجت الدخان بكثافة من فمها وهي تتأمل السيجارة التي في يدها وكأنها تلومها على شيء ما ، قال ايهاب : «تاعب نفسي ليه؟ ما انت عارفه» .

قالت : «أنا متابعة علاقتك بزينب ، وبعرف انك كنت عايز تنهيها بعد شهر من بدايتها . الخجل والكسل همه اللي منعوك . انت متضايق لان زينب نفذت رغبتك . مش كده»؟ .

كان كلاماً مريحاً . تلك اللهجة الموضوعية أنقذته من احساس مرير : أن زينب فضلت عليه انساناً آخر . قال :

- «ما كنتش عايز أنهي العلاقة . كنت عايزها تتغير» .

قالت : «ما هوه نفس الشيء» .

- «ازاي»؟ .

قالت : «العلاقة بيحددها شخصين . انت كنت عايز تحددها من طرف واحد . كنت عايزها زوجة وحبيبة في لحظات . وبعدين عايزها نصف خدامة ونصف مومس أحياناً ، وأحيان عايزها تختفي من حياتك لغاية ما تعوزها . عجبتك واحدة فعايز زينب تبعد ، عايز تكتب لازم زينب تختفي . دي مش ممكن تكون علاقة بين واحد وواحدة ، بين انسانين ، دي علاقة بين انسان وشيء ، بينك وبين بدلك ، واحدة للصيف ، وواحدة للشتا ، وواحدة للشغل وواحدة للسهرة . طبعاً دا مستحيل» .

قال ايهاب : «وتعاونها مع المباحث واللي اسمه أحمد»؟ .

قالت : «دي مش مشكلتك ، دي مشكلتها هيه» .

ثم تنبه الى ذلك الفرح الذي في داخله . اكتشف مصدره . منذ دخوله وهو يرى هنية مشحونة بمجال من المغناطيسية تخلله . مجرد النظر اليها انتهاك لانوثة في قمة نضجها ، أنوثة محتواة في صلابة اللحم ذي اللمعة البيضاء . اغواؤها الممتنع ولّد عشقاً عاجزاً عن البوح ، عن الاستجابة لذلك الهوس بأن يلمسها . لو أمسكت يده وداعبتها لانتهت زينب من حياته . . هل يقول لها ذلك؟ .

حاول أن يستعيد صورة زينب ووجهها يُصفع ، ليجعلها حاجزاً بينه وبين هنية . تولدت

الصورة دون أن تثير أي انفعال. ظل ذلك الحضور المشع بينه وبين زينب. منذ الليلة الاولى ـ أم الثانية؟ ـ وهنية تقف بينه وبين زينب. هل يقول لها ذلك؟.

لو قاله لكان ذلك عرضاً باقامة علاقة جسدية. سيعود للرواية وسينتهي من زينب لو أن هنية منحته جزءاً من نفسها، لو سمحت له أن يعانقها، ثم انفجر فجأة بالبكاء.

ـ لم يكن بكاؤه ارادياً، ولكنه حدس أن تماسك هنية سوف ينهار أمام دموعه. أخذت هنية تتفحصه وهي ترمش، وفي وجهها تعبير أشبه بالضحك، ثم أخذ يزحف على وجهها تعبير من يصغي بأدب الى حديث ممل. وضعت يدها فوق يده وقالت:

ـ «ايهاب. المسألة مش مأساوية للدرجة دي».

قال: «أنا أسف».

ووضع يده فوق يدها. قالت:

ـ«مئات العلاقات يومياً بتنشأ ومئات بتنتهي. لازم تتجاوز الموقف، ايهاب».

قال: «عارف».

قالت: «قوم اغسل وشك. زمان اسماعيل وفهمي جايين».

كانت يدها حية بين يديه. مال فجأة وقبلها على خدها. ضحكت وقالت: «قوم اغسل وشك». اجتاحته رغبة عنيفة أن يضمها، أن يقبل فمها، وكأنها شعرت برغبته فنهضت جاذبة يديها بقوة وقالت كلمة لم يسمعها جيداً، قدر أنها «اعقل» فاتجه الى الحمام وغسل وجهه وقال: «أنا ماشي».

قالت بدهشة: «اسماعيل وفهمي زمانهم جايين».

قال: «معلهشي. لازم أمشي».

سار نحو الباب وفي داخله كلمة «اعقل» كالخنجر، اتجه الى شقة زينب، تمنى أن يرى الورقة البيضاء في شق الباب. لم يعد يريد أن يراها. الرسالة كانت هنالك. رآها وهو يمسك بباب المصعد، فيهبط فيه واتجه الى شقته. خلع ملابسه وتمدد ونام.

استغرق في نوم ثقيل. خلال نومه كان يسمع جرس الباب يدق دون توقف. نهض وفتح الباب. كان فهمي يقف وراءه.

الجزء الاخير:

الجحيم . .

الفصل الاول

ابتسمت هنية عندما تأملت جلستها بعين مراقب خارجي : جلسة الزوجة التي تنتظر عودة زوجها. خطر لها مرة أخرى أن تخرج لزيارة تفيدة أو هدى. ستعود واسماعيل هو الذي سينتظر. استعرضت في خيالها خطواتهاالتالية فاضتها: ملمس الماء، صورة وجهها في المرآة، تلك الصورة التي كانت تدهشها دائماً الى حد التساؤل: هذا هو وجهي اذن؟ صورته في المرآة مختلفة دائماً عن الصورة التي رسمتها له في خيالها.

نهضت. رغبت أن ترى وجهها في المرآة، ثم أدركها الضجر. تعلم أنها حين تطالعه في المرآة سوف تراه أجمل من تصورها له. ولكن هنالك أخطاء عليها أن تصلحها بالمكياج. ورغم أن بشرتها النقية لم تكن بحاجة الى مكياج ولكن صورة وجهها عارٍ لها وقع الفضيحة.

عاودت الجلوس. الصراع مع الشكل مرهق ومؤلم. وأخذت تصغي لجسدها وتحلم حلمها المستحيل: أن ترى نفسها من الخارج وتعيد صياغة جسدها انطلاقاً من هذه الرؤية. تاقت بقوة أن يكون لها جسد مختلف.

ثم أخذت تتابع خطواتها وهي ترتدي ملابسها. يرافق ارتداء ملابسها الداخلية احساس بعدم الرضى. تشعر بعرق اليوم مايزال متيبساً بذيئاً على جسدها. رأت نفسها تخرج من الباب وتدخل المصعد الخالي. سوف ترى صورتها في مرآة المصعد، وسيخطر لها، كما خطر مرات كثيرة وهي ترى نفسها في مرآة المصعد الكبيرة أنه لم يعد لها خصر، ثم ستمرر كفيها على ردفيها كتعويض عن الخصر النحيل الذي كان لها.

ثم أخذت تفكر في اسماعيل.

سمعت حركة في الخارج. توقعت اسماعيل داخلاً من الباب يقول بصوته المنغّم: «مساء الخير يا هنية». أصغت بكل جسدها. لم يكن هو. أخذت خيبة التوقع تولّد تداعياتها. لقد تغير اسماعيل (هل يعني ذلك أنه لم يعد يحبها كالسابق)؟ ما كانت تفكر فيه هو سلوكه في داخل البيت. أصبح مسترخياً. لم يعد مشحوناً بذلك التوتر الذي يجعله متيقظاً لكل رغبة من رغباتها، وكل حركة ولم يعد ملهوفاً على نظافة البيت ولمعانه. كانت عيناه، في السابق، تراقبان البيت بيقظة، تتحول الى حركة عندما يحدث مايشوه انسجام البيت. كانت ترى البيت امتداداً لجسدها، بيتها هي، لا بيتهما، قالت

لنفسها: «لقد اعتادني». عليها أن تخرج، فالتداعيات في ذهنها تـ ير الى شيء مخيف مفجع، تومىء الى نهاية ما. ثم أخذ الصمت يفرز أصواته الخاصة به، يولّد احساساً بحضور متربص. وخطر لها أن هذا هو قدر المرأة الشرقية، أن تنتظر زوجها في بداية الليل، في هذه الساعات الموحشة من اليوم، محوطة بذلك الحضور المهدد، الفاجع، الكلي، تنتظر وتنتظر، وقد يمتد انتظارها حتى ساعات الصباح الاولى. وفكرت باعتزاز أنها اختارت هذا القدر لليلة واحدة، وانها قادرة على الخروج منه أية لحظة. وسوف تخرج.

نهضت. لم يكن في ذهنها شيء محدد تفعله. دخلت المطبخ وأشعلت موقد الغاز ووضعت كنكة القهوة فوقه، وهي تفكر، خلال ذلك، أنه كان من الافضل أن تعد لنفسها كأساً من الويسكي. ولكن اشعال الغاز ووضع الكنكة فوقه وفنجان القهوة ببياضه اللامع المنتظر خلق سياقاً لم يكن باستطاعتها في تلك اللحظة أن توقفه.

حملت صينية القهوة الى الانتريه وفتحت العلبة الخشبية الموضوعة على الطرابيزة وأخرجت منها سيجارة وأشعلتها. صارعت رعباً من سرطان الرئة وهي تجذب نفساً عميقاً من السيجارة وتخرج الدخان من فمها على الفور. «شكلك يفطس من الضحك وانت بتدخني» وبحثت عن الوجه الذي قال لها هذه العبارة وهي تبتسم. ثبتت الابتسامة على وجهها. تداخلت وجوه كثيرة، والوجه الذي تريده يراوغها، مسبباً قلقاً وتوقعاً جسدياً. ثم طفا وجه ايهاب، وعلى الفور تبدلت العبارة لتصبح: «شكلك لذيذ وانت بتدخني». وأحست برغبته تفيض وتلامسها مولّدة استرخاء مهّد لحلم يقظة جنسي. وفي تلك اللحظة خطر لها كشف آخر: لهذا السبب تفكر المرأة، في هذا الانتظار الطويل الذي يبدو بلا نهاية، أن تقيم علاقات جسدية مع آخرين غير زوجها. ولّدت هذه الفكرة رغبة جسدية غمرت جسدها كله. تكفي أية لمسة من رجل لتستجيب. فاجأها دخول اسماعيل، فصعدت حمرة الخجل الى وجهها. جاء في لحظة لم تتوقعه فيها. أفسحت له مكاناً بجوارها. قالت: «مالك؟» وقبلته على خده. نظر اليها بدهشة، ثم أحاط خصرها بذراعه. شعر برغبتها تنتقل اليه. ولكنه كان راغباً في الكلام. قال:

- «كلام فارغ».

- «ايه»؟.

- قال: «كنت بجري ورا سراب».

كان يتحدث في السياسة. قالت: «نفسي في كاس براندي. بتشرب»؟.

قال: «بشرب».

لم يكن متحمساً للشرب. أعدت كأسين وضعتهما على الطرابيزة ورفعت كأسها وقالت:

- «في صحتك».

- «في صحتك»

نهضت بحيوية مدهشة وسارت الى المطبخ. جاءت بطبق فيه أجبان متنوعة وزيتون وجزر وطماطم، ووضعتها أمامها. قالت:

- «كنت بتقول انك كنت بتجري ورا سراب».

قال لها أنه سار في طريق خاطىء. لقد خدعوه. ثم صمت متجهمًا. قالت:

- «عبد الناصر قال. اشتريت الشيوعيين بخمستلاف جنيه في الشهر».

قال اسماعيل بضيق: «وقال اكتر من كده. مش دا المهم. المهم انا نسينا الماركسية. تصورنا السلطة بعض اشخاص اصحاب نوايا طيبة. ونسينا تركيبها الاقتصادي. تبين ان سبعين في المية من الميزانية الحربية بتروح لجيوب المقاولين».

- «الكلام دا نشر فين؟».

- «منعوا نشره. فهمي جاب نسخة من الندوة اللي قيل فيها الكلام دا. ندوة عملتها جريدة الجمهورية. الطبقات الطفيلية سيطرت على البلد.»

قالت: «لكن..»

قال بعصبية: «ما لكنش. فضلنا نخدع انفسنا ونقول لكن.. البراندي دا مريح هاتي القزازة.»

جاءت هنية بزجاجة البراندي وجردل الثلج وسألت إن كان يعتقد ان عبد الناصر سوف يضرب هذه الطبقة. قال: «حا يضربهم ازاي؟ دول همه السلطه. انا متأكدة انهم خلال سنة واحده حا يطيروا عبد الناصر ويجيبوا رجالتهم.»

قالت: «انتو مش بتعملوا حوار معهم؟»

قال: «حوار ايه؟ دخلونا في دوامه الها اول وما الهاش آخر. انت اخبارك ايه؟»

- كنت بمارس حياة الزوجة المطيعة. الزوجة الشرقية.»

ضحك اسماعيل وقال: «يعني علشان يوم ما نزلتيش بقيت زوجة شرقية؟»

قالت وهي تضحك: «بتكلم جد. تصورت الستات القاعدين في بيوتهم ليلة ورا ليلة، مستنين اجوازهم لما يرجعوا..»

- بؤس. هه؟»

- «شيء رهيب.»

قال اسماعيل ان الانسان قادر ان يعتاد اي شيء. قالت: «لكن فيه حلول.»

نظر اليها اسماعيل متسائلاً، قالت: «ممارسة احلام يقظة جنسية.»

قال اسماعيل: «ايه؟»

كان سؤالاً واستنكاراً في الوقت ذاته. قالت هنية وهي تستدير وتواجهه:

- «مافيش وسيلة تانية تواجه فيها الخوف والوحده..»

ترددت قليلاً ثم أضافت: «الخوف والوحده.»

ضحك اسماعيل وقال: «بتتكلمي زي الشعر الحديث.»

واخذت تستعيد تلك اللحظة والرغبة تستولي عليها وتدفعها الى الاسترخاء. كانت ممنوحة لكل من يمد يده. خطر لها انها الآن، فقط، تعرف معنى ان تكون الرغبة جسدية خالصة، لا تطالب الا باشباعها، ليعقبها غياب ونسيان.

قال اسماعيل: «سرحت في ايه؟»
تنهدت وتحددت نظرتها. قالت: «كنت بفكر.»
- «في ايه؟»
- «في الكلام اللي قلته.»
قال اسماعيل: «في الكلام اللي قلته انا؟»
قالت: «لا. في الكلام اللي قلته انا. اشرب»

كانت غاضبة وبذلك استعادت سيطرتها على جسدها. شعر اسماعيل، على نحو مبهم. ان هنية تفلت منه، وانها بذلك تعاقبه على الاسترخاء والاعتياد اللذين اخذ يمارس بهما حياته معها. اقلقه ذلك لأنه ادرك في تلك اللحظة ان حياته معها اصبح لا غنى عنها.

شعرت هنية كأن هوة لا قرار لها تنفتح امامها. كانت رؤيا: عاشت حياتها كتدريبات اولية للوصول الى نقطة معينة تبدأ فيها الحياة الحقيقية. ولكنها تكتشف الآن ان هذه التدريبات هي الحياة الحقيقية، وان حياتها طريق في اتجاه واحد يؤدي بها الى الشيخوخة والموت. قالت لنفسها: «ذلك غير معقول. لابد انني نسيت شيئا ما.»

قالت لو كانت حقيقة الحياة بهذة البساطة لشمل الرعب العالم كله، لمات الجميع فزعاً.

قررت ان تسأل اسماعيل عن ذلك الشيء الذي نسيته، ولكنها، وعلى نحو مبهم، كانت مقتنعة ان اسماعيل لا يملك اجابة. ثم اتاها شعور من يتقمص شخصا يقف على منصة الاعدام، أن لا أحد يملك اجابة. ثم تلت ذلك لحظة استرخاء وخواء. قررت ان تسأل ايهاب عن ذلك الشيء الذي نسيته. سيقول شيئا يجعلها تتذكر. ولكن.. ايهاب ذاك، مختلط برغبته الملتاثة بانتهاك جسدها. يجعل جسدها توقعاً لانتهاك. عليها ان تكون حذرة على الدوام اذ ان حضوره استعداد مستمر للتفلت. عليها ان تلجمه في كل لحظة. كان رغبة مجسّدة، تخيفها، تهددها باللمس، واصبح كل ما يقوله معجوناً بتلك الرغبة. نهضت بلا سبب. قال اسماعيل: «رايحة فين؟»

قالت دون تفكير: «احضر العشا.»
- «كمان شوية.»

بالفعل. مالذي جعلها تنهض؟ لم تكن جائعة ولكن ولكن وقوفها المجاني دفعها الى الاستمرار في الحركة. قالت: «طيب، دقيقة.»

اضاءت المطبخ وفكرت انها سوف تزور تفيدة في الصباح وتحكي لها عن هذا الكابوس. بدا المطبخ ساكناً جداً، غير اليف، كأنه مطبخ في بيت غريب، امتعتها غربته. ودون ان تعرف ماذا تفعل غسلت كنكة القهوة وصبت فيها ماء حتى منتصفها ووضعتها فوق موقد الغاز ثم اشعلت تحتها. ثم تذكرت انها تشرب البراندي وان القهوة غير ضرورية. اطفأت الغاز وعادت. فوجئت باسماعيل كأنها لم تتوقع وجوده. قالت: «مش عارفه جرى لي ايه.»
قال: «ايه؟»
انهار انسجامه الصامت البعيد عندما قال ذلك. قالت:

ـ «لقيت نفسي دخلت المطبخ وحطيت كنكة القهوة عالبوتاجاز.»
قالت ذلك وهي تشعر ان اسماعيل غريب جداً. جلست بجواره، قال:
ـ «انت غريبة الليله. مالك؟»
قالت: «بفكر في الستات اللي بيقعدوا بالليل يستنوا اجوازهم.»

قال لها ان تلك حقيقة معروفة. وهذا ما نعمل على تحرير المرأة منه. وقال انه مندهش لأنها تتحدث عن هذا الموضوع كأنه اكتشاف. شعرت للحظة انها اقتربت من ذلك الشيء المنسي: انه العمل لتحرير الانسان؟ ولكن هل يمنع ذلك من التقدم نحو الشيخوخة والموت؟ في مواجهة انفعالات متعارضة ركنت الى سكينة خاوية. اصبحت تجسيداً لرغبة ملحة في الشكوى. قالت لاسماعيل بنبرة طفل غاضب طفل على اهبة البكاء، انها لن تكرر هذه الليلة، لن تسمح بذلك.

قال اسماعيل لها وهو يضع ذراعه على كتفيها:
ـ «لما عايزة تقعدي في البيت خدي لك كتاب اقري فيه، اسمعي الراديو..»
وهي خلال ذلك تطالع ما حولها وتفكر: هل ينتهي كل هذا بالموت؟

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي استأذنت من مديرها وذهبت لتزور تفيدة. امضت ليلة مليئة بكوابيس لا تتذكر منها شيئاً، ولكنه كان كابوساً متكرراً تصحو منه في كل مرة مفزوعة. خطر لها وهي تركب سيارتها ان تفيدة تملك الاجابة. فهذه الحياة التي تفيض بها، وهذا الجسد الذي يسير نحو الشباب بدلاً من الشيخوخة. حياتها الداخلية المليئة بدت بشكل مبهم قادرة على الاجابة على سؤالها.

عند الاشارة كادت تصطدم بالسيارة التي امامها لولا انها توقفت في آخر لحظة. سائق السيارة التي امامها اخرج من الشباك وجهاً غاضباً. كان من الواضح انه في سبيله الى بدء معركة. ولكنه عندما رأى ان امرأة تقود السيارة ادار كفه نصف دورة، وكأنه يسألها عن آخر اخبارها. قالت لنفسها ان عليها ان تركز على الطريق، فمن النادر ان يشرد انتباهها وهي تسوق.

قالت لنفسها وهي تركب المصعد الى بيت تفيدة: «ماذا لو سألتني تفيدة ماذا اريد؟ ماذا اقول؟ لابد انني جننت. هل يمكن لتفيدة ان تستقبلني بسؤال كهذا؟»

دقت جرس الباب دقات متتالية. وجه تفيدة انتقل من التساؤل الى انفجار الفرح، وقادتها الى الداخل.

اصبحت المسألة التي جاءت هنية من أجلها مضحكة الى اقصى حد. هل تقول لتفيدة ان الناس يتقدم بهم العمر ويشيخون ويموتون؟ من الواضح ان النهار بشمسه وجريان الحياة الصاخب فيه لايصلح لطرح مسألة كهذه. والزيارة الصباحية لا تصلح لذلك ايضاً. فجأة انطلقت هنية تضحك دون توقف. تفيدة كانت تنظر اليها بتعبير ارتباك وبسمة خجولة. قالت: «ايه الحكاية؟»
قالت هنية: «حاجة تهلك من الضحك. تصوري انا جاية ليه؟»
ـ «ليه؟»

وحكت لها هنية. انصتت تفيدة في البداية وهي تبتسم، وكأنها تستعد لاطلاق ضحكة عالية، متصلة عند انتهاء الحكاية، وهنية تتحدث وضحكة تشيع في وجهها، ضحكة سخرية من الذات.

كان يشيع في وجه هنية بهجة الرؤية المرحة للحياة. اخذ وجه تفيدة يتكدر. اختفت البسمة وتكهربت العينان بتوتر المشاركة في مصاب. وهنية اخذت تستعيد ليلة البارحة، وعاشتها مرة اخرى. حاولت ان تحافظ على مرحها ولكنها فشلت.

انتهت هنية من حديثها. لم تقل تفيدة شيئاً. سادت فترة صمت. سألت هنية بخجل لا تعرف مصدره: «وانتِ مش برضه بتحسي ان الحياة بروفة؟»

قالت تفيدة: «يمكن المسألة بالنسبة لي مختلفة.»

واستغرق وجهها في التذكر، بدت عيناها وكأنهما لا تريان. وعندما خاطبت هنية ذلك الغياب قائلة: «مش فاهمه» لم ترد تفيدة. كانت تطالع نقطة ما بعيني قصار النظر بثبات. اعادت هنية سؤالها:

- «ما قلتيليش.»

نهضت تفيدة وهي تتنهد وتفرك وجهها بكفيها. قالت: «حا اعمل قهوة.»

فكرت هنية ان تقول لها ان مواصلة الحديث اهم من القهوة، ثم حدست ان تفيدة تريد ان تختلي بنفسها قبل ان تواصل الحديث. اخرجت هنية علبة سجائر من شنطتها وأشعلت سيجارة. شعرت انها سببت ازعاجاً لامبرر له. ان حيوية تفيدة وشبابها المتجدد المشع جعلا فكرة الشيخوخة والموت اشبه ببذاءة. خطر لها ان تلحق بتفيدة وتعتذر لها، ولكن عن اي شيء؟ ان ذلك سيكون بلاهة.

عندما دخلت تفيدة حاملة صينية القهوة شعرت هنية ان تفيدة عادت باسرع مما توقعت. رأت نفسها تنهض وتقبل تفيدة وتقول: «انا آسفة». تم ذلك دون تدبير مسبق. تضرج وجه تفيدة ولم تقل شيئاً. وضعت الصينية فوق الطرابيزة واخذت تصب القهوة بتركيز. قالت هنية:

- «انا آسفة.»

قالت تفيدة دون ان تنظر اليها: «ليه؟»

قالت هنية: «علشان الموضوع سخيف.»

نظرت اليها تفيدة. لم تكن هنية حتى تلك اللحظة قد اكتشفت ان لتفيدة مثل هاتين العينين. جمالهما والقوة الكامنة خلفهما جعلاها ترتعش. كان السواد مضيئاً بلمعة بنفسجية. قالت تفيدة: «لا مش سخيف.»

قالت تفيدة: في السابق كانت تشعر ان حياتها مؤقتة، كانت تتوقع ان شيئاً ما، في نقطة محددة من حياتها سوف يحدث. لذلك لم ترتبط بأي شيء بشكل جدي آنذاك. كانت تعيش حياة تستطيع ان تتخلى عنها في اية لحظة، عند الوصول الى تلك النقطة المحددة. كانت حياتي مجرد انتظار. كنت اراوغ واكـذب على من حولي لأنني كنت ادبر سراً الانفصال عن تلك الحياة. كانت صورة ذلك الانفصال مأخوذة من الافلام العربية.

قالت هنية: «الواد الحليوه ابن الباشا..»

- «بالضبط. كنت بعيش حياتي وبودعها في نفس الوقت.»

- «فاهمة عليك.»

- «كنت متأكدة انه في يوم من الايام حا يحصل...»

ضحكت هنية وقالت: «وحصل.»

قالت تفيدة: **«حصل.. يعني جوازي من مصطفى؟»**

- «يعني مش بس الجواز...»

قالت تفيدة: **«مش دا اللي كنت بستناه. لفترة تصورت انه اللي كنت بستناه هوه جوازي من مصطفى. في الوقت نفسه كنت بشعر انه مش دا اللي كنت مستنياه.»**

قالت هنية بدهشة: **«بتفكري في حد تاني؟»**

- «لا.»

قالت هنية: **«كنتِ مستنية ايه؟»**

تضرج وجه تفيدة وقالت: «الكتابه.»

الفصل الثاني

لليوم الرابع لا خبر عن زينب. فكر ايهاب انها لو غابت ثلاثة ايام أخرى فسينتهي هذا العذاب، سينساها. كانت الواحدة بعد الظهر، وكان عائداً مشياً من الزمالك الى الدقي. امام محل حلويات سيموندس قرر أن يدخل. كان متيقناً ان هدى سوف تكون في الداخل. قال لنفسه لو كانت هدى موجودة فستقوم علاقة بينهما. هدى بجديتها وجمالها الهادىء هي التي تصلح. لن تكون علاقة عابرة، بل مشروع زواج. سيقول لها ذلك منذ البداية.

لم تكن هدى في الداخل. اراحه ذلك. شرب شاياً وأكل قطعتي كراواسا ثم كلم هنية بالتلفون. قيل له انها خرجت. «خرجت ولم تعد. امرأة جسدها يجنن. كل من يجدها يبلغني حالاً..» سار في شارع حسن صبري. تمهل امام مبنى المجلس الاعلى للآداب والفنون. هل يقوم بزيارة لاصدقائه هناك؟ رجلاه لا تستطيعان التوقف. بعد ثلاثة ايام بالضبط سوف يعود الى الرواية. لماذا لاابدأ من هذه اللحظة، لحظة الوصول الى البيت؟ احس بالارهاق بمجرد طرح هذا السؤال. انها مسألة ارادة. ليست ارادتي، بل ارادة الرواية. تضحك على نفسك يا ايهاب؟ هل للرواية ارادة مستقلة عن ارادتك؟ يجب ان تتوقف عن هذه السفسطة.

حاول ان يفكر في زينب. لا يشعر بشيء. عليه ان يستعيد موقفه وهي تغادر نقابة الصحفيين مع حمادة. صورتها وحماده يصفعها. يستعيد ذلك حتى يسترجع الاحساس اللاذع بها. ولكنه لا يشعر بشيء. قال لنفسه انه لم يعد يحبها. يتذكر الرواية. يذكر اين توقف، وفجأة تتوالى الجمل ويتم بناء موقف جديد.

أسرعت خطواته «ساعود الآن وابدأ الكتابة على الفور.» فقط يريد لزينب ان تعرف. سيتصل بهنية ويطلب اليها ان تبلغ عزمه الى زينب، كما سيطلب اليها ان تسترد مفتاح شقته منها. سيعد قهوة سريعة الذوبان، وسيضيف اليها قليلاً من الويسكي، وسيكتب سيكتب دون توقف. اكتشف انه اصبح قريباً من بيته. كيف قطع كل هذه المسافة بهذة السرعة. امام باب البناية داهمه اجهاد وضجر. القهوة مع الويسكي ستزيل هذا الاجهاد. فكر ان يتصل بهنية، ولكن هل يستطيع ان يفعل ذلك وهو في دكان البقال؟ يعلم انه يستطيع، ولكنه اجّل ذلك لما بعد.

صعد الى الشقة، شم رائحة السجاير والبراندي. هل هذا معقول؟ دخل الصالون فرأى زينب

تدخن وتشرب من كأس البراندي الذي في يدها. كانت ترتدي قميص نوم ازرق خفيفاً، ترفعه حتى ركبتها. رأى الساقين اللذين ينسابان باناقة. رفعت اليه وجهها وابتسمت. قال: «زينب.»

جلس على الكنبة الاسطمبولي واصبح في مواجهتها. قالت: «مش تسلم.»

لم يقل شيئاً. قالت: «اشتقت لي؟»

ـ «لا.»

ضحكت وقالت: «زعلان؟»

كان ينظر الى وجهها ويفكر ان حمادة يصفعها على هذا الوجه. قالت:

ـ «عايزني امشي؟»

ـ «يكون احسن.»

قالت: «بس لازم نتكلم.»

لم يقل شيئاً. قالت: «مش حا آخد من وقتك كتير.»

ظل صامتاً. شربت جرعة من كأسها وجذبت نفساً عميقاً من سيجارتها. ثم خرجت الى المطبخ وجاءت بكأس، وضعت فيه براندي وشريحة ليمون وقطعة ثلج وبعض الماء، ووضعته امامه.

قال: «مش عايز اشرب.»

قالت: «خليه قدامك.»

ساد الصمت بينهما. قالت: «اخبارك ايه؟»

قال: «ما فيش.»

ـ «والرواية؟»

ـ «مالها؟»

ـ «بتكتب فيها؟»

ـ «لا.»

ـ «انا السبب؟»

ـ «لا.»

وعاد الصمت. قالت بعد قليل: «تغديت؟»

ـ «لا.»

قالت: عملت لك اكل بتحبه.»

لمسه هذا بعمق ولكنه ظل متجهماً صامتاً. قالت: «ليه ما بتشرب؟»

ـ «مش عايز.»

ابتسمت وقالت: «زعلان مني فهمنا. زعلان من البراندي؟ دا البراندي بتاعك.»

قال لها: «شكراً على التوضيح.»

قهقهت. نهض واتجه الى المطبخ. لاحظ ان الشقة نظيفة وانيقة. المفاجأة كانت في المطبخ. حلل الطعام ما تزال ساخنة، وعندما فتح الثلاجة اكتشف انها ملأتها لحوماً وخضاراً وفاكهة. عاد مسرعاً من المطبخ وقال وهو يقف بباب الصالون: ـ «الحاجات اللي جبتيها خديها معاك.»

ابتسمت وقالت: «والطبيخ؟»

ـ «كل حاجة.»

قالت: «سيب الموضوع دا شويه. نتكلم في الاهم.»

دخل وجلس. قال: «تكلمي.»

مد يده وشرب جرعة من البراندي، ثم وضع الكأس بسرعة: ضحكت زينب تلك الضحكة القصيرة، التي تنطلق تلقائياً في وقت غير مناسب، وتنتهي بسرعة. شربت جرعة براندي لتطرد الضحكة. قال ايهاب: «تكلمي.»

قالت: «عايز تعرف كنت فين الاربع ايام اللي فاتوا. مش كده؟»

قال: تكلمي.»

قالت: «كنت في الاسكندرية.»

ـ «وحدك؟»

ادرك انه اخطأ في توجيه هذا السؤال، فهو لا يريد ان يلعب دور المحب الغيور. ولكن مجال التراجع فات، وها هي ابتسامة تحاول ان تمنعها ترتسم على شفتيها. قالت: ـ «لا.»

وصمتت. حدس ايهاب لعبتها. تريده، كعاشق غيور، ان يواصل اسئلته لتلعب باعصابه. اجابتها بالنفي تستلزم ايضاحاً. فلم يقل شيئاً. بتمهل اشعلت زينب سيجارة، جذبت نفساً واخرجته من منخريها كزاوية مثلث، ثم قالت:

ـ «ما كنتش وحدي. حا اقول لك على حاجات كنت مخبياها عنك.»

وتوقفت لترى الاثر الذي احدثته كلماتها. كان ايهاب متلهفاً لسماع المزيد، ولكنه استطاع ان يلاحظ ان هذه ليست زينب التي يعرفها. اصبحت محنكة. قالت:

ـ «عايز تعرف مع مين كنت؟»

قال: «اذا كنت عايزة تقولي قولي.»

قالت: «كنت مع حماده»

قال: «لكن حماده ما كانش في الاسكندرية.»

رآها فوجئت. قالت: «عرفت ازاي؟»

قال: «شفته.»

صمتت قليلاً ثم قالت: «قعد يومين ورجع. انا واياه بنشتغل مراسلين بالقطعه للاسشيوتد برس وللليونايتد برس. طبعاً بشكل سري جداً. اشتغل هوه الاول وعرض علي وقبلت. بيدفعوا كويس واحنا الاتنين محتاجين.»

قال: «ايوه.»

قالت: «زي ما انت شايف بصرف اكتر من دخلي، وكان لازم اني اشتغل اضافي.»

جذبت نفساً من سيجارتها وقالت: «طبعاً عايز تعرف اذا كان فيه علاقة بيني وبين حماده. شفته خارج من البناية اللي ساكنه فيها وبعدين شفتنا سوا في نقابة الصحفيين. طبعاً واحد مع واحد يساوي اتنين. لازم يكون فيه علاقة بينّا. كان فيه علاقة من تلات سنين، ولمدة يومين، وانتهت.»

- «ودلوقت؟»
- «علاقة عمل.»
- «بس؟»
قالت: «هوه عايز يرجع العلاقة وانا رفضت.»
- «ليه؟»
- «لاني مش بحبه، ولأني كمان بحتقره.»
ثم تكلمت طويلاً. قالت: لست ملزمة نحوك بشيء. وانت كذلك لقد اخترت ان احبك، ان اتعرض للسجن من اجلك، ان اغيّر حياتي كلها من أجلك لأنني، انا، اردت ذلك. وانت لست مطالباً بشيء. انت الذي عرضت علي الزواج، وانا التي رفضت. تعرف لماذا؟
- «لا.»
قالت: لاننا لا نصلح للزواج. انت خاصة. لك عشيقة اخرى هي الكتابة. وانا لا استطيع احتمال ضرة. عرفت هذا من ايامنا الاولى. حاولت بجنون ان ابعدك عنها حتى تكرّس نفسك لي، فرأيت انك اخذت تسعى للتخلص مني واصبحت تكرهني.
قال: «اكرهك؟»
قالت: «ايوه. ويمكن دا السبب اللي مخليني متعلقة بيك، وبحبك اكتر من اي شيء.»
- «مش فاهم.»
- «لأن امتلاكك مستحيل.»
قال دون ان يفكر بما يقوله: «وانتِ كمان.»
قالت: «انا؟ كفاية تشاور باصبعك الصغير دا (واشارت بخنصرها) علشان اسيب كل حاجة في الدنيا وارمي نفسي تحت رجليك. فاهمني؟»

نهض ايهاب ووقف بجوارها. كان منفعلاً بحديثها الى اقصى حد. وضع يده على رأسها وقبّل خدها. لم تستجب. دخنت وشربت كأنه لا يقف منحنياً عليها. وجهها جاد جديته المضحكة. مرر يده وانحنى ليعانقها. رفعت وجهها اليه وقالت:
- «اقعد. لسّه ما كملناش كلام.»
عاد وجلس. قال بصوت خشن: «تكلمي.»
قالت انها تعلم انه لايوجد اي افق لعلاقة مستمرة وثابتة بينهما. (فكر ايهاب انها لاول مرة تستعمل كلمة افق.)»
- «دا رأيك؟»

قالت ان هذا هو رأيها، وهي سعيدة بذلك. ان التوافق الابدي بين اثنين يعني انهما قدما تنازلات قاتله. او انهما لا يتمايزان. الانسان يجب ان يظل مشروعاً منفتحاً لكل الاحتمالات. ثم اضافت: صدقني انني عندما اقول هذا فانني افكر بك بمستقبلك، أكثر مما افكر بنفسي.
فكر ايهاب: انها تعيد انتاج الافلام العربية. المومس التي تضحّي بنفسها في سبيل من تحب.

رآها تبتسم، فابتسم. قالت: «المومس الفاضلة؟»

قال ايهاب لنفسه: «بنت الجنية». قالت:

- «لا. المسألة هنا مختلفة. ممكن اكون مجنونة بس مش مفتعلة. المسألة انني فهمت ان مشروعي، مشروع المومس الشريرة، فاشل. (اولا. ثانيا. انا بعيش تناقض. باين حبي اكبر من جنوني.»

كان ايهاب ينظر الى وجهها ويفكر ان حماده يصفعها على هذا الوجه الجاد، المتفلسف. كانت الرغبة ذاتها تتملكه هو. هل كانت رغبة الايذاء عند حماده تقترن برغبة جنسية لا تقاوم، كما هي حاله الآن؟ فكر ايهاب.

قالت زينب بصوت انثوي، غنج، ممطوط: «ايه اا بـ بـ !»

قال: «زيناب.»

قالت بصوت عملي سريع الايقاع: «كنت بتفكر في ايه؟»

قال: في احوال الدنيا.»

قالت: «بتقول لنفسك: زينب عامله دراما وصدقت نفسها.»

قال: «ممكن تبوسيني؟»

- «لا.»

- «ممكن ابوسك؟»

- «لا.»

قال: «ليه؟»

قالت: «عايزة اتكلم.»

- «على بركة الله.»

اخذ الغضب يتسلل اليه. قالت: «لماذا لا ننظر الى المسألة من جانبها العملي؟ ان مشكلتنا في مثل هذه الامور اننا ننسى الجانب العملي رغم انه كل شيء.

ونظرت اليه مستطلعة كأنها ألقت سؤالاً تنتظر الاجابة عليه. كان حديثها يثير فيه مزيداً من الضيق. قال: «فعلاً.»

قالت: الجانب العملي هو الجنس. اعني الجانب الذي يمكننا التحكم فيه. الحب مش ممكن التحكم فيه. الجنس ممكن. ونحن، الاتنـين. مجانـين جنس. (ابتسمت دون ان توقف فيض كلامها.) قالت: بعد الجنس تبقى الصداقة. والصداقة لا تحتاج بعد الاشباع الجنسي، ان نبقى في السرير أياماً وليال. هه؟

قال: «فعلاً.»

قالت: «راكبك عفريت اسمه فعلاً؟»

قالت ذلك بغضب حقيقي. ثم اضافت: ممكن نمارس الصداقة في مقهى، عند الاصدقاء. اقـول هذا لمصلحتك. (وبصوت اخفت وكأنها تحدث نفسها بنبرة من يعترف بالحقيقة المرة ويحتج عليها) ولمصلحتي.

قال: «فعلاً.»

قالت: «فعلاً. فعلاً.»

ثم واصلت بطريقتها الجادة المتحمسة: الفكرة انه كل واحد يحترم الحرية الشخصية للآخر. اعتقد ان الحب ينتهي عندما يصادر كل طرف الحرية الشخصية للطرف الآخر.

قال: «خلصتِ؟»

قالت بغضب: «خلّصتِ. احنا لسّه بنتكلم عن الحرية الشخصية. واضح انك مستعجل تمارس الجنس. احترم حريتي يا اخي. واضح اني مش عايزة امارس جنس دلوقتي.»

قال بقصد اغاظتها: «ليه؟»

قالت: «هيه فيها ليه! مش عايزه وبس.»

قال ايهاب: «بس مش عادتك.»

كشّرت وقالت: «حاجة تطهّق.»

لم تكن الرغبة هي التي تلح على ايهاب، بل الكرامة المهانة، شعوره بانه مرفوض، وشعوره الاكثر حدة بانه ثقيل الظل، مبتذل، وغير قادر على الاحتشام. خطر له ان زينب تتعمد ان تجعله يطرح نفسه على هذه الصورة. كان ذلك مخيفاً، على نحو ما. قال:

ـ«صدقيني انه ما عاد شي عندي اي رغبة جنسية. بسأل بس لأنه وضع غريب.»

كانت تنظر في عينيه، ثم خفضت عينيها وتنهدت. اشعلت سيجارة وشربت جرعة من كأس البراندي. كانت تائهة النظرة. قالت باسترخاء:

ـ «ولا غريب ولا حاجة.»

بدا قولها، وهي خافضة رأسها، كأنه نوع من المكابرة. فكّر ايهاب: هكذا اذاً؟ تلعب لعبة المومس العريقة. تثير الرجل ثم تتمنع حتى تحكم سيطرتها عليه. قرر ان يلعب لعبتها فاخذ يشرب ويدخن دون ان يقول شيئاً. في هذه اللعبة يكون اول من يتكلم، او ينهض، او يعبر عن ضيقه باية حركة هو الخاسر. قال لنفسه انها تتظاهر بالتفكير، ولكن النظرات السريعة التي تلقيها عليه وتحفز الكتفين، وتفاديها المتعمد لالتقاء عينيها بعينيه تشير انها تمارس نفس اللعبة معه. كيف سينتهي موقف كهذا؟ يجب ان يبدأ احدهما بالكلام. لن يكون هو. ولكن ماذا لو اتخذت هي نفس القرار؟ سيصمتان الى الابد. كاد ان ينفجر بالضحك، عندما تخيلهما وهما صامتين هكذا لايام طويلة. قال:

ـ «ساكته ليه؟»

قال:

ـ «انت اللي عايزة تتكلمي.»

ـ «خلّصت كلام. تكلم انت.»

لم يرد. لم يكن الصمت سهلاً، فعيناها المسلطتان عليه تشكلان ضغطاً عصبياً. شعر ببوادر تلك الرعشة في الجهة اليسرى من شفته العليا فسيطر على عضلات وجهه بتكشيرة. ضحكت. قال لنفسه بغيظ: «فتاة مرحة!» قالت:

ـ «زعلان؟»

ـ «لا.»
ـ «امال مالك نازل عليك سهم الله؟»
ـ «عايز آكل.»
ـ «سهلة قوي. نو كلك.»

نهضت وخرجت. فكر ايهاب: الغداء سوف يكون هدنة بيننا. سوف يكون مزدحماً بالحركات الحيادية المبررة، ثم ستستأنف اللعبة بعد الغداء، في السرير. انها هي التي تمتلك زمام المبادرة. هي التي غادرته دون اكتراث في نقابة الصحفيين، وهي التي عادت. ومن خلال هذه الكميات الكبيرة من الطعام التي جاءت بها فرضت نفسها كصاحبة بيت لا كمتطفلة. وهي التي تحدد شروط الموقف الحالي، فعندما رغب فيها رفضت.

دخلت الحجرة وفي يدها قطعة من القماش المبلول مسحت بها الطرابيزة بعد ان وضعت البراندي وجردل الثلج ومنفضة السجاير على طرابيزة صغيرة مجاورة. قالت:

ـ «الاكل حا يجهز بعدما اخلص السلطه.»

وخرجت دون ان تنتظر رداً.

وبدأ الخذلان يغزوه. ما معنى هذه المكابرة؟ سيناما بعد الغداء. لن يكون هو البادىء. ولكنه يعلم انها إن بدأت فسوف يستجيب. بعد ان يستيقظ من النوم سوف يذهب لزيارة اسماعيل. سيخبره ان زينب عادت فماذا عليه ان يفعل. سوف يجعلها تنتظره وقتاً طويلاً.

دخلت حاملة طبق السلطة والخبز، ثم انصرفت مسرعة كالهاربة. عادت بعد قليل تحمل الخرشوف وفوقه اللحمة المفرومة، والرز والطرشي. قالت:

ـ «الاكل جاهز.»

جذب كرسيه قريباً من الطربيزة. جلست وقالت:

ـ «الانتركوت حا يجهز بعد عشر دقايق.»

كان لزينب ذوق رفيع في اعداد الطعام وفي اسلوب وضعه على المائدة. شرائح الطماطم الكبيرة، التي غطّى وجهها الثوم المهروس والليمون والكمون وقطع الفلفل الحار الاخضر، سلطة الباذنجان والفلفل الرومي المقليين، وقد غمسا بالخل ووضع الثوم فوقهما، الخرشوف بحشوته وهو يذوب في الفم كالزبدة، والرز المفلفل المعد بطريقة تبدو معها حبة الرز طويلة متماسكة. كيف يتفق ذلك مع حالة الخرق والجنون التي تعيشها؟ سأل ايهاب نفسه وقد انفتحت شهيته للطعام. قال:

ـ «انا مستغرب ازاي واحده فوضوية زيك تعمل الاكل العظيم دا.»

تضرج وجهها بحمرة قاتمة وقالت: «الاكل عجبك؟»

ـ «جداً. ازاي بتوفقي بين اكلك وشخصيتك؟»

قالت: «تحضير الاكل ممتع.»

ـ «ممتع؟»

ضحكت بارتباك وقالت: «زي الجنس.»

- «زي الجنس؟ مقارنة غريبة.»

قالت:

- «حاتشوف كمان شويه وتقارن.»

- «بتسمتعي بالجنس دايما؟»

«معاك.»

من الواضح انها تخلت عن مكابرتها، اذ امسكت يده وقبلتها. قال:

- «امال يعني..؟»

قالت وكأنها صبية صغيرة: «مش مهم.»

نهضت. قال: «رايحة فين؟»

قالت: «الانتركوت عالنار.»

وجاءت بالانتركوت. كيف تستطيع ان تجعله بهذه الطراوة، وان تصنع هذه الصلصة السوداء التي تخالطها شقرة فتعطي للانتركوت هذا المذاق المذهل؟

حاول كثيراً ان يعد الانتركوت بطريقتها يظل اللحم قاسياً. والصلصة بيضاء، مجرد ماء وملح. يدهشه انها عندما تتحدث عن اعداد الانتركوت يبدو كأن اتقان صنعته مجرد صدفة. وكان يلاحظ اهتمامها بالنظافة بعد تناول الطعام، اذ تنظف اسنانها بالمعجون والفرشة، وتغسل قدميها قبل ان تدخل السرير. اما هو فلم يكن يحب لطعم معجون الاسنان ان يحتل مكان طعم الاكل.

بعد ان غسلت فمها قبلته بشفتين باردتين طريتين. كانت قبلة منعشة قال:

- «بوستك لذيذة.»

قالت: «هوه انت شفت حاجه!»

قال: «اشمعنى دلوقتي؟»

قال بجدية باللغة بالانجليزية، وشفتاها تلمسان شفتيه:

- «لان لكل شيء زماناً ومكاناً. بتحبني؟»

- «جداً.»

- «ومتغاظ مني شوية؟»

- «جداً».

- «وعايز تموتني؟»

- «تقريبا.»

شربا القهوة، ثم دخلا السرير. فكر ان يقول لها انها لم تكن جميلة كما هي الآن، ثم عدل، خوفاً من ان تقتنع ان اسلوبها هذا هو الذي يجعلها مشتهاه ومحبوبة. ارتفع حبه وشوقه اليها الى الحد الذي جعله يتوق لأن يعبر عنها عملياً فانحنى واخذ يقبل اصابع قدميها واحداً واحداً. ثم اخذ يرتفع بشفتيه الى ساقيها وفخذيها وبطنها وصدرها صاعداً الى وجهها. كان جسدها يرتعش ارتعاشات موقعة، وكانت تطلق انيناً خافتاً، خشناً. ثم جعلها تنام على وجهها واعاد الكرة ابتداء من قدميها.

بمجرد ان لامست شفتاه عنقها شهقت كأنها فوجئت واخذت عضلات الردفين ترتعش، وارتفع انينها فاصبح استغاثة. نادته: «بتحبني؟»

من خلال لهاثه قال: «بحبك.»

ومضت: «بتحبني؟ بتحبني؟ بتحبني؟..» لما لا نهاية. ثم، وكأنها تنتظر لحظة محددة استدارت واحتضنته وجعلته يستلقي على ظهره. كان لها قوة هائلة، وفعلت الاعاجيب. ثم وهما يسترخيان بعد الممارسة الجنسية الاولى قالت:

- «ما تسبنيش حبيبي.»

قال: «مش حا اسيبك ابداً.»

- «ابداً؟»

- «ابداً»

وهو يشعر انه يلزم نفسه بوعد لا يستطيع ان يفي به. واستمرا. كان ينجذب نحوها باحساس انها قد تختفي في اية لحظة. سألها فجأة بعصبية:

- «قولي لي بصراحة. الك علاقة بالزفت حماده؟»

قالت بهمس: «لا حبيبي.»

لايدري متى ناما ولكنه استيقظ في الحادية عشرة ليلاً فرآها تجلس على طرف السرير تلبس قميص نوم وتضع صينية على الكومودينو بجوار السرير. قال:

- «زينب! انت جيتِ؟»

نظرت اليه بوجه حزين وقالت: «انا جنبك حبيبي. اصحى اشرب القهوة.»

قال وهو يتثاءب: «الساعة كام؟»

- «احد اشر.»

قال: «نشرب كاس براندي سك مع القهوة.»

ودّ ان تعترض. كان يشعر بالغثيان. ولكنها جاءت بالكأسين وشرباهما مع القهوة.

قالت: «الجرس ضرب مرتين وانت نايم ما فتحتش.»

قال: «انتِ ما نمتيش؟»

- «نمت. نمت كويس.»

بمقاطع صغيرة من الفعل والقول اعدا نفسيهما لليل. شربا وأكلا ثم اندفعا الى جنون الجنس. في البدء شعر ايهاب انهما يكرران، وبدرجة اقل، ما حدث ظهراً. ولكن تمايز ليلهما بعد قليل، وركب ايهاب عفريت اسمه: «ما تبعديش عني يقول ذلك بلهفة ويعلم انه غير صادق. ناما في الخامسة صباحاً. ايقظته زينب في السابعة والنصف وهي مرتدية ملابسها. قال:

- «رايحة فين؟»

نظرت اليه وابتسمت. كانت تدخن سيجارة وتشرب قهوة. داعبت وجهه بيدها وقالت:

- «عالشغل طبعاً.»

قال: «الشغل؟ آه الشغل.»

قدمت له فنجان القهوة فسألها متى تعود، فقالت:

- «مش عارفة يمكن اليوم. يمكن بكره.»

قال: «اشعلي لي سيجارة علشان افوق لك.»

قبل ان تخرج زينب وقفت بباب الشقة وقالت:

- «عامل ايه مع تفيده؟»

- «ايه؟»

- «المومس الفاضلة.»

وخرجت.

الفصل الثالث

بعد خروج هنية بقليل جاءت سعاد تحمل الطفلة سناء، رأت خالتها تجلس الى المكتب الذي يجلس اليه مصطفى تكتب. كان جلوس خالتها الى المكتب يدهشها ويضحكها. وبعد ان كررت سعاد اكثر من مرة: «بعد ماشاب ودّوه الكتّاب.» تبين لها ان خالتها لاتحب ان يمازحها أحد حول جلوسها الى المكتب.

نهضت تفيدة وتناولت سناء. قالت لها: «مشوار حلو؟»

قالت سناء: «حلو.»

قالت سعاد: «البنت الآروبه دي كانت حاتجيب لي الصرع. عايزة تعرف كل حاجة. ايه دا، وايه دا؟..»

قالت تفيدة: «الله يخليك ياسعاد اعملي لي فنجان قهوة. حاقعد اكتب شويه.»

قالت سعاد: «هاتي سناء.»

قالت تفيدة: «خليها معايا لما تعملي القهوة.»

لم تكن هنية وحدها هي التي فوجئت بقول تفيدة ان نقطة التحول في حياتها التي كانت تنتظرها هي الكتابة. لقد فوجئت تفيدة ايضاً. لقد بدأت فعلاً في كتابة الرواية. ولكن ماان تجلس للكتابة حتى يستولي عليها اعياء مفاجىء. تكون قد اعدت في ذهنها ماتريد ان تكتبه ولكن ماان تمسك القلم حتى لاتجد ماتكتبه، وان وجدته لن يكون ماقررت ان تعبر عنه. وقد خشيت ان تبوح بذلك لاحد لانها كانت تتصور ان الجواب سوف يكون: انك تضيعين وقتك. ولكنها واثقة أنها قادرة على الكتابة لولا هذا الاعياء الذي ينتابها.

رغم كل الروايات التي قرأتها فانها لم تكن تستطيع في روايتها الخروج عن الخطوط ال[illegible] للفلم العربي. كل ماتريده ان يكون هذا الفلم مختلفاً، لقد خبرت الحياة وهي تعرف ان مايحد[illegible] الفلم العربي ليس مايحدث في الواقع. ففي الفلم العربي لايتكلمون عن خيبة الامل التي تر[illegible] لامنا عندما تتحقق بل يتحدثون عن خيبة الامل عندما تفشل. لقد لاحظت ان مانحلم به [illegible] سن معينة في الغالب. ولكن ذلك لايجعلنا سعداء.

خطر لتفيدة، وهي تنظر في وجه الطفلة، ان مايصيبها حين تكتب ليس الاعياء، بل الخوف،

خطرت لها الفكرة دون ان تستبطن مشاعرها، اذ جاءتها الكلمة وكأن أحداً قد همس لها بها. وفكرت انه خوف لامثيل له، يشبه الخوف من الموت. ولكن مما تخاف؟ هل هو الخوف ان تطرد من هذه الحياة التي تعيشها وتعود الى الحي الشعبي؟ غريب، قالت لنفسها، هذا الارتباط بين المسألتين.

وعندما رأت سعاد قادمه، حاملة صينية القهوة تولدت العبارة في ذهنها: الكتابة هي شكل من أشكال العودة الى الحي الشعبي. وتلا ذلك عبارة جاءت وكأنها استمرار في لعبة لفظية: «الكتابة فضيحة. جلست سعاد واخذت تصب القهوة. قالت تفيدة:

- «قولي لي ياسعاد مابتفكريش في المستقبل.»

قالت انها تفكر في ذلك ولهذا تعلمت الدق على الآلة الكاتبة العربية، وهي تتعلم الانجليزي لتدق على الآلة الكاتبة الانجليزية.

قالت تفيده: «لا، عايزة أقول الجواز.»

قالت سعاد: «هوة الجواز مستقبل! فين الراجل اللي الواحدة تعتمد عليه!»

قالت تفيدة: «امال ايه؟»

قالت سعاد: «قبل كل حاجة لازم الواحدة تعتمد على نفسها في وقتنا دا الراجل وحده مش ضمانة.»

ادهشتها سعاد. تعرف مالايعرفه الفلم العربي: «الزواج ليس النهاية السعيدة. فماذا يخيفها اذاً؟ عادت الى الكتابة. ادهشها ان الاعياء - الخوف قد فارقها. اخذت تكتب دون توقف، وخلال ذلك تعيش نشوة امتلاء الوجود، ذلك الاحساس الذي يجيء عندما يكتشف الانسان ان كل تفاصيل الحياة المجانية والمهملة قد تحولت الى ثروة حقيقية، عندما تصبح هذه التفاصيل اجزاء في كلية ذات معنى. وفي الرواية التي تكتبها كان لكل شخصية اصلها الواقعي. كان الرجل يرتكز على شخصية مصطفى كانت الفتاة، وهي الشخصية الرئيسة في الرواية الى حد انها كانت روايتها، ترى في شخصية الرجل مفتاحاً لعالم لاتراه الا في بيوت الباشاوات، ذوي القلوب الطيبة، الذين يظهرون في الافلام العربية. لم تكن تراه كشخص بذاته.

دخلت سعاد حاملة صينية القهوة وخلفها سناء تثرثر. قالت سعاد:

- «جبت لك قهوة.»

- «مرسي ياحبيبتي.»

حاولت سناء ان تصعد فوق المكتب فحملتها سعاد والطفلة تصرخ: «اشوف، اشوف.»

قالت سعاد: «مافيش عندها غير ايه دا؟ واشوف.»

ضحكت تفيدة ونهضت وقبلت سناء وقالت:

«خليك بره شويه حبيبتي علشان ماما تشتغل.»

وخرجت سعاد حاملة الطفلة التي كانت تصيح: «اشوف اشوف.»

الفرح لمسها في العمق لمرأى الطفلة وهي تصرخ «اشوف» كانت فتاة الرواية في سبيلها ان تنفتح على عالم الشاب الجديد بسيل من الاسئلة توجهها اليه. كان الدافع وراء اسئلتها هو ان تعيش في الخيال، وكحلم تعتقد انه سوف يتحقق، حياة الارستقراطية المصرية، الطيبة القلب، كما تظهر في

الافلام. في خيالها كانت ترتسم بقوة تلك الالوان العميقة، البراقة لحدائق وحمامات سباحة وبيوت الارستقراطية، خاصة اللون الازرق الذي يكاد يصبغ بالزرقة اجساد المستحمين. كانت تفيدة تعيش لهفة الفتاة وجمال حلمها. ولكنها، لاتدري كيف، اصبح الموقف مضحكاً. كان الاطار المرجعي للشاب رؤية ثورية دوغماتية فأصبح الحوار بينهما يغرق في سوء تفاهم مضحك الى ان قال الشاب فجأة:

- «ايه الحكاية؟ بتسألي اسئلة غريبة ومكررة.»

وأخذت تفيدة تخرج الشاب من دائرة تعاطفها كان عاجزاً عن فهم الفتاة. وفي مشهد تال حدست الفتاة عدم واقعية احلامها، في حين يظل الشاب كما هو، يستجيب استجابات نمطية. تشعر الفتاة بخيبة امل تحاول ان تسكتها.

حين تكتب تفيدة يكون في خيالها جمهور محدد شخص واحد بالتحديد، وذلك هو ايهاب. كانت تكتب وتشهد، في خيالها، ردود فعله. رأته يصغي الى عباراتها الاخيرة، ويقول بأسلوبه المتحمس الذي يفتقد الادراك الحقيقي لظروف الموقف «رائع لكن..» يدركها الخوف. سيحدس الحقيقة. تقول: «لكن ايه؟» فيقول: «هو» دا رأيك الحقيقي في مصطفى؟»

يدركها الاعياء حتى انها تعجز عن اكمال الجملة التي بدأتها. تتوقف عن الكتابة، وتضع الكراس والقلم في الدرج تخرج وتنادي سعاد. جاءها صوت سعاد:

- «في البلكونة والهانم معايا.»

قالت تفيده: «تعالوا اقعدوا هنا.»

جاءت سناء مسرعة بمشيتها الخرقاء التي توحي بانها قد تسقط في اية لحظة وارتمت بين ذراعي امها كتلة مرنة ناعمة، متحركة في كل الاتجاهات ثرثارة، دافئة. عندما قبلتها تفيدة خطر لها ان لخدها ملمس الورد. مدت سعاد يديها متظاهرة بانها تريد انتزاع الطفلة من امها، التصقت الطفلة بصدر امها وقالت لسعاد:

- «روحي باي باي.»

قالت تفيدة: «عايزه تروحي مع سعاد باي باي؟»

قالت سناء: «مع ماما.»

قالت سعاد: «زي القطط. اكّاله ونكّاره.»

كانت تفيدة تشعر وكأنها غابت طويلاً في مكان مليء بالاخطار، ثم عادت الى الامان. وكما يحدث عندما نطالع الاطفال باحاسيس الحنين والحب اكتشفت تفيدة الجمال النادر لسناء. خطر لها ان هذه الكتلة المذهلة هي العنصر الذي يشد لحمة العائلة، ويولّد الامان، وهي رغم هذا جزء عضوي منها، لها عليها سلطة لاتحد. كان ذلك كشفاً لمصدر قوة لم تكن مدركة له.

احتضنت رمزالامان هذا، الذي بدا منفصلاً على نحو ما بسبب ماتكشّف له من دور قوي، وتحولت احاسيس الحب والحنان الى رغبة ضاغطة، خانقة في البكاء. شعرت انها في مزاج الاعتذار للجميع.. انها اثقلت على سعاد بسناء، وانها اهملت سناء، وكأنها بعد ان ولدتها اصبح همها ان تبعدها عنها. اية ام هي!

قالت لسناء:

ـ «قومي حبيبتي علشان احضر الاكل. بابا زمانه جاي.»

قالت سعاد: «الاكل جاهز.»

ـ «جهزتيه امتى؟»

ـ «وانت بتكتبي جوه.»

قالت تفيدة وكأنها تخاطب نفسها:

ـ «عملت دا كله وانا بكتب!»

لم تقل سعاد شيئاً. كأنها بصمتها تلومها، تقول لها: أقوم بعملك وانت تقومين باشياء مضحكة. شعرت بالخجل اذ بدا لها ان ممارستها للكتابة مسلك مفتعل، ليست مهيئة له. وعندما رأت سعاد تستعد للخروج لحضور دروس اللغة الانجليزية والآلة الكاتبة شعرت تفيدة ان سعاد تهجرها. قالت:

ـ «ضروري تروحي النهاردا؟»

نظرت اليها سعاد متسائلة وواصلت ارتداء ملابسها.

كانت تريد ان تحتمي بسعاد. لم تكن تريد ان تواجه مصطفى وحيدة، وهي تحمل عار الكتابة، خيانة مصطفى في الكتابة. رغبت ان يكون البيت مليئاً بالناس. وتذكرت الاحساس القديم بالوحشة. كان يأتيها ساعة الغروب. يكون الجو بلورياً معتمًا، العتمة لون الخوف، ولون خفيف الحمرة يصبغ الافق الغربي. تبدو البيوت والنخيل والحيوانات والترعة واشجارها العملاقة والبشر، يبدون وكأنهم يغرقون ويتلاشون في عالم خفي، يتواصلون فيه ويدبرون اموراً مستورة، يستعيدون بذلك حياة سرية، خاصة بهم، وهي منفية عن ذلك كله.

قالت سعاد انها ستعود في الرابعة وعندما انغلق الباب وراءها شعرت تفيدة ان سعاد قد هجرتها الى الابد.

تذكرت تفيدة ذلك الاحساس بالوحدة والخوف في داخل عتمة شفافة وقد اخذت الاشياء تفقد تحددها وتغوص في التباس مبهم الحدود. كانت الاشياء تمارس حياتها السرية، وسط عالم مسكون، يتربص في مكان ما منه شر متفحز، اسمر، مهدد. هاهي تعيش مرة أخرى رعب العالم المسكون، وهي فيه وحيدة وحزينة حتى الموت، راغبة للاشياء والعالم والناس ان يخرجوا من عتمتهم الشفافة، وان يستعيدوا خصائصهم الشمسية، الراسخة، اليومية، وكانت تتشبث بالناس، تريد اكبر عدد منهم ان يجتمعوا حولها، ويحيطوا بها حتى اللمس

قالت سناء: «سعاد باي، باي.»

قالت تفيدة: «ايوه حبيبتي. راحت باي باي.»

قالت ذلك وكأنها تندب.

جاء مصطفى اصبحت سناء المركز الانفعالي الذي يتواصلان من خلاله. قال مصطفى:

ـ «زي القمر.»

فتقول تفيدة: «طلعت مشوار هيه وسعاد.»
يقول مصطفى: «رحت باي باي؟»
تضحك تفيدة وتقول:
ـ «دوشت سعاد قالت سعاد كل ماتشوف حاجة تقول: «ايه دا؟ ايه داه؟ اشوف.»
قالت سناء وهي تمسك بشعر مصطفى: «ايه دا؟»
ضحك الاثنان واصرت سناء: «ايه دا؟ ايه دا؟»
قال مصطفى: «دا شعر. قولي شعر.»
حاولت سناء ان تقول شعر ولكنها صدرت عنها كأنها «تل» واخذا ترددها وهي تمسك بشعر مصطفى. قال مصطفى:
ـ «قولي شعر.. شـ.. عـــ... ر... شا..... عـ.. ر...»
قالت تفيدة: «تعالي حبيبتي خلي بابا يقلع هدومه.».
ولكن سناء تشبثت بأبيها وهي تصرخ: «اشوف، اشوف.»
منذ خروجه من السجن كان مصطفى يشعر ان تفيدة تغيرت. وحتى عندما عادت العلاقة الجنسية بينهما كان يشعر انها لاتمنح نفسها كلية له. بدت له محاطة بمجال دفاعي يكبح حتى رغباته الصغيرة كأن يقبلها في الاوقات العادية او يجعلها تضع رأسها على كتفه. كانت رغباته احياناً تقهره فيستسلم فيتخذ رد فعلها على الدوام طابع المفاجأة، ثم الاعتذار.
في هذا اليوم شعـر انها تغـيرت. ففي جلستها عندما دخل كان كتفها البعيد متجهاً اليه، ووجهها الذي يستدير مبتسمًا كأنها تعتذر. ابعد سناء عن صدره وامسكها بين يديه رافعاً اياها في الهواء بين يديه، وقال لها:
ـ «روحي عند ماما علشان بابا يقلع هدومه.»
امسكتها تفيدة وبسمة تواطؤ ترتسم على فمها جعلت الرغبة تصعد عبر احشائه. شعر أنه يرتعش. سار الى حجرة النوم واخذ يخلع ملابسه دون ان يشعل الضوء. فوجيء بالحجرة تضاء وتفيدة تقف مبتسمة. قالت:
ـ «بتقلع في الظلمة ليه؟»
كانت تعرف الحالة التي هو فيها. تقدمت نحو الخزانة فاعترض طريقها. امسك وجهها بين يديه وقبلها. تنفست بعمق وهمست: «حبيبي.»
ثم وضعت رأسها على كتفه حاول مصطفى ان يقودها الى السرير فرفعت نحوه وجهاً خجلاً، ساكناً، وقالت: «نتغدى الاول.»
أخذت سناء تخبط الباب وتغمغم بكلام غير مفهوم. تبادل مصطفى وتفيدة النظرات وانفجرت تفيدة بالضحك قالت: «عقدة الكترا.»
فتحت تفيدة الباب وحملت سناء وقالت:
ـ «تعالي حبيبتي نحضر الغدا.»
خلال الغداء كان مصطفى يتساءل: «كيف سيتم ذلك؟ سيتمددان على السرير، ولكن ماذا

عن سناء؟ كان متوتراً، ولكن سخطه لم يتوجه الى سناء. غير ان كل شيء تم بسهولة. يعلم مصطفى ان تفيدة تستطيع تدبير الامور عندما ترغب في ذلك. بالنسبة لها. وربما للنساء عموماً هنالك دائماً امكانية لحل مسألة تبدو بلا حل. ينسى الحل دائماً ولكن تفيدة تلتقطه بثقة، وسريعاً. بعد الغداء جاءت سعاد. سألتها تفيدة ان كانت قد تناولت غداءها فقالت انها اكلت سندويتشاً ولا تشعر برغبة في الطعام. تريد ان تنام فقط. طلبت منها تفيدة ان تنام سناء معها. مدت سعاد سبابتها نحو سناء وهزتها وقالت: «تنامي على طول. انا مش فاضية لدلعك فاهمة؟»

اخذت سناء تقلد سعاد دون ان تستطيع مد سبابتها وحدها، بل مدت كل اصابعها، ورددت ايقاع عبارات سعاد بكلام غير واضح. ضحكت سعاد واحتضنتها وهي تقول:

- «دمك زي الشربات.»

في السرير كانت تفيدة مقبلة دون قيود. منذ زمن طويل لم يحدث ذلك. أصبحت طبيعة راسخة عند مصطفى ان يعطي مقابل كل مايبذل له من كرم. كان ذلك يتم تلقائياً: ان يطلب شيئاً مقابل مايمنحه للآخرين، وان يعطي لمن يكرم عليه. وعندما رأى تفيدة مقبلة عليه شعر بأنها تعطيه اكثر من حقه. فهمس لها.

- «ايه رأيك نجيب أخ لسناء؟»

دفنت رأسها في صدره. فقال: «ايه رأيك؟»

- «موافقة.»

- «واخت للأخ؟»

- «واخ..»

- «لا. بس اتنين. بنتين وصبي.»

تبين لتفيدة انها قدمت اعتذارها كاملاً لمصطفى. تم ذلك كما تريده بالضبط. أهذا ما مايسمونه كيد النساء؟ ولكن كل شيء تم دون تدبير. قالت وهي تقبل صدره، قالت لصدره:

- «بتحبني؟»

تسأل وهو الذي لم يتوقف لحظة واحدة، منذ ان عرفها، عن الالتياث بحبها. قال:

- «بحبك.»

- «كتير؟»

غريب هذا السؤال، وغريبة تفيدة اليوم. قال:

- «اكتر من اي شيء في الدنيا.»

قررت في تلك اللحظة ان تحسّن صورة الشاب في الرواية.

***

جاءت هدى في السابعة مساء، ومن بعدها توافد الزوار. هنية وحسن، ايهاب ووليد ونوال. ثم في التاسعة جاء اسماعيل وفهمي. ثم تحولت الزيارة الى شبه حفلة، فيها الخمر والطعام. اصبح الخمر جزءاً ثابتاً في كل لقاء: البراندي والزبيب وهذا الخليط الذي اخترعته زينب، او ربما نقلته عن

آخرين دون ان تصرح بذلك. وهو مزيج من الروم والمياه الغازية (الاسباتس) وشرائح الليمون.

عندما دخلت هدى تأملت تفيدة وقالت انها تبدو وكأنها صغرت عشر سنوات. وعندما جاءت هنية قالت بحماس: «تفيدة.» وأخذت تتأمل وجهها ثم أضافت:

- «زغرانه ياأختي عشر سنين.»

ضحكت هدى وتفيدة فارتبكت هنية وقالت:

- «بتضحكوا ليه؟ قلت حاجة تضحك؟»

قالت هدى انها قالت لتفيدة نفس العبارة، قالت تفيدة:

- «حاتصيبوني بالعين.»

قال مصطفى: «تيجو نبخرها؟»

انتقل الحديث دون تقصد الى السياسة. كان الموضوع حرب الاستنزاف، خاصة المعركة الجوية التي حقق فيها المصريون نصراً غير متوقع. اجتذب ايهاب انتباه تفيدة. بدا نحيلاً حاد التقاطيع. ولكن وجهه، الذي أصبح مرهقاً يجذب النظر بقوة. كان هنالك فتنة في هذه الشيخوخة المبكرة. رغبت تفيدة ان تلمسه، واندفع الحنان في داخلها كرعشة البرد. فكرت ان كل ذلك بسبب زينب. سوف تدمره هذه القحبة.

قال مصطفى: «مالك ساكت ياعم ايهاب؟»

قال: «مافيش.»

في وجهه ذلك الحزن الانيق الذي شاهدته تفيدة في وجه شاب اكتشفت ان احد كمي جاكتته فارغ.. هذا الحزن الانيق الذي لايطاق. وضعت يدها على يده التي كانت تستقر على مسند الكنبة الاسطمبولي فشعرت برعشة سرت في جسدها. قالت: «عامل ايه في الرواية؟»

قال: «وقفت كتابه فيها.»

قال: «راكنها شوية علشان ابتديت بمشروع جديد. رواية تسجيلية.»

سألته عن موضوعها فقال: «عن ايه؟ عن ايه؟ وابتسم ثم أضاف:

- «عن زينب. كل شيء عنها السيء والجيد. والاكيد (ضحك) ان السيء اكتر.»

شعرت تفيدة انها تختنق فنهضت وخرجت. دخل مصطفى المطبخ فرآها تبكي. قال بلهفة:

- «تفيدة مالك؟»

قالت من خلال بكائها: «المسكين الغلبان..»

- «ايهاب؟»

قالت: «البنت الحقيرة حاتدمره.»

- «لازم نعمل شيء. بس مش بطريقتك دي.»

- «تصور عايز يكتب رواية تسجيلية عنها.»

قال مصطفى: «سمعته بيكلمك. لازم نشوف حل لحكاية الجدع دا.»

قالت: «روح اقعد مع وانا حاحصلك.»

دخلت الحمام. امسكت بطرف الحوض ونظرت الى وجهها في المرآة، وفكرت: «عشر سنين

اصغر.» ثم خطر لها: «لو كان ايهاب زوجي لما توقف عن الكتابة ولما بقى حزيناً.. ثم استعادت تماسكها: ماهذا الذي افكر فيه؟ وتحت وطأة الشعور بالذنب يتحول ايهاب الى ابن، يضع رأسه على صدرها، ويشكو لها همومه.

تغسل وجهها، تعيد ترتيب شعرها، تنظر في المرآة بتدقيق وتقول: «اصغر بعشر سنوات.» ثم تعود الى الصالون. الحديث سازال يدور حول حرب الاستنزاف. كان الحديث يتسم بطابع احلام اليقظة التي تحولت الى اشاعات. وعندما يصبح الحديث على هذا النحو فان تفيدة تشعر انها سمعته من قبل. جلست قرب ايهاب، فقال لها:

- «وانت ايه رأيك؟ يعني ان المعركة الجوية الأخيرة كان الطيارين فيها سوفييت.»

قالت: «الجواب عايز معلومات مش آراء.»

قال: «كل يوم اعجابي بيك بيزيد.»

لم يقل «مدام تفيدة» كما تعود. وبحس الانثى شعرت برعشة العاشق في صوته. في تلك اللحظة دخل اسماعيل وفهمي. قالت هدى:

- «الاخبار المؤكدة وصلت.»

قال اسماعيل: «اخبارنا احنا؟»

قالت هدى: «طبعاً. حد ينسى سهرة ستة يونيو.»

***

في الساعة العاشرة اتضح ان الجميع يرغبون في المغادرة. البعض اوردوا اسباباً مقنعة، والبعض الآخر لما رأى ان عليه ان ينصرف اخترع مبررات لخروجه. حتى مصطفى خرج مع اسماعيل. قال لتفيدة انه لن يتأخر. قال اسماعيل ان مصطفى قد يتأخر فقالت تفيدة: «تأخر زي ماانت عايز.»

قال اسماعيل: «مافيش خطر عليه لو تأخر؟»

قالت تفيدة: «حاستناه بالمقشة عالباب، زي مابيرسموا في الكاريكاتير.»

خرجوا وبقيت تفيدة وحيدة.

جلست باحساس المراهقة المهددة بالاغتصاب. الرواية أصبحت اغواء ورعباً. ودت لو ان سعاد لم تذهب الى شقتها، او لو ان سناء تستيقظ، كان يدفعها نحو الرواية احساس مضن بالواجب، وخشية غير محددة من ان المخطوطة، وهي موضوعة في درج المكتب، تشكل تهديداً بوقوع كارثة عليها ان تتفاداها بسرعة وحسم. كانت المخطوطة تستقر هنالك ساكنة، بريئة المظهر، ولكنها تخفي سماً وفضيحة. ذلك الحوار الغريب. لم يكن في خيالها مضمون الرواية، بل شكله على الورق: الشرطات التي تسبق كلام الشخصيات، وشكل الصفحة خفيفة غير متناسقة السطور. بدا هذا الشكل نذيراً بخطر متحفز.

رأت نفسها عاجزة عن الحركة، او عن اتخاذ قرار بالحركة. شعرت بذلك الشلل، فقدان القدرة على الحركة وعلى الصراخ، الذي يحدث لها في الكوابيس. تكون في الكابوس الكارثة محققة

ولكنها عاجزة عن اية حركة لتفاديها. شيء ما يشدها الى مكانها. تناقش نفسها وتقرر ان تنهض. ولكنها تظل مربوطة الى مكانها.

تذكرت ماحدث بينها وبين مصطفى ظهر اليوم. تحس بسريان الرغبة في جسدها. وقالت هدى: «زغرانة عشر سنين». ثم يتوقف التذكر وتفاجأها الرواية. نهضت فجأة من على الكنبة الاسطمبولي. ستزيل تلك الفقرات.

جلست وراء المكتب، اخرجت الرواية وفتحتها على الصفحة التي توقفت عندها. امسكت القلم ثم وضعته جانباً. اتجهت الى المطبخ واخذت تعد فنجان قهوة. خلال ذلك رجت ان يحدث شيء ما يبعدها عن الرواية، كأن تستيقظ سناء او يدق الباب زائر. ولكن يبدو ان الجميع قد انشغلوا عنها هذه الليلة، وان سناء (هنا ابتسمت دون ان تدري) قد اهتدت بالله وقررت ان تواصل نومها حتى الصباح. وتذكرت عبارة ايهاب عندما سأل عن سناء فقالت له انها نائمة، فقال: «نوم الظالمين عباده.»

عادت وجلست وراء المكتب وأخذت تعيد قراءة الصفحات الاخيرة التي كتبتها. استولى عليها ذلك الغثيان الذي يأتي الكاتب عندما يصحح بروفات كتابه المرسلة من المطبعة، اذ يشعر انها فضيحة ويجب ان تعاد كتابتها. ثم اعادت قراءتها باحساس محبط فاستعادت بعض الرضى عنها. لم تحذف الفقرات التي نوت حذفها. لم يكن الامر سيئاً كما تصورته. على اية حال ما الذي يجعل هذا الشخص هو مصطفى؟ قررت ان يكون حسن هو المقصود. استعادت وجه حسن بعينيه الخضراوين وذلك التوق الى شيء غير مفهوم في وجهه فشعرت انه لن يكون هو. ولكن لماذا يكون شخصاً واقعياً؟

ثم جاءتها الفكرة وأخذت تكتب. كتبت كثيراً وهي تشعر انها تقترب من حالة صدق مع الذات دون ان تصل اليها. بدت كتابتها وكأنها استعادة لحالة منسية، وخلال ذلك يراودها احساس ان هذا ليس بالضبط ماتريد قوله وان الصدق، لسبب غير مفهوم يراوغها. ادهشها كذلك ان الفتاة في الرواية مختلفة عن شخصيتها هي، تفيدة. كانت مضحكة وتستغرق وقتاً أطول من تفيدة لفهم دلالات تجربتها. ثم خطر لها ان الفتاة ليست هي، اذاً، فالشاب ليس مصطفى. منحها ذلك حرية اكبر. فجعلت الفتاة مضحكة اكثر والشاب اضيق افقاً. لابد للشاب ان يكون كذلك حتى تنكشف الجوانب المضحكة في شخصيتها. سمعت صوت سناء يناديها، فنظرت الى الساعة: «هل هذا معقول؟ انها الواحدة والنصف. ثلاث ساعات ونصف وهي تكتب! نهضت ودخلت حجرة النوم. كانت الطفلة تريد ان تشرب فاتت لها بالماء. وعادت الطفلة الى النوم. نامت تفيدة.

حلمت انها في مكان مألوف، ولكنها لاتستطيع ان تتذكر اسمه. تبين لها انها نسيت عنوان بيتها. تحاول ان تتذكره، فلا تستطيع سوى ان هنالك كوبري صغيراً مقاماً فوق احد فروع النيل، تعبر، ثم تسير يساراً هنالك اشخاص مألوفون ولكنها لاتتذكرهم بوضوح يقولون لها: «افتكري حاولي تفتكري» تقول انها تحاول، ولكن بيتها في بلدة أخرى. بعد ذلك ترى نفسها جالسة في مطعم ريفي صغير مكتظ بالمسافرين. يقول لها رجل يلبس بذلة سوداء قديمة الطراز وهو ينحني فوقها وكأنه يكلم طفلاً:

- «جوزك . . . جـ . . . و . . . ز . . . ك؟ جوزك اسمه ايـ . . . . ه؟»

تقول: «مش فاكره. باينه ايهاب . . لا والله حتى . . .»

- «اسمه ايه؟»

- «ايهاب.»

يقول الرجل: «وانت بتشتغلي ايه؟»

قالت: «مش بشتغل. قدمت للقوى العاملة، لكن . . »

وكما تقود طفلاً الى النتيجة المنطقية، وبأسلوب معلمي الصبية الذين ينغمون الكلمات ويؤكدون كل حرف فيها، يقول الرجل:

- «اذن نقدر نقول ان اسم جوزك مصطفى. مصـ . . طا . . فى والا احنا غلطنا . . ني . . ن؟»

لم يكن ذلك دقيقاً. ولكن مااهمية ذلك؟ المهم ان تصل الى بيتها قالت:

- «مش فاكره. مصطفى ايهاب . . يعني . . »

- «اسمه مصـ . . طافى . . »

قالت لمجرد ان تنهي هذا الموقف السخيف:

- «معقول.»

قال: «قلنا ايه؟ قلنا معقول.»

فتحت عينيها كان النور مضاء ومصطفى يقف بجوار السرير يناديها. فتحت عينيها وقالت: «مصطفى؟»

قال: «كنت بتضحكي وانت نايمة.»

- «مش معقول.»

- «حلمت بايه؟»

حاولت ان تتذكر، ثم قالت:

- «مش فاكره.»

الفصل الرابع

قال ايهاب: «خلي بالك. مش انت المصدر الوحيد للمعلومات.»

قالت زينب: «ايه مصادرك الاخرى؟»

قال: «بسأل الناس اللي بيعرفوك.»

قالت: «تجننت ياحبيبي؟ مش مصدقني؟»

- «مش دي المشكلة.»

- «امال ايه هيه المشكلة؟»

قال: «العين لاترى ذاتها. مش قريت رباعية اسكندرية بتاع لورنس داريل؟»

قالت: «كانت لعبة. كان ممكن تبقى رواية عادية لو كتبها بضمير الغائب رواية بوليسية وتجميع لشهادات الشهود.»

قال: «طيب - طيب، طيب.»

لم يكن يريد ان يستمر في النقاش. العمل بروايته الجديدة قد استولى عليه تماماً. وعلى عكس ماكان يتوقع فقد كانت زينب متجاوبة الى ابعد حد. قالت في البداية:

- «ولدت في يوم شديد البرودة في السادس من يناير عام ١٩٤٠.»

قال: «عرفت ازاي انه كان شديد البرودة؟»

قالت: «يعني زي مابيقولوا في الروايات.»

خلال هذه الحوارات اكتشف الوجه التقليدي الكامن وراء خروجها على كل التقاليد والقيم الاجتماعية. وقد تبين لايهاب ان ذلك قد اثار فيه حناناً نحوها لم يكن موجوداً من قبل. ينكشف هذا الوجه عندما تستغرق في الحديث عن ماضيها. اندهش مرة لمفهومها عن جمال المرأة، اذ قالت:

- «كانت ماما حلوة. بجد جميلة جداً بيضاء وطويلة، عيونها خضراء واخواتي البنات زيها، بيض وعيونهم خضر (ابتسم) انا الوحيدة السمرا سمرا ايه؟ سودا تقريباً (تضحك) مرة شافنا بابا قاعدين انا وامي واخواتي قال: «زيتونة سودا في طبق جبنة. كانوا بيسموني زيتونة. ورغم كده انا الوحيدة اللي خلصت الجامعة.»

قال ايهاب: «ليه؟»

قالت: «كلهم خلصوا توجيهية وتجوزوا. واحدة منهم، سميحة تجوزت قبل التوجيهية.»

ـ «انتو كام واحدة؟»
ـ «اربعه وصبي».
قال: «اشمعنى انتِ اللي خلصت جامعه وحدك؟»
ـ «علشان هربت.»
قال لها الآن ابتدا الجد. هربتِ؟ كيف؟. قالت:
ـ «كانوا حايجوزوني. صدق او لاتصدق زيتونه السودا المصوصة تقدم لها عريس محترم من عيله كويسه في المنصوره. اهلي ماصدقوا وداهم: البنت العامله زي الغراب فيه حد يتجوزها؟ ومش بس كده جوازه احسن من جوازات اخواتها؟ وافقوا على طول.»
قال ايهاب: «وانتِ رفضت؟»
قالت: «انا هربت وكانت جرسه.»
توقفت عن الكلام فلم يحاول ايهاب ان يستحثها. قالت انها هربت الى المنصورة وسكنت مع طالبة تعرفها هناك. وهكذا دخلت الجامعة. اخذ ايهاب يضيق بهذه العبارات المبتورة التي تقفز عن كل الاشياء التي تهمه. قال بحدة:
ـ «دخلتِ الجامعة لانك سكنتِ مع واحدة صاحبتك (اغرقت زينب في الضحك) كنتِ عايشة ازاي؟ بتصرفي منين؟»
قالت: «اشتغلت طبعاً.»
قال ايهاب: «انا في عرضك قولي جملة مفيدة على بعضها. اشتغلتِ فين؟ بتاخدي كام؟ فضلت عايشة مع صديقتك؟ مابتتكلميش ليه؟ تكلمي على طول.»
قالت: «بصراحة. انت عايز المعلومات دي والا بتمهد لمعلومات من نوع آخر؟»
قال: «يعني ايه؟»
ـ «عايز تعرف..»
قاطعها: «عايز اكتب.»
قالت: «عايز تعرف تاريخ حياتي الجنسية؟»
قال: «دا جزء.»
قالت: «سيبك من حكاية (دا جزء). حااحكي لك.»
قالت ان حياتها الجنسية بدأت في التاسعة من عمرها مع مدرس اللغة الفرنسية.
قال ايهاب: «حضنك؟ باسك؟»
قالت: «عملية جنسية كاملة.»
قال: «عملية جنسية كاملة مع طفلة؟ دا حيوان اكيد.»
ضحكت وقال: «انا اللي اغتصبته.»
وحكت له التفاصيل. كانت لها زميلة في المدرسة من النوع الذي يوصف بأنه أعز صديقة. شرحت لها صديقتها ان ممارسة الجنس متعة تجعل الفتاة تشعر انها في الجنة.
قال ايهاب: «صاحبتك دي كانت بتمارس الجنس في السن دا؟»

قالت زينب: لا. ولكنها كانت تقول دائماً انها عازمة على ذلك (ضحكت زينب) كانت صديقتي تقول ان على الفتاة ان تمارس هذه المتعة النادرة قبل الزواج، لانها عندما تتزوج فسوف يمنعها زوجها من ممارسة هذه العملية.

قال ايهاب: «طيب تمارسها مع جوزها.»

ضحكت زينب وقالت: «بتتكلم بجدية كأنك بتكتشف حاجة مش معروفة. كانت صاحبتي دي بتعتقد ان الزوج مش ممكن يمارس جنس مع مراته.»

ـ «عيب فعلاً. وحكاية مدرس الفرنسي؟»

روت زينب كيف انها زارته في بيته، وكيف انها حاصرته حتى جعلته يضاجعها. قالت انه من اسهل الامور ان تجعل المرأة رجلاً يضاجعها، أي رجل. البعض يوافق بعد تمنع ولكنهم كلهم في نهاية الامر يوافقون. قال ايهاب: ومدرس اللغة الفرنسية؟ قالت انه دائماً كان يرضخ. بعد المرة الاولى حاول ان يتفاداها، ولكنها كانت دائماً تفاجئه وتنتصر. تدخل اليه حجرته فترى الرعب قد ارتسم على وجهه، ولكنه كان يرضخ في النهاية.

سألها ايهاب: «والحكاية انتهت ازاي؟»

اغرقت زينب في الضحك وقالت انه هرب من البلدة كلها ومن المدرسة طبعاً الى المنصورة.

قال ايهاب: «كنتِ بتستمتعي معاه؟»

أخذت تتكلم ببطء: «كانت العملية، يعني الجو كله، الخوف والغرابه والتوتر ممتع. كان الملل بيقتلني. والجنس، يعني الجو، كان بيطلعني منها.»

ـ «كنت بتحبيه؟»

ـ «مش عارفه. حب؟»

ـ «بتحبيه اكتر مني؟»

ـ «انت مجنون.»

ـ «مثلاً يعني.»

ـ «انت غريب.»

بعد فترة صمت قال ايهاب: «ماشفتيهوش بعد كده؟»

قالت: «شفته.»

وتنهدت. انتظر ايهاب وهو مشحون بالترقب ان تستمر. قالت بعد قليل وكأنها تكلم نفسها:

ـ «كنت سنة اولى جامعة، كان عمري ثمنتاشر، كنت ماشيه في الشارع، في المنصورة زي ماقلت الك..»

قاطعها ايهاب: «انا في عرضك ادخلي في الموضوع!»

ـ «حاضر. كنت ماشيه في الشارع سمعت صوت بينده لي (يازينب). كان هوه. عرفته على طول. صار اسمن شويه. سلم علي بحرارة وبعدين ارتبك. مسك ايدي وماكانشي عايز يسيبها. فهمت.»

- **«فهمت ايه؟»**

انطلقت بضحكة مدوية ثم قالت:

- **«فهمت انا ايه؟ انت فهمت ايه؟»**

- «كنت عايزاه؟»

- «جداً.»

- **«وبعدين؟»**

قالت: «مشيت انا واياه لغاية البيت. قال لي انه تجوز وطلق.»

قالت: قال لي انه كان طيلة الوقت كان يفكر بي. سألته عن السبب الذي منعه من البحث عني قال انه كان خائفاً. كان يعود الى البلدة احياناً ويقف قريباً من المدرسة، يراني خارجة ويعزم ان يكلمني، ثم يتراجع. كان يخشى ان يكون رد فعلي عنيفاً وان اسبب له فضيحة.

قال ايهاب: **«فضيحة؟ فضيحة ليه؟»**

قالت: انه كان بتصور انني سأتهمه بانه اغتصبني وانني سأقلب ماحدث لصالحي.

قال ايهاب: «ومارستِ جنس معاه طبعاً؟»

قالت بتوكيد تهريجي: «طبعاً.»

وانفجرت ضاحكة وأضافت: «دا احنا مارسنا جنس ياجدع. ماعندكش فكره.»

قال: «لا. عندي فكره كويسه قوي.»

قالت انها اصبحت تتردد عليه يومياً. سأل ايهاب «كل يوم؟» قالت:

- «او هوه، احياناً مرتين في اليوم.»

فكر ايهاب رغم الالم: «ثم حاول التخلص منها» قالت انها غادرت المنصورة بعد انهاء السنة الاولى الجامعية وجاءت الى القاهرة حيث اتمت دراستها. اعطاها خمسة عشرة جنيهاً.

قال ايهاب باستنكار: «اداكِ فلوس!»

قالت انه كان يساعدها كثيراً.

قال: **«واهلك؟»**

قالت: «عملوا زعلانين وقاطعوني وبركه ياجامع.»

سألها ايهاب ان كانت قد عرفت اشخاصاً آخرين غيره في المنصورة، اجابت:

- **«حاجات عابره. بعدين احكي لك عنها.»**

سألها ايهاب ان كانت قد قطعت علاقتها بمدرس اللغة الفرنسية بعد مغادرتها المنصورة، فقالت انها كانت تسافر له كل اسبوع.

قال ايهاب: «على فكره، كان اسمه ايه؟»

- **«سعيد.»**

- **«لسّه بتحبيه؟»**

قالت: «نسيته.»

ثم رفعت رأسها ونظرت اليه طويلاً وهي تبتسم ابتسامة ملتبسة، وقالت:
- «عايز تعمل جنس؟»
- «عايز»
- «جداً؟»
قال: «بشكل جنوني.»
ضحكت وقالت: «فتحت شهيتك.»
ثم تذكر. انها هي التي انفتحت شهيتها عندما تذكرت مدرس اللغة الفرنسية.
قالت بلهفة: «ايهاب. مالك؟»
قال: «مالي؟»
قالت: «وشك اصفر وايديك بتترعش. فيه حاجه حبيبي؟»
قال بصوت مختنق: «انا اللي انفتحت شهيتك للجنس؟»
- «ايوه.»
- «وانتِ؟»
اطلقت ضحكة طويلة وقالت: «ياحبيبي يامجنون. انفتحت شهيني للجنس لانك انت عايز.»

لم يعرف ايهاب مثل هذه المشاعر. مشاعر الغيرة والرغبة المستحيلة في امتلاك زينب منذ ولادتها. وكان تصوراً قد تشكل في ذهنه لعلاقتها السابقة بمدرس اللغة الفرنسية: زينب هي العاشقة المقبلة، المانحة وسعيد يستقبل ذلك دون اهتمام. وتصور ايضاً تلك الالفة التي يمتزج فيها عالم العاشقين فلا يبقى شيء يخفيانه عن بعضهما، وان هنالك سراً غريباً لاتبوح به لايهاب، ولكن الآخر يعرفه فيحتفظ بسيطرة دائمة عليها.

لم يكن هذا أشد مايعذبه. كان يتصور انها ضنت بقمة جمالها وحيويتها عليه، حين كانت في التاسعة عشرة من عمرها، ومنحته لسعيد، ولم تجد زبوناً يقبل بجسد يقترب من الثلاثين غيره هو. ورغم انه في تصوراته كان يخالف الواقع والحقيقة، ورغم أنه كان يعرف ذلك جيداً، ولكنه كان يتصرف على هديه.

قالت زينب من خلال ضحكها: «اعقل حبيبي.»
لم يقل شيئاً ضمته اليها فقال: «سيبيني ارجوكِ.»
ثم استجاب لها لخوفه من ان تطيعه وتبتعد. ارتفع اقباله، وهي تستجيب ميكانيكياً لتجامله. نزع ملابسها في الصالون وحملها عارية الى حجرة النوم. فكرت زينب ان ايهاب لم يكن قط بمثل هذا الاقبال، وانه لاول مرة يمارس الايذاء، لا العنف فقط، مع الجنس.
قالت: «حبيبي بتئلمني.»
قال وهو يلهث: «عايزك تتألمي.»
فجأة تمدد بجوارها دون ان ينهي ممارسة الجنس وقال:
- «انت غريبة النهاردا.»

- «غريبة ازاي؟»

قال: «مش متجاوبه. بطلت تحبيني؟»

خرجت الاجابة منها دون قصد: «مش عارفه.»

زعق بصوت مسرسع: «مش عارفه؟»

ثم أضاف بصوت هاديء؛ «انت لسه بتحبي التاني.»

ضحكت وقالت: «انت اهبل ياحبيبي دي حكاية مضى عليها اكثر من عشر سنين لوماكنتش بحبك ايه اللي يخليني اجي لك؟ اعقل ياحبيبي وبلاش تعذب نفسك.»

وكانت تفكر خلال ذلك: «ايه ورطة ادخلت نفسي فيها؟»

كانت احلام يقظة زينب ان تنصرف مبكرة وتذهب الى حمادة لقد سئمت شكوى ايهاب ومزاجه المتقلب واشتاقت الى فحولة فظة لاتعرف الرثاء للذات. عند العصر قالت ان عليها ان تخرج. ان عملاً مهمّا ينتظرها. ولكن ايهاب تعلق بها واصر عليها ان تبقى. قال لها: سنجلس ونتكلم. لست قادراً على ممارسة الجنس وانت لاترغبين فيه واذا دق جرس الباب فلن نفتح. يوم كامل للكلام. وافقت وهي تشعر انها مقبلة على ليلة كئيبة.

البراندي ازال الكآبة، واصبح ايهاب فكهاً، ولكن موضوعه ظل مدرس اللغة الفرنسية, هل كانت تستمتع معه؟ هل مازالت تحبه؟ كيف شكله؟ هل كان يحترمها؟ والنقود، هل كان يعطيها اياها مقابل الجنس؟ سألها وكأنه تذكر امراً هاماً فجأة:

- «علشانه اخترت قسم فرنسي في الجامعة؟»

وكردها على جميع اسئلته ردت على سؤاله هذا بالاستغراق في الضحك، وكان ايهاب يشاركها الضحك. اصبح مدرس اللغة الفرنسية نكتتهما. فما ان يرد اسمه حتى ينطلقان في الضحك. وفي ساعات الصباح الاولى قالت زينب:

- «مش ننام علشان نصحى بدري؟»

امسك وجهها بين كفيه واخذ يشكل انفها وفمها بضغط كفيه وهمس:

- «بحبك حب...»

ارتعشت اجفانها بخضوع كوميدي. اضاف:

- «بلاش بكره نروح الشغل.»

همست: «ليه؟»

قال: «نشتغل في الرواية.»

استغرقت في الضحك ولم تستطع التوقف. قال خجلاً، مبتسمًا:

- «بتضحكي ليه؟»

قالت من خلال ضحكها: «ماهو مش معقول.»

- «ايه هوه اللي مش معقول؟»

قالت: «الحبسه دي.»

- «مصرة تروحي الشغل.»

- «طبعاً مصره اروح الشغل وانت تروح الشغل انا استنفدت اجازاتي كلها. انت بقيت غريب. ايه اللي جرى لك؟»

قال: «متحمس جداً للرواية.»

قالت: «بطل هبل حبيبي عندنا وقت فراغ. نكتب فيه مليون رواية.»

الفصل الخامس

اتصل ايهاب بهنية بالتليفون من المكتب وقال لها انه سيمر بها في مكان عملها. استأذن واستوقف سيارة اجرة واتجه الى مبنى اليونيسكو قرب فندق شبرد.

اصبحت مشاعر هنية نحو ايهاب مزيجاً من الاحتقار والشفقة. ولكنها اخفت ذلك بتهذيب اصيل فيها. ترى ايهاب فقد احترامه لنفسه ورجولته ـ على نحو ما ـ بتعلقه بعاهرة متعاونة مع أجهزة الامن. ستحوله هذه المرأة الى خرقة، بل هي حولته بالفعل.

اما ايهاب فقد كان يعتقد انه يملك الرد المقنع على كل اتهام: انه يخوض تجربة حتى يكتب عنها ويدينها. ان صورة العاشق الغيور، المهان. الذي يسير نحو الحضيض ـ سيكتشفون ـ انها قناع لفعل بالغ الجدية، عمل ثوري حقيقي وفتح جديد في التقنية الروائية. ولقد جعله هذا قوياً، اذ اصبح باستطاعته ان يراقب ايهاب المنهار بموضوعية. هنية ستفهم موقفه وكذلك تفيدة. غريب هذا، النساء فقط يستطعن فهم وضع خارج المواضعات.

رغم ترحيب هنية الحار به شعر ايهاب ان هنالك تحفظاً ما في داخلها. شرح مشروعه، ولكن هذا التهذيب الشديد، وهذه النظرة، رغم تركيزها عليه، تبدو وكأن صاحبتها تفكر بشيء آخر، جعلاه قلقاً. عزا ذلك الى حساسيته الزائدة. استعار حس الرجل العملي، الواثق من نفسه، فتجاهل ذلك كله واخذ يشرح موضوعه.

قالت هنيه لنفسها: «هذا المسكين يقترب من الجنون.»

قال ايهاب: «مقدمه لابد منها للدخول في الموضوع اللي جاي لك علشانه عايز خدمة منك.»

دفعت هنيه رأسها وكتفيها الى الامام قليلاً مع تضييق العينين. كان معنى ذلك انها على استعداد للاصغاء ولتقديم الخدمة المطلوبة. قال ايهاب:

ـ «انت من المنصورة طبعاً.»

ـ «طبعاً.»

ـ «وبتعرفي زينب كويس؟»

احنت رأسها بالموافقة احناءة سريعة، خفيفة، ثم عادت الى وضعها السابق.

قال: «عايز منك حاجتين.»

ابتسمت وقالت: «بقوا حاجتين؟ حاضر.»

قال: «الحاجة الاولى عايز شهادتك عن زينب. الاسماء والمصادر مش رايح اذكرها في الرواية بشكل صريح. الحاجة التانية: اكيد بتعرفي واحدة اسمها منال من المنصورة برضه.»

قالت هنيه: «بعرفها. سكنت معها زينب اول ماجت من المنصورة. مالها دي؟»

قال ايهاب: «عايز شهادتها.»

تنهدت هنية وقالت: «حاعرفك عليها دي بتشتغل في وكالة الانباء الفرنسية.»

ـ «متجوزة؟»

ضحكت هنيه: «ليه؟ عايز تتجوزها؟ لا. مش متجوزة.»

كان اهم مافي حديث هنية هو ماحكته عن زينب قبل مجيئها الى القاهرة. كانت ماشيه على حل شعرها الانسة التي لاتقول لا ابداً.

سأل ايهاب: «دي كانت حاجة معروفة؟»

قالت: «طبعاً. كانت زينب اشهر من نار على علم.»

ـ «واهلها؟»

ـ «كانوا قرويين وغلابة. ابوها بيشتغل عامل في التليفونات. ناس غلابة.»

اضافت هنيه ان معارك كثيرة كانت تنشأ حول زينب. وكانت هي تقف وتتفرج.

ضحك ايهاب وقال: «هية للمنتصر.»

اتصلت هنيه بمنال ودعتها لتناول الغداء. اصغت قليلاً ثم اعادت السماعة وقالت:

ـ «حانتغدى سوا.»

كان قرار هنية، وقد اعتبرت الرواية التي سيكتبها ايهاب عن زينب مجرد نكتة، ان تجعل ايهاب يعرف كل شيء عن زينب. هذه احسن وسيلة لابتعاده عنها.

الصورة التي كوّنها ايهاب عن منال انها امرأة سمينة تجيد عملها، وتوفر النقود تمهيداً لزواج مرتجى وصعب التحقيق. **تكونت معطيات هذه الصورة** من غياب منال عن جو المثقفين، ولكونها، وقد اقتربت من سن الثلاثين، لم تتزوج بعد، ولأن اسمها لم يتردد في مجتمع يفترض انها تنتمي اليه قبل ان تحكي زينب له عنها. ولكن صورتها كانت مختلفة عن توقعه. فعندما دخلت شقة هنية تذكر ايهاب انه رآها من قبل. عندما رآته قالت:

ـ «ايهاب موجود. ازيك ياايهاب، يمكن انت مش عارفني.»

قال ايهاب: «منال. تقابلنا قبل كده.»

قالت هنيه: «بتعرفوا بعض؟»

قالت منال: «تقابلنا في مؤتمرات صحفية. بس ماتعرفناش بشكل مباشر.»

قالت ذلك وكأنها تشكو.

كانت طويلة، نحيلة، شعرها قصير، ووجهها اسمر، صغير، له لمعة ذهبية داكنة. ابرز مافيها عيناها السوداوان الكبيرتان اللامعتان. كانت تلبس طاقماً اسود: «بلوزاً اسود وبنطلوناً اسود وحزاماً احمر عريضاً له بكلة ذهبية كبيرة. الشعر الاشقر والوجه الذهبي والحذاء الذهبي جعلها مزيجاً من

السمرة والذهب. لها عنق طويل وثديان صغيران. كانت حيوية، ولكن حيويتها لم تكن تعبيراً عن انوثة، بل بدت فتاة عصبية جادة، تلك الجدية الضيقة الافق، مشحونة بتوتر لايهدأ. وعندما صافحته كانت يدها غضروفية كأنها بلا عظام، صغيرة، مرنة.

سألت منال عن اسماعيل فقالت هنيه انه لن يعود قبل ساعة متأخرة في الليل. ادهش ايهاب ان هنية دخلت في الموضوع مباشرة، دون اي تمهيد. قالت:

ـ «تصوري كان ايهاب حايتورط ويتجوز زينب.»

قالت: «زينب اياها؟»

قالت هنيه: «زينب اياها.»

قالت منال: «فكرتي عن ايهاب انه كاتب كبير وعاقل. معقول تتجوز زينب؟»

قال لها ايهاب: «ايه رأيك في زينب؟»

قالت منال: «مومس.»

اعتقدايهاب انه لم يسمعها جيداً، فقال: «ايه؟»

فقالت ببطء: «مومس.. مومس. يعني شرموطة.»

قال ايهاب: «يمكن عايزة تقولي متحررة.»

قالت: «كلنا متحررات. ودي مومس. وفيه فرق بين الاتنين ياحضرة الكاتب الكبير.»

قالت هنيه: «مش للدرجة دي.»

قالت منال: «مومس. مومس. بتبيع جسدها مقابل الفلوس.»

قال ايهاب: «معقول؟»

قالت منال: «اسألني أنا. معقول جد.»

ـ «مثلاً؟»

قالت: «مثلاً. اول ماسكنت عندي اشتغلت في دار نشر شيوعية. يعني الشيوعيين مسيطرين عليها الى حد كبير. اول حاجة عملتها انها عملت علاقة جنسية مع الراجل المسؤول.»

قالت هنيه: «لا. دي حاجة مختلفة. بالعكس دي كانت الفترة الذهبية في حياة زينب.»

قالت منال: «فى الفترة الذهبية دي اللي بتقولي عليها كانت علاقتها بمدرس الفرنسي مستمرة.»

قال ايهاب: «انا عندي فكرة عن الفترة دي. كان بيبعت لها فلوس لما تحتاج، ماكانتش فيه علاقة بينهم.»

قالت منال: «كان فيه وكانت بتسافر له.»

ثم تراجع الحديث الى السياسة. تحدثوا عن المقاومة الفلسطينية. قالت هنيه انها الاسلوب الوحيد الممكن للقضاء على اسرائيل وعلى الانظمة الرجعية العربية.

قالت منال: «بس علاقة المقاومة مع السعودية مش مفهومه، والا ايه رأيك؟»

لم يكن ايهاب يرغب ان يتحدث في السياسة. كانت زينب والرواية الجديدة تلغيان كل موضوع آخر. لذلك قال كلاماً كسولاً:

- «المقاومة بتحاول تستفيد من تناقضات الوضع العربي.»

وحسم المسألة. الواضح ان المرأتين شعرتا ان أي موضوع آخر، عدا زينب، يضجره. سادت فترة صمت انشغلوا فيها بالشرب والاكل. قالت هنيه فجأة:

- «نرجع لزينب.»

قالت منال: «عندي حكايات عن زينب عايزه ايام وايام علشان احكيها كلها.»

قال ايهاب: «ايه حقيقة علاقتها باسمه ايه؟ حماده؟»

قالت منال: «زينب تركيبه غريبة. تحب الانسان اللي بيهينها. تحب تتهان.»

ونظرت منال الى هنية: فقالت هنيه: «صحيح.»

واستفاضت منال في الحديث. حماده حب حياة زينب يكفي ان يشير لها فتتبعه. تبادلت هنيه وايهاب نظرة سريعة احنى ايهاب على اثرها رأسه: هذا، اذاً، سبب خروجها معه من نقابة الصحفيين.

قالت منال: في البداية حفيت قدما حماده جرياً وراء زينب. كانت ترفضه ودائمة السخرية منه. تسميه الرعد بسبب صوته. ثم يئس منا وانصرف عنها. في تلك اللحظة مالت اليه. كانت تقول لي: «تعرفي؟ شكله جميل.» اقول لها: «الحلوف دا جميل؟» فتقول: «فيه Uirilitg، سكس.» اقول لها: «دا تافه يازينب» فتقول: «هوه دا المزيج اللي بحبه: الفحولة مع التفاهة. بسميه الجنس الخالص. تعرفي يامنال؟ فيه لجسمه ريحة غريبة، زي ريحة الاسد اللي في جنينة الحيوانات.» اقول لها: «دي ريحه مقرفة.» فتقول: «مقرفة بس بتثيرني جداً.

اضـافت منال: في احد الايام. عند خروج الاثنين من العمل، سارت زينب بجوار حماده وامسكت بذراعه وقالت له: «مش حاتعزمني على فنجان قهوة في بيتك؟»

قالت لي زينب انه هدر كالجمل وتجمع الزبد على زاويتي فمه وقال انه وقت غداء. هذا مافتح به الله عليه. قالت له زينب: «يعني مش عايز تعزمني؟» قال: «اعزمك طبعاً عالغدا.» هنا ضحكت منال، فقالت هنيه:

- «المهم. اغتصبته.»

قالت منال: «اغتصبته بعقل. دول قعدوا تلات تيام بلياليها مع بعض.»

قال ايهاب: «وبعدين زهق منها.»

قالت هنيه باستنكار: «حكت لك؟»

قال: «لا. بس اعرف استناداً الى تجربتي معها. لماتبتدي مابتنتهيش ابداً. ودي عملية مرهقة. علشان كده قدرت انه زهق.»

قالت منال: «دا بالضبط اللي حصل. وابتدا الضرب.»

قال ايهاب: «ضرب؟ كان بيضربها ليه؟»

قالت: لاسباب كثيرة وبلا سبب. السبب الاول ليبعدها عنه. عندما اكتشف، ان النقاش لايجدي معها اخذ يلجأ للضرب. في احيان اخرى تقيم علاقة مع شخص آخر فيضربها. يكونون في

سهرة سوياً. فتغادره مع احد الحاضرين، وتغيب يوماً او يومين عن عملها وعن بيتها فيشعر حماده انه اهين. وعندما تأتي اليه يضربها.

ضحكت منال وقال ايهاب: «مش معقول.»

قالت منال وهي تضحك: كان يضربها لاسباب غريبة. حماده قوي الجسد جداً. يستطيع ان يسير عشر ساعات دون توقف. ولكن الحديث، خاصة النقاش، كان يرهقه. وزينب، كما تعلم، تحب الكلام والنقاش. فيضربها لانه لايستطيع الاستمرار في الحديث. ويتحول الضرب الى حفلة جنسية. في بعض الاحيان كانت تسأم هذا كله، فتقرر ان تقطع علاقتها، فيستعيد علاقته بها بالضرب.

كان ايهاب مخدراً بنشوة الالم. الصفعات الموجهة الى زينب كانت موجهة اليه. قال:

- «عرفت المعلومات كلها ازاي؟»

قالت منال: «من زينب.»

ثم توجهت منال بالحديث الى هنية وكأن ايهاب لاعلاقه له بالموضوع: كانت زينب تخلع ملابسها في حجرتي وتريني مواضع الضرب. كان جسدها خارطة. بقع سوداء في كل مكان. كانت تطلب مني ان ادلكها برفق. (أخذت تنظر الى هنية بارتباك ثم قالت): كانت تتأوه بطريقة غريبة، يعني بمتعة.

احمرّ وجهها فجأة وصمتت. احنت رأسها واخذت تأكل باستغراق. قال ايهاب:

- «ايوه؟ وبعدين؟»

ضحكت منال ثم كتمت ضحكتها فاصبحت طفلة مرتبكة. ثم التقت عيناها بعيني ايهاب: نقلت اليه نظرتها حس دعابة بذيئة. أخذ قلبه يدق بقوة. هذه الفتاة تجسّد انوثة طقسية منسية، انوثة المحارم العذارى الخفرات. هل أصبح يحبها؟

توجهت منال الى هنية بالحديث: «تصوري انها كانت تطلب مني ان اداعب مواضع الضرب حتى اشعر بالملل. اتوقف. فترجوني ان استمر. سألتها مرة: «ايه الحكاية؟»

قالت: «بستمتع.» اندهشت واحسست بجسدي كله يقشعر.

اصبحت زينب تتلألأ في خيال ايهاب كمتعة مستحيلة، ممتنعة على الامتلاك، مرغوبة الى حد الالتياث، ولكنها متفلتة وهاربة ابداً. احس بطاقة تسري في ساعديه ويديه باحثة عن مخرج، كالشوق الى استنشاق الهواء بعد انحباسه. كان ذلك مختلطاً بتوق الى العنف. هكذا يريد زينب مفتلمة، تئن الماً من مواضع الضرب في جسدها، ضارعة للمزيد من العنف والجنس. ولكنه يدرك انه عندما يريدها هكذا فان الحياة معها مستحيلة، وكذلك قبولها.

تم حكت منال الحكاية التي اصبحت فيما بعد كابوس ايهاب المتسلط. اصبح حمادة يستمتع باهانة زينب. لم يعد يطيقها الا مهانة متألمة. اكتشفت مرة انها حامل في شهرين. لم تكن زينب قط خائفة هكذا. سألت هنيه عن سبب خوفها. قال ايهاب:

- «مش عايزه ترتبط بمسؤولية.»

قالت منال: «بالضبط. افتكرت دلوقتي. كانت بتقول: طفل؟ انتِ عارفه ايه يعني طفل؟ شغل اربعة وعشرين ساعة في اليوم.»

قالت منال ان حماده اخذ يتهرب من مصاريف عملية الاجهاض. كان يقول: شرموطة ماشيه على حل شعرها. ماذا يدريني ابن من يكون. فيضربها ويطردها عندما تجيء اليه.

قالت هنيه: «دي كلها خمسة جنيه.»

قالت منال: «ماكانتشي عارفه. كانت تتصورها عملية خطيرة وعايزة فلوس كتير.»

قال ايهاب: «المهم.»

قالت منال ان زينب كتبت لمدرس اللغة الفرنسية تطلب نقوداً قالت انها بحاجة ماسة اليها. فارسل لها عشرين جنيهاً. تصوروا ماحدث بعد ذلك. حكت زينب لحمادة ان النقود جاهزة رجته ان يبحث عن طبيب مستعد لاجراء العملية قال لها:

ـ «مع انك ماتستاهليش. بس حاشوف لك.»

وبعد ان مارسا الجنس ليلة كاملة. قالت زينب انه في تلك الليلة هدني وهديته. اعتقد حمادة انهما يمارسان الجنس بهذا العنف فسوف تجهض. اما زينب فقد كانت تتصور انها قد تموت خلال عملية الاجهاض. في الصباح اخذ حماده منها النقود وقال انه سيذهب الى طبيب صديقه ويدفع له مقدماً، ثم يعود خلال ساعة، ويصطحبها معه. اتعرفان ماذا فعل؟

كانت الحكاية مشوقة الى حد ان ايهاب تنفس بعمق عندما توقفت منال عن الحديث انتظاراً لسماع الاجابة على سؤالها. قال ايهاب:

ـ «عمل ايه؟»

قالت: «مش حاتصدقوا.»

قال ايهاب بعصبية: «عمل ايه؟»

قالت هنيه: «قولي يامنال عمل ايه؟»

ـ قالت منال: «خد حماده الفلوس وسافر الاسكندرية. تفسح له اسبوع ورجع كأنه ماعملشي حاجة. بس مش دا المهم.»

قال ايهاب: «امال ايه المهم؟»

قالت منال: راحت زينب الى ست في بولاق الدكرور، قيل لها انها تقوم بمثل هذه العمليات. دفعت لها جنيهاً لها فادخلت لها انبوباً مطاطياً في الفرج واوصلته الى داخل الرحم. بعد اربعة وعشرين ساعة سقط الجنين. وهذه عملية خطيرة. ولكن زينب تحملتها. غير ان هذا ليس اهم مافي الموضوع.

امسك ايهاب اعصابه بمجاهدة حتى لايصرخ بها طالباً التوقف عن عملية التشويق المبتذلة. وكأن منال استجابت لصرخته التي لم تنطلق فأخذت تحكي دون توقف ودون وقفات تشويق. قالت ان زينب اقامت في بيت حماده تعتني به وتنتظر عودته. استلفت نقوداً وملأت الثلاجة بالطعام. وعندما عاد هاج لوجودها ولكنها لم تتح له مجالاً لذلك. عانقته وقالت:

ـ «عارفه. رحت اسكندرية. مش مهم.»

واخذ يهدر كالجمل: «والـ. الـ. اسمه ايه؟»

قالت: «سقطت. كانت مسألة بسيطة.»

حاول ان يعتذر لها ولكنها لم تصغ اليه، بل سألته ان كان مشتاقاً لها.

جذبت هنية نفساً عميقاً وقالت: «مش معقول.»

قال ايهاب: «عايز اسألك سؤال لمجرد اني اعرف، افهم. هوه الحقيقة مش سؤال واحد، سؤالين.»

قالت منال: «اسأل.»

قال: «من الواضح ان علاقتها بحماده انقطعت فترة وانها رجعت له تاني دلوقتي.»

- «صحيح.»

قال: «ايه اللي حصل؟»

قالت منال: «من يوم مازرتها انت في الوكالة بقت انسانة تانيه. قطعت علاقتها بحماده وبغيره اصبحت انسانة جدية، وقدرت تفرض شخصيتها الجديدة على الكل، على حماده وغيره. حمادة قال: «ارتحت منها» لكن مش صحيح. كان حايتجنن. لكن تصوروا بقى يخاف منها. سنة وهيه على الحالة دي. بقت زينب جديدة تماماً.»

صمت الجميع. لم يتبادلوا حتى النظرات. نظرت المرأتان الى ايهاب فجأة، كأنهما يريدانه ان يقول شيئاً قال:

- «انا اللي دمرتها.»

قالت هنيه: «انت اتجنيت؟»

الفصل السادس

عندما نهض ايهاب لينصرف ودع منال. ابقت يدها في يده، وطالعته بنظرة تواطؤ افرحته. فكر ايهاب: بهذه النظرة سوف تدخل فراش الزوجية، ولسنين طويلة سوف تظل هذه النظرة مرافقة للحب وللرغبة، حاملة ذلك الحرج العذري والتواطؤ البذيء. قال:

ـ «فرصة سعيدة جداً يامنال.»

رمشت بعينيها وضحكت ضحكة صغيرة مرتبكة. كانت هنية تطالعهما بفضول من يريد ان يعرف كيف سينتهي هذا المشهد. قالت:

ـ «انتو الاتنين تصلحوا لبعض.»

احنت منال رأسها وأخذت تنظر للارض، وبسمة خفيفة على شفتيها. كان وجهها مستسلمًا، مستلباً بتوقع نيل رغبة ابدتها. قال ايهاب:

ـ «صحيح.»

قالت هنيه: «بس لازم تحسم علاقتك بزينب.»

قال وهو يتنهد: «حايحصل. او من ناحية فعلية حصل فعلاً.»

قالت منال: «والرواية؟»

وتضرج وجهها. قال: «الرواية.»

وكأن ذلك رد على سؤالها.

قرر ايهاب أن يعود الى بيته مشياً على الاقدام، رغم الحر الشديد في ساعة العصر، ففي المشي راحة وتأجيل لذلك الجحيم الذي ينتظره في سريره. كان يفكر في منال. يستعيد المشهد الاخير وفرح طازج يتولد في داخله، وزينب كيان قاتم، مبلول بالعرق، بلا ملامح على طرف المشهد. اية سعادة سوف يشعر بها عندما يعود الى البيت ويجد منال فيه، وذلك الوجه الضاحك المضحك في استقباله!

نظر الى النيل: مراكب صغيرة يجذف بها شخص واحد، وأخرى شراعية، وعلى الضفة الأخرى كازينو قصر النيل. هنالك تشاهد موائد موضوعة بين الشجر فوق كل مستوى من المدرجات التي تصعد من حافة النهر الى نهاية الكازينو. انه يعلم ان المكان لن يكون بهذه الفتنة عندما يجلس فيه. ودخلت منال بينه وبين المشهد.

حاول ان يفكر في زينب، ولكن منال كانت تلغيها. في تلك اللحظة اكتشف عبثية كتابة رواية

عن زينب. الرواية تفترض علاقة ثابتة مع زينب، وزينب منذ هذه اللحظة انتهت من حياته. ثم جاءه ذلك الاحساس الذي يأتيه في لحظات النجاة من مأزق، بان هنالك عناية ما، قوة خيرة لم يستطع تحديدها ترعاه وتحميه في اوقات الخطر والالم. ففي قلب كابوس زينب الخانق (ففي لا وعيه ارتبط قيظ بعد الظهر بكابوس زينب) تأتي منال كنسمة منعشة. كان يقيناً مريحاً، تم على مستوى ذلك التداعي للافكار والمشاهد الذي يرافق الاسترخاء الذي يعقب الغداء ويسبق القيلولة.

في مزاج نفسي كهذا يصبح ذلك الشر الذي يرعبه، الشر الذي لاتبرير له، وكأنه وُجد لينهزم بفعل تلك الرعاية. وفي هذا المزاج كانت منال تعاود الانبثاق، منعشة، بريئة، تمنح نفسها دون تردد. لن يحتاج حتى ان يضمها الى صدره الا لخلوة تستمر دقائق قليلة. رأى نفسه وهو يمسك سماعة التليفون في الغد ويكلم منال:

- «هالو. مين؟»

- «انا ايهاب.»

تقول: «ايه. هاااب» بنفس الطريقة التي قالت بها «مومس»

- «عرفتي صوتي؟»

- «طبعاً.»

يتوقف الحوار. هاهي البناية التي يقطنها وقد ظهر جدارها الخالي من النوافذ، المطل على محطة البنزين، فبدا وكأنه يذكره بواجب يجب عليه ان يقوم به. اصابه خذلان جعل ركبتيه تتخلخلان: زينب هناك الآن كتلة مسترخية الاطراف كالعقرب. لماذا لا يذهب الى اي مكان آخر، ولايعود الا في المساء ومعه من سيقوم بتغيير قفل الباب؟ ولكن نوم بعد الغداء بدأ كواجب لابد من القيام به. وعلى اية حال اين سيذهب في هذه الساعة؟ كل الاماكن والاصحاب المتاحين اثاروا ضجره.

فتح الباب ودخل وكأنه يدخل شقة غريبة. اغلق الباب وراءه بحذر. رأى زينب منذ ان خطا داخل الشقة. كانت مستغرقة في النوم كما بدا من تفاصيل جسدها تحت اللحاف الخفيف. سار الى حجرة النوم عازماً على ايقاظها وحسم المسألة معها. اكتشف عندما اقترب من السرير ان زينب ليست هناك. اخذ يخلع ملابسه استعداداً للنوم. حاول ان يستعيد وجه منال، ولكن الشقة كانت مشحونة بزينب.

نام دقائق قليلة ثم استيقظ. حاول العودة للنوم ولكن جميع الاوضاع الجسدية كانت غير مناسبة. كان السرير يطرده. غادره واخذ يعد لنفسه فنجاناً من القهوة. وبعد ان شرب القهوة اخذ يتمشى في الشقة. خط سيره من بابها حتى باب المطبخ، مخترقاً المدخل والصالة والمدخل الفاصل بين حجرة النوم والحمام حتى نهاية المطبخ. انه اطول خط سير تتيحه الشقة.

أخذ يصيغ موقفه في اطار الم رهيب وغضب هائل. استنفر كل ملكاته العصبية والعقلية فاعد قضية متماسكة، يحكمها منطق صارم، ضد زينب: لقد اتاح لها فرصة ان تتحول الى انسانة منتجة، ذكية ومحترمة. فماذا حدث؟ انتصرت المومس في داخلها، الانسانة المريضة التي تستمتع بالاهانة والا فما معنى تلك الحفلات الجنسية التي تمتد اياماً وليالٍ.

ولان عقله اعتـاد الجـدل، صاغ وجهـة نظر زينب: منذ اللحظة التي رأيتك فيها ياايهاب اصبحت انسانة أخرى، اكثر قراءة وانتاجاً ونظافة وانضباطاً من اية امرأة أخرى من معارفك. وعندما كان المطلوب فعلاً سياسياً كنت الاكثر فاعلية ونشاطاً. وعندما خرجت من السجن منحتك نفسي بلا شروط. أصبحت المومس والخادمة والام والصديقة. عندما فعلت ذلك رفضتني.

يجيب ايهاب: منذ تعرفنا ولا شيء في ذهنك الا ممارسة الجنس. كل شيء بين انسانين ينمو ويتعمق عدا الغريزة. الجنس هو تكرار لعملية لاتنوع ولا ثراء فيها. لقد قدمت نفسك لي كمانحة للجسد، ولم تحاولي ان تجعلي ذلك جزءاً من علاقة متكاملة. كان علي دائمًا ان اختار بين تحقيق نفسي كانسـان وبين ممارسة الجنس، فعندما احقق نفسي كانسان فعلي ان اتخلى عنك. ارأيت أي وضع رهيب وضعتني فيه؟

ثم طفت مشاهد كابوسية استرجعها وهو ملتاث بالغيرة. يستعيد المشهد المرة بعد المرة. لم يكن مايعـذبـه ممارستهـا الجنس مع الآخـرين بل الاخلاص لآخر، رغم الاهانة والاحتقار والضرب. اخلاص لم يكن له حدود. يستعيد انتظارها لحماده، مستمتعة باحتقاره لها، فيشعر بمتعة تلك الاهانة الموجهة اليه على نحو ما. لم يعرف قط هذا القدر من الالم ومن الانفعالات الحرّيفة.

عندما قرر ان يجلس اكتشف ان ذلك غير ممكن. فقد ارتبطت انفعالاته بمسيرته، نرأى ان ساقيه تواصلان المشي دون ارادة منه. اصبح اسيراً لمسيرته وانفعالاته. ثم اتخذ قراره بالخروج البداية كانت كلمة «ايجابي» التي اخترقت تداعياته واتخذت مسارها. مامعنى ان يظل في بيته ينتظر ان تأتي زينب؟ يجب ان يواجهها؟ يكفي ان يبلغها ان العلاقة انتهت، والرواية؟ طز في الرواية. كانت لعبة للاحتفاظ بزينب.

في الشارع تنامى الخوف في داخله. رأى في العيون ذلك المزيج من الشفقة والاحتقار الذي شاهده في عيني. . . عيني من؟ يسير في اتجاه حديقة الاورمان. الشارع يبث الحرارة التي اختزنها طيلة النهار. امرأة قادمة تقترب تلك السمنة الحيوية، الردفان المهتزان بايقاع منتظم، الثديان المرتفعان، والعينان السوداوان، مشعتان، تغزلان خيوطاً من ضوء وتبثان كلاماً. صدمته تلك الانوثة الباذخة موقـظة رغبة لاتاريخية. ستكون مختلفة عن غيرها. وكان ذلك يعني انها في عريها لن تكرر النساء الاخريات اللواتي عرفهن. اثارت هذه المرأة فيه رغبة سابقة على تجاربه الجسدية مع النساء. ابتسمت عينا المرأة فتذكر الشفقة والاحتقار في عيني هنية.

دخل الحديقة حاملاً معه وهماً انه يدخل عالم مغامرات الطفولة. وخلال ذلك يشرف عليه حضور يعلن: زوج زينب المقبل، قواد بلا مقابل، الستار الذي تمارس وراءه زينب مغامراتها. وفي عيون الفتيات اللواتي يتجولن قرب حديقة الزهور رأى نفسه وهو يتلبس شخصية القواد المرح. رأى نفسه صورة تنكرية سوف تنكشف عن حقيقة القواد.

صورة القواد المرح تجربة مرت بايهاب. كان في زيارة لاصدقاء عرب. قابل شاباً مصرياً يصعب تحديد هويته. قد يكون مثقفاً له خبرة عميقة بالاحياء الشعبية وقد يكون من ابناء البلد العصاميين. ماجذب انتباه ايهاب واثار اعجابه، بالاضافة الى ذلك، نكتته السريعة التي لاتجرح احداً وتهذيبه

وتماسكه. بعد قليل استأذن الشاب وقال انه سيعود بعد قليل. توقع ايهاب، كما هو معتاد. ان يدور الحديث حول الشاب بعد خروجه، ولكن الحديث استمر دون اشارة اليه. عاد بعد قليل ومعه امرأتان، احداهما مومس عرفها ايهاب من قبل. حدث ذلك التحول في زاوية الرؤية. اصبحت لباقة الشاب وخفة دمه وفهلولته دلالات سوقية. صار مجرد ملمسه يثير التقزز. وكأنه استجاب لزاوية الرؤية الجديدة فاخذ بالفعل يسلك مسلكاً مثيراً للاشمئزاز. كان ذلك يشبه تجربة اخرى مر بها ايهاب اذ التقى بشاب انيق، تستطيع أن ترى أنه ثري منذ النظرة الأولى. كان يتحدث بتلك الدماثة والتهذيب اللذين يتصف بهما ابناء الطبقات العليا. ثم اكتشف ايهاب ان الرجل مصاب بالشذوذ الجنسي السلبي، وانه يحاول ان يصطاده. حدث تحلّل في الرؤية فاصبحت مزايا الرجل ووسامته هي الاشد اثارة للاشمئزاز.

دخل ايهاب حجرة النوم مع المومس التي يعرفها، اذ كانت قد نشأت بينهما علاقة اكبر من المال، علاقة مودة وصداقة. ثم انقطعت عنه.

قال لها ايهاب: «كنت فين ياجمالات؟»

قالت انها تزوجت القواد الذي يجلس في الخارج، فسألها ايهاب، مندهشاً، عن السبب.

فقالت: «النصيب. البنت عايزه راجل يحميها.»

اعتقد ايهاب انها وقعت ضحية بلطجي يبتزها، ولكنها اوضحت ان الرجل مسكين وانها هي التي تملك زمام الموقف. بعد ايام زارته جمالات في شقته، ودعته الى حفلة سوف تقام بمناسبة عيد ميلادها. كانت الحفلة في عوامة في النيل وكان مشهد الحاضرين يوحي بالاحترام. الجميع جاءوا بهدايا للمحتفى بها. النساء عانقنها مهنئات. شاهد ايهاب ثلاث فتيات ظهرن في ادوار كومبارس في احد الافلام. وكانت جمالات مستغرقة في ترتيبات الحفلة واستقبال الضيوف كربة بيت حقيقية.

كانت بداية الحديث التعليقات المرحة المعروفة حول زوغان عيون الازواج وخداعهم لزوجاتهم. تلا ذلك مشاهد صغيرة تتظاهر فيها الزوجة بالغيرة، وتهدد بقتل كل من يحاول اغواء زوجها. اخريات ادعين السذاجة وقلن انهن مخدوعات. كان جواً عائلياً مرحاً. كان زوج جمالات منشغلاً، عابساً، حيى ايهاب بشكل رسمي ثم استغرق في الاشراف على الحفلة.

كاد ايهاب لايتعرف عليه. لم يكن يوحي بمهنته.

كان الشراب متوفراً: البراندي والزبيب والبيرة وثلاث زجاجات ويسكى. واحدة جاء بها ايهاب واثنتان جاء بهما سائح بترولي. ومع الشرب اخذ الملامح الحقيقية للحاضرين تتضح. كان هنالك فتاة هائجة الشعر، شعرها مغلغل ومبلول. كان لها وجه احمر - غامق السمرة ملتهب كأنها فرغت لتوها من البكاء واللطم على وجهها. كان للوجه طابع الفضيحة، بذلك الانف الصغير، والشفتين الكبيرتين وكأنهما متورمتين، والوجنتين البارزتين، والجبين الذي يرتفع كثيراً فتغطيه خصلات شعر كثيف مغلغل. كان وجهاً يعلن عن مهنة صاحبته. وكانت شديدة العصبية، تعلن زاعقة فجأة انها لن تسمح لشراميط وقوادين ان يهينوها. ولايبدو ان احدا اهتم بما تقول سوى امرأة سمينة اعلنت انها ستمسح بها الارض ونهضت. ولكن الحاضرين فرقوا بينهما. اندهش ايهاب عندما رأى هذه الفتاة الفظة تستجيب بمجرد ان طلب الحاضرون منها ان ترقص. كانت راقصة جيدة. نهض السائح ومد

لها خمسة جنيهات ففردت ذراعيها على امتداد كتفيها ودفعت صدرها الى الامام، وتعالت الاصوات:

- «حط الفلوس في صدرها.»

ارتبك الرجل ونظر حوله. قالت له احدى الحاضرات وهي تدخل يدها بين ياقة ثوبها والسوتيان: «حطها في صدرها.»

ضحك الرجل ضحكة عالية ثم بترها. مد يده بين الثديين واستقرت هناك. عادت الفتاة بجذعها الى الخلف وأصبحت يد الرجل معلقة في الهواء ماتزال ممسكة بالنقود. قالت المرأة السمينة وهي تقهقه:

- «غيّر فكره.»

فضحك الجميع. مد الرجل يده ووضع النقود بسرعة في صدر الراقصة وعاد مسرعاً الى مكانه، فعلا التصفيق. وعندما انتهت الفتاة من الرقص جلست على فخذي السائح وقبلت فمه، ثم نهضت ووقفت في منتصف الحجرة وقالت:

- «عايزين مزيكا. عايزين نرقص.»

اخفتت الاضواء واشتعلت مصابيح يتسرب منها ضوء احمر خفيف وانطلق لحن تانغو بطيء من المسجل. تقدم السائح من الراقصة واحاط خصرها بيده دون كلام وحاول ان يجذبها خارج الحجرة، ولكنها انفلتت وقالت: «سيبني» قال الرجل:

- «لكن.. لكن..»

قالت الفتاة: «علشان الخمسة جنيه مش كده؟»

مدت يدها بين نهديها واخرجت الخمسة جنيهات وقالت: «خدهم.»

وصفعت وجهه بها.

اقتربت جمالات من ايهاب وقالت: «رقصني.»

كان خدها لصق خده ساخناً. من الواضح انها شربت كثيراً. اقتربت منه حتى اصبح ساقه بين ساقيها ثم همست له:

- «عايزاك.»

قال: «وانا كمان. امتى؟»

قالت: «دلوقتي.»

- «معقول؟»

واصلا الرقص. قالت: «بوسني.»

قبلها على خدها. قالت: «بوسني في بقي.»

استجاب لها ثم فجأة نبت الزوج. امسك بكتف ايهاب وقال بصوت قوي:

- «اسمع! احنا ناس شرقيين والحاجات دي ماتمشيش عندنا.»

شعر ايهاب بملابسه الداخلية قد ابتلت بالعرق وبركبتيه تسوخان. ولكن جمالات لم تبعد فمها عن فمه. فجأة تراجع الزوج واستقام جذعه ومد ذراعه بحركة مسرحية وقال:

- «يااخي فيه عندنا اود.»

وأشار بسبابته الى احد الابواب، واطلق ضحكة عالية. وحدث ضحك وتعليقات لايذكرها ايهاب. قادته جمالات الى الحجرة التي اشار اليها زوجها. في الداخل كانت الراقصة تجلس على طرف السرير والسائح راكعاً على الارض. كانت الفتاة تجلس منتصبة القامة تنظر باستقامة امامها والرجل يقبل ركبتيها ويحاول ان يدس وجهه بينهما. قالت جمالات:

- «فيه ايه يازيزي؟»

قالت بفتور وكأنها تروي خبراً عادياً:

- «مش عارفه اخلص من اللزقة دي.»

قالت جمالات: «وتخلصي ليه؟»

قالت زيزي بهدوء وهي تمد سبابتها عامودياً فوق رأس الرجل:

- «مش شايفه؟»

وتنهدت. ضحكت جمالات ضحكة صافية، وداهمت ايهاب موجه من الضحك الهستيري. اقتربت جمالات من الرجل وهزت كتفه. التفت اليها الرجل بعينين متسعتين وفم مفتوح. فقالت وهي تشير الى ركبتي زيزي المضمومتين:

- «الوش مش هنا.»

ثم أضافت خلال عربدة ضاحكة:

- «ياراجل اعلى شويه. الوش فوق، فوق.»

فقالت زيزي بوجه جاد: «مافيش فايده.»

لايدري ايهاب لماذا استعاد ذكرى تلك الليلة. وذلك القواد المرح. كيف ستتغير هذه النظرات التي توجهها الفتيات اليه عندما يعرفن ان زينب قد وضعت له قروناً. ستتغير زاوية الرؤية.

غادر الحديقة مسرعاً. وهو يسير على كوبري الجامعة غاب سبب اسراعه، ثم تذكر عندما رأى البناية التي تسكنها زينب. وهو في داخل المصعد لم يكن متأكداً ماذا يريد من زينب، وكيف يواجهها. ودّ لو يؤجل ذلك. ولكنه دق جرس الباب فانفتح على الفور. شهقت زينب: «ايهاب!»

واحتضنته وهي تهمهم: «حبيبي اشتقت لك اشتقت الك موت..»

قال لها وهي تقبل شفتيه: «كانوا يومين بس..»

كانت ترتدي قميص نوم ابيض يصل حتى ركبتيها، ويكشف عن النحر، والجزء الأعلى من النهدين، وذلك الشق المثير بينهما. وكانت تضع في شعرها شريطة بيضاء. كانت تشبه طالبة صغيرة.

قالت: «عرفت انك جاي. بقي لي ربع ساعة واقفه ورا الباب.»

قال: «شفتيني على الكوبري؟»

قالت: «لا. كنت حاسه.»

سار وهو يحتضنها وجلس على الكنبة واجلسها على حجره. كانت ناعمة طيعة. قال:

- «زوبه.»

- «ايوه.»

- «بحبك.»

ثم رأى الدموع في عينيها. قالت:
- «عمري ماشعرت بالحب زي ماانا شاعره بيه دلوقتي. عايزة اعيط.»
- «علشان كده بتعيطي؟»
فهزت رأسها عدة مرات، واخذت تمسح دموعها المنسابة على خديها بقبضة يدها، وابتسمت ابتسامة مشرقة خجلة. قال:
- «باين اني بحبك.»
كانت الدهشة واضحة في صوته كأنه يكتشف فجأة حقيقة غير متوقعة. قال:
- «بحبك اكتر من اي شيء في الدنيا، لكن يازينب..»
ثم توقف. كان في وجهها تعبير خوف.

* * *

قاده الحب والحنان الى الرغبة. بعد ان انتهيا من ممارسة الجنس وجلسا يشربان القهوة شعر ايهاب بذلك الاسترخاء الذي يجعله يقول كل مايخطر بباله دون حرج. كان لون زينب اليوم هو البياض، اذ ارتدت ثوباً ابيض يصل الى كاحليها، وقد زخرف الصدر والياقة وطرفي الردفين والجزء الاسفل منه بقصب كامد الصفرة. كانت شامخة العنق، ربطت عصابة حول رأسها. في المساحة الفاصلة بين الجبين والشعر.
قالت: «بتفكر في ايه؟»
قال باسترخاء: «حكاية قريتها زمان في تاريخ الجبرتي.»
- «حكاية ايه؟»
- «فاكر الحكاية لكن نسيت الاسماء. بحاول اتذكر.»
قالت: «قول الحكاية.»
قال: «فيه راجل، مش فاكر اسمه.»
- «مش مهم. استمر.»
قال ايهاب: كان له زوجة وجارية. عند دخول الفرنسيين كانت المرأتان تسهران مع الفرنسيين وترقصان الى آخره. تذكرت. اسم الجارية هوى، بعد خروج الفرنسيين التقى الزوج بزوجته وجاريته. مارس معهما الجنس. ورقصتا وغنتا له، وبكى الثلاثة، وعند العصر كسر رقبتيهما. هل تذكرين شيئاً كهذا؟»
كانت زينب تنظر اليه نظرة غريبة. قالت: «ايوه؟»
قال: «يجوز اني حذفت اشياء واضفت اشياء من الحكاية.»
قالت: «ايوه؟»
قال: «حكاية غريبة.»
صرخت: «ايهاب!»
كانت صرخة استغاثة. كان وجهها غريباً وهي تنظر اليه بذهول. قالت بصوت مشحون:
- «عايز تقول ايه؟»

شعر ايهاب ان شيئاً غير مفهوم يحدث فجاهد للخروج من استرخائه . قال وهو يستدير نحوها :

ـ «انت غريبة قوي النهاردا يازينب .»

احنت رأسها فجأة واخفت وجهها بكفيها واخذت تنشج . كان جسدها كله يهتز بذلك البكاء المؤلم . قال وقد خرج من حالة الاسترخاء :

ـ «زينب فاكره حااقتلك؟»

ـ «لا .»

قال : «مجرد حكاية . انتِ رحتِ بعيد .»

قالت : «انت جاي تقطع العلاقة .»

لم يرد قالت : «مش كده؟»

قال : «صحيح .»

ـ «ليه؟»

قالتها بحرقة من قلب نشيجها . كان سؤالاً انبثق من سويداء القلب . قال :

ـ «انت احلى واغلى شيء في الدنيا .»

احاط كتفيها بذراعه وجذبها . شعر وهو يحتوي تلك الكتلة المرنة ، المطواعة ، انه يريد اكثر مما تمنحه : اكثر من الحب ومن ممارسة الجنس ومن الاخلاص ، يريد ان يمتلكها تماماً ، تاريخها وروحها . . ويريد شيئاً آخر منها لايعرفه ولكنه يلح عليه الحاح الرغبة في التنفس عند الغريق .

قالت : «طيب ليه؟»

كان صوتها مشحوناً بالبكاء والاستنكار . قال :

ـ «لاني عايزك كلك من شعر راسك لطراطيف صوابعك . عايزك ميه الميه» وحين ضمها اليه عض كتفها . قالت بصوت شاك صغير :

ـ «بتئلمني حبيبي .»

شدد ضغط اسنانه على كتفها وموجة من الرغبة الجسدية مقترنة برغبة في العنف تجتاحه . قال :

ـ «عايز احس بطعم الدم في بقي .»

قالت بحنان : «حبيبي المجنون . بحبك علشان مجنون .»

وقبلت شعره . لمس لهجة الانتصار في نبرتها . ادارت عنقها الطويل واحنت رأسها وأخذت تطالع كتفها ، ثم قالت بحياد :

ـ «نزل الدم .»

ثم نظرت اليه وقالت :

ـ «فيه دم على اسنانك . على السنتين القدمانيين .»

قال : «حاسس بطعم الدم .»

ثم وضع شفتيه على الكتف المجروح وقال :

ـ «آسف حبيبتي .»

امسكت وجهه بين يديها وقبلته، واخذ لسانها، صلباً، مراوغاً، زلقاً، يدور حول شفتيه وبين اسنانه، ثم يلمس لسانه، ثم ينسحب فيخلف توقاً ثم يندفع مرة أخرى ناعمًا، مبلولاً، املس. قالت:

- «ماتقولشي آسف.»

وانبثق ذلك المزيج من العنف والرغبة في داخله استقبلته بضراعة ومتعة، استسلمت له، وأصبح العنف والايذاء هو التعبير عن الرغبة. ثم انتهيا مرهقين، لاهثين، مغمورين بالعرق. ناداها وهما مستلقيان:

- «زينب.»

- «زينب.»

- «ايوه.»

- «زينب.»

- «ايوه؟»

ثم يستسلمان الى استرخاء، الى شبه موت. يناديها:

- «زينب»

- «ايوه؟»

- «بحبك.»

- «وانا بحبك.»

- «فيه كلمة اكتر من الحب؟»

قالت: «الجنون.»

قال: «لا. الموت.»

قال بعد قليل: «الساعة كام؟»

- «عشرة ونص.»

بعد فترة صمت قالت: «نشرب قهوة.»

- «فكره.»

نهضت ببطء وهي تئن. قال:

- «مالك؟»

قالت: «متدغدغه.»

قال: «امال حاقول انا ايه؟»

نهضت كالسهم واتجهت عارية الى المطبخ. خطر له ان ينهض ويتبعها الى المطبخ شعر باعياء. اغمض عينيه واغفى. عندما ايقظته وهي تقول: «القهوة ياحضرة» قال:

- «كان نوم لذيذ نمت كام؟»

- «عشر دقايق.»

جلس على الكنبة اشعل سيجارة لزينب واخرى لنفسه. قال:

- «كنا مجانين.»

قالت: «كنت لذيذ.»

بعد قليل تذكر ايهاب ان زينب لم تناقشه في مسألة قراره بقطع العلاقة معها.

قال: «زينب. تعرفي كنت جاي النهاردا ليه؟»

قالت: «عارفه.»

- «عارفه ايه؟»

- «علشان تقطع العلاقة.»

- «وانت ايه رأيك؟»

قالت: «مش حايحصل.»

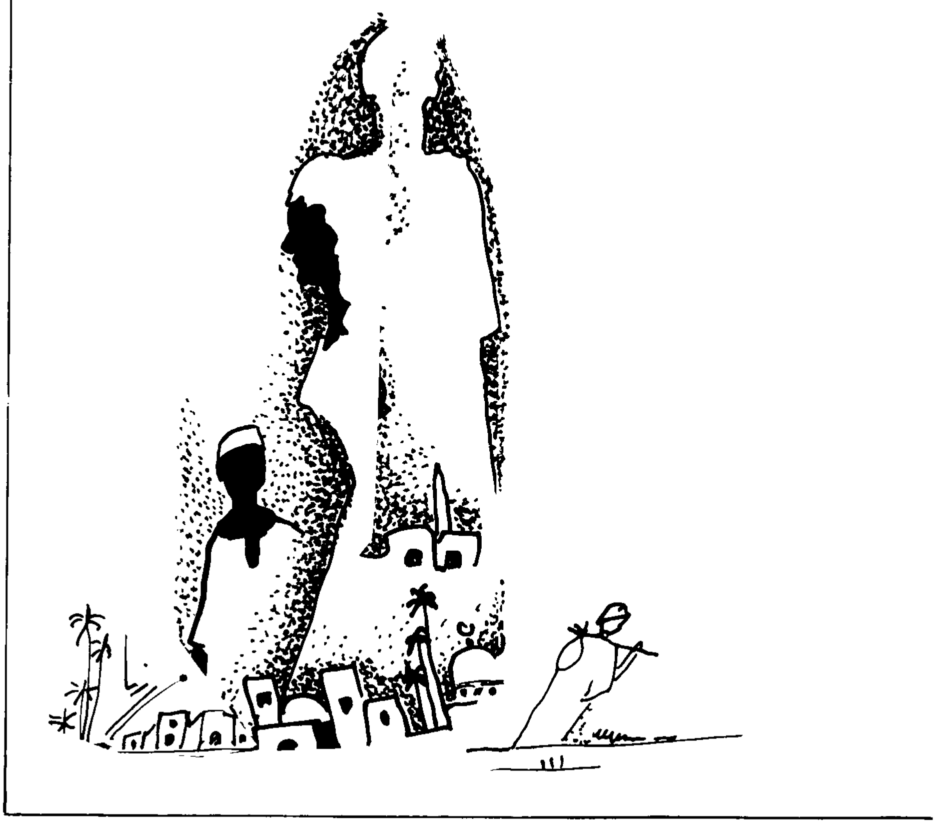
- «ليه؟»

قالت: «انا مصيرك.»

قال: «لازم نتكلم يازينب.»

قالت:

- «نتكلم.»



الفصل السابع

قال ايهاب: «انت ماحافظتيش عالعلاقة.»

نظرت اليه بتساؤل. كان قد اعد مايريد قوله. قال:

اخترنا بعضنا منذ لحظة لقائنا الاول. تمام؟ بعد السجن التقينا وكل واحد له شروطه، اعني شروط تكوينه، حولتِ العلاقة الى جحيم جنسي.

اطلقت ضحكة صافية وقالت: «جحيم جنسي؟ استمر.»

قال: عندما حاولت انا تعديل العلاقة.. يعني الجنس عملية تكرر نفسها. النشاط الانساني، السياسي والثقافي والاجتماعي والعمل اليدوي يتنوع ويرتقي. الجنس الخالص هو تكرار لعملية لاتتنوع ولا ترتقي.

ابتسمت زينب وقالت:

ـ «النهاردا ماتنوعتشي؟»

نظر اليها. اشتاق ان يقبلها، ولكنه تماسك. قال:

ـ «النهاردا كانت مختلفة.»

ـ «طيب؟»

ـ «دخل فيها عنصر جديد. السادية.»

قالت: «مش مهم اسمها ايه، المهم انها كانت ممتعة وجديدة. مش كده؟»

قال: «مهم اسمها يازينب. مهم.»

ـ «تبقى عيب؟»

قال: بعد ماعملت عملية الزايدة الدودية اعطوني مورفين. عشت عالم جميل، عالم بالالوان النقية. لكن حاتكون ايه النتيجة لو ادمنت المورفين؟»

قالت: «بمناسبة المورفين، والا بعدين، كمل.»

قال: الحياة مسألة جدية. هنالك شيء جوهري بالنسبة لحياة كل انسان، وهذا الشيء هو الفعل الذي يحقق به ذاته. الشيء الجوهري، بالنسبة لي، هو كتابة الرواية. قبل ماعرفك كنت اكتب بشكل مرضٍ، عندما عرفتك توقفت عن الكتابة..

قالت: «انا السبب؟»

لم تقل ذلك مستنكرة، بل كانت تستفسر بالفعل. قال:

- «ايوه. خاصة بعد اللي حصل في نقابة الصحفيين.»

قالت: «ايوه.»

قال: علاقتك السابقة ملكك مادامت لاتنعكس على علاقتنا. لكن من الواضح ان علاقتك بحماده مازالت مستمرة. شعرت بهذا منذ رأيته خارجاً من هذه البناية.

قالت: «كمل.»

قال: «العلاقة تفترض انسجام، توافق في شيء جوهري. ايه هيه الحاجة الجوهرية في حياتك؟ قولي!»

قالت: «مافيش.»

قال: «لا. فيه.»

قالت: «ايه هيه؟»

قال انه التوتر الذي لاهدف له ولا موضوع. تدفعين الامور الى نهاياتها وتفرغينها من كل معنى، فلا يبقى الا التوتر.

لم تكن هذه الافكار قد خطرت له من قبل. كان يعلم ان هنالك خدعة ما يمارسها. فهو غير قادر على اقامة علاقة ثابتة. ماكان يريده من زينب ان تجعله قادراً على هجرها، ان تسهل له ذلك. لكنه انساق في ذلك المنطق الذي اخذ يتسلسل بمقولات تأتي عفو الخاطر.

قالت: «كلامك صحيح، لكن قول لي اعمل ايه؟»

قال: «الحل ان يكون فيه شيء جاد في حياتك.»

- «ايوه؟»

- «ويكون مركز حياتك، النقطة التي بتنطلق منها كل حياتك، كل نشاطك.»

قالت: «ايوه.»

قال: «راكبك عفريت اسمه ايوه؟»

اغرقت في الضحك وقالت: «كملت؟»

قال: «ماحنا بنتكلم.»

قالت: «يمكن انت لمست جوهر المسألة: التوتر. الحياة الرتيبة بتمرضني. فاهمني؟»

قال: «فاهمك ومتفق معاك لكن..»

قالت: «سيب لكن على جنب وخليني اكمل كلامي.»

وأضافت: الحياة اذا لم تكن مشحونة بالتوتر حتى الجنون تصبح موتاً. حياة النساء المحترمات الفاضلات التي تسير من موت الى موت: العمل الرتيب، الزواج، الاطفال، الاجهاد الجسدي، الخوف، الخوف.. هذه الحياة لن تكون حياتي. حياتهن دعارة كاملة. تبيع كل رغباتها. مقابل ان تكون زوجة مناسبة. تعمل خادمة ومومساً لزوجها حتى يطعمها ويؤويها، وعندما يزهد فيها فالاطفال هم رصيدها حتى تحتفظ بزوجها، اذ انها لم تعد بالنسبة للزوج صالحة كمومس، فعليها ان

تجد وسيلة اخرى لربطه، وهي الاطفال. والزوج المسكين يعمل ليطعم امرأة لايرغب فيها واطفالاً يحلمون بالتخلص منه.

قال ايهاب: «ماكنتش بدافع عن هذا النوع من الجدية.»

قالت: «في اعماقك هوه دا اللي انت عايزه. على كل حال خليني اكمل. انا بجاوب على كل الاسئلة المحتملة. خليني اكمل انت كنت عايزنا نتجوز.»

قال: «صحيح.»

قالت: «خليني اكمل.»

قال وهو يضحك: «تفضلي ياستي. بس على فكره انا مش ضد التوتر، او ضد ان الحياة المشحونة. الشيء الجاد اللي بتكلم عليه له توتره الجميل. الجنس هوه الرتيب.»

قالت: «اعرف بالنسبة للمسائل الجدية صحيح لها توترها الجميل. عندما كنت اعمل في السياسة، وقد يكون هذا جديداً عليك، كنت اعمل عشرين ساعة في اليوم. لم اكن افكر الا في السياسة. هل تصدق؟ كان فيها ذلك التوتر الجميل الذي لامثيل لجماله. اعرف هذا جيداً. القراءة؟ لاتتصور كمية الكتب التي قرأتها! كتب فلسفة وعلم جمال وعلم نفس. الكتب الماركسية طبعاً. اقرأ والقلم في يدي واخطط، واكتب المختصرات والتعليقات. حتى الرواية كنت اقرأها كما اقرأ كتاباً فلسفياً. قد لاتصدق ولكنني قرأت الاعمال الاساسية لكانت وهيغل. انت تعرف تلك الملاحق التي تصدرها الموسوعة البريطانية؟

قال: «اعرفها. لكن عايز اسأل: ايه اللي خلاك.. يعني..»

قالت: «ماشيه على حل شعري؟»

- «يعني»

قالت: «عايز تقول اكتر من كده، اكتر بكتير. انا فعلاً اكتر من كده مره ادمنت على الافيون. وبعدين قررت اوقف. قلت انت المورفين. جربت متعة المورفين؟ بس خسارة صعب الحصول عليه. جربت الـ L.S.D اسمعني كويس. مافيش رد على المجتمع اللي سطّحنا، وقتل كل شيء جميل فينا الا بممارسة المتع الجنونية: المخدرات والدعارة.»

- «عايزة تقولي الجنس.»

- «الدعارة بقول لك.»

- «اعظم دفاع عن السقوط.»

قالت بضيق: «كليشيهات.»

قال: «شيء عظيم. توصلت ازاي لكل هذه الافكار؟»

قالت: «اعرف ان سؤالك مش جدي، بس حاجاوبك عليه. انا اكتشفت الاكذوبة. في كل مرة بنبني اسطورة. بنصدقها. بنكتشف كذبها. بنبني اسطورة تانية بنفس المعطيات، بنكتشف كذبها. دائرة مفرغة. بنيناها سنة الستة وخمسين وسنة التسعة وخمسين لمونا كلنا وحطونا في المعتقل. في المعتقل ايدنا جمال عبد الناصر يقتلنا ونؤيده. كنا بنقول انه بيبني الاشتراكية وعلشان يبنيها كويس

حلينا الاحزاب الشيوعية وحرب السبعة وستين؟ خلال ست ساعات حانكون في تل أبيب؟ واشتراكية المقاولون العرب؟ وسبعين في الميه من الميزانية الحربية بتروح للسماسرة والمقاولين؟ والمناطق الحرة؟ . . »

قال: «حيلك.»

قالت: «تضيع حياتنا في بناء الاساطير والبلاده. والاسطورة الاخيرة، والا بلاش. . »

- «أنا؟»

قالت: «ايوه.»

سادت فترة صمت كان ايهاب مذهولاً لانه عجز عن ايجاد رد حاسم على ماقالته زينب. كان يعتقد ان الرد سهل والمسألة لاتحتاج الى نقاش. لهذا كان يشعر بغضب عنين لانه لايستطيع اسكات زينب بجملة واحدة. قال:

- «المسألة اذاً حدين مافيش وسط بينهم. اما قبول بناء الاسطورة او الانهيار.»

كان يعرف انه لم يفعل شيئاً سوى تلخيص ماقالته زينب. ثم خطرت له فكرة رأى انها باهرة. قال:

- «يمكن دا اعظم دفاع عن بناء الاسطورة. بتقولي: اما نبني اسطورة او نتحول الى كائنات تافهة، نعيش على المستوى الغريزي: تجديد الحواس، استثارة الطاقة الجنسية، يعني نرجع لاصلنا الحيواني. الخيارين بشعين. لكن فيه خيار تالت. لنين مابناش اسطورة. نسيت الخيار التالت؟ على كل حال الاسطورة أحسن من الانحطاط.»

قالت زينب: «انت ايه اسطورة حياتك؟»

- «كتابة الرواية.»

- «توقفت عن كتابتها وفقدت اللي بتسمية الجوهر الجاد في حياتك. بقيت زيي.»

- «لا.»

لم يكن دفاعه جاهزاً. كان نفيه مجرد احتجاج. رفعت وجهها اليه وقد شاع فيه ضحك الزهو. قال:

- «بتتشفي بيا؟»

تعكر وجهها وقالت: «ماكانشي قصدي.»

قال: «قصدك ايه؟»

قالت: «عايزة اقول اننا كلنا في نفس المأزق. الجادين والمنحلين وكله. اصل مشكلتنا الوعي اللي مش منسجم مع الواقع، مش انحدارنا الى المستوى الحيواني. الوعي طريق في اتجاه واحد، مش ممكن التراجع عنه. انت الشيء الجوهري عندك هوه السياسة مش الرواية. الرواية، بالنسبة لك، سلاح سياسي. وانت توقفت عن كتابة الرواية لانك بعدت عن السياسة، مش لأنك بتمارس الجنس معايا.»

- «وانتِ؟»

قالت: «انا في قلب السياسة، لكن في حالة نفي.»

قال: «السياسة بيصيفها بشر، انا وانت والآخرين. انت بتتكلمي عنها كأنها قدر.»

قالت: «السياسة قدر واحنا بنخدع انفسنا لما نتصور انا قادرين على تغييرها. صناع القرار مابياخدوا رأينا. بيوهمونا بس، او احنا بنوهم أنفسنا.»

شعر ايهاب باعياء مفاجيء. كل منهما قادر على تقديم حجج قوية، تبدو وكأنها لاتقاوم. يدوران في حلقة مفرغة، فلا هزيمة ولا انتصار يشحذانه. اعياه انقطاع التواصل. قال:

- «انا مرهق. بكره نكمل حوار.»

قالت: «ماتنام هنا.»

قال: «عايز اتمشى واخلو لنفسي.»

امسكت يده وقالت: «طيب.»

كان عاجزاً عن اتخاذ قرار المغادرة. سيشتاق اليها. ساد الصمت بينهما. يدها الممسكة بيده لغة، نداء لتجديد ذلك الالتحام الجسدي المجنون. الاستجابة لهذا النداء مجازفة تحتاج الى جهد خارق، وهو غير مستعد لتلبيته. قال:

- «نشرب قهوة قبل مامشي.»

قالت: «قبل مانشرب القهوة عايزة اقول لك على القرار اللي اتخذته.»

نظر اليها ورجا الا يكون قراراً بانهاء العلاقة. قال: «قولي.»

قالت: «واحنا بنتناقش كان فيه عملية تانية في داخلي.»

- «الجنس؟»

قالت: «لا. كنت بحاورك وبحاور نفسي. حاعمل Suspense [1] حاعمل قهوة الاول.»

- «ماتقولي وبلاش Suspense.»

قالت: «عايزة اخلو لنفسي خمس دقايق. كنت بهزر لما قلت Suspense عايزه اصيغ قراري بشكل كويس.»

ومضت الى المطبخ. حدث فجأة ان زينب قد قررت ان تخرج من تلك الدائرة المفرغة، من الخيارين القسريين. ولكن كيف؟ شعر ان القرار سيكون مصيرياً لهما الاثنين. هل يتبعها الى المطبخ ويقول لها انه خمن قرارها؟ لايريد ان يكون طفلاً مزعجاً. عندما غادرته نظر الى ساعته كانت تشير الى الحادية عشرة. خطر له ان يناديها ويقول ان الخمس دقائق قد مضت. ثم قال لنفسه: بلاش لعب عيال. ونظر الى ساعته. ست دقائق مرت. ثم رآها قادمة بمشية ظريفة، خفيفة الظل، تحمل صينية القهوة. قال لنفسه: «اية فتاة اخرى توازيها»

جلست وأخذت تصب القهوة. قال:

- «ايوه يازعيمة.»

قالت: «ايوه.»

قال: «صغتِ القرار؟»

- «صغته.»

- «ايه؟»

قالت:

- «انهي علاقتي بالرجال عداك. ولفترات متباعدة. هذا اولاً ثانياً، العود للجذور. اقرأ واكتب. اقرأ ماركس وهيغل ولنين واكتب.»
- «دا كله؟»
قالت:
- «كل ماقبل ستالن. ستالن هوه اللي صاغنا. ومش ممكن تجاوزه الا بمعرفة الاصول.»

* * *

فكر ايهاب وهو يهبط في المصعد: انني اعرف زينب. سوف تبدأ في تنفيذ قرارها على الفور. فاض قلبه بالحنان. عندما اعلنته قرارها. احتضنها وهمس: «حبيبتي الحلوة.» قبلته وقالت:
- «مافيش جنس الليلة.»

انعشه الهواء الرطب. تذكر منال ببهجة، وقرر ان يسير مشياً الى بيت هنيه. الوقت غير مناسب؟ طز في الوقت. يجب ان يرى اسماعيل. ثم تذكر انه لم يقطع علاقته مع زينب، ولم يحاسبها على خياناتها له، قال لنفسه: «بنت الجنيه. انستني كل شيء.» ودهمه الضحك. كان القرار الذي اتخذه قد تشكل في ذهنه. كان عبارة قالتها زينب: «المسألة الاساسية في حياتك هي السياسة» سيقولها لاسماعيل، ويقول أيضاً: انني ابتعدت عن السياسة فضعت. ضعت لهذا السبب وليس بسبب زينب. اريد أن أشارك فعلياً في تغيير العالم، وكل الأشياء الاخرى سوف تأخذ مكانها الطبيعي. لنفرض ان اسماعيل قال له: «مطلوب مني ايه؟» سوف يكون موقفاً سخيفاً. سأقول: «مطلوب منك ان تساعدني. ولكن اسماعيل لن يقول شيئاً كهذا.

ستكون هنية متضايقة لانه جاء في وقت متأخر، ولأنها المرة الثالثة التي يزورهما فيها في يوم واحد. وقد تعتقد انه جاء لانه يعتقد أنها وحيدة في البيت، ولكنها ستخفي ذلك كله. ولكن مااهمية ذلك؟ المسألة اهم من هذا، المسألة تتعلق بمصيره ومعنى وجوده.

عندما انفتح باب الشقة، وقد انفتح بسرعة، كان فهمي يقف خلفه. رحب به بحرارة، وقال اسماعيل:
- «كويس اللي جيت. كنت حابعت لك فهمي.»
ثم أضاف بعد ان جلس ايهاب:
- «اخبارك ايه؟»
قالت هنيه: «اهلاً ايهاب. جيت في وقتك.»
وهو الذي تصور انهم سيستقبلونه بفتور. قال اسماعيل:
- «تعشيت؟»
قال: «لا.»
قال اسماعيل: «نتعشى سوا.»
قال ايهاب: «غدا او عشا؟»
بدأ الحديث بتهنئته على قراره الشجاع («شجاع بجد» قال اسماعيل) بأنهاء علاقته بزينب. لم

يستطع ان ينفي ذلك. فلم يقل شيئاً. ثم انتقل الحديث الى منال. قال فهمي انها «انسانة ممتازة» وقال اسماعيل «بنت صافية زي الكريستال.» ابتسمت هنية وضحكت عيناها وقالت:

ـ «انت مش قليل.»

قال: «ايه؟»

قالت: «البنت حاتموت فيك.»

وضحكت. قال ايهاب:

ـ «ياجماعة. انا كنت واقع في غلطة.»

قال فهمي: «طبعاً.»

قال ايهاب:

ـ «انا مش بتكلم عن زينب، بتكلم عن نفسي. كان معياري الوحيد اني روائي. بكتب قصة قصيرة، مقالات، اني كاتب.»

قالت هنيه: «طيب. ايه الغلط في دا.»

قال ايهاب:

ـ «اكتشفت ان دا معيار خاطيء. انا سياسي في الاساس. كل انسان بيحمل هم عام هو سياسي في الاساس.»

قال اسماعيل: «ماحدش بيعارضك.»

قال ايهاب:

ـ «الكتابة كان معياري للصح والخطأ. كنت اتصور اني اذا كتبت فكل شيء في وضعه الصحيح، واذا حدث العكس فكل شيء بينهار، يعني معياري ذاتي. انا عايز اشارك في العمل السياسي المباشر، احتك بقوى التغيير واتفاعل معها.»

ضحك اسماعيل وقال:

ـ «علشان كده عايزينك. عايزينك تساهم في عمل سياسي مباشر.»

قال ايهاب: «انا مستعد.»

وصمت دون ان يبدو انه انهى كلامه. وصمت الآخرون بانتظار ان يواصل. قال:

ـ «الكتابة الروائية بتخلي الانسان، بشكل غير واعي يمكن، يؤمن بالقدر.»

قالت هنيه: «بالقدر؟»

قال اسماعيل: «استمر.»

قال ايهاب:

ـ «ايوه القدر الواحد يكتب موقف، مشهد، وبعدين كل شيء يتوقف. واقعد مستني الالهام، اللي ممكن يجي وممكن مايجيش. اقوم اتمشى، اعمل قهوة، ابص عالجيران مستني الفرج. الارادة معدومه. اقعد امسك القلم وبعدين اسيبه.»

قال اسماعيل: «ماكنتش اعرف. غريب.»

قال ايهاب :

- «علشان كده عايز اعمل شيء تتحكم فيه ارادتي. اعرف بعمل ايه، وايه هيه الخطوة التالية. المهم. كنتو عايزني ليه؟»

قال اسماعيل انه تقرر اقامة ندوات سياسية وفكرية وادبية في كل الامكنة الممكنة، وحسب خط سياسي واضح. لغاية الآن تحددت خمس ندوات، في دير الملاك، عين الصيره، نادي الاتلييه، اتحاد الادباء. في الجامعة طبعاً. ستكون هناك ندوات في المنصورة وطنطا. قال فهمي: «والاسكندرية».

قال اسماعيل :

- «والاسكندرية. المهم نشوف مدى استعدادك للمشاركة. حسب ظروفك طبعاً.»

قال ايهاب: «على استعداد تام وفي كل الندوات.»

* * *

عندما غادر ايهاب الشقة اثقل على زينب عبء الالتزام بالوعد الذي قطعته على نفسها. تجولت في الشقة. اقتربت من المكتبة واخذت تقرأ عناوين الكتب فاحست بمايشبه الاختناق. الكتب كثيرة جداً وكثرتها اشعرتها بعدم جدواها. تصورت انها وجدت حلاً. قالت لنفسها سوف ابدأ بكتاب ماركوز عن هيغل. ونسيت وعدها ان تقرأ المراجع الاصلية.

مضت تتجول في الشقة الواسعة. كانت متوترة. السير سينظم افكارها، سيساعد في توضيح موقفها. وكلمح البرق خطر لها دلالة مسعى ايهاب: يريد ان يقيدني بشيئه الجوهري والجاد حتى يمتلكني. اصبح ايهاب طرفاً في حوار داخلي. تسأله: لماذا يريد امتلاكها؟ غام ذهنها مفتشاً عن رد ايهاب. يقول: «انا؟» تقول: «تريد امتلاكي كما تمتلك حذاء. تغادر البيت وانت تعلم جيداً انك ستعود وتجده مكانه.» وعلى طريقة ايهاب يقول: «الحب يفترض الامان والثقة. انت بتسميه امتلاك.» تقول: «تحبني حين تشعر انك لاتمتلكني. ولكن لماذا تريد امتلاكي؟ حبيبه؟ لبعض الوقت. زوجه؟ مستحيل.» ايهاب متلجلج امامها. يقول: «احبك على الايكون حبك مانعاً.. اعني.. انت فاهمة. لن يمنعني من الكتابة.» وفجأة تصورت انها ادركت حقيقة موقف ايهاب وباندفاع وحماس.

أخذت تخاطبه: «انت فشلت في السيطرة على حركة المجتمع، كما فشلت مساعينا في تغيير المجتمع، في الامساك بحركته. فشلت ياايهاب في الامساك بالعالم والسيطرة عليه من خلال الرواية. فشل السياسة ادى الى فشل الرواية. فلم يبق الا زينب تسيطر على روحها وعلى جسدها.»

فوجئت بنفسها وقد ارتدت ملابس الخروج وكان لارتداء الملابس ديناميتها، اذ شعرت انها لاتطيق البقاء في البيت دقيقة واحدة. فخرجت دون ان تقرر الى اين. وعندما ركبت سيارة الاجرة قررت ان تذهب الى بيت حمادة. لم تجده. حين غادرت البناية رأت سيارة الاجرة التي جاءت بها ماتزال واقفة. ركبت وطلبت الى السائق ان يتجه بها الى جاردن سيتي. وصعدت الى بيت تركي. اصبح تركي يعمل في سفارة بلاده ذلك النوع من العمل الذي لايتطلب البقاء في السفارة. فكرت وهي تدق جرس بابه انه دائماً يستقبلها. وكأنها جاءت في انسب وقت ممكن.

تهلل وجهه عندما رآها وقال:

- «جيتِ في وقتك.»

اغرقت زينب في الضحك وقالت:

- «دخلني.»

افسح لها الطريق. واحاط خصرها بذراعه بعد ان اغلق الباب وهي تضحك، فقال لها:

- «ليش بتضحكي؟»

وهو يضحك. قالت انها وهي قادمة كانت تقول لنفسها ان جميع الاوقات مناسبة لزيارته وانه استقبلها بقوله: «جيت في وقتك.» لاحظت زينب بدهشة ان وجهه أصبح حزيناً، وفكرت: «هل يحزن هؤلاء؟» قالت:

- «مالك؟»

قال:

- «بفكر في كلامك. ايش بتشربي؟»

- «قهوه.»

نظر اليها بتساؤل، فقالت:

- «ماره اشرب معاك فنجان قهوة وأروّح.»

قال: «نامي هنا.»

- «لا.»

دخل المطبخ واخذ يعد القهوة. قالت زينب لنفسها ان تركي يبدو غريباً هذه الليلة. لاول مرة تشعر بأنه يحترمها. كان في ذهنها ذلك الحزن الذي في وجهه. هل معنى ذلك أنه لم يعد يعتبرها عاهرة؟ سنرى، قالت لنفسها، وهي لاول مرة تشعر بالفة المكان.

عاد تركي يحمل صينية القهوة. كان مايزال حزيناً، اكتشافها ان تركي انسان كالآخرين اصابها - لاتدري لماذا - بخيبة الامل. قالت له:

- «ايه الدراما اللي انت عاملها؟»

قال اكتشف انه انسان لامعنى لحياته. انه يشبه جده ليس لها وظيفة في الحياة سوى زيارة الابناء والاحفاد. لاشيء مهم في حياته.

عندما رأى تعبير الدهشة في وجه زينب اخذ يبكي. انتقلت الى جواره وقالت:

- «انت غريب ياتركي الليلة.»

قال:

- «انا تافه.»

صمت قليلاً وقال:

- «بحبك يازينب.»

قالت وهي تقبله على خده:

- «انا شرموطة.»

قال خلال دموعه: لاتقولي هذا. اعلم انك لست كذلك. انا لاافهم سبباً لماتفعلينه انت انسانة ممتازة، وانا ارغب أن اتزوجك.

كانت تعيش احساسين متناقضين، الاول انها فقدت حرية كونها عاهرة، ومتعة ان تكون موضوعاً لاشد الرغبات شذوذاً وعنفاً، وفي الوقت ذاته شعرت براحة مبعثها انه تم انصافها. فمالت وقبلت تركي على خده فتبللت شفتاها بدموعه. قالت برقة:

- «انت مجنون.»

قال:

- «فيه ناس كلموني عنك.»

قالت بنبرة هادئة، غائبة، وهي تمسح الدموع عن خده بمنديل ورقي، وكأن ماقاله الآخرون عنها لا اهمية له:

- «قالوا ايه؟»

قال انهم قالوا انها انسانة مثقفة وممتازة ولكنها يائسة تسعى الى تدمير نفسها. قالت وهي تضحك:

- «مثلك؟»

قال انه ليس هكذا، انه اقل من ذلك كثيراً.

استمر الحديث بينهما. فوجئت بنفسها تردد كلمات ايهاب عن الشيء الجاد والجوهري في الحياة، وانها تعيد النظر في حياتها كلها، لتستعيد ذلك الشيء. ثم قالت له وهي تبعد جسدها عنه، وتنظر في ساعتها:

- «ممكن توصلني؟»

قال:

- «طبعاً. لكن ليش ماتنامي هنا؟»

قالت:

- «مش عايزة اعمل جنس.»

قال انه يفهم ذلك. انه لن يقسرها على شيء. ثم لاتدري كيف، ولكنهما تعانقا، فاستثيرت، وكانت تركي يلهث فقادته الى السرير.

في الصباح، عندما غادرت شقته، فتحت شنطتها فاكتشفت انه وضع فيها خمسين جنيهاً.

الفصل الثامن

منذ دخوله مكتب الوكالة وايهاب يترقب اتصال منال به . لقد جعله انتصاره على زينب عاشقاً لمنال . ترقب تليفونها بلهفة . بعد قليل دخل مدير الوكالة حجرة المترجمين ممسكاً بورقة ترجمها ايهاب عن اللغة العربية . قال وهو يضحك :

ـ «هل انت متأكد ان امريكا هي قائده حلف وارسو؟»

قال ايهاب :

ـ «بل الناتو . »

فقال المدير :

ـ «انظر ماذا كتبت هنا . اين عقلك؟ هل انت عاشق؟»

ضحك ايهاب وخرج المدير وهو يرجوه ان يكون اكثر تركيزاً ، على الفور اتصل بمنال . ردت على الفور بذلك الصوت المفرح الصادح :

ـ «ايه . . هاااب . . عمالي بتصل بيك ، بتصل بيك ، بيقولوا النمرة غلط . »

ـ «لازم النمرة اللي معاك غلط . »

وعندما قرأت له النمرة تبين انها صحيحة . قال لها :

ـ «النمرة مضبوطة . لكن احوال التليفونات غريبة . »

لم يكن يرغب في اطالة الحديث بالتليفون ، خاصة وان زميلته ، الضاربة على الآلة الكاتبة ، كانت تطالعه بابتسامة معابثة . ولكن منال لم تتوقف . حكت عن مشكلة التليفونات ، ثم انتقلت الى المواصلات . قاطعها قائلاً انه يريد ان يراها . قالت : متى؟ قال : اليوم ، الساعة الواحدة والنصف . قالت متيئسة انها تنهي عملها في الثانية . ضحك ايهاب وقال : فليكن ، في الثانية . قالت :

ـ «خليها اتنين وعشرة . »

ـ «اتنين وعشرة . »

قالت : «قطعت مع زينب؟»

كان ذلك غير معقول . قال :

ـ «لما اشوفك ابقى أقول لك . »

قالت: «قول ايوه والا لا.»

- «بعدين.»

- «بعدين ليه؟»

- «مش على التليفون.»

- «ليه؟»

قال: «قطعت.»

قالت: «عظيم جداً جداً.»

قالت: ان هنية اخبرتها انه زارهم بالليل. قال ان هذا صحيح. قالت ان عودته للسياسة شيء عظيم جداً جداً. قال ايهاب لنفسه: «انني امام طفلة» قال:

- «ياصديقتي العزيزة والرائعة بلاش على التليفون.»

قالت: «فهمت.»

عليه ان يعلمها الكثير. قالت الضاربة على الآلة الكاتبة:

- «الجو؟»

- «واحده قريبتي.»

تنهدت وقالت: «كلهم قريباتك؟»

قال: «مش كلنا اولاد آدم وحوا؟»

كانت صورة زينب في خياله مثيرة لحزن رقيق وشعور بالذنب. تخيلها وهي مكبة على ذلك الكتاب، ذي الغلاف البني المقوى، تقرأ ايمانويل كانت، في حين انه يقيم علاقة مع أخرى. في تلك اللحظة أصبح جسدها اليفاً كجسد المحارم. وعلى التواخذ يصيغ قضية متماسكة ضدها: «الضياع والانحلال، والانتقال من عربدة جنسية جنونية الى طهرانية صارمة. كانت رائحة تلك الطهرية في انفه، رائحة الفورمالين التي تمنع الجثث في مشرحة القصر العيني من التعفن. وانا؟

(في تلك اللحظة كانت زينب جالسه في حجرة التحرير، تعيش عنف تركي البارحة، من خلال آلام الكدمات التي تشعر بها في عدة مواضع من جسدها. وابتسمت وهي تحدس صورتها في خيال ايهاب: تجلس بجدية وعبوس تقرأ هيغل، وتنتقل الى دفترها وتسجل ملاحظات مطوّلة. قدرت ان هذه الصورة تستفزه وانه سيسعى الى استخراج الفاجرة فيها. سمعت فهمي يناديها وهو يشير الى التليفون. تيقنت انه ايهاب، سيسألها عن الكتاب الذي بدأت به، وينتظر ان تدعوه لحفل جنسي.

نهضت واتجهت الى التليفون. حيّرها الصوت. عرفت أنه تركي ولكنها ارادت ان يكون ايهاب. قال انه يدعوها للغداء، قالت أنها ستمر عليه في الثانية وانهت المكالمة.

كان حماده يطالعها بنظرة ثابتة، نافذة، تكفي، مع غياب صوته المدوي، ان تجعله يبدو ذكياً. عندما اقترب منها همس: «تليفوناتك كتيرة» لم ترد. واصلت سيرها نحو مكتبها وجلست. فكرت: «تركي عاشق ولكن ذلك لن يطول. تعرف نفسها.

كانت فتاة اخرى التي لقيها ايهاب في وكالة الانباء الفرنسية لم يتوقف عندها، معتقداً انها فتاة أخرى، ولكن صرخة الترحيب جعلته ينتبه اليها. بدت اكثر بياضاً: ولم تكن باناقة البارحة. كانت

ترتدي بلوزة بيضاء وتايير كحلي، وبدا شعرها وكأنه طال بين يوم وليلة. لاحظ انها صغيرة السن فاصبحت سذاجتها منسجمة مع سنها. قالت:

- «ايهاب. جيت بدري.»

قال وهو يصافحها:

- «كان مفروض اتأخر شويه؟»

قالت:

- «انا خلصت بدري وقاعده مستنياك. تعالى اعرفك على زملائي.»

قال:

- «مافيش داعي.»

قالت:

- «كده؟ ننزل اذاً.»

بدت اكثر تماسكاً وثقة من البارحة. لاحظ ان دخوله وخروجه معها لم يثر استغراب احد.

قال:

- «نتغدى فين؟»

قالت:

- «في البيت.»

قال مترددا:

- «مش عارف عندي أكل يكفي والا...»

كان خائفاً ان تفاجئها زينب. قالت:

- «في بيتي انا.»

- «فيه اكل جاهز؟»

قالت: «بطه جهزت الاكل.»

- «الخدامة؟»

قالت باستنكار:

- «. زميلتي في الشقة. شغلها بعد الظهر.»

كانت تسير بسرعة وحيوية. قال:

- «زميلتك عارفة اني جاي؟»

هزت رأسها ايجاباً. قال:

- «عرفت ازاي؟»

قالت بدون ان تنظر اليه:

- «قلت لها.»

- «بالتليفون؟»

قالت:

ـ «قلت لها مبارح .»
قال ايهاب لنفسه ان كل شيء تم ترتيبه دون ان يؤخذ رأيه . هذا من تدبير هنية . قالت :
ـ «قلت لها حاعزم صديق على الغدا ويمكن يجي .»
قال :
ـ «انا مجرد امكانية .»
لم ترد . بسبب زحمة المواصلات سارا الى بيتها مشياً . كانت تسكن في العجوزة .
قال :
ـ «احنا جيران تقريباً .»
ـ «انت ساكن في ميدان الدقي .»
وعلى عكس ماتوقع لم تكن متلهفة على الكلام . كان تطالع العالم حولها بشغف . وعندما امسك يدها ليجنبها السقوط في حفرة في الشارع ابقتها في يده . سرعتها في المشي جعلته يلهث . قال :
ـ «سرحانه في ايه؟»
قالت دون ان تنظر اليه :
ـ «فيك .»
توقع ان تضيف شيئاً ولكنها ظلت صامتة . كان حلم ايهاب يهتز . حلم البراءة الطلقة ، البذيئة ، الممنوحة دون تحفظات ، دون شروط . قال :
ـ «ساكته ليه؟»
نظرت اليه نظرة جانبية وقالت :
ـ «بتحب الخرشوف؟»
افلتت منه ضحكة . قال :
ـ «عاملة غدا خرشوف؟»
قالت :
ـ «لا . بس كنت بفكر ان الخرشوف حاجة غريبة بيترمي كله وبيفضل منه حاجة صغيرة تتاكل .»
لم يقل شيئاً . قالت :
ـ «قالت ايه زينب لما قطعت العلاقة؟ على فكرة ، قلت لها انك شفتني؟»
قال :
ـ «لا . كان مفروض اقول لها؟»
ـ «كان احسن . قالت ايه لما قلت لها انك قررت تقطع العلاقة؟»
قال لها ان زينب قررت ان تمارس حياة جدية ، ان تقرأ كانت وهيجل ورأس المال . يعتقد انها بدأت ذلك بالفعل . قالت منال ان القراءة ليست مهمة . المهم هي الممارسة . فكر ايهاب بدهشة : هي عضوة في التنظيم اذاً . هذا هو سبب حماس اسماعيل وفهمي وهنية لها . قال :

ـ «فيه ممارسة من غير قراية، من غير نظرية؟»

قالت:

ـ «ممكن. الطبقة العاملة مابتقرا كانت وهيغل. بتمارس بس.»

اخذ يتوتر. قال:

ـ «لينين كان غلطان لما قال انه لابد لكل حركة ثورية من نظرية ثورية.»

قالت:

ـ «لا. مش غلطان.»

صمتت. طال الصمت قال ايهاب لنفسه: ماالحكاية؟ تبدو وكأنني افرض نفسي عليها. هل انصرف؟ تأكد في تلك اللحظة ان منال لم تحاول الاتصال به، وان ادعاؤها ان رقمًا خاطئاً كان يرد كان كذباً. والبارحة؟ عندما اغمضت عينيها وبدت مستعدة لان يقبلها؟ هل كان ذلك تمثيلاً؟ مامعنى اذاً، قول اسماعيل انها صافية كالبلور؟

جذب يده من يدها اعلاناً عن استنكاره. لم تندهش وكأنها لم تشعر بما حدث، الجو الحار ولد حمرة وزغباً في وجهها وزال ذلك الاساس من الكريم الذي يضفي، على بشرتها لوناً اسمر ذهبياً. قالت وهما يصعدان السلم ان المصعد معطل بشكل دائم، وعندما تعود الى البيت تحمل هم صعود السلم. فكر ايهاب انها تسكن الدور الاخير.

كانت شقتها في الطابق الرابع شقة واسعة، الاثاث فيها محدود، ولكنها انيقة.

فوجيء ايهاب بفاطمة. كانت وجهاً مألوفاً. كان يراها كل صباح عندما كان يعمل في وكالة انباء الصين التي كان مقرها في البناية المقابلة لنادي السيارات. في الطابق الارضي ووراء واجهة زجاجية تطل على شارعي سليمان والبستان كان مكتب شركة الطيران العربية. كان ايهاب يتأنى في سيره عندما يقترب من المكتب، آملاً ان يراها: ذلك الجسد الطويل الممشوق، والحركة الرشيقة، والعينان السوداوان الكبيرتان، وتلك الكفاءة في الحركة. لايشعر ايهاب انه رآها حقاً الا عندما تلتقي عيونهما وتسري في جسده رعشة الخوف والتعرف.

صورة فاطمة ارتبطت في خياله بملابس مضيفات الطيران، ولكنها، الآن، وهي ترتدي قميص النوم والروب اصبحت امرأة أخرى. الردفان المرتفعان، والثديان البارزان، والشعر الاسود الذي لم يكن منسقاً، نزع عنها كفاءتها. قالت بصوت واضح:

ـ «اهلاً ايهاب. احنا بنعرف بعض.»

اجتذبته تلك الثقة في ازالة الكلفة مع الاحتفاظ بالمسافة الكافية بنيهما. قال:

ـ «طبعاً بتشتغلي في شركة الطيران العربية.»

قالت: «كنت بشوفك..»

قال ايهاب: «كنت ببصبص لك.»

ضحكت فاطمة واحتقن وجه منال. قالت منال:

ـ «ماقلتليش انكو بتعرفوا بعض.»

قال ايهاب:

- «ماكانشي فيه معرفة مباشرة. كنت بشتغل في البناية اللي فيها مكتب شركة الطيران العربية. وكل يوم امر قدام المكتب. كنت معجب.»

خطر لايهاب: «فاطمة قدري. يبدو اننا اذا اعجبنا بفتاة بحدة، حتى اختلطت باحلام يقظتنا، فسنلتقي بها. قالت منال في محاولة لتغيير الموضوع:

- «عملتينا ايه غدا؟»

- «ورق عنب وحاعمل فيليه.»

ونظرت الى ايهاب فقال:

- «انا من عشاق ورق العنب.»

ضحكت فاطمة ودخلت المطبخ.

على مائدة الطعام أصبحت منال طفلة مزعجة. كانت عصبية وكثيرة الطلبات. ولكن فاطمة كانت تسود الموقف. تناقش طلبات منال بهدوء وبصوت نصف غائب، سألها ايهاب عن طبيعة عملها فقالت انها مضيفة جوية، ولكنها تعمل في الوقت الذي لا تسافر فيه مضيفة ارضية. قال لها ايهاب ان عملها خطر، فقالت انه بالنسبة لعدد الرحلات الجوية التي تقوم في العالم في اليوم الواحد فان الطائرة هي اكثر وسائل المواصلات في العالم اماناً. قالت منال:

-«بطه مسافره هونغ كونغ النهاردا.»

قال ايهاب انها مدينة خطرة، فقالت فاطمة ان الخطر ممتع. وبعد الغداء دخلت فاطمة حجرتها، وخرجت مضيفة طيران رشيقة، صلبة الجسد. قال:

- «نفسي اسافر معاك.»

نظرت اليه نظرة رصينة، كانت عبارته غزلاً صريحاً. قالت:

- «ماتسافر.»

وابتسمت ابتسامتها التي دوخت ايهاب. قال:

- «السفر عايز فلوس وجواز سفر واجراءات.»

قالت فاطمة:

- «من طلب العلا سهر الليالي. حاسيبك تسافر انت ومنال.»

قهقهت منال وخرجت فاطمة. قالت منال انها تعرف انه ينام بعد الظهر، فبامكانه ان ينام في حجرة فاطمة.

كانت الحجرة متحفاً، حجرة تجاهد ان تكون شيئاً آخر، يذكر بحديقة اصطناعية او بمحل انيق لبيع التحف. كان هنالك تمثال لبوذا مصنوع من العاج، له كرش كبير وفم مفتوح خال من الاسنان. ولكن اغلب التحف كانت على نحو ما، اعادة انتاج لفاطمة: طيور ذات مناقير وارجل مفرطة الطول، وأجساد ممشوقة مصنوعة من العاج او العظم، رجال ونساء من النحاس الاحمر والاصفر والبرونز، حيوانات صغيرة الحجم جداً، وتقليد لتماثيل مصرية من الحجر، ونساء من زجاج شفاف، مطعم بلون بنفسجي، وفي داخلها لون احمر خفيف يتموج كأنه حركة دخان، ومسوخ افريقية من الخشب الاسود الصلب، اضفى عليها اختلال النسب الجسدية قدرة تعبيرية هائلة،

واقنعة افريقية ويابانية وصينية. كانت حجرة تنتسب الى عالم الاماكن المغلقة: مكان للقاء بين الرجال والنساء في اماكن باذخة وسرية جداً. يولد هذا الاحساس الستائر المسدلة من السقف حتى أرضية الحجـرة، وهي من المخمـل البني الغامق، ويظهر خلفها في بعض المواضع ستائر بيضاء خفيفة. استغرب ايهاب انه رغم الحر في الخارج واغلاق الحجرة واكتظاظها فجوها فيه برودة خفيفة. ثم انتبه الى الصوت الخفيف، الذي يشبه الانين، الصادر عن شوفاج صغير.

تحرك بتهيب. حجرة تثير الاحترام والخشية من تدمير شيء ما. ود لويستطيع ان يغسل قدميه ووجهه قبل ان يدخل السرير. ولكنه، وقد اصبح بالكلسون والفانيلة فقط، رأى ان خروجه سيثير ازعـاجاً ومتاعب غير متوقعة. تساءل: «ماالذي يجعل فاطمة تزحم حجرتها هكذا، في حين كان بامكانها ان تضعها في الصالون.

اقترب من السرير بحذر كأنه يقترب من شخص نائم يخشى ايقاظه. كان ملمس الملايات على جسده بارداً لذيذاً، وشم رائحة عطر. قرر ان ينام عارياً. للسرير على جسده ملمس اللحم الحي. وفي جو من النشوة نام. تخلل نومه احساس بمجاورة جسد آخر بجواره، عليه ان يبرهن على حسن نيته نحوه. ثم حلم بأنه يدخل كازينو داخل غابة. كان الزبائن قلائل، وفاطمة تجلس على مائدة وحدها، وهي ترتدي طاقم المضيفة الازرق الغامق. اقترب منها وقال: «بطة» نظرت اليه. لم تكن فاطمة. قالت: «افندم؟» في تلك اللحظة اشتعل النور. كان باب الحجرة مفتوحاً، ومنال واقفة قرب السرير تحمل صينية القهوة. قال وهو في غبش النوم:

- «الساعة كام؟»

قالت:

- «ستة وشويه.»

جمع وطرح فتبين له انه نام ساعة ونصف. وضعت منال الصينية على طرابيزة قرب السرير. رأى الدهشة تنمو في وجهها. قالت:

- «نايم عريان؟»

قال: «باين كده.»

ضحكت. قال:

- «الدنيا حر.»

قالت: «مع اني شغلت التكييف.»

اخذا يشربان القهوة وايهاب ملتف بالملاية. قال:

- «غريبة اوده فاطمة.»

- «ماهية كل ماتسافر تجيب معها حاجة.»

- «تمهيد لبيت الزوجية؟»

كان يرغب ان يعـرف شيئاً عن حياة فاطمة الخاصة، وكأنه بذلك ينتقم من تحفظها وثقتها بنفسها. قالت:

- «فاطمة مش حاتتجوز.»

- «ليه؟»

- «بتعتقد ان الجواز حايمنعها من السفر. مجنونة بالسفر. لما يمر عليها اسبوع ماتسافرشي فيه تبقى حاتتجنن.»

كان لمنال مظهر زوجة. ترتدي روباً قطنياً ازرق فاتحاً. وقد انحنى ظهرها قليلاً. كان شعرها مهوشاً. فكر ايهاب ان هذا مايحدث بين المتزوجين بعد قيلولة مابعد الغداء. هذا الاهمال الجذاب البريء، الساكن، الشعر المنكوش، والروب الذي ارتدته دون عناية، والعينان اللتان تبدوان غريبتين دون كحل، غرابتهما تشبه الغرابة التي نشعر بها عندما نرى رجلاً حلق شاربه، والشفتان شاحبتان دون روج. قال:

- «السجاير لو تسمحي في جيب الجاكته.»

نهضت ببطء الزوجات واخرجت علبة السجاير والكبريت من الجاكتة. اشعلت سيجارة مدتها اليه واشعلت اخرى لها. قال:

- «يعني فاطمة مابتحبش؟»

- «مابتقول.»

قال: «معقول مابتعرفي؟»

لم تجب. قال:

- «ماحدش بيزورها؟ يعني صديق؟»

قالت بحسم:

- «دي اسرار.»

- «آسف.»

بعد فترة صمت اشار بيده الى الحجرة وقال:

- «حاتفضل تزحم الاوده بالحاجات لامتى؟ وبعدين؟»

- «وبعدين ايه؟»

- «حاتحتفظ بيهم والا تبيعهم؟»

قالت:

- «ماسألتهاش.»

وضعت منال ساقاً فوق ساق وهي تحمل فنجان القهوة قريباً من انفها، لاتشرب ولا تبعده عن فمها. انزلق الروب عن ركبتها، ثم عن فخذها. كان لها فخذ ابيض، قوي متناسق، له بريق. تعلقت عينا ايهاب به. قال:

- «الساعة كام؟»

قالت:

- «كل شويه تسأل عالساعة.»

- «خايف تكوني مشغولة.»

ابتسمت وقالت:

- «مشغولة بيك.»

- «زي بتوع السيما.»

هبط الـروب المتزلق مرة واحدة فانكشف ساقها كله وجزءاً من بطنها ووضعت الفنجان على الطرابيزة، وضمت الروب على جسدها ونهضت. قالت:

- «تعالى نقعد بره.»

وخرجت.

ارتدى ملابسه بسرعة، ودون ان يلبس حذاءه، سار الى الصالون حاملاً حذاءه بيده. قال لها:

- «فيه ريحة غريبة في اودة فاطمة كأنها ريحة بخور.»

قالت:

- «مش كأن. فيها بخور فعلاً، جابته من الهند. الحتة الصغيرة اللي قد عقلة الصباع تمنها جنيه او اكتر.»



- «دي بتاعة مزاج. وهيه بتتبخر؟»

- «طبعاً.»

- «خايفة من العين؟»

- «يمكن. بتشرب؟»

قال:

- «ما لسّه شاربين قهوة.»

قالت:

- «خمور.»

- «وحشيش؟»

قالت:

- «الحشيش بتاع زينب.»

- «عرفتي ازاي؟»

قالت:

- «يعني صحيح؟»

قال:

- «وانت وفاطمة بتشربوا حشيش؟»

قالت باستنكار:

- «اعوذ بالله.»

الفصل التاسع

أصبح كل شيء مختلفاً عندما طلبت اليه منال أن ينام في بيتها. ورداً على تعبير المفاجأة الذي ارتسم على وجهه ابتسمت وقالت:

- «في أودة فاطمة».

زجاجة الويسكي (ديمبل) التي وضعتها على الطرابيزة أمامها من ممتلكات فاطمة. المزة التي أعدتها منال كانت عشاء بالفعل. دخلت منال حجرة نومها وخرجت ترتدي قميص نوم قطنياً ضافياً، أرضيته بيضاء ناصعة، مطبوع عليها زهور صفراء وخضراء. قالت:

- «الروب بيحررني».

قال:

- «القطن أنسب للحر».

أمسك يدها وقال:

- «ايديك مبلولين».

- «لا. بعد ما أغسل الاطباق بغسل ايديا بميه وملح. وبعدين بحط عليهم كريم».

كان قد أرخى يدها فأخذت تتأمل أصابعها وتنهدت. حركة نموذجية للزوجة. غاص ايهاب في هناءة هذه الصورة من الحياة الزوجية: شكوى الزوجة من أعباء البيت، الاسترخاء، الحديث غير المتصل، محمولات ذلك التفاهم العميق بين انسانين. حدث في الاطار ذاته بعض التوتر حين قال:

- «مؤكد أنه فيه لفاطمة عشيق في واحدة من المدن اللي بتسافرلها».

لم تقل شيئاً. تكدر وجهها، فقال:

- «والا ايه؟».

قالت:

- «مش ملاحظ انك من أول ماصحيت ما تكلمتش الا عن فاطمة؟».

لم تكن تنظر اليه. رأى كيف تكون الزوجة غاضبة. أشعلت سيجارة وقالت:

- «ايه حكايتك مع فاطمة؟».

كانت مخيفة على نحو ما. قال:

- «أصلها ست غريبة. يعني حياتها ومزاجها».
- «كده؟».
ابتسمت ووضعت يدها على رأسه وأخذت تداعبه. قال انه مجرد فضول. سألت بجدية:
- «حبيتها؟».
- «مالحقتش أعرفها حتى».
جذبت شعره وقالت وهي تضحك.
- «الحب من أول نظرة».
منذ أن عرف ايهاب أنه سيقضي الليلة في شقة منال بدا الزمن لا نهائياً، كأنه سيقضي بقية عمره معها، فلم يستعجل أي شيء. يعطيه الليل هذا الاحساس بلا نهائية الزمن... أم هو ذلك الجو العائلي الذي جعله يسترخي ويدع الامور تأخذ مجراها؟ قالت:
- «ماقلتليش، قلت ايه لزينب؟».
- «باي، باي».
- «وهيه قالت ايه؟».
- «قالت حابتدي حياة جديدة».
- «عايزه بالتفصيل».
قال، راغباً بقوة في انهاء هذا الموضوع:
- «كده، من غير تفاصيل».
- «يعني معقول حاتسيبك بسهوله؟».
- «زينب زكية ومعتدة بنفسها».
أصبح وجهها غاضباً. لم يكن الغضب يناسبها. قالت:
- «بتهيألك».
أخذ ايهاب يشعر برتابة هذا اللقاء، فصعدت الرغبة الى أحشائه. كان ذلك يشبه الرتابة التي تنتهي اليها أحلام اليقظة الجنسية، والتي ينتزع نفسه منها بممارسة العادة السرية. أمسك يدها التي تتشبث بشعره ووضعها على شفتيه. قال:
- «الكريم اللي تستعمليه ريحته حلوه».
قالت:
- «ايهاب السريع».
وكأنها قالت: سوف ننتهي الى ممارسة الجنس.، ولكن اللياقة تستدعي مرور بعض الوقت.
فكّر ايهاب: انها ذات خبرة. من كان يظن ذلك؟.
ولكن دينامية بناء اسطورة المحبوبة بدأت عملها داخل ايهاب. ملأه بالحنان رغبتها في ارضائه وانعدام خبرتها في ذلك. لقد اتخذت ملامح الزوجة منذ اللحظات الاولى. ان كان عليه أن يتزوج فليبتعد عن المتطرفات بتحررهن وبذكائهن لانهن سيصبحن عملاً كاملاً. ها هنا فتاة ستضع تحت تصرفه كل الامكانيات لينتج ويبدع.

قال:

- «عايزه تقولي اني مستعجل عالجنس؟ ما الجنس عندي بالاطنان».

قبلت خده وقالت:

- «كنت بهزر».

قال:

- «أنا عايز أتعرف عليك».

- «عارفه. كنت بهزر».

بعد فترة صمت قال:

- «ياي، الساعة واحده».

قالت:

- «وايه يعني لما تكون واحده؟».

قال:

- «علشان نروح الشغل بكره».

قالت انها سوف تأخذ اجازة من العمل وهو كذلك، غداً. وكان غداً يوم الخميس.

* * *

تصور ايهاب أنها ستراجع وتسمح له أن ينام في حجرتها. ولكنها في الثالثة بعد منتصف الليل استأذنت. قال ايهاب لنفسه انها تتابع خطتها بدقة متناهية.

في الصباح عاش متعاً لم يعرفها منذ أن غادر القرية، متع اندماج الواجب مع المودة، لقد انتهت هذه المفاهيم، بالنسبة له، ممارسة ووجوداً، ليحل محلها مفاهيم الحرية والحياة الخاصة المحاطة بكل أنواع الوقاحة والتوحش لحماية خصوصيتها. وأية خصوصية! خصوصية زينب، العربدة والابتذال الجنسيين. وجه جديد للمرأة انكشف أمامه، وجه قديم جداً. منسي.

دخلت اليه في الصباح، في اللحظة التي استيقظ فيها من النوم، وكان يلقي على نفسه السؤال: أين أنا؟ لايدري كيف اختارت هذه اللحظة بالذات. دخلت بروبها الازرق يكشف عن نحرها، وأعلى ثدييها وبداية المنحدر الذي بينهما، وشعرها مهوّش بتلقائية شعر الزوجات، ووجهها منشغل، جاد، بعيد، وساقاها تبدو منهما مقاطع طولية من خلف الروب مع خطواتها. كانت تحمل صينية عليها كأسان من عصير البرتقال. قال:

- «عايز قهوة».

قالت:

- «اشرب العصير الاول».

وعندما جلست على طرف السرير، واضعة ساقاً على ساق، وقد انكشفت ركبتيها، ومثلث من فخذها، وكشف مثلث الروب مزيداً من نحرها وأعلى ثدييها. انبعث في داخله احساس قديم

بلحم المحارم الودود، المعيب، القاتل للشهوة، والذي هو مرغوب على نحو ما. شرب العصير وكان لطعمه اللاذع، الثري، المثلج في فمه اثر منعش. قال وهو يبتسم:

- «برضه القهوة مع ان العصير لذيذ».

قالت:

- «زينب ما كانتشي بتعمل عصير ساعة ما تصحو؟».

وهي تحني رأسها فيبدو وجهها حانياً، رقيقاً حتى الشفافية، حزيناً. ثم رفعت عينيها اليه دون أن ترفع وجهها، طالبة الاجابة. قال:

- «زينب كانت تصحى على السيجارة».

- «معقول؟».

- «فين السجاير؟».

قالت:

- «استنى لما اجيب القهوة».

وخرجت. شاعت في الجو روائح القهوة، عطورها النافذة ورائحة الهيل القوية، قبل أن تدخل منال حاملة القهوة. وللحظة اختلج قلبه بصورة قديمة لمكان مشمس ونساء متشحات بالسواد والصمت والدجاج في الحوش. كان للقهوة مذاق لاذع في حلقه جعل كل حواسه تتيقظ. قال:

- «غريب طعم القهوة».

- «رائعة. بس حاطه ايه فيها؟».

قالت:

- «هيل وجوزة الطيب وحاجات بتجيبها فاطمة من الهند ومش عارفه من فين».

خطر له أن يقول لها أن القهوة تشبه حجرتها، شخصيتها، عالمها كله. ولكنه قرر أن يتحاشى الحديث عنها. قال:

- «فيها طعم زي الجنزبيل. حاد وبيريح الصدر».

قالت:

- «حاجه مش عارف اسمها ايه جابتها فاطمة، احط منها نقطة على القهوة بعدما تغلي وانزلها من على البوتاجاز».

هذه هي فكرة ايهاب. فكرته المنسية ولكنها تعيش في داخله بعمق، عن البيت: مكان تزول فيه الاوجاع، ويمنحك، ماذا؟ ماذا تسمي ذلك؟ أجل. يمنحك الحماية. مكان مكتظ بالامهات. ونساء غامضات، مغويات، يبرقن في العتمة التي يتسترن بها. . بيت نصف مستشفى ونصف قلعة.

قالت:

- «الفطار دلوقتي».

قال:

- «نستنى شوية. ادخن سيجارة».

- «كسلان».

داعبت شعره وقالت:

- «نايم ملط؟».

كشفت الملاية عن جسده. كان يلبس سروالاً وفانيلة. أدهشته هذه الحركة غير المحتشمة. ماذا لو كان عارياً بالفعل؟ ولكن دهشته ذابت في ذلك الاسترخاء الممتع وهو يدخن السيجارة. سألها ان كان قد تبقى قهوة، قالت: «طبعاً». وضعت فنجان القهوة أمامه وجلست على السرير متجهة اليه بنصف وجهها. وضع يده على قاعدة عنقها، فارتعشت والتفتت اليه مندهشة، باسمة، ونظرت في عينيه وقالت:

- «مش خايف من الكهربا؟».

غريبة هذه التعابير عليها. وعلى الجو كله. قال:

- «عايز أشكرك».

- «ليه؟»

- «علشان فنجان القهوة».

- «وبعد ما تشكرني؟».

وأغرقت في الضحك. تذكر أنه قرأ في مكان ما أن المراهقات يغرقن في الضحك عندما يتعرضن لمحاولات جنسية. مازالت فيما يتعلق بالجنس مراهقة. هذا سبب هذه النوبة الهستيرية من الضحك. أراحه هذا الخاطر.

كان الافطار بريطانياً بحق. اللحوم الباردة، والبيض المسلوق، والجبنة أنواع مختلفة، والمربى والزبدة والشاي والمنجا. قال:

- «دي وليمة. وليمة بجد. بتفطري كده عادة؟».

كانت تبتسم. قالت:

- «طبعاً. الفطار مهم».

ثم دق جرس الباب. بدت وكأنها لم تسمعه. كانت تطالع ايهاب بنظرة ثابتة. قال:

- «الباب».

وقفت تخلصت من شبشبها وأسرعت نحو الباب. نظرت من العين السحرية. استغرقت في ذلك، بدا لايهاب، وقتاً طويلاً. ثم عادت. على وجهها تعبير من سمع خبراً لا يمكن تصديقه. قال:

- «مين؟».

وضعت سبابتها على شفتيها آمرة بالصمت، في حركة شقاوة طفولية. ولكن ما الذي يخيفها؟ ثم اقتربت وهمست في اذنه: «واحدة صاحبة فاطمة. قال هامساً:

- «افتحي الباب وقولي لها فاطمة مسافرة».

همست:

- «حاتدخل».

دق الجرس بقوة لمدة طويلة. أدارت منال اذنها نحو الباب. استمر الموقف بعض الوقت. ثم دق الجرس دقة سريعة، غاضبة. التفتت اليه منال وقالت:

- «نزلت».

وتنهدت بعمق. ثم انطلقت في ضحكها الهستيري. قال لها:

- «خايفة ليه؟».

قالت:

- «مش عارفه».

وأغرقت في الضحك.

انصرفا الى تناول الطعام. كلما التقت عيونهما كانا يضحكان. بعد قليل أخذ جرس التليفون يدق. قالت همساً:

- «أوعى ترد».

قال:

- «بتهمسي ليه؟»

ضحكت. تصور ايهاب التليفون يقذف احشائه بنفس الانتظام والالحاح الذي يرن فيه. خطر لايهاب ان الزائر جاء لها. سأل عنها في مكان عملها فقيل له انها اعتذرت لأنها مريضة، فجاء البيت، وعندما لم تفتح له الباب هاهو يتصل بالتليفون. قالت منال انها تريد ان يظلا وحدهما، لاتريد لاحد ان يقتحم عليهما خلوتهما. قالت:

- «مش حانرد على التليفون ولا حانفتح الباب.»

- «موافق.»

- «قرار؟»

- «نهائي.»

قال بعد فترة صمت وانشغال بتناول الطعام ان هذا الزيتون مذهل. هل جاءت به فاطمة من تلك الاماكن الغامضة التي تزورها؟ قصد المديح بقدر ماأراد ان يكون فكهاً.

قالت:

- «انا اللي عملته.»

- «معقول؟»

اخذت تشرح باستفاضة اسلوب تخليلها للزيتون، اضافة قطع الليمون اليه، والفلفل الاخضر الحار والثوم والخل وزيت الزيتون.. قال والرغبة في الفكاهة ماتزال مسيطرة عليه:

- «والنقط اللي جابتها فاطمة.»

- «لا.»

واسترسلت تحكي تفاصيل عملية التخليل. كانت كثيرة ومدهشة واخذ يصغي باستمتاع. كان سعيداً لهذا الانغماس في الجو البيتي بكل هذه التفاصيل، وكان ممتناً لافتقارها حس الفكاهة. فما

هو حس الفكاهة غير التردد، ورؤية الموقف من جوانبه الغريبة وفقدان التصميم ووحدة الهدف؟ الزوجة لاتملك حس الفكاهة اذ تفعل ماتفعله لانه الشيء الوحيد الممكن والجيد. لها رسالة الانبياء قاطعة حاسمة.

هل سمعنا بنبي يمتلك حس الفكاهة؟

تأمل يديها ووجهها وهي تحكي تلك التفاصيل التي لا نهاية لها، اليدان المرنتان وكأنهما بلا عظام، والوجه الذي اكتسب امومة وهياجاً، وتلك الليونة المقززة قليلاً، التي تضيف ملمحاً آخر لشعوره انه امام محرم، تلك الليونة، المبلولة، العرقانة التي تلمع على حوافها التماعات كأنها مدهونة بالزيت. كل ذلك وضعه في قلب البيت كما هو في داخله ونسبه. قال:

- «بتعملي جبنه قديمه؟»

قالت:

-«طبعاً. عايز؟ كنت فاكره تحب تاكلها بعد الغدا. انا خبيرة بيها. حاجيب لك.»

قال:

- «لا. مش عايز دلوقتي.»

فعاودت الجلوس بعد ان نهضت نصف نهوض، ذلك النهوض النسائي الذي ينحل فيه الجسد الى اجزاء مبعثرة، سائلة، ثم يعود الى التماسك رشيقاً، مستقيماً حين تنتصب. قال انه يسأل فقط، لانه يحب الجبنة القديمة. قالت:

- «حاعمل لك بلاص اول ماروح البلد.»

ترددت قليلاً ثم قالت:

- «حاحط لك شويه في قطرميز تاخدهم معاك البيت.»

كشف ذلك التردد كم هي عزيزة عليها الجبنة القديمة.

ثم نهضت فبرز ثدياها، انبثقا مكتملين، فانساب الروب بحدة الى الداخل في اتجاه البطن المشدود، وسارت نحو المطبخ وردفاها يموجان، ينفلتان ثم يتداخلان، كان اعجابه بما يرى جمالياً خالصاً، لا اثر للرغبة فيه. كان ذلك مريحاً لاعصابه الملتهبة بالتوتر، المشحونة بزينب والرواية والهزيمة وخيبة الامل منذ ثلاث سنوات تقريباً. صوت الاطباق التي تغسل جاء كلمسة الام. وفاحت رائحة القهوة، انفتح صدره لمجرد ترقبها.

جاءت بعد قليل تحمل صينية القهوة بمهارة وخصب الانوثة الغافلة عن نفسها، التي تسيل وتتماسك بتلقائية مدهشة، وفي وجهها ذلك الغياب المنشغل بهموم اللحظة، ذلك الغياب الذي يكون دائماً جزءاً من كلية البيت. وضعت الصينية على الطرابيزة امامه وتنهدت. هل تشعر بوجوده؟ احنت رأسها فانسابت خصلات شعرها وتعلقت في الهواء. في لحظات كهذه يتكشف جمالاً لم تلحظه العين في البداية، اناقة في التكوين تتجلى وتصبح ملمحاً ثابتاً منذ تلك اللحظة.

قال كأنه فوجيء:

- «القهوة العظيمة.»

قالت:

ـ «عارفه انك عايز قهوة.»

اخذت تصب القهوة وتتحدث الى الصينية. قالت انها تحب ان تشرب القهوة بعد الافطار وبعد الاستحمام. تحب ان تشربها والبرنس يحيط بجسدها المبلول، وهي متمددة على الصوفا. قالت ان ذلك جميل.

انـدمـج ايهاب في تلك الواقعة، البرنس، والجسد المبلول واحتكاك اعضاء الجسد العاري ببعضهـا. تقمص منال في لحظتها تلك وظل هو نفسه في الوقت ذاته. عاش احتكاك الفخذين، وتماوج الشق الفاصل بينهما، عاشه بمتعة مزدوجة، ان يكون ذاتاً وموضوعياً معاً. لم تكن تلك المتعة رغبة جسدية خالصة، بل كانت مزيجاً من الشفقة والتفهم اللذين يستوليان على الاب عندما يعلم ان ابنته جاءها الحيض للمرة الاولى. يمتزج مع ذلك احساس عابر، خفيف بالاشمئزاز.

قالت منال انها تضع نقطتين من السائل الذي جاءت به فاطمة بدلاً من واحدة. عندما تفعل ذلك تشعر بصدرها نظيفاً، يدخله الهواء بارداً غزيراً، وعندها لاتصاب بالزكام. هل يعلم ان هذا السائل علاج للزكام؟ تكون مزكوماً وانفك مسدود، وتضع نقطتين منه على كنكة القهوة وهي تغلي، وتتنشق بعمق ثلاث او اربع مرات بعمق، فتحس بانفك ينفتح، وكذلك صدرك، ويزول الزكام. انه ليس علاجاً مؤقتاً، بل يزول الزكام نهائياً كأنه لم يكن. وهذا السائل غالي الثمن جداً.

قال ايهاب انه سيسعى للحصول على ذلك السائل، سيشتريه مهما كان الثمن. قالت منال ان فاطمة اخبرتها ان سعره يساوي وزنه ذهباً. قد يكون ذلك مبالغاً فيه، ولكنه غالي الثمن. صمتت منشغلة البال. قالت بعد قليل انها قد تعطيه زجاجة صغيرة، صغيرة جداً، بعد ان تستأذن فاطمة طبعاً.

كانت الصعوبة التي تتخلى بها منال عن ممتلكاتها طريفة، ذكرت ايهاب بتلك القيمة المبالغ فيها التي يضفيها القرويون على الاطعمة. امتلأ قلبه بالحنين عندما تذكر ذلك. لقد مضى عليه وقت طويل وهـو يعيش ضمن مجموعات قيمها الوحيدة هي الافكار المجردة، اما الاطعمة والممتلكات فيجري منحها دون ثمن او ممانعة. لا احد يفخر بالجبنة القديمة التي في بيته. يقدمها وكأنها شيء لاقيمة له كما ان اعداد الطعام والعناية بالبيت ليسا من مفاخر نساء هذه المجموعة.

تعيد له منال عالماً نسيه فاعتقد انه انتهى. كان من الطبيعي بعد ان انتهيا من شرب القهوة ان تضع رأسها على كتفه وان تتحدث عن الطعام الذي تنوي ان تعده للغداء، وعن نيتها في الاستحمام. وفكر ايهاب انه لابد ان يكون للاستحمام، بالنسبة لها طقوس خاصة مستمدة من المعرفة الانثوية العريقة في الاعتناء بالجسد.

عنـدمـا سألها عن الاستحمام كشفت له انها تستعمل الصابون النابلسي المصنوع من زيت الزيتون النقي، وصابون الغار، الذي جاءت به فاطمة من مكان ما، لغسل شعرها. تحدثت عن أنواع الشامبو التي تستعملها، وقالت انها لاتذهب الى الكوافير الا لتحمم شعرها بالزيت.

عندما مال برأسه وجعل خده يلامس شعرها الناعم امتلأ قلبه بحنو ومحبة، اعلن لنفسه على اثره ان زينب انتهت من حياته. اية حياة بدوية تعيشها وجعلته يعيشها هو ايضاً. حياة لاتراث ولا

تقاليد لها، حياة متوحشين فقدوا احساسهم بالتاريخ، واغمضوا اعينهم عن منجزات الحضارة حياة لاتراث ولا تقاليد لها. تقرأ هيغل الآن. طز.

قالت:

- «عايزة اقوم دلوقتي احضر الغدا.»

وهي تضغط برأسها على ذلك المنخفض اللحمي في أعلى الصدر، وتداعب خده بشعرها. مد ذراعه وامسك بكتفها، داعبه وقال:

- «مافيش داعي للاستعجال.»

وكأن عبارتها حول عزمها لمغادرته لم تعني سوى مطالبته بالامساك بتلك الكتلة المرنة، المتماسكة من اللحم التي تغلف كتفها. فهي لم تتحرك، ولا اعطت ايحاء بالحركة. هل تمنحه الآن نفسها ويعود الى الدائرة المفرغة التي كان يعيش مع زينب في داخلها؟ ولكنها حسمت امرها ونهضت وهي تتنهد. تمدد ايهاب على الصوفا. كان يعيش استرخاء واكتفاء. لم يتحدثا عن السياسة او الكتب او عن روايته، او عن خيبة الامل او صناعة الاساطير. كم هو مريح ذلك!

الشعور المريح قاده الى استرخاء لذيذ، جعله يشعر وكأنه في حمام دافيء. لم يكن ذلك النوع من الاسترخاء الذي يضيق ان لم يجيء بالنوم السريع. بل كان ذلك النوع من الاسترخاء الذي تأتي معه احلام اليقظة ناعمة وممكنة التحقيق. تركزت احلام يقظته حول حياته المقبلة مع منال وفاطمة. فاطمة تعود من رحلاتها حاملة حكايات وعطور وفنون العوالم البعيدة. يحلم انه متمدد في سريره. تدخل فاطمة ومنال. احداهما تحمل صينية القهوة. يلامسانه في جلستهما على السرير. فاطمة تريد ايهاب بينهما. تجري حوارات ضاحكة. منال تقول:

- «سيبي جوزي.»

فاطمة تقول:

- «سيبي حبيبي.»

لمسة فاطمة على جسده مكهربة، فاضحة.

يستفيق من حلم اليقظة ليفكر ان حياة كهذه سوف تمتد لما لانهاية، لاتتوقف متعها على الانشحان بالرغبة وتفريغها، حياة كهذه سوف تزيل الخوف من الموت، حيث الزمن ممتد وطويل، ولكل لحظة متعتها التي لاتستهلك اذ تعقبها لحظة اخرى دون ان تلغيها.

الوقت يمر ببطء وامتلاء، لم يجزأه ذلك الاحساس الملهوف، اللاهث، الملح بالابتداء والانتهاء، ولا الخوف المختنق بالخشية ان نعيش لحظة بلامعنى، بلا فائدة، بلا نتائج مؤكدة، ولا الرعب من ان نخدع او اننا اضعنا وقتاً ثميناً ونحن نسير في درب خاطيء. الحقيقة الملموسة المؤكدة هي حياتنا اليومية، وكل الابنية البراقة الشامخة التي نقيمها سوف تنهار امام صلابة الواقع اليومي.

ويعود حلم اليقظة منطلقاً من ملمس فاطمة، من ملمس منال وفاطمة، يعود متردداً بين الرغبة والمودة الخالصة، حيث يختلطان حتى لايتمايزان. والحوار يتكرر: «سيبي حبيبي. سيبي جوزي.»

يرن جرس التليفون. كان ايهاب قد نام ودخل الرنين في سياق انتزاعه من حلم جميل: زهور وبحر ونساء ودودات، وغابة قاتمة محوطة بالخوف. يتوقف التليفون عن الرنين ويسمع صوت منال

يقول: «هالو» ثم تشهق: «هنية»
وتصمت ثم تقول:
- «كنت شايله فيشه التليفون.»
تصغي ثم تقول «مختفي؟» وتضحك، ثم تقول:
- «اعتقلته عندي. يمكن نايم. (تنادي) ايهاب. نمنا متأخرين قوي. ابداً. باين مرهق.
(تصغي) بكره بعده. كويس قوي.»
رفع ايهاب رأسه وقال:
- «هنية؟»
قالت:
- «حانسهر عندهم يوم السبت.»
وتمضي. هاهي دينامية هذه الحياة الجميلة تمتد وتتسع لمالا نهاية لتضم فاطمة وهنية واسماعيل وتفيدة ومصطفى ووليد ونوال والآخرون كلهم هدى وانصاف ومحمد وعنايات.. وزينب وحيدة مهجورة تقرأ هيغل وتمارس تشنجاتها. يحاول ان يستعيد حلم الليلة، ولكن النوم يدهمه.
يستيقظ على ملمس منال. وضعت يدها على وجهه ومررتها عليه برقة. اصابعها مكهربة.
قالت:
- «ايه النوم دا؟»
رأى على الطرابيزة امامه زجاجة الويسكي وكأسين وجردل ثلج. قال:
- «نشرب في اوده فاطمة.»
قالت بدهشة:
- «اوده فاطمة؟»
قال:
- «في وسط الزهور.»
- «زهور؟»
وأخذت تنظر اليه. كان في خياله تلك الحديقة التي رآها في الحلم. قالت:
- «حد بيشرب في اودة النوم؟»
قال:
- «كنت بحلم.»
اثار ذلك فضولها. قالت:
- «كنت بتحلم بايه؟»
حكى لها حلمه. قالت:
- «ايه علاقة دا باودة فاطمة؟»
قال:
- «مش عارف. امبارح لمادخلتها قلت لنفسي عامله زي البستان.»

قالت:

- «وايه حكايتك مع النوم؟»

قال:

- «يبدو اني مرهق وانا مش عارف.»

قالت وهي تبتسم:

- «مرهق من زينب والا من الرواية؟»

قال:

- «من الرواية.»

لم يكن يحب ان يتحدث عن زينب. كان الحديث عنها اشبه باستدعاء روح شريره. قال وهو يتنفس بعمق:

- «الرواية استلاب.»

لم يكن قد فكر بذلك. ورداً على نظرتها المتسائلة، غير الفاهمة، قال ان الرواية مصادرة على الحياة. قالت:

- «ليه؟»

قال وهو يصب الويسكي في كأسيهما ويضع الثلج: المسألة تبدأ بشيء يشبه حفظ الطاقة. وفي انتظار ان تتضح الفكرة في ذهنه رفع كأسه وقرع كأسها وقال:

- «في صحتك ياست الكل.»

رأى، وهو يشرب الجرعة الاولى، ان وجهها قد تلون بحمرة خفيفة. قال: الحياة تمر امامي فاقول لنفسي: ساقتطع هذا الجزء منها فهو مفيد للرواية. فاهمة؟ ثم أرى موقفاً آخر فابتعد عنه. اقول لنفسي: الانخراط في هذا الموقف سوف يوترني فلا استطيع ان اكتب. قد يزورني شخص فأريده ان يغادر.

الكتابة مثل الدائرة السحرية، وان اخرجني شخص منها فقد لا اعود اليها. فاهمة؟ كممارسة الجنس. نفرض ان احداً دخل حجرة النوم وانت.. يعني تمارسين الجنس. فسوف يتوقف كل شيء. ماأريد قوله ان الرواية تصبح هي الشرط الرئيسي، اعني الظرف الرئيسي للحياة، الشرط المتوتر، الهائج، المختنق. شيئاً فشيئاً تأخذ الرواية في تحديد شروط الحياة. ولا تكتفي بذلك بل تصبح هي الحياة نفسها. وفي ذلك كله توتر يشبه الجنون.

بعد ان انتهى تنفست بعمق، كأنها تستفيق من مشهد متوتر مشوق، وشربت جرعة أخرى من كأسها. وعندما رفع ايهاب كأسه اكتشف انه فرغ. قالت:

- «بتشرب بسرعة.»

في نبرتها استنكار. سأل نفسه: هل تستنكر سرعة استهلاكه للويسكي، ام تشفق على صحته؟

قال:

- «حاخلص القزازة؟»

قالت :

- «مافيش غيرها . »

وضحكت، قال :

- «مافيش مشكلة . انزل واشتري واحدة تانيه . »

قالت بعد تردد :

- «فيه قزازة جوني ووكر . »

- «عظيم . »

الفصل العاشر

في الليلة الثانية تبادلا القبل. قبلة واحدة استمرت طويلاً، ثم انتزعت منال نفسها وقالت: «لا» ثم عادت الى تقبيله. ثم تطورت الامور قليلاً. وضع ايهاب وجهه في نحرها. وضع شفتيه على منطقة من النحر تنبض. استمتع بالنبض على شفتيه. انحدر وقبّل مفرق الثديين، داعب بكفه أحد ثدييها فضحكت. ابتعد واكتفى بتقبيل وجنتيها. ضمها اليه فتشبثت به وهمست: «حبيبي» وهمس هو: «حبيبتي». ولكنها ناما في تلك الليلة في حجرتين منفصلتين. استأذنت في الثالثة بعد منتصف الليل ودخلت حجرة نومها. انتظر أن تغلق الباب بالمفتاح، ولكنها لم تفعل. قد تكون تلك دعوة. لا. هذا يحدث في السينما فقط، وهو لايشعر برغبة في استعجال الامور.

صباح يوم الجمعة مر كسابقه في استرخاء لذيذ. تغديا ونام ايهاب بعد الغداء. شعر عندما استيقظ أن شيئاً غير مفهوم يحدث. نظر حوله. كان كل شيء على حاله. ثم رأى وجه منال. أصبح وجهاً غريباً. رآه صغيراً، متصلب القسمات، ورأى عينيها تحدقان بنظرة ثابتة. ناداها، فاضطربت، ونظرت اليه. شيء يشبه الاستغاثة في تعبير وجهها.

تحركت بتصلب وهي تتجه الى المطبخ لتعد القهوة. أتت بالقهوة، ثم غابت في حجرة نومها. ظل ايهاب متمدداً وهو يشعر أن شيئاً غير مفهوم يحدث.

* * *

حطت العتمة على الشقة وايهاب متمدد فوق الكنبة في الصالون. ثم سمع صوت منال يدعوه الا يتحرك والا يضيء النور. بدا صوتها كأنه يصارع احتباساً ما. اقتربت منال وجلست على كنبة قريبة. كانت شكلاً يتحدد بخطوط الجسد الخارجية، أما التفاصيل فكانت مبهمة. جلسا صامتين، متباعدين، يغرقان في عتمة تزداد كثافة في كل لحظة. كان ذلك يبعث على الخوف. شعر ايهاب وهو يتأمل الظلمة الراكدة أنه أمام حضور غريب، فكلما ازداد تأمله للظلمة تخيل أنه يراها حية، تتحرك ببطء كأنها تنبض بايقاع خفي كايقاع حركة البروتو بلازم داخل الخلية.

قال ايهاب بهمس شاك ضارع:

ـ «منال، الظلمة كثيبة».

لم تجب.

في حلكة الغروب تعود أرواح الموتى الى القرية، متلمسة طريقها الى الاهل، تعود راجية أن تجتذب الى مجتمعها المزيد من الاحياء، وتهجع المواشي المتخمة بعشب المراعي، وبأشعة الشمس، ويتكوم الرجال على الارض كالقتلى من الاجهاد في انتظار الطعام، والنساء في غبش الغروب أصوات عذبة، مغردة، معزولة وسط جدران الحلكة، منتظرات أن ينسل اليهن الرجال كاللصوص في الليل، عندما ينام الاطفال ويهدأ كل شيء، عدا أصوات ليل الريف الابدية.

كان شباك الصالون فمًا مفتوحاً، شاحباً، يبتلع المزيد من الظلمة. قال:

- «مستنيه حاجه؟ منال؟».

لم يسمع رداً.

الشباك انتزع قطعة من السماء، موشّاة بالنجوم، زرقة سوداء والنجوم تخفق في وسطها. والليل في داخل الحجرة أصبح جثة هامدة. النجوم تنعكس في قطع كريستال النجفة لمعة معتمة وسط الظلمة السائدة.

همست منال:

- «ايهاب».

فوجيء. قال:

- «ايوه؟ منال».

فلم ترد.

شعر بحركة خفيفة لم يستطع تحديد مصدرها أو مقصدها. أخذ يصغي بتركيز. ما معنى هذا كله؟ لو يدق جرس التليفون أو الباب لتغير كل شيء. وبالفعل دق جرس التليفون. لم يدق طويلاً، اذ ارتفعت السماعة وسمع صوت منال يقول:

- «لا. مسافره».

وصوت اعادة السماعة.

قال وقد شجعه سماع صوتها:

- «ايه العبارة؟».

قالت:

- «بفكر».

- «في ايه؟».

قالت:

- «اسكت».

أصبح الصمت لايطاق. كان كيد تسد أنفه وفمه. قال:

- «بتعملي ايه؟».

قالت:

- «بحضّر نفسي».

- «بتعملي ايه يعني؟».

ضحكت ضحكة غريبة وقالت:

- «حاتشوف».

هذا الفجور الذي انبعث وسط طقوس غريبة، غامضة أخافه حتى الشلل. ثم أخذ يتبين ذلك الظل الاشد كثافة من الظلام. كان الشباك خلفية له، وقد رآه يتحرك حركة غريبة. متصلة كأنه يمارس رياضة، ثم استقام فأصبح له خطوط جسد عار. همس:

- «منال».

سمع في تلك اللحظة صوتاً رتيباً. أشبه بالهمهمة، ثم استدار ذلك الظل وأخذ يسير نحوه. يستطيع أن يراها وهي تمسك ثدييها بيديها - أم هو توهم ذلك؟ - ثم توقفت. كان الصمت ثقيلاً، منذراً. همست:

- «قلعت هدومي».

قال:

- «ولعي النور».

قالت:

- «بتكسف».

خطت نحوه وجلست على ركبتيه. همست:

- «ما قلعتش هدومك؟».

- «لا».

وأخذت تعانقه. كانت عنيفة، وعندما صدمته بكوعها في بطنه أطلق صرخة خافتة، همست:

- «آسفه».

أضافت:

- «ما قلعتش هدومك؟».

قال:

- «ازاي وانت...».

أخذت تفك أزرار قميصه وخلال ذلك تقبل صدره العاري. قال:

- «ندخل الاوده».

كان في ذهنه حجرة فاطمة. قالت:

- «لا. عايزه هنا».

واندمجا في العناق وقد أصبحا عاريين. كانت تصارعه بكل ما تملك من قوة دون أن يتبين معنى ذلك، أهي تريد أن تمارس الجنس معه أم تريد أن تمنعه من ذلك؟ أدهشته قوة عضلاتها وأرهقته. وعندما تمكن منها وجعلها تحته تماماً توقفت مقاومتها. كانت متمددة تحته وقد صمت جسدها تماماً. وشعر بالعدوى تسري اليه. هل نامت؟ هل ماتت؟ همس:

- «منال».

قالت :

ـ «ايوه» .

ـ «مالك؟» .

قالت :

ـ «استمر. أنا مش عذراء» .

اتكأ على كوعيه وحاول أن يرى وجهها. لم تتح له الظلمة أن يرى الا قناعاً. ماذا حدث بالضبط؟ قالت :

ـ «أنا مش عذراء» .

قال :

ـ «مش دي المشكلة»

ـ «طيب استمر» .

ثم صمتا، وثبتا على وضعهما. قال فجأة :

ـ «مالك؟» .

قالت :

ـ «مش عارفه» .

استولت عليه رغبة ملحة في مغادرة المكان، وأخذ يشم رائحة غريبة لجسدها تشبه رائحة البول المختلط ببقايا فيتامين ب التي يفرزها الجسم، وأحس بالبرد يستقر في عاموده الفقري. قالت :

ـ «وانت؟» .

قال :

ـ «مافيش فايده» .

ـ «ليه؟» .

قال وهو يبتعد عنها ويجلس على الكنبة عارياً :

ـ «مافيش فايده» .

قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ «ليه؟» .

قال :

ـ «البسي هدومك» .

وأخذ هو يبحث عن ملابسه ويرتديها. رآها في الظلام تبحث عن ملابسها. لم يكونا قد انتهيا من ارتداء ملابسهما عندما أضيء النور فجأة. شهقت منال، وفزع ايهاب. كان الباب مفتوحاً مايزال وفاطمة واقفة تنظر اليهما وهي ترمش بعينيها. قالت :

ـ «مساء الخير» .

كانت تطالعهما وهي تبتسم. قالت :

- «آسفة. باين اني جيت في وقت مش مناسب».
كانت منال بملابسها الداخلية تقف شاخصة، دون حراك، ثم أسرعت فجأة نحو فاطمة وأحاطتها بذراعيها، ودفنت رأسها في صدرها وأخذت تنتحب وهي تقول:
- «حبيبتي، حبيبتي».
قالت لها فاطمة وهي تداعب ظهرها:
- «اهدي شويه. ايه اللي حصل؟».
كان السؤال موجهاً الى ايهاب، ترافقه بسمة مشرقة، فلم يجد ما يقوله.
قالت منال وهي ماتزال تنتحب:
- «حبيبتي ما فيش فايده، ما فيش فايده».
كان ايهاب عاري الجذع، فأخذ يبحث عن قميصه. لقيه وارتداه. منال وفاطمة مازالتا متعانقتين. أخذتا تسيران هكذا حتى دخلتا حجرة فاطمة وأغلقتا بابها خلفهما. أكمل ايهاب ارتداء ملابسه وأخذ يبحث عن الحذاء، ثم تذكر أنه تركه في حجرة فاطمة، تحيّر. ماذا يفعل؟ انه لايستطيع البقاء هكذا، كما أنه لا يستطيع الانصراف دون حذاء. جلس مشلولاً بتردده. ولكن ما هذا الذي حدث؟ بدا له أن ما حدث يستحيل فهمه. كان يجب أن يكون مراقباً خارجياً حتى يطلق عليه اسمًا.
كانت حجرة فاطمة صامتة. ماذا يحدث في الداخل؟ هل يباشران. . . . ؟ ولم يستطع أن يلفظ الكلمة. سار على البلاط حافياً. كان السير عليه ممتعاً لانه بارد وناعم. خطر له: «بارد وناعم مثل منال». سار الى حجرة فاطمة توقف عند الباب. سمع نحيباً خافتاً وكلمات مختنقة، متقطعة، ثم صوت فاطمة هامساً، متسقاً. دق الباب فلم يسمع رداً. دقه مرة أخرى بقوة وسعل. جاءه صوت فاطمة من الداخل:
- «لحظة يا ايهاب. جايه لك كمان دقيقة».
عاد وجلس على الصوفا. حاول أن يستعيد صوت فاطمة. هل كان يحمل نفاذ صبرها وغضبها على طرقه باب حجرتها؟ يستعيده فلا يجد جواباً. كان عليه أن ينتظر قليلاً ولا يدق الباب.
خرجت فاطمة بعد قليل. قال:
- «آسف. بس الجزمه جوه».
قالت بدهشة:
- «ماشي؟».
قال:
- «ضروري أمشي».
كانت متمالكة نفسها. ابتسمت وقالت:
- «نشرب قهوة الاول».
قال:
- «الجزمه».
ضحكت، وقالت وهي تتجه الى المطبخ.

ـ «ما تخافشي على الجزمه».

امرأة غير عادية، قال ايهاب لنفسه، تتصرف بكل هذا التماسك والثقة في موقف مربك كهذا؟ وتلك الاخرى، بملابسها الداخلية. ماذا يحدث لها الآن؟ عادت فاطمة بالقهوة بسرعة غير متوقعة. وضعت الصينية على الطرابيزة، ثم وقفت بجوار ايهاب. أحس بيدها تخلل شعره ورآها تميل قليلاً نحوه وتبتسم. لم تشهد قط مثل هذا الجمال: الوجه الدسم السمرة والعينان السوداوان الحيّتان بضوء كثيف والابتسامة المبهرة التي تدوّخ الرأس. فكر ايهاب: تريد أن تسحرني، ولكن لماذا؟ حدس ايهاب أنها قد قررت أن تقيم علاقة معه. أثقل عليه عبء علاقة جديدة، ولكنه لايستطيع أن يرفض.

قالت:

ـ «أنت مصدوم؟».

قال:

ـ «على الاقل مندهش».

ابتعدت عنه وجلست قبالته وأخذت تصب القهوة. قالت:

ـ «عندك حق».

قال:

ـ «أنا مش فاهم حاجه».

قالت وهي ماتزال تصب القهوة:

ـ «حا اقول لك».

ثم رفعت رأسها ونظرت اليه. كان وجهها محايداً وقد زال منه سحر مضيفة الطيران. قالت:

ـ «ما عندهاش تجارب جنسية».

خطر له أن يقول لها أن منال ليست عذراء، ولكنه عدل عن ذلك. قال:

ـ «ممكن».

نظرت اليه بصراحة والابتسامة التي على شفتيها جعلت صرامتها مجرد دعابة. قدمت له فنجان القهوة وقالت:

ـ «على الاصح كان لها تجارب فاشلة».

عندما تذوق القهوة تبين له أن فاطمة لم تضف اليها من السائل الذي جاءت به من الهند.

قالت:

ـ «عند منال رعب من الجنس. لكنها تصورت أنها رايحه تنجح. منال بتحبك».

قال:

ـ «مش عارف أقول ايه».

أسبلت عينيها فتصور أن ذلك تعبير عن رغبتها في انصرافه. قال:

ـ «لازم أمشي».

قالت:

ـ «تمشي ليه؟ مش حاتتعشى معانا؟».

كانت مندهشة فعلاً. ولكنه أكّد لها أنه مضطر للمغادرة، وذكرها بأن حذاءه في حجرة نومها. جاءت فاطمة بالحذاء. لبسه ايهاب وتهيأ للانصراف. أطلت منال من باب الحجرة وقالت:

ـ «ماتنساش موعد بكره».

قال:

ـ «بكره الساعة سبعة عند هنية».

خرج باحساس المطرود. في الخارج كان الشارع غريباً، كأنه شارع في مدينة لم يرها من قبل. فكر: أهكذا تبدو المدن البعيدة لفاطمة؟.

سار في شارع النيل وعندما وصل كوبري الجلاء قرر أن يتجه الى بيت هنية. ولكن ماذا سيقول لها بحق الله؟ أيقول لها أن منال مصابة ببرود جنسي، أو برعب من الجنس؟ مال يميناً وسار باتجاه ميدان الدقي. تذكر ما حدث له حين ركب المراجيح في حديقة الحرية، وراء كوبري الجلاء. ركب بناء على الحاح زينب. جلست بجواره في القفص. وعندما ابتدأت المراجيح تدور شعر بدوار وأمسك بحافة القفص الحديدي. قالت له زينب، فيما بعد، ان وجهه كان أصفر. سألته عن السبب، فقال ان فزعه يعود الى اكتشافه أنه لايستطيع أن يتحكم في المرجيحة، فقد تتوقف بسبب عطل يطرأ عليها. وهو معلق في أبعد أقفاصها عن الارض، ولكن فزعه الحقيقي أنه شعر أنها سوف تستمر في الدوران الى الابد. قالت: ماذا لو ركبت طائرة؟ بالفعل كيف سيشعر وهو على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق الارض؟.

عندما فتح باب شقته اكتشف أنها مضاءة. سمع صوت زينب من الصالون يقول:

ـ «عودة الابن الضال».

قال:

ـ «بنت الجنيه».

وقفت بباب الصالون ودّ أن يضمها ولكنه خشي ردود فعل غير متوقعة. قال:

ـ «جيتِ امتى؟».

قالت:

ـ «في نفس اليوم اللي رحت فيه لمنال. تعالى بوسني. مش عايز؟».

ـ «ايوه».

ـ «طيب قرب. خايف؟».

ـ «مكسوف».

مازال ملمس جسد منال في جسده. قالت:

ـ «مالك؟».

ـ «عرفت ازاي؟».

اقتربت منه وضمته اليها. الرغبة في داخله، ولكن جسده كان متصلباً. ضحكت زينب وقالت:

- «عدتك؟».

قال ايهاب بجدية:

- «ليه، هيه مريضة؟».

قالت:

- «مالهاش في الرجاله».

- «شاذه؟».

- لم ترد.

جلسا في الصالون متقابلين وكانت زينب تنظر اليه معابثة. قال:

- «ايوه. عودة ابن الضال».

صهللت زينب بالضحك فقال:

- «امال فين العجل المسمن؟».

- «عايز تاكل؟».

- «آكل، اشرب، أي حاجه».

غادرته زينب الى المطبخ. وعلى الفور استغرق ايهاب في حلم يقظة، أصبح فيما بعد ثابت التفاصيل ومتكرراً: بعد مشاورات مع فاطمة يبدأ علاج منال الى أن تشفى من برودها. ان الاحتجاز الطويل لرغباتها سيجعلها مغرمة بالجنس (يتوقف حلم اليقظة ليسأل ايهاب: هل ستكرر منال زينب؟) يتشتت حلم اليقظة الى مشاهد شبه جنسية بين منال وفاطمة، وبينه وبين فاطمة، والثلاثة معاً.

دخلت زينب حاملة البراندي والمزة على صينية. قالت

- «تعرف ان كانت، ايمانويل كانت، أرعبني؟».

قال ايهاب:

- «شفتيه فين؟».

أغرقت في الضحك وقالت:

- «أرعبتني أفكاره، مقولاته الثلاثة اللي بيقول ان العقل الانساني عاجز عن فهمها. بيقول ان العقل الانساني غير قادر على استيعاب فكرة ان الكون محدود، وعاجز برضه أنه يتصور أن الكون غير محدود».

- «صحيح».

قالت:

- «مش ممكن تتصور جسم مش محدود. مهما كان كبير فله بداية ونهاية. والكون مش ممكن يكون محدود، ومش ممكن يستمر الى ما لا نهاية».

قال ايهاب:

- «ومصير الكون؟».

- «ماله؟».

- «مش ممكن نتصور ان له بداية، لكن العلماء بيتكلموا عن نهايته. ازاي شيء من غير بداية حايكون لها نهاية؟ هو دا اللي بيرعبني. عايز أقول أنه ممكن اقبل كل شيء، موتي، اندثار حضارات، لكن مصير الكون؟ بيقولوا ان الطاقة اللي في الشمس راح تخلص بعد خمسة بلايين سنة، وراح تصير نجم بارد، تتمدد وتنفجر وترجع الارض وتصير جزء منها. ودستويفسكي وبيتهوفن وغيرهم وغيرهم حاينتهوا. بقول ان دا مستحيل. عندي احساس، عندي حدس ان هناك عناية ما، قوة ما، حاتتدخل في اللحظة المناسبة... أصله مش معقول».

قالت زينب وهي تسبل عينيها وتسوّي جونلتها وبلوزتها وتتنفس بعمق:

- «ما بقاش قدامنا غير الدروشه».

قالت ذلك وكأنها تكلم نفسها. قال:

- «فكري شويه في الموضوع».

- «فكرت كتير».

- «وايه النتيجه اللي طلعت بيها؟».

قالت:

- «العقم اللي بنعيشه حايخلينا بالضرورة نؤمن بالقوة الخفية اللي بتقرر مصائرنا. احنا عمرنا ما كنا ثوريين. احنا متمردين وعقلنا».

قال:

- «عايزه تقولي انك مش بتشعري برعب الوجود في العالم؟».

قالت:

- «بشعر بيه جداً بس الدروشه حاجه تانيه».

قال:

- «زينب الرائعة. تعالي اقعدي جنبي. ممكن؟».

قالت:

- «ممكن ونص».

نهضت وجلست بجواره. وقالت:

- «افندم؟».

أحاط كتفيها بذراعه اليسرى، وأمسك ثديها بيده اليمنى وأخذ يداعبه وهو ملء قبضته. ثم قبلها فاستثيرت رغبته بقوة، قال:

- «حبيبتي أرجوك، بدون نقاش، نروح السرير».

قالت:

- «حاضر».

وسارا الى حجرة النوم. تمددا على الفراش دون أن يشعلا الضوء. استغرق ايهاب في ضم زينب وهو يهم في تقبيلها، وهي تستقبله بحنان. يقول لها:

- «انت. انت، ما فيش غيرك».

ولكن زينب قالت:

- «ايهاب ولّع النور».

- «خلينا كده».

قالت بلهجة آمرة:

- «ولّع النور».

نهض ايهاب وأشعل الضوء، ثم عاد وتمدد بجوارها على ظهره. قال:

- «بقى حته جيلاتينه».

وفكر ايهاب: انني مصاب بالعنانة. لم يكن ذلك مفزعاً كما تصوره. قال:

- «ما فيش فايده».

قالت زينب:

- «صدمه وحاتنتهي حبيبي. صدقني».

قال:

- «مافيش فايده».

قالت:

- «انت اهبل حبيبي».

قال:

- «تصوري، ما كنتش واخد بالي لغاية ما نبهتيني، وقلتِ لي (ولّع النور). انت عرفتِ؟».

- «ايوه».

صمتا. فكّر ايهاب: هل سيكون انساناً آخر مختلفاً؟ هل سيتسرب اليه رعب العنانة فيعيد تشكيل حياته كلها؟ كيف يكون وقد ماتت هذه الرغبة التي تشمل جميع النساء، وقد أصبحت جزء من طبيعته؟ كيف سيصبح العالم دون هذه الرغبة؟.

قال:

- «عايز اسألك سؤال تجاوبيني عليه بصراحة».

- «اسأل».

- «حاتجاوبيني بصراحة؟».

- «صدقني حا جاوبك بصراحة. قول».

قال:

- «حاتفضلي تحبيني».

قالت بلهفة:

ـ «على طول، على طول حبيبي».

وأخذت زينب تتحدث: هل تعتقد أن حياتك كلها متوقفة على ذلك العضو؟ انه ليس جوهر حياتك، وهذه الصدمة العابرة لاتستحق هذه المناحة. مرت سنة كاملة، منذ رأيتك تدخل الوكالة، وكانت فكرة أن يلمسني رجل آخر غيرك تدفعني الى التقيؤ. قال لي أحدهم مرة: «قديسة حضرتك؟» فقلت له: «حاجه زي كده».

قال:

ـ «رأيك أشوف دكتور؟».

قالت:

ـ «دكتور ليه؟ دي لحظة لازم تتجاوزها وحدك، تعيد تنظيم نفسك من الداخل وتتجاوزها».

قال:

ـ «المصيبة ان حالتي مش عزوف عن الجنس، لكن عدم قدره على الممارسة. انتِ كنت عازفه عن الجنس».

***

ناما على السرير عاريين. أحست به طيلة الليل وهو يحيل جسدها الى مادة لاختبار ذكورته. كانت تشعر بعضوه ليناً، متلاشياً. لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء. أيقظها مرة من النوم بمحاولاته. شعرت بغضب وقالت:

ـ «كفاية بقى».

قال:

ـ «أنا آسف حبيبتي».

نام ايهاب. حلم أنه يجلس مع فاطمة في حجرتها. ولكن حجرتها قد أصبحت قصراً مكوناً من حجرة واحدة، امتدادها لانهائي. كانت حجرة مليئة بالتحف وفيها حدائق وجداول ماء، وطيور ساكنة على الشجر، وحيوانات غريبة واقفة كأنها محنطة. وكانت فاطمة تتحدث قائلة ان لكل تحفة من هذه التحف نسخ عنها، مصنوعة من أفخر أنواع الشيكولاته السويسرية. خدمة عامة نقدمها للجمهور، كما أن ذلك يخدم سياستنا السياحية. قال ايهاب: «نفسي ادوقها».

نظرت اليه فاطمة بغضب فتذكر أنه أكل كميات كبيرة من هذه الشيكولاته، ولم يشبع. قال:

ـ «حاجه الجسم للسكر...».

ولم تدعه يتم عبارته، قالت:

ـ «وده؟».

وهي تشير الى ساقيه. اكتشف أن ساقيه عاريتين وأنه يرتدي سروالاً قصيراً من نوع السليب. احتار ماذا يقول، ولكن سبابتها الممدوذة، التي تشير الى سرواله تطالبه باجابة سريعة. قال:

ـ «دا ما يوه».

وأشار بيده الى البحيرة والحديقة وقال:

ـ «مايوه من نوع خاص» .

قالت :

ـ «دا من أكل الشيكولاته» .

استيقظ وهو يضحك . فتح عينيه فرأى زينب تجلس على طرف السرير وشم رائحة القهوة .

قالت :

ـ «بتضحك وانت نايم» .

قال :

ـ «حلمت نكته . يعني حلمت حلم بيضحك» .

منذ أن شرب أول جرعة من قهوته ، وجذب أول نفس من سيجارته ، وايهاب يراقب نفسه في توقع غير محدد أن يكون شخصاً آخر . ولكنه لم يشعر بأي تغيير . شعر بالمتعة ذاتها التي يخلفها أول نفس من السيجارة مع أول جرعة من القهوة ، والاحساس بأن جسده يستفيق ببطء ، وشعبه الصدرية تتفتح ، دون أن ينتزعه ذلك من الاسترخاء اللذيذ . ومثل كل مرة تمنى أن يكون اليوم يوم راحة فيسترخي فترة أطول .

قالت زينب :

ـ «الساعة بقت سبعة وربع» .

ـ «يعني؟» .

قالت :

ـ «حا احضر الفطار» .

قال :

ـ «هبلى وتعمليها» .

مالت وقبلت خده . كان لشفتيها الرطبتين ، الباردتين أثر منعش على خده .

قال :

ـ «بوستك لذيذة» .

عندما استقام جسدها بذلك الشموخ الذي يبرز عظمي الترقوة ، ويجعل عنقها مستقيًا مدوّراً ، برز الثديان ، مرتفعين ، ناهدين تحس بصلابتهما بمجرد أن تراهما . لاحظ قميص النوم الرقيق وهو يميل الى الداخل مع خصرها الرقيق ، ثم يتكور مع ردفيها المدورين ، وكأن الردفين منفصلان ، لهما حياتهما الخاصة بهما ، التي لا سيطرة لصاحبتهما عليهما . قال :

ـ «حبيبتي ، تعالي أضمك» .

قالت :

ـ «حا نتأخر» .

قال وقد خشن صوته :

ـ «دقيقة واحده» .

هبط الى الشارع فاكتشف عالماً جديداً. أصبحت الالوان أكثر وضوحاً والاشياء أكثر تحديداً. شعر مثل هذا عندما توقف عن التدخين فترة. بدا العالم مبهجاً بألوانه الواضحة كما أصبحت حدود الاشياء ومعالم الوجوه أشد وضوحاً. الشيء الجميل فعلاً - كيف لم ينتبه الى ذلك من قبل؟ - هو الفتيات بين سن العاشرة والخامسة عشرة. لم يكن ذلك بسبب نضارة البشرة وتلك البهجة التي يتفجر بها الوجه، بل، أيضاً، بسبب تلك الطاقات التعبيرية التي تتفلت من كل جزء من أجزاء الجسد. كان التعبير معدياً الى حد اثارة الرغبة في التقليد.

اتخذ قراراً، يعلم أنه لن يلتزم به، ان يمتنع عن التدخين. كان يريد أن يؤكد هذه الرؤية الجديدة للعالم ويديمها، خاصة اكتشافه للحيوية التي تتمتع بها الفتيات الصغيرات، لحركة الاعضاء المتصلة داخل الزي الموحد. بوضوح أكبر رأى قتامة وركود الرجال والنساء تعدوا سن الثلاثين، أولئك الذين استهلكتهم هموم الحياة اليومية، والجلوس اللانهائي على مكاتب الوظيفة، وعدم ممارسة أي نشاط جسدي والتخمة. شعر أنه يقف بمعزل عن هؤلاء، فهو يمارس رياضة التجذيف، والسير مسافات طويلة على الاقدام وممارسة الجنس دون قيود. وتوقف. لن يمارس الجنس بعد الآن. ولاول مرة يشعر بالفزع الحقيقي. أكد قراره بالامتناع عن التدخين، وهو، خلال ذلك، يشعر بعضوه متلاشياً، هلامياً.

قرر أن يذهب الى العمل سيراً على الاقدام، رغم أن ذلك سوف يؤدي الى وصوله متأخراً الى المكتب. ولكن ماذا سوف يحدث للدنيا لو أنه ذهب الى العمل متأخراً ربع ساعة! سار الى كوبري الجلاء، اجتازه، وانحرف يساراً الى شارع الجبلاية. منذ متى لم يسر في هذا الشارع؟ يكاد التذكر يجعل الماضي واقعاً. أوراق الاشجار الدقيقة تغطي الرصيف. ذكّره ذلك بالتبن الذي يتبقى في الاجران بعد استخلاص القمح من السنابل. وقع أقدامه على الرصيف يعيد بناء الماضي:

ناديه!.

هل كنا نعلم ونحن نبني أحلامنا في الخمسينات أننا سنتحول الى مخصين ومومسات في النصف الثاني من الستينات؟ عندما رأيت الضحكة في عينيك يا نادية تذكرتها في عيون المومسات يتلقفن زبائنهن على نواصي الشوارع؟ هل كانت تلك نبوءة؟ يستعيد الصورة: كان الوقت غروباً، وكان يهبط أحد تلك الشوارع الاسكندرانية المتجهة الى البحر. على ناصية الشارع رأى المرأة واقفة تغني أغنية لايذكرها. نظرت اليه. تلك النظرة الضاحكة. كانت نظرة تعرف. توقف مرتبكاً. اعتقد أنه يعرفها. همهمت شيئاً، فقال:

- «آسف. ذاكرتي ضعيفة».

قهقهت، وللتو تبين أنها مومس. قالت:

- «مش مهم الذاكره».

- «امال ايه هو المهم؟».

- «المهم حاجه تانيه. بس تكون جامده. عندك شقه؟».

قال:

ـ «مع كل أسف ساكن في أوتيل».

هاتان العينان بضحكة التعرف فيهما ظلتا في ذاكرته صورة جميلة، منفصلة عن المرأة. حتى رأى عيني نادية، رأى الضحكة فيهما، ذلك الضوء الاسود، المتموج. ثم استعاد صورة من القاهرة القديمة، في فترة الخمسينات. كان يجلس في مقهى شعبي في ميدان القلعة، وكانت بداية الليل يحيط بالميدان. ثم تلك الصورة: الهلال وفي داخله نجمة، يطل من وراء احدى المآذن. كان هلالاً دقيقاً وأنيقاً كأنه صورة في كتاب على أرضية كحيلة. كان واضحاً الى حد الزيف، ولكنه بدا له مسكوناً بحياة، أو ربما بطاقة أشبه بالمغناطيس. كانت الصورة حميمة ومخيفة.

قال لصاحبه، الذي نسيه الآن، ان ذلك يشبه الصور في كتب الاطفال. وافق صاحبه بكلمة واحدة، صحيح، قال، او فعلاً. قال ايهاب، هنالك قوة تنبعث من هذه اللوحة، قوة الحنين.

استولى حنين جامح على ايهاب، شعر معه بقلبه يغوص. كان حنيناً ملتاعاً الى القاهرة القديمة ـ الغورية، السيدة، الازهر، الحسين، أم الغلام، بين القصرين، السكرية، الباطنية، قصر الشوق..... ـ الى الحياة الاليفة، الحنونة فيها. ومعه اشتاق لنادية التي اختفت من حياته ولن يعوضها شيء، الى ليالي رمضان في القرية. ثم أخذ الوجه العريق، القديم لحي الزمالك يتبدى ومعه شخوص رسخوا في الذاكرة من صحافة الاربعينات. عاش النمط الاوروبي في البناء بزخارفه من أوراق العنب والاطفال السمان وكيوبيد بسهمه، وجو الحجرات الواسعة، المعتمة، بستائرها المخملية، ورائحة الاثاث القديم. الاثاث المصنوع من خشب الآرو والجوز، والارضية الباركية.. عاش ذلك بلوعة.

وفجأة، ودون أي سياق، برز وجه أمه صارماً، أبيض، مؤطراً بمنديل وشعر أسودين. عيْناها سوداوان، واسعتان. تنظران بثبات وتجعدات كثيرة مستنفرة حولهما، منذ زمن بعيد لم يتذكرها، فما الذي جاء بها صارمة، تحمل اليه اللوم والادانة.

سار في شارع البرازيل ودخل من باب البناية الكبير العتيق التي تقع الوكالة التي يعمل فيها، في دورها السابع. ضغط على الزر فأخذ المصعد القديم يهبط ببطء. توقف بخبطة أحس بارتجاجها في ظهره، مستعيداً الاحساس ذاته عندما يهبط المصعد ثم يتوقف. فتح باب المصعد الخارجي، ثم دفتي بابه الداخلي، ثم سمع صوت الحذاء النسائي قادماً نحوه من مدخل البناية. كان يعرف المرأة القادمة شكلاً، وقد دخلت في أحلام يقظته الجنسية في بعض الاحيان. يعرف أنها خبيرة تدليك. وأنها تأتي لانسان ما في الطابق العاشر من البناية. أبقى باب المصعد مفتوحاً الى أن اقتربت، فدعاها الى الدخول. فهمست «ميرسي» ودخلت. تأمل الفتاة وهما محشوران داخل صندوق المصعد الضيق. كانت طويلة، عريضة الكتفين، لها شعر أشقر خفيف، مسرّح في ضفيرة تتدلى على ظهرها، وقد انكشف جبينها الواسع. كان لها أنف طويل، حاد، شفتها العليا قصيرة، ولعينيها الواسعتين لون أخضر، وحاجبان خفيفان جداً حتى لتكاد تكون بلا حاجبين، ولها ذقن طويلة، دقيقة النهاية، وفم بارز الشفتين كأنه قال لتوه: «وأنا اش عرفني!». العنق كان معجزة، طويل، مستقيم، مدوّر. وكانت تلبس بلوزة صفراء تتعلق بالكتفين بخيطين أسودين، وكانت تكشف عن مساحة واسعة من نحرها،

وظهرها، تاركة الكتفين عاريين. كانت لون البلوزة الاصفر ينسجم مع بياض بشرتها النقي المائل الى سمرة خفيفة. وكان الثديان كبيران، مكوّران، مرتفعان وسط الصدر الواسع.

كان وجهها يوحي بعري له طابع الفضيحة. رغب ايهاب بقوة أن يلمس كتفيها العاريين، أن يملأ يديه بلحمهما الصلب، المدور، المتفلت. كان ملمس الكتفين في يديه، وكان الوجه الصامت قريباً جداً منه. قال:

- «السابع؟».

كانت تعلم أنه يعلم. قالت بدهشة:

- «نعم؟».

- «الدور؟».

- «عشرة».

كان توقه الى لمسها قد بلغ حد الجنون. قال:

- «انت خبيرة مساج. مش كده؟».

- «أيوه».

قال:

- «ممكن اسأل حضرتك سؤال؟».

قالت:

- «اتفضل».

قال:

- «انت بتعملي تدليك للناس. فيه حد بيدلكك؟ لا مؤاخذه، بس باين من صحتك، يعني...».

قالت:

- «طبعاً فيه».

كان المصعد قد تجاوز الدور الذي يعمل فيه، فقالت:

- «مش نازل في السابع؟».

قال:

- «حا اوصلك وانزل تاني. الحديث معاكي لذيذ».

قالت:

- «مرسي».

وهي تتهيأ لمغادرة المصعد.



الفصل الحادي عشر

كان الضيق واضحاً على وجه فهمي وهو يرفع السماعة بذراعه الممدودة وينادي:

- «زينب. تليفون.»

بدا وكأنه يريد ان يبعد السماعة عنه الى ابعد حد ممكن. لقد صدمته لهجة المتكلم غير المصرية.

جاءت زينب وقالت:

- «مين؟»

قال باشمئزاز:

- «مش عارف.»

واحنى رأسه وواصل عمله. كان تركي على التلفون. دعاها للغداء، وسألها:

هل تجيء اليوم؟ قالت: لا. لا اليوم ولا الايام التالية. سألها عن السبب قالت:

- «مزاجي.»

وقبل ان يضيف تركي شيئاً آخر اعادت السماعة الى مكانها، وعادت الى مكتبها محنية الرأس، متعجلة، معلنة احتجاجها. بعد قليل دخل حمادة صالة المحررين. كان يحمل صحيفة أللوموند. اقترب من زينب وطلب منها ان تترجم تعليقاً فيها. ثم انحنى واخذ يهمس:

- «الله يخليك يا زينب ترّوحي اليوم بدري. شقتي بقت مزبلة. روّقي فيها شويه واستنيني.»

نظرت اليه بحدة وقد بدت كأنها في سبيلها الى النهوض وضغطت بيديها على المكتب وقالت:

- «انت قليل الادب.»

بدت الدهشة على وجهه، واضافت زينب:

- «بشتغل خدامه عند دين اهلك يا ابن الشرموطة!»

حاول ان يقول شيئاً ولكنها صرخت:

- «حل عني.»

قال:

- «طيب.»

وانسحب حاملاً صحيفة اللوموند التي نسي ان يبقيها على مكتب زينب. كان يعلم أن أفضل وسيلة أمامه، عندما تكون زينب في هذه الحالة، أن ينسحب.

منذ أن علمت زينب - كان حدسا ثم تأكد لديها - ان ايهاب يقيم في بيت منال عزمت ان يكون ايهاب رجلها. ذهبت في صباح اليوم التالي الى بيت منال ودقت الجرس فلم يفتح أحد الباب. اتصلت بالتلفون فلم يرد عليها أحد. كانت تعلم أنها هناك. امتناعها عن الرد على جرس الباب والتليفون كان اجابة كافية. ثم ذهبت الى شقة ايهاب وأقامت هناك.

كانت تعلم أنه سيعود اليها من شقة لامعة نظيفة، فأخذت تبذل مجهوداً مضاعفاً للعناية بها لن يبقى ايهاب طويلاً مع هذه المرأة المصابة بالبرود الجنسي.

عندما عاد ايهاب مصاباً بالعنة امتلأ قلبها بالشفقة كان احساساً جديداً عليها ولكنه طرد كل انفعال آخر. ستكون له وحده طيلة حياتها. ايهاب العنين هو رجلها، لن تتخلى عنه، ولن تعرف غيره. حاولت أن تفهمه ذلك، ولكنه كان غارقاً في بؤسه، فلم يصدقها. ثم دهمها البكاء. أحنت رأسها على المكتب وأخفت وجهها بكفيها وأخذت تنشج. كان كتفاها يهتزان. وقف فهمي بجوار مكتبها وقال:

«زينب. فيه ايه يازينب؟»

كشفت كفيها عن وجه مبلل وقالت:

- «مافيش.»

قال:

- «مافيش ازاي؟ دا انت بتعيطي. فيه ايه؟ حصل حاجة؟ ممكن أساعدك في حاجة؟ كلميني.» مسحت دموعها باصابعها وابتسمت، ثم قالت:

- «صدقني ببكي حبا.»

- «زي الموت حبا؟»

قالت:

- «تمام. زي الموت حبا. ايهاب متضايق شويه. انت عارف. لما أشوفه زعلان بشعر اني عايزة أموت.»

- «متضايق ليه؟»

قالت:

- «بعدين احكي لك. مسألة مش مهمه.»

- «ربنا يسهل.»

- «حا اكلمه بالتلفون دلوقتي.»

وبالفعل كلمته بالتلفون وسألته عن مزاجه، وقالت انها مشتاقة له، وطلبت اليه الا يتأخر.

***

استـأذن ايهاب في الساعة الحادية عشرة من المكتب. كان جائعاً للحياة والناس. سار عبر كوبري ابو العلا، وانحرف يميناً الى الكورنيش، ثم اتجه الى ميدان التحرير. كانت وجهته مقهى استرا المواجه لسور الجامعة الامريكية. كان في طريقه الى المقهى يلتقط الفتاة بعينيه من مسافة بعيدة ويظل يتـابعها وهي تقترب حتى تصبح في مواجهته. يراها بقعة لونية من بعيد، تأخذ في التحدد والـوضـوح حتى تصبـح امـرأة. تتعلق وتتحـاور العيون الاربعـة، تبث رغبات بدائية خارج كل المواضعات، ثم تنفصل.

كان يريد ان يجلس في الجـزء الخلفي من المقهى حيث تجلس المـومسـات الصغيرات. كن مومسات مبتدئات، وانصاف مومسات، ولم يكنّ يدعون الزبائن اليهن. قرر ان يختار واحدة منهن ويجلس معها. كان يرغب في استعادة عالم قديم، عاش فيه، وبدا الآن بعيداً جداً. كان مشدوداً اليه بحنين جارف. اراد ان يستعيد ذلك الجو السري بمنطقة باب اللوق: الحجرات المفروشة المؤجرة، المؤجرات الاجنبيات والمومسات اليونانيات، العريقات منهن، والصغيرات المهيئات لأن يتحولن الى عشيقات، والعلاقات التي تقوم بين المستأجرين الطلبة، وصاحبة البنسيون الصغير، والتي تكون علاقة عشق حقيقية من جانب السيدة الاجنبية. كان عالماً مليئاً بالوعود، وسرياً لا يعرفه اصدقاؤه القادمون من الريف. كان له رائحة روايات عن مصر كتبها اجانب، او مصريوَن اندمجوا في الجو الاوربي.

ولكنه بمجرد ان دخل المقهى رأى الشاب. التقت عيونهما فرفع الشاب يده، فاتجه اليه ايهاب وصافحه. كان يجلس وحيداً قرب الشباك المطل على شارع ريحان وسور الجامعة الامريكية. جلس ايهاب الى مائدته وهو يشعر بالضيق.

كان ايهاب ينسى اسم الشاب باستمرار اذ ان اسمه ثلاثي من نوع احمد محفوظ محمد، او محمود حافظ محمد. وكان يعمل في جهاز المخابرات العامة، وكان ينبّه كل من يتعرف اليه من الادباء الى ذلك. ويشير الى انه يعمل في المجال الخارجي فقط وليست له علاقة بالامن الداخلي. لم يكن يرغب ان يظهر في المجتمع الادبي كعميل، ينقل اخبار الادباء الى الجهات الامنية. وفي الوقت ذاته كان يحل العديد من المشاكل الامنية التي تواجه الادباء. وقد لعب الشاب دوراً جاسوسياً هاماً، لم يكن واضحاً تماماً لا يهاب، ولكن يقال انه دخل اسرائيل باعتباره يهودياً مصرياً واصبح من المقربين لموشيه دايان، او شيئاً كهذا، وانه كتب مذكراته عن هذه الفترة، ويريد ان يقوم اديب ان يحوّلها الى سيناريو فيلم. وكان هذا الشاب مبهوراً بالجو الادبي، يعامل الادباء ـ خاصة من ينشرون منهم في الصحف الكبيرة ـ باحترام وتحرج كبيرين، وكان يتعامل مع ايهاب بمظهر احتفالي مبالغ فيه لسبب لم يكن ايهاب يعرفه. لم يكن ايهاب يعلم انه يشاع عنه في الجو الادبي انه اديب موهوب، واسع الثقافة، وبعيد عن ثرثرة المقاهي.

كان احساس الشاب بتفضل ايهاب في الجلوس معه هو الذي دفعه لأن يكون مسلياً الى الحد الاقصى، كأنه يريد ان يدفع ثمن هذا التشريف. اما ايهاب فقد كان خائفاً ان يفقد فجأة ودون مبرر واضح هذه الحظوة، فلهذا كان خائفاً ومستعداً لأن يرضي الشاب بكل الوسائل الممكنة.

قال ايهاب: انه سعيد لأن يجلس معه على انفراد لأنه لا يراه الا وسط مجموعة كبيرة من الادباء

(وابتسم ايهاب) والمريدين.
قال الشاب:
- «العفو. احنا تلاميذ سيادتك.»
مضى ايهاب يقول: ان معلوماته عنه تأتيه بشكل غير مباشر، وهو يرغب كثيراً ان يسمعها بشكل مباشر عنه. وقال انه يفكر في كتابة رواية مغامرات قائمة على الجاسوسية، ولكنه يحتاج الى مراجع اصلية.
واستدرك ايهاب ان اعمال الجاسوسية، اذا كانت مبنية على فهم سياسي ناضج، هي اعمال فدائية.
كان ايهاب مرتبكاً لحفاوة هذا الشاب به، خاصة عندما بدا، للحظة، الوجه الآخر لشخصيته حين طلب من الجرسون ان يعد فنجان قهوة سادة «للاستاذ ايهاب من البن اللي انت عارفه.» وبالفعل جاءه الجرسون بفنجان قهوة فاخر. وشرح الشاب لايهاب انه يأتي بالبن من البيت يحوّجه بنفسه، ويختاره من افخر اصناف البن.
قال الشاب:
- «دا شيء يسعدني جداً بجد يعني.»
قال ايهاب:
- «بس لازم تسجيلات مستفيضة. تسجيلات عن ادق التفاصيل، يمكن تستمر اربعين او خمسين ساعة.»
قال الشاب:
- «انا على اتم استعداد.»
قال ايهاب:
- «في البداية حا يكون حديث عام. بعدين التسجيلات حا تكون اسئلة على اجوبة حا اوجهها لك.»
استفاض الحديث. تحوّل تحرج الشاب الى حكايات طويلة مفصّلة، كما تحوّل ارتباك ايهاب الى اصغاء مركز مؤدب. قال الشاب انه منذ دخوله اسرائيل وهو يحمل حبوب سايانايد.
قال ايهاب:
- «سايانايد يعني ايه؟»
قال الشاب وهو يخرج علبة بلاستيكية صغيرة من جيبه، من النوع الذي قد تعتقد ان في داخلها هدية ثمينة:
- «من دي.»
فتحها الشاب ورأى ايهاب حبوباً بيضاء، صغيرة جداً تناول ايهاب العلبة وقال:
- «دي بتعمل ايه؟»
قال الشاب:

«حبايه واحده والواحد يموت خلال ثانية.»

قال ايهاب:

- «يا ستار. اديني حبتين.»

ابتسم الشاب وقال:

- «عايز تنتحر؟ دي خطيرة فعلاً، في اقل من ثانية...»

قال ايهاب:

- «لا. اطمئن. عايز اموّت شوية قطط.»

وحكى ايهاب عن قطط هائلة الحجم تقتحم وتهاجم كل شيء. قطط كالاسود قالها وضحك. قال الشاب ان تلك الحبوب تخدم الغرض. واخرج ورقة وضع فيها حبتين وقدمها لايهاب. طلب ايهاب فنجان قهوة آخر، فقال الشاب للجرسون:

- «من البن اياه.»

وجاءت القهوة لاذعة، غنية، كما توقعها ايهاب. شربها واستأذن بالانصراف على ان يلتقيا مرة أخرى، يوم الجمعة، في نفس الساعة.

عاد فلقي زينب تضع الطعام على المائدة، كانت الشقة نظيفة ومضيئة. فلقد حدست زينب الاثر الذي خلفته شقة منال في ايهاب. حدست ان الفة عميقة قد خلقها المكان فحاولت ان تجعل من شقة ايهاب مكاناً مشابهاً. عانقها، فاستجابت بلهفة، وهمست، ووجهها لصق وجهه:

- «فيه الك مفاجأة.»

- «ايه؟»

اخرجت من جيبها زجاجة صغيرة جداً، لها لون اخضر معتم، وزجاجها من اردأ الانواع وقالت:

- «نقطة من دي مع القهوة تعمل العجايب.»

قال ايهاب:

- «جبتيها منين؟»

- «من فاطمة.»

- «فاطمة صديقتك؟»

- «حبيبتي.»

قال:

- «نشرب قهوة بعد الغدا.»

«مش حا تنام؟»

- «نشرب قهوة وننام.»

شربا البراندي وتغديا في صمت الى ان قالت زينب:

- «تخانقت اليوم في الشغل.»

وحكت له ما حدث بينها وبين حماده. قالت ايهاب وقد اخذت الغيرة تخنقه. حتى كاد ان يصرخ:

- «كنت فاكر علاقتك مع حماده انتهت.»

- «وانا كمان.»

قال ايهاب:

- «طيب؟»

قالت:

- «علشان كده رميت الجورنال في وشه.»

قال ايهاب:

- «معقول يطلب منك طلب زي دا وعلاقتك به منتهية؟ واضح انه بين آن وآخر بتحنوا لبعض.»

قالت:

- «صدقني انه ما حصل.»

استولت عليه الرغبة في اهانة الذات. قال:

- «حتى لو حصل، فدا حقك. مش معقول تعيشي راهبة مع راجل عنين. بس كنت اتمنى انه يكون شخص تاني غير حماده.»

قالت:

- «حبيبي بلاش تعذب نفسك. صدقني انه ما حصل.»

- «ايه هوه اللي ما حصل؟»

- «اني من يوم ما شفتك ما عملتش علاقة مع حماده او غيره. صدقني، مش عارفه ليه انت مصر على الاسئلة دي وعلى تعذيب نفسك؟ حبيبي علاقتنا تمت باختيارنا. ما فيهاش الزام. ولو حصلت حاجة كنت قلت إلك. انا الك لوحدك. فاهم؟»

كانت مقنعة تماماً، ولكن الغيرة والالم الذي تسببه، والرغبة في تعذيب الذات جعلته غير قادر على التوقف. قال:

- «ايه اللي يمنع انه تقوم بيناً علاقة باختيارنا، وبين آن وآخر تعملي علاقة جنسية. انا ومنال...»

قالت:

- «مش حا تصدقني؟»

قال:

- «خلينا موضوعيين. علاقتك بيا قائمة على الشفقة. بسبب الشفقة جا تخفي عني اي علاقة مع رجل آخر. وانا بشكرك على الشفقة وعلى اخفاء علاقاتك اللي هيه من حقك، من حقك بدون نقاش. ليس بالشفقة وحدها يعيش الانسان.»

أخذت زينب تبكي وهي تردد: «مش معقول، مش معقول.» وامسكت بكأسها وشربته دفعة

واحدة. ومضى ايهاب لأنه لم يكن قادراً على التوقف او على المشاركة في المها:

- «انا لو كنت مكانك كنت تصرفت بنفس الطريقة.»

قالت بصراخ:

- «ايهاب، كفاية بقى. انت تعرف انه حب مش شفقة.»

قال:

- «لو سألتك سؤال، تجاوبيني عليه بصراحة؟»

قالت وكأنها تخاطب نفسها:

- «مش معقول. انت مش معقول.»

قال:

- «بكرر: لو سألتك تجاوبيني بصراحة.»

قالت وهي تتنهد:

- «قول.»

- «صحيح حماده كان بيضربك وكنت بتستمتعي بالضرب؟»

قالت:

- «كلام غريب يا حبيبي. علاقتي بيه استمرت تلت تيام، ما لحقش يضربني فيها. وما لحقتش استمتع بالضرب.»

- «يعني بستمتعي بالضرب.»

- «بعدين معاك؟»

- «انا آسف. انت حملت منه؟»

- «انا؟»

كان استنكارها صادقاً. تأمل وجه زينب، وقال لنفسه: «حماده كان يصفع هذا الوجه» ورأى شعرها يهتز مع الصفعة. ولكن شيئا ما في هذا الوجه يقول انه وجه لا يصفع. حدة ما، قوة وهشاشة لا تسمح لليد بان تمتد اليه. ولكن الرغبة في تعذيب الذات استمرت. لم يعد قادراً على ايقافها.

قال:

- «لكن..»

- «لكن ايه؟»

قال:

- «بصراحة مش حا اقدر انسى..»

فاكملت عنه:

- «يوم نقابة الصحفيين.»

- «بالضبط.»

قالت:

ـ «ما انا شرحت إلك الظروف. وبرضه انا آسفة جداً، جداً. كفاية حبيبي.»

قال:

ـ «طيب...»

قاطعته وابتسمت له، ثم نهضت وقالت:

ـ «كفاية دلوقتي موقتاً ودلوقتي حا اعمل القهوة العظيمة.»

تبعها الى المطبخ وسألها عن علاقتها بمنال. قالت انها صديقتها. قال:

ـ «رغم كل شيء؟»

قالت وهي منصرفة الى تفريغ ما تبقى من طعام في الاطباق في صفيحة الزبالة وفي وضع الاطباق في المجلى:

ـ «بعرف انها بتهاجمني في كل مكان. فيه عند منال مشكلة ما بتعرفها انت ولا هنيه. منال بتخترع حكايات وبتصدقها.»

قال ايهاب:

ـ «كمان شوية حا تقولي عليها ماناخوليا.»

ضحكت زينب وقالت:

ـ «ماهية ماناخوليا فعلاً.»

قال ايهاب فجأة وهما يشربان القهوة:

ـ «شاعر ان المشكلة انتهت.»

ـ «مشكلة ايه؟»

قال:

ـ «المشكلة اللي كانت مضايقاني. شاعر اني ممكن امارس الجنس.»

قالت زينب بصوت تهريجي صاخب:

ـ «مبروك، مبروك.»

قال بصوت متردد:

ـ «على كل حال مش متأكد.»

قرصت خده ومالت عليه بتلك الانوثة الفاجرة وهي تقبل نحره ورقبته وتهمس:

ـ «الميه تكدب الغطاس.»

اسرع ايهاب في التعري وحاول ان يأخذها وهي لم تتم بعد خلع ملابسها، فامسكت بكتفيه وقالت:

ـ «حيلك، حيلك، الدنيا ما طارتشي.»

تخلصت منه وواصلت خلع ملابسها. قال ايهاب بلهجة تهريجية:

ـ «مش قادر اصبر.»

وتعانقا في السرير. انفصل ايهاب فجأة ونهض. اشعل سيجارة وجلس على طرف السرير تمتم:

- «ما فيش فايده.»

قالت:

- «احنا لسّه ما ابتدينا.»

قال وهو ينهض ويتمشى عارياً في الحجرة:

- «ما فيش فايده. ميت.»

قالت:

- «لا. فيه. تعالى مدد جنبي.»

وكانت معاناة حقيقية بذلت فيها زينب جهداً خارقاً، وحاولت كل اساليب الاثارة دون نتيجة. في نهاية الامر تمدد بجوارها وهو يغطي عينيه بساعده وقال وكأنه يحكي خبراً:

- «المصيبة ان الرغبة موجودة، وانا زي ما كنت من قبل. احاول اعمل الجنس الاقيه ميت، حتة جلده وانا مش واخد بالي. غريب جداً. ما عادشي فيه علاقة بين الرغبة وبينه.»

قالت زينب:

- «ما تضايقشي نفسك. دا شي موقت..»

ضحك وقال:

- «شدة وتزول، كنت عايزة تقولي؟»

قالت:

- «فعلاً.»

انطلق ايهاب يضحك بهستيرية، وهو يحني جسده ويردد: «شدة وحا تزول، شدة وحا تزول...» قالت:

- «ايه اللي بيضحكك؟»

قال وهو مستمر في ضحكة المتشنج:

- «شدة وحا تزول.»

كان الضحك يهز جسد زينب، ولكنها سيطرت على نفسها. كانت تعلم ان مشاركة ايهاب في ضحكه تعني القبول بهزيمته. قالت:

- «بطل ضحك وبوسني.»

التفت اليها وقال:

- «انا فعلاً مش فاهمك، قدامك فرصة تمارسي جنس مع راجل فحل، ومصره على تكريس نفسك لواحد مخصي.»

قالت:

- «انت مش مخصي.»

قال :

ـ «مش مهم الاسماء. مخصي، عنّين مش دي المشكلة. المشكلة هيه الخيار الهباب اللي اخترتيه. هوه دا اللي محيّرني.»

قالت :

ـ «انا اخترت الانسان اللي بحبه.»

قال :

ـ «وتعيشي عاالزيتون والجبنة. مش كده؟ اسمعي. انا بكلمك كلام جد، مش بهزر، قومي وروحي لحماده، وخليه يبسطك، وارجعي للحب الجاف، المقدد.»

انفجرت بالبكاء. ثم استدارت ونامت على وجهها. دفنت وجهها في الوسادة واخذت تنشج. راقبها ايهاب بحياد بارد. لاحظ اهتزاز الكتفين، والرأس يرتفع وينخفض فوق الوسادة، راقب عظمتي الكتفين وقد برزتا، وشدتا معهما الجلد. كانت، بالنسبة له، جسداً ممنوحاً في وضع مريح، ولكنه هو عاجز عن الاستفادة من ذلك. يكاد يختنق بسبب فقدان الاتصال بين رغبته وانتعاظ عضوه. كان ذلك مقلباً كتلك المقالب التي كان يشارك فيها عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية.

قال ببرود :

ـ «كفاية يا زينب.»

رفعت وجهها المبلل اليه وقالت :

ـ «انت بقيت انسان بلا عواطف.»

ـ «صحيح.»

قالت بنبرة اشد حدة :

ـ «وبدون ذوق.»

ضمها اليه وقال :

ـ «انا انسان مدمر.»

* * *

اصرت زينب ان يذهب ايهاب الى موعده مع منال في بيت هنيه. قالت :

ـ «يمكن ربنا يفك سرك.»

قال :

ـ «وانتِ؟»

قالت :

ـ «حا استناك هنا.»

واشارت بسبابتها الى حيث تقف في حجرة النوم. ادهش ايهاب ان زينب ابدت اهتماماً خاصاً بمظهره. قالت ان عليه ان يحلق ويستحم. اصرت عليه ان يرتدي بذلته الصيفية وكرافته وقميص.

قال :

ـ «وكله الا الكرافته.»

قالت بشقاوة طفلة:

- «بتخلّيك شيك. بتحلّيك.»

قال:

- «عايزة تحليني ليه؟»

قالت:

- «علشان العروسه.»

وانطلقت في ضحك انتقلت عدواه له. قال:

- «انت مهرجه.»

قالت بطفولة:

- «والنبي والنبي!»

قال:

- «حاضر.»

ثم تبين انه يشارك في تمثيلية مضحكة، وان زينب هي التي تمسك بكل الخيوط. جلس على الكنبة الاسطمبلي واضعاً ساقاً فوق ساق وقال:

- «مش رايح. انتِ ودين النبي مهرجه. عايزة تتسلي في خلق الله. ايه اللي يوديني؟»

قالت:

- «تشوف عايزين ايه؟»

- «مين؟»

- «هنيه وشركاءها.»

واستدركت:

- «هنيه طبعاً مش فاهمه حاجه. كل اللي عايزاه انها تبعدك عن الشرموطة زينب، وما فيش غير الحل التقليدي: الجواز. لو ما رحتش حا تحصل ارتباكات، حا يقولوا هرب، او زينب منعته. فاهم عليا؟ فيه حاجات معلقة ضروري تنهيها النهار دا.»

كانت صورة الموقف في خياله، وهو في طريقه الى بيت هنيه، ان السهرة سوف تستنفذ نفسها بسرعة، بسبب تحرجه وارتباك منال. ولكن منال تصرفت بشكل لم يتوقعه. اذ بمجرد دخوله اسرعت نحوه شبه راكضة، وجونلتها القصيرة ترتفع وتتدور لتصبح كالطبق، كاشفة عن ساقين قويتين، متناسقتين، واذا بها تضمه وتقبله على خده، وتهتف بذلك الصوت الطفلي، المتنهد، المنغّم، الممطوط: «ايهاب» فيقبل خدها، الذي تدهش ايهاب نعومته ويقول:

- «اهلاً منال.»

وهنيه تبتسم تلك الابتسامة المتواطئة، المشفقة على العاشقين، وتحاول في الوقت ذاته ان تخفف الفتها مع ايهاب، لتتيح للعاشقين فرصة الاقتراب الى اقصى حد. قالت له هنيه:

- «انت متشيك النهار دا.»

لعبـة على حدود البذاءة. تستجيب منال فتقترب من ايهاب وتضع رأسها على طرف كتفه.
وكـانت الصينية فوقها الكؤوس وجردل الثلج وزجاجة البراندي والماء موضوعة فوق الطرابيزة امام الضيفين. تدخل هنيه المطبخ وتأتي باطباق فيها شرائح الليمون و الجزر والخيار. قال ايهاب لنفسه:
«كان يجب ان يكون اسماعيل حاضراً، فانا ضائع بين المرأتين، ووسط هذه المودة والتلميح بالبذاءة تختفي الحقيقة الوحيدة: عنّين وامرأة مصابة بالبرود الجنسي.»

قال ايهاب:

- «فين ابو السباع؟»

قالت هنية:

- «زمانه جاي.»

ثم أضافت وهي تعد الكؤوس:

- «جايين كلهم مصطفى وتفيده وهدى وخطيبها وفهمي. عايزين نحتفل بنجاتك.»

قالت منال:

- «بس نجاته؟»

قالت هنيه:

- «وبحب عظيم. انا متأكدة انه حا ينتهي بجواز.»

قالت هنية عبارتها الاخيرة بتردد، كأنها ارغمت على قولها، او كأنها تساؤل. حاول ايهاب ان ينفذ الى مقصدها، الذي بدا خارج سياق الموقف، فلم يستطع. بعد قليل قال لنفسه: «انني اضخّم ردود فعلي. نبرة صوتها المترددة كانت بسبب انحنائها وهي تضع الثلج في الكؤوس.» وتذكر باعجاب صدق حدس زينب. كانت تعلم ان هذه السهرة احتفال لما تصوره انقطاعاً لعلاقته بزينب. كانت تعلم ذلك وتعلم أيضاً ان ايهاب سوف يعود ليؤكد انها ملجأه الوحيد.

ما هي نهاية هذه المهزلة؟ الوجنة التي تضغط على كتفه، وهذه الالفة الوديعة، وهنية حارسة العـاشقين؟ وهو يشعر بعنانته تتفكك ببطء، خيط اثارة يبدأ من الكتف الذي يلامس الوجنة الى مكمن التوتر المجنون. أيأخذها هنا، في التو واللحظة، ويعلن الانتصار على عنانتين؟

قالت هنية:

- «يا اولاد خدوا راحتكو.»

وغادرتهما فقال ايهاب:

- «مش فاهم. ايه يعني ؟خدوا راحتكو)؟»

قالت منال:

- يعني نبوس بعض.»

وتضحـك. يتكهـرب الجو بالحرج والرغبة. ترفع وجهها اليه. يطالع تلك النظرة الشاسعة البياض، بلمعتـه الصفـراء، المبلولـة، والسـواد دائرتان مصمتتان، عمياوان، تنفتح تلك النظرة الجريحة، الراجية، المعذّبة على صرخة توسل، يلمس جبينها بشفتيه. لسعته، واحس بالرغبة تغوص

في الاحشاء، شعر انه تحرر من عنانته، فمال وقبل وجنتها وفمها، ثم ضغط وجهها على صدره، فهمست:

- «كفاية.»

يهمس وهو يلهث:

- «حبيبتي.»

تقول:

- «كفاية يا ايهاب.»

- «ليه؟»

تقول:

- «مش قادره.»

- «مش قادره.. ايه يعني؟»

تهمس بنظرة حولاء قريبة من عينيه:

- «عايزاك.»

- «جنس.؟»

- «عايزاك جداً، جداً.»

انفها شفاف، والشفتان منفرجتان قليلاً تعبران عن حزن، وهي تلهث قليلاً وعرق خفيف نبت فوق حاجبيها.

تموء:

- «كفاية.. حا اتجنن.»

- «اشمعنى دلوقتي؟»

- «مش عارفه.»

قال:

- «تعالي نروح عندك البيت.»

- «مش معقول.»

- «ليه؟»

- «مستحيل.»

دفعها عنه بخشونة، ونهض واسرع الى الباب. فتحه وخرج. تبعه صوتها مبحوحاً:

- «ايهاب! تجننت؟»

في الخارج كان ممتلئاً بحب زينب. في اطار من الحنان وهي جالسة، جادة، عيناها على الباب في انتظار عودته.

لم تكن زينب في البيت. كان ذلك مستحيلاً. عليها ان توجد. دار في الشقة بين الصالة والصالون، في حجرة النوم والمطبخ، خرج الى الشرفة. زينب غير موجودة. على الشقة ان تتفتق عن

زينب، عليها ان تنبثق من هذا الفراغ وتتجسد فيه. لايمكن ان تهجر ايهاب الهش، العنّين، المعرض لكل المخاطر. هل ذهبت لتشتري شيئاً وتعود، لتحضر كتاباً من بيتها وتعود؟ خاطبها قائلاً: «من أجلك تخليت عن رجولتي التي اثارتها منال، والسهرة التي اعدت خصيصاً لي، تركت منال في ورطة، وهنية ودهشتها المجروحة واساعيل وفهمي ووليد ونوال وتفيدة ـ تفيدة الرائعة ـ ومصطفى وهدى وما اسمه.. من اجلك عدت عنيناً، اغضب اصدقاءه، من أجلك...»

الكنبة الاسطمبولي التي جلس عليها طردته لم يكن قادراً على الجلوس. غوايات العالم تمد له الف ذراع. الحفلة المقامة على شرفه، اصدقاؤه الذين هجرهم، اماكن كثيرة بدت مبهجة... كلها جعلت وجوده في شقته جحيًا. الشقة تطرده الى خارجها، لا تطيق وجوده المشتت بين اغواءات لا نهائية، متساوية الجاذبية. ولكن عناداً يقاوم العالم كله قد استولى عليه: سوف انتظر زينب.

كان غياب زينب شيئاً اشبه بطلوع الشمس من الغرب، اختلالاً غير منطقي في قوانين الطبيعة. اخذ يتمشى في الشقة، يذرعها ابتداء من الباب الخارجي، مروراً بالصالة، وبالممر الفاصل بين الحمام وحجرة النوم، الى المطبخ. مسيرة مليئة بالتعرجات والمنحنيات. ولكنها سيطرت على حركة جسده. طوّعته. كأنها تأمره بالمسير.

كانت زينب ـ في مسيرته ـ صورة لنكران الجميل، تكون لصيقة به عندما يكون وحشاً جنسياً، ولكنها تهجره كانسان. يزيد الفكرة ايضاحاً: لن تحبه الا اذا انحط الى مستوى الغريزة، الا حين يفقد جوهره الانساني. الانسان وحده هو اعلاء الغريزة وليس الغريزة ذاتها. هذه هي الحضارة...

ولكن زينب ترد، تحكي عن السنة التي امتنعت فيها عن ممارسة الجنس، عن حيرتها، هل تقترب او تبتعد ان اقتربت فهي تمنعه من كتابة الرواية، وان ابتعدت فهي تهجره لانها لا تريد الا الجنس.

يتذكر بكاءها هذا اليوم فيمتلىء قلبه بالحنان والحب ولكن اين ذهبت؟ اين يمكن ان تكون قد ذهبت؟

وفجأة، دون تصميم سابق، رأى نفسه يغادر الشقة، تاركاً انوارها مضاءة. هبط السلم دون انتظار المصعد، وعبر الميدان الى شارع الدقي، الذي بدا خالياً وواسعاً، حتى انتهى الى حديقة الارومان، تلك الكتلة المعتمة من الشجر التي تكتسب طبيعة غريبة في الليل، تفقد طابعها الاصطناعي لتصبح طبيعة عذراء مشحونة بكل الاحتمالات غير المتوقعة. لماذا لا يفتحونها بالليل؟ يدور حول الجزء الموصّل الى شارع الجيزة فيشم روائح متخيّلة ـ اشجار الكينا والصنوبر والصبار وحديقة الزهور ـ ثم يمتد شارع الجيزة خالياً. السيارة قاتمة مندفعة بهوج، تحت اضاءته الشبحية. يجازف بعبوره ويصل الى كوبري الجامعة. النيل اسود صامت، يعكس جميع الاضواء التي تمتد على جانبيه، ويحتفظ بها آسنة، مترجرجة، كأنها سر قديم.

من على الكوبري تبين له ان زينب ليست في شقتها. رغم هذا واصل سيره. الحدائق المطفأة الانوار التي تقع على يساره تحمل ذكرى امرأة اختلى بها ليلاً. باب البناية التي تقطنها زينب معتم الضوء، مهجور. دخله كما يدخل مكاناً غريباً، مهجوراً. البناية صامتة. صعد الى شقتها، دق الجرس وانتظر. لا يستطيع أن يدق جرساً طويلاً. يعلم انه حين يفعل ذلك فسوف تنفتح بعض

الابواب، وتطل رؤوس تقول له انه لا يوجد احد في الداخل. وهو يعلم ان زينب غير موجودة. ولكنه استمر يقف امام الباب في انتظار ان تحدث المعجزة.

ثم بدأ الملل يتسرب اليه من هذه الوقفة. كان يريد دراما ذات ايقاع سريع، وهذا الانتظار يقتله. اتجه نحو المصعد. كان يصغي بظهره، منتظراً انفتاح الباب وقولها: «كنت نايمة». قبل ان يضغط على زر المصعد استدار وعاد الى باب الشقة. قرفص واخذ يبحث عن اوراق تحته. كان يريد ان يجد ورقة تركها حماده يأمرها فيها ان تسرع الى شقته، لقي الورقة ولكنها كانت تحمل توقيع فاطمة. كانت الورقة تقول: «نمر للمرة المليون ولا نجدك. اين انت يا زيزي الندله؟»

ارتفعت زينب في نظره. فاطمة تبحث عنها بكل هذه اللهفة؟ فاطمة اجمل النساء. . ماذا . . ؟ هي هنالك اذاً؟ خطر له ان يتجه الى بيت فاطمة. سيجد فاطمة وحيدة. ولكن ما معنى «نمر. . ولا نجدك»؟ من كان معها؟ ام هي صيغة تعظيم؟ وكيف يكون موقفه لو ان منال هي التي فتحت الباب؟

بحث عن اوراق اخرى. هنالك ورقة يستطيع ان يراها ولكنه لن يتمكن من اخراجها. استعمل قلم الحبر لجذبها ولكنه لم يستطيع ادخاله تحت عقب الباب. في هذه الورقة يكمن سر. حاول ان يخرجها بالمفتاح. لامسها فابعدها.

اكتشف انه رغم البرد فقد ابتلت ملابسه الداخلية بالعرق. نهض واتجه الى المصعد.

الفصل الثاني عشر

الساعة تشير الى الثانية عشرة، منتصف الليل. كيف حدث هذا؟ ومتى؟ هنالك خطأ ما. السابعة والنصف عند هنية. الثامنة والنصف في البيت، تمشية نصف ساعة، تسعة، الى بيت زينب ثلث ساعة. . متى، اذاً، اسرعت الساعة بالدوران وابتلعت ساعتين ونصف؟ كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة ودقيقتين. من المؤكد ان زينب جالسة الآن على الكنبة الاسطمبولي تنتظر، جالسة، مستقيمة الجذع، عيناها تصغيان الى كل حركة وراء باب الشقة. . ومع كل صوت يطرأ سؤال: هو؟ وعندما يدخل ستقول ساخرة:

- «رجعت بدري.»

يقول

- «بدري جداً.»

يحكي لها ما حدث دون تفاصيل كثيرة. سوف تكون متشوقة للتفاصيل ولكنه لن يعطيها اياها. يسألها:

- «انت كنت فين؟»

لن تقول انها كانت عارية، منبطحة على ظهرها، يعلوها رجل عرقان لاهث. ستقول:

- «كنت في البيت»

يقول:

- «انا لسّه جاي من هناك.»

تقول:

- «ما انا جاية لك في الكلام.»

تقول ذلك بايقاع من يواصل حديثاً انقطع. ثم تضيف رواية حكاية. مادامت زينب فسوف تروي اكذوبة مقنعة. الالم والغيرة يخنقانه وهو يقول:

- «زينب. انا لا الومك. من حقك ان تمارسي الجنس. الحب، هذا الحب الذي يقتلني. الحب وحده لايكفي. ولكن، الا تستطيعين فعل ذلك بشكل لائق؟»

سوف تقول، وهي شاردة العينين، انها تفعل ما تفعله من أجله باختيارها. لا احد يغصبها

عليه، عليه ان يصدقها، لأن لا شيء يدعوها للكذب. هل ستبكي؟ يقول:

- «اعرف. بس ارجوكِ ان تنفذي طلباً واحداً.»

- «ايه؟»

يقول:

- «تستحمي قبل ما تدخلي السرير.»

ضربة موجعة. ضربة معلم.

ولكن زينب لم تكن في البيت. اتخذ قرارات خرقاء يعلم انه لن ينفذها: سينتزع المفتاح من يدها ويطردها، يصرخ: «لن اسمح لك ان تدنسي هذا البيت بعد الآن. لغاية هنا كفاية.» ثم داهمه الضحك عندما رأى نفسه يقف كيوسف وهبي وهو يصرخ صرخاته المعهودة، براق العينين، مرتعشاً، جهوري الصوت اخنف: «اخرجي يا مراة الكل يا مزبلة، حسبتك ملاكاً نزل عليَّ من السماء واذا انت فاجرة، مجرمة. . .» وتسلسلت عبارات ابو حجاج: «شرف البنت زي عود الكبريت، ما يولعشي الا مره واحده. .»

في حالة التوزع بين الضحك والغيرة والغضب كان مشلولاً عن الحركة، او اتخاذ قرار، ثم استولت عليه الغيرة. واخذ يصيغ قضيته ضد زينب، قضية منطقية، لا تستطيع أبداً ان تجد فيها ثغرة تنفذ منها.

لم يجلس. واصل مسيرته المتلهفة، المتعجّلة من باب الشقة الى باب المطبخ. السير يعينه على اقامة قضيته ضد زينب. عندما تسرع الافكار يسرع خطوه، ويتوقف حين تتوقف منتظرة، مشحونة بتساؤل: وماذا بعد؟

بدت الشقة مهجورة، وكان يشعر ان مسيرته مشروع خروج منها للعودة بزينب وادخالها قفص الاتهام. كان سؤال يطرأ ويختفي خلال تلك المسيرة: «باي حق اطلب اليها ان تخلص لي، انا الذي تخليت عنها المرة بعد المرة، ومنذ فترة قصيرة قضيت ثلاثة أيام مع فتاة أخرى؟» ولكن التسلسل المنطقي لافكاره كان في كل مرة يزيح هذا السؤال جانباً. ولكن مجهوداً آخر كان يبذله للرد على هذا السؤال في الوقت نفسه الذي كان يقيم فيه ذلك البناء المنطقي الشامخ ضد زينب. كانت الاجابة: «للصحة منطق وللمرض منطق. هل تتصورين انني سأهجرك لو كنت مصابة بمرض خطير؟»

نظر الى ساعته. كانت تشير الى الثانية وخمسة واربعين دقيقة. ها هو الزمن يبطىء ذلك البطء الخانق. نصف ساعة فقط قد مرت على مسيرته التي بدا له انها استغرقت زمناً طويلاً. استولى عليه حنق عاجز بسبب نية الزمن السيئة. شعر بالزمن يريد ان يسجنه في تلك اللحظة المستحيلة. ان يؤبده في هذا الانتظار غير المجدي.

اشعل سيجارة وقرر ان يجلس قليلاً اختار الكنبة الاسطمبولي. كان ايقاع المشي ما يزال في ساقيه. عندما انتهى من تدخين سيجارته، ورغبته في سيجارة أخرى تلح عليه، حاول النهوض فاحس بتصلب في الجزء الاسفل من العامود الفقري وفي ساقيه. استرخى واشعل سيجارة اخرى.

لم يتدرج الى النوم، بل سقط فيه بما يشبه الاغماء، والسيجارة ما تزال مشتعلة. تدحرجت

السيجارة وسقطت، واستهلكت نفسها على الارضية الباركية الملمعة، الزلقة، مخلّفة ندبة سوداء في الخشب وجزءاً متفحمًا من الفلتر.

كان يشعـر، خلال نومه الذي كان بلا احكام. بجرس الباب لا يكف عن الرنين، ولكنه تصوره جرساً آخر يرن بلا سبب مفهوم. كما كان يشعر بحضور محايد يملأ الشقة ويقرر مجموعة من الحقائق الرسمية المضجرة كأنما يتلو تقارير اقسام المحاسبة، وكان ذلك جزءاً من سياق يضعه بين قوسين، خارج ما يدور حوله، لكونه مجرد متهم. كان ذلك يشبه التحقيق امام مباحث امن الدولة. وكان ذلك قاسياً جداً على طبيعة اعتادت ان تواجه كل ما يحدث امامها في اطار ذلك الفيض الانفعالي الودود. شعر انهم يهمسون باشياء عنه سوف تقرر مصيره.

اخذت الاصوات تتضح. شيء شبيه بهذا كان يقال دون ان يكون له الدلالة التي توحي بها الكلمات:

ـ «نايم.»

ـ «كان مستنيني.»

ـ «يا مجرم» او «يا مجرمة؟»

ـ «يا حبيبي.»

وكان للاصوات البيروقراطية تلك الخنثوية، الهادئة الجرس، الخنفاء، التي تخفي توتراً من نوع ما: «دعنا ننتهي من كل هذه السخافات بسرعة حتى نباشر مهامنا الحقيقية» وكأنه مسؤول عن شيء حدث منذ زمن بعيد، وقد جاء زمن الحسم. لم يكن هو الفاعل، لم يكن قد ولد بعد، ولكن قانوناً متعـالياً على البشر، ناطقـاً باسم المصالح العليا هو الذي يحكم حكمًا لاراد له. ثم ذلك الملمس الساخن الطري العابق برائحة البراندي على شفتيه، وذلك الصوت الملول، التقني، البارد يشيع في الجو حوله. مد ذراعه واحاط بالعنق، مثبتاً الشفتين على شفتيه، وهو ما يزال مغمض العينين. وعندما فتح عينيه رآها. وبعد برهة من الاختلاط واستدعاء الاسماء قال، وهو يقف، وذراعه تضم زينب:

ـ «فاطمة.»

صافحها وقال:

ـ «الساعة كام؟»

قالت فاطمة وهي تنظر في ساعة يدها:

ـ «تلاته. الساعة كام يعني امشي روّحي.»

قال بلسان ثقيل:

ـ «لا.»

ثم تمالك نفسه وقال:

ـ «انت عارفه اني عايز اقول عكس كده. كنتو فين؟»

قالت فاطمة وهي تضحك: كانت لعبة استغماية. امر عليها في بيتها واترك لها ورقة، فاعود لبيتي فاجدهـا جاءت وتـركت لي ورقـة، فاذهب الى بيتها وتذهب الى بيتي وهكذا. كيف كانت سهرتك؟ قال انه لم يسهر. عاد الى البيت في الساعة الثامنة.

كان وجه زينب مذهولاً، مستنكراً. تبادلت نظرة تواطؤ مع فاطمة ثم قالت:
- «ليه؟»
قال:
- «شفتها تمثيلية سخيفة فمشيت.»
- «سابوك تمشي؟»
قال:
- «هربت.»
تبادلتا النظرات وقهقهتا. قال:
- «وانتو رحتو فين؟»
قالت زينب:
- «لفينا الدنيا كلها اولاً.»
قال:
- «القهوة حبيبتي الاول. اقعدي يا فاطمة».
- «مش الوقت متأخر؟»
قال:
-«لا، تنامي بعد مانسهر انت وزينب على السرير جوه وانا انام وحيداً هنا على الصوفا.»
كانت المعابثة مقصوده. قالت:
- «ما ينفعشي. لازم واحد وواحده.»
قال:
- «حا نعمل ايه ما دام فيه راجل وامرأتين؟»
قالت:
- «نعمل يانصيب عليك.»
- «ليه ما تخلوني انا اختار.»
قالت:
- «حاتختار زينب.»
قال:
- «استعبطي.»
فضحكت ضحكة المضيفة، الواثقة من نفسها وصمتت، ربما لأنها سمعت خطوات زينب قادمة. عندما دخلت زينب قالت لها فاطمة:
- «ايهاب عايزني انام هنا.»
قالت زينب:
- «طبعاً حا تنامي هنا.»
قالت فاطمة:

ـ «قلنا مين حا ينام مع مين، قلت نلعب عليه زهر.»

قالت زينب:

ـ «فكره.»

ضحكت، وهي تضع صينية القهوة على الطرابيزة الفورمايكا المنخفضة، واقتربت من ايهاب وعانقته كان لسانها في فمه ورائحة البراندي النفّاذة تبعث من فمها. قالت وهي تنبعث فمها:

ـ «حا ينام في حضني.»

قالت فاطمة:

ـ «رجعت في كلامك؟»

قال:

ـ «ايه رأيك يا زينب؟»

قالت:

ـ «سمعته.»

فاغرقت فاطمة في الضحك.

يتذكر ايهاب فيما بعد، تلك النظرة السريعة التي تبادلتها الاثنتان عندما قالت فاطمة: «قلت نلعب عليه بالزهر.» كانت نظرة عدم تصديق على وجه زينب. قابلتها ابتسامة لاتكاد تلحظ على وجه فاطمة. ثم رفت جفونها برموشها الكثيفة، كان واضحاً انها تعني: «فهمت.»

قال ايهاب لفاطمة:

ـ «ايه حكاية منال؟»

ـ «ما لها؟»

ـ «ما انت عارفه.»

قالت ان منال انسانة بسيطة، ساذجة، وليس لها خبرة بالرجال.

قال:

ـ «ابداً؟»

قالت:

ـ «ابداً.»

ـ «مش معقول.»

قالت ان منال ما تزال عذراء. قال:

ـ «مش معقول.»

قالت:

ـ «زي ما بقول لك.»

كانت زينب تجلس على الكنبة الاسطمبولي، تلامس طرفها بمؤخرتها، رأسها يلامس اعلى المسند، وساقاها ممدودتان باستقامة مكونة مثلثين مع الارض، تائهة النظرة، كأن ما يدور حولها لاعلاقة لها به. قالت فاطمة ان منال كانت تعتقد انه سوف ينقذها. قال:

- «من ايه؟»

قالت:

- «تعالج خوفها من الجنس وتفتح قدامها عالم الرجال.»

عينا فاطمة المضيئتان بنار سوداء، متموجة، اشعلتا دم ايهاب، في فترات الصمت يحاول ان يتأملها فتصده العينان وذلك الاشعاع الذي يفيض به الجسد. خلال ذلك كانت زينب تتشوه تصبح قتامة منطفئة. ثم يتذكر مقهوراً انها قسمته.

نظرت اليه زينب نظرة جانبية وقالت:

- «حا تتجنن على فاطمة.»

قالتها بحياد وكأنها تقرر حقيقة لا اهمية لها، ولكن عينيها ظلتا مركزتين على وجهه. قال:

- «صحيح.»

قالت:

- «قوموا ناموا مع بعض.»

وهي تنظر في عينيه مباشرة، وعلى وجهها تعبير من القى سؤالاً وينتظر الاجابة عليه. تنفس ايهاب بعمق وقال:

- «لا.»

ضحكت فاطمة وقالت:

- «وانا؟ ما ليش رأي؟»

كانت عبارتها هبوطاً في الموقف المتوتر، فظلت المواجهة بين زينب وايهاب خاصة بهما. قالت زينب وهي تبعد عينيها عن وجه ايهاب:

- «ايهاب بتاعي. ما حدش يقدر يقرب منه.»

يعرف ايهاب انه دخل منطقة خطرة، تقوده فيها امرأتان تمتلكان القوة والعنف الداخلي. يشعر بحد السكين الحاد يلامس عنقه. لن يستطيع ان يمتلك فاطمة في جو التربص والحذر هذا حيث انصاف الجمل التي تقال تخفي وراءها عنفاً وحسماً. والاثنتان محصنتان، لا شيء ينال منهما لأن هامشهما من الحرية يتسع ويقدر على الدفاع عن كل اتهام. هو وحده القابل للطعن. عليه ان يخرج من عنق الزجاجة الى ارض يستطيع ان يتحرك فيها دون خوف.

بحث عن فترة صمت، تكفي لبداية موقف جديد، ثم نهض وقبّل زينب على شفتيها، وقال:

- «الموضوع بقى شائك.»

وضحك. رفعت اليه زينب عيني العاشقة الشاكيتين وقالت:

- «بوسة كبيرة.»

وانزلق لسانها متقحماً، سريعاً، ناعماً في داخل فمه، ثم ابعدت رأسها وتنهدت وقالت:

- «حبيبي.»

كانت فاطمة تراقبها بحياد من يقول: «وانا مالي؟» وتأكيداً لذلك تثاءبت اشارت زينب لفخذيها وقالت:

ـ «اقعد هنا.»

قال:

ـ «تقيل عليك.»

وعاود الجلوس في مكانه كان الاستسلام لرغبة زينب، شعر ايهاب، في الجلوس في حضنها يعني تحويله الى طفل امام المرأتين.

قال ايهاب:

ـ «تعرفوا ايه هيه ازمتي الحقيقية؟»

قالت زينب:

ـ «ما فيش عندك ازمه.»

قدّر لها محاولة اخفاء عاره. قال:

ـ «لا يا زينب فيه. ازمتي هيه الحياة في بلد رئيسها السادات.»

قرأ الدهشة لهذه النقلة المفاجئة، في وجهيهما، فقال: ان تفاهته لا تجعلنا نشعر حتى انه عدو. هذا هو القهر الحقيقي: ان يكون عدونا تافهاً. اسمعوه يقول: «مش عايزين فلفسة. ما خرب بيوتنا غير الفلفسة.» عندما يتحدث رئيس جمهورية بهذا المنطق فكيف نحاربه؟

قالت زينب:

ـ «بنحاربه لأنه يملك سلطة القمع.»

قال ايهاب: صحيح. حتى تفهميني، تصوري ان اغبى طالب في الفصل، اضحوكة المدرسة، الذي يضرب به الجميع على قفاه، والذي كلما رأيته تستثار ساديتك، تصوري هذا الطالب وقد امتلك كل اجهزة القمع سلطة كلية، وقد ازداد غباؤه. في هذه الحالة لن يحتج احد على القمع. بل على تفاهة قامعه. الاحساس العميق بالمهانة سوف يكون هو الشعور الاساسي لديهم. كيف يعترضون؟ ما الحل في مثل هذه الحالة؟

خلال حديثه شعر ايهاب انه لم يقل شيئاً متميزاً يبهر فاطمة، كما توقع.

قالت زينب:

ـ «انا شرحت الك وجهة نظري.»

قال:

ـ «الرهبنة او الانحلال؟»

قالت:

ـ «بالضبط. لكن انت نسيت مسألة اخرى.»

قال ايهاب انه يعرف. قالت فاطمة:

ـ «إيه هيه؟»

قالت زينب: عندما يقوم اذكى واوعى واشجع الطلاب بالتبرير والدفاع عن الطالب الغبي، والذي يزداد غباءً كل يوم.

قالت فاطمة:

- «مش فاهمة.»

قال ايهاب:

- «زينب بتتكلم عن الشيوعيين.»

قالت فاطمة وهي تبتسم:

- «ورأي زينب ان الحل هو الرهبنة؟»

قالت زينب بغضب:

- «رأيي ان الحل هوه الانحلال.»

وهي تنظر الى فاطمة بحدة.

لانت تقاطيع فاطمة وتحول البريق الضاري في عينيها الى ضوء حنون مغازل. لن يغفر ايهاب لزينب انها اختارت تلك اللحظة لتعلن رغبتها في النوم وتنهي السهرة.

الفصل الثالث عشر

عندما دخل ايهاب مقهى استرا رآه على الفور، رأى وجهه يطفو فوق جميع الوجوه ويتجه اليه. كان له ذلـك الحضور. تساءل ايهاب، لماذا، رغم ذلك، ينس اسمه المرة بعد المرة؟ كان للشاب الثقة، التي يجب أن يمتلكها المغناطيس حين تتجه اليه الاشياء. حين أصبح ايهاب قريباً منه نهض ذلك النهوض المفاجىء، المهدد وكأنه يستعد للهجوم. في وقوفه، بتلك الاستقامة العدوانية، وفي وضعه يديه على المائدة التي أمامه، انتظاراً لوصول ايهاب اليه عنف يكاد يلمسك، عنف تحسه في جسدك. قال:

ـ «اهلاً استاذ ايهاب.»

ومـد يده كطعنـة مفـاجئة وصافح ايهاب. لم يشعر ايهاب بالود الذي ابداه الشاب في المرة السابقة. لذا جلس قلقاً. لكن الشاب استعاد سريعاً ذلك التعبير الخجول، المتلهف على الارضاء. جاءت القهوة حسب الطقوس التي جرت في المرة السابقة، وكانت قوية، لاذعة، استقرت ساخنة في معدته. قال ايهاب ان في القهوة طعم غريب، فقال الشاب انه جوزة الطيب. قال ايهاب ان طعمها يشبه الحشيش، فقال الشاب ان تأثيرها عكس تأثير الحشيش، فقال ايهاب رغم انه يعرف:

ـ «يعني؟»

فقال الشاب:

ـ «منبه.»

واضاف انها مقوية جنسياً. قال ايهاب:

ـ «عن تجربة؟»

فقال وكأنه يلومه:

ـ «انا مش محتاج لمنبهات.»

ابتسم واضاف:

ـ «لسّه.»

تطرق الحديث الى التقاليد الشعبية عن الجنس: ليلة الخميس واستعدادات الزوجة لها وانواع الاطعمة التي تعدها لزوجها. قال الشاب: في الحي الشعبي تكتسب المرأة معنى وجودها من خلال

رغبة زوجها بها. قال ايهاب لنفسه: «مثقف آخر؟» كان يتوقع رجلاً جذوره ضاربة في عمق الحي الشعبي، لا متفرجاً يبحث عن طرائفه. ولكن لماذا يكون رجل المخابرات اكثر التصاقاً بالحياة الشعبية من الشيوعيين؟

الشيوعيون، خاصة المنحدرون من الطبقة الارستقراطية، يتحدثون هكذا، كسائحين، عن الحي الشعبي، اكتشفوا بسرعة اكبر عراقة التقاليد الشعبية وتجسيدها للحضارة الفرعونية، اما الاسلام والعرب فهما مجرد قناع يغطي الجوهر النفيس للتراث الفرعوني.

قال ايهاب:

- «انت قاهري؟»

قال:

- «لا. انا فلاح صعيدي.»

وضحك.

رآه ايهاب في تلك اللحظة ينزلق من تفرد رجل المخابرات الى نمطية الصعيدي القادم غازياً الى القاهرة. كان ذلك يعني انحلال المعلم، بالنسبة للتلميذ، الى نمطية الانسان العادي. نمط هذا الصعيدي يعرفه ايهاب جيداً، ذاك الذي يحتفظ بقيمه الاصلية، من احتقار لطراوة اهل المدن، احتقار بنت المدينة لأنها خرجت من بيتها وشاركت في الحياة العامة، اعتبار القاهرة مجرد مكان للكسب وللمتعة. المثقفون منهم يغلفون قيمهم بمصطلحات ثورية من نوع: الانحلال البورجوازي، افتقاد الصلابة الخ... كما يعرف ايهاب ازدواج القيم والسلوك لديهم. فالفتاة التي لا تمنح نفسها لهم هي رجعية متخلفة، اما تلك التي تمنح نفسها لهم فهم يصفونها بالمومس. لهذا سأله ايهاب عن رأيه في الحياة في القاهرة، فقال:

- «القاهرة ماخور.»

كان ايهاب سعيداً بصدق حدسه، فسأله إن كان يتحدث عن العلاقات الحرة بين الرجال والنساء، فاجاب:

- «اللي بتسميه علاقات حرة هو عملية بيع وشراء، انحلال بورجوازي عاالاخر.»

- «ازاي؟»

لم يكن صاحب عقل نظري، اذ اخذ يروي حكايات. وكانت الحكايات مسلية، ولكنها، في معظمها، معروفة. بدأ بحوادث اسماء اصحابها معروفة، تكتسب اهميتها من اسماء من تحدث عنهم. ومع تصاعد غرابة الحكايات كانت الاسماء تختفي، ادهش ايهاب ان الرجل يردد الاشاعات المعروفة، وكأن المقاهي مصدره الوحيد.

بدأ بحكاية عن مدير المخابرات السابق صلاح نصر الذي لفق اتهاماً لنجمة سينمائية حتى تقيم علاقة جسدية معه. كاد ايهاب ان يقول ان الحكاية معروفة، ولكنه عدل عن ذلك.

كان هنالك رجل روسي يسير على الرصيف المحاذي لصق النوافذ المطلة على شارع ريحان، ابتسم الشاب وقال:

- «لسّه فيه روس؟»

قال ايهاب :

ـ «يمكن سايبين شوية خبراء .»

قال الشاب :

ـ «تعرف ان الروس حشاشين زينا؟ اسمع التحشيشة الروسية دي . لما زار نيكسون روسيا زوروه مصنع للجرارات . وهوه بيلف في المصنع فوجيء ، وصاح :

ـ «ايفان بتروفيتش . مش معقول .»

التفت له واحد من العمال وقال :

ـ «دك؟ مش معقول .»

وهات يابوس . وانت فين يا ديك ، وانت فين يا ايفان ، كده يا راجل ، وبعدين زار ديستان روسيا وزار مصنع الجرارات وهات يا حضن وبوس لما شاف ايفان . استدعت المخابرات ايفان من فين بتعرف الناس دول؟ قال صحابي . بتعرف الناس دي منين؟ قال بعرفهم وبعرف اللي اكبر منهم ، بعرف البابا بتاع روما . ما حدش صدقه ، قال : جربوني . بابا روما صاحبي الروح بالروح . قاموا بعتوه روما وبعتوا معه عقيد في المخابرات . وصلوا روما وراحوا للفاتيكان . قال ايفان للحاجب : قول للبابا ايفان عايز يشوفك . دخّله الحاجب رأساً وقال للعقيد استنى انت بره . لاحظ العقيد ان الجماهير تجمعت في ساحة الفاتيكان وان البابا وايفان وقفوا على الشرفة يحيوها . واحد من الجمهور سأل العقيد الروسي سؤال ، لما سمعه العقيد الروسي . اغمي عليه . ايه في رأيك كان السؤال؟»

قال ايهاب :

ـ «مش عارف .»

قال الشاب :

ـ «الراجل سأل العقيد : مين الراجل اللي واقف جنب ايفان على الشرفة؟»

بدا ايهاب مندهشاً للحظات ، ثم اغرق في الضحك . ضحك اكثر مما تقتضيه النكتة ، فلاحظ إن وجه الشاب أخذ يحمّر حرجاً . فالاغراق في الضحك الى هذا الحد بدا وكأنه سخرية من الشاب ، وهو ما لم يكن يقصده ايهاب . ولكن ضحكه تجاوز التحشيشة الروسية الى الموقف الذي نشأ بينه وبين الشـاب . ففي حين جهـد ايهاب لوضع الشاب في اطار مثقف غطي ، كان الشاب لا يكف عن تذكيره ، بانه رجل مخابرات قبل كل شيء ، وهو ما كان ايهاب يتجنب الاشارة اليه باعتباره عاراً يجب عدم التذكير به . ان مجرد ذكر اسم المخابرات كان يحدث ارتباكاً وحرجاً لدى ايهاب .

كان ايهاب ايضاً يضحك من نفسه ، هذا الالحاح الدائب في البحث عن موضوع لرواية ، والذي اوقعه في هذه الورطة ، في حين انه لم يستطع ان يتم روايته الاولى .

قال ايهاب :

ـ «لامؤاخذة . بس السؤال الاخير فاجأني .»

ابتسم الشاب والحرج مازال في وجهه ، وقال :

ـ «تحشيشة .»

حكى الشاب نكتة اخرى حول علاقة احدى الممثلات بوزير سابق ، وكيف ان زوجها قال ،

من خلال لعبة جناس لفظية، ان يقتسمها مناصفة مع الوزير. ضحك ايهاب في الحدود اللائقة. اذ انه سمع هذه النكتة من قبل. انتقل الشاب الى الحديث عن النساء، او ما سماه بالانحلال البورجوازي. شعر ايهاب ان الشاب متلهف على ارضائه.

روى الشاب عن احدى الممثلات انها اعتادت ان تسهر في كافيتريا سمراميس (نايت اندديه)، وانها في لحظة محددة تطلب من احد الشبان ان يرافقها الى دورة المياه. يضحك الشاب ويقول: «اصلها من عائلة محافظة». وفي دورة المياه تمارس الجنس مع مرافقها. قال: «تمارسه على الواقف». واضاف انها تكرر ذلك في الليلة الواحدة اكثر من مرة، ومع اكثر من رجل.

قال ايهاب:

- «مش معقول.»

لم يكن ايهاب سعيداً بهذه البذاءات ولكنه استمر يصغي بادب، راسمًا على وجهه تعبير تشوق. قرر ان يصغي لبعض الوقت ثم ينقل الحديث الى الموضوع الذي التقيا من اجله.

قال الشاب ان هنالك واقعة شهدها في احد الليالي لمجرد الفرجة، ولم يعد اليها. كانت البذاءة تفوق كل حد متصور. انحلال حقيقي. سأله:

- «تعرف ضباط المباحث؟»

اندهش ايهاب حين رأى الاشمئزاز يظهر على وجه الشاب وهو يسأل السؤال. قال ايهاب:

- «الا اعرفهم.»

ضحك الشاب وقال:

- «تعبوك شوية.»

قال ايهاب:

- «كتير، مش شوية. مش ممكن انسى سجن القلعة والتعذيب ليل نهار، شفت منهم العجايب.»

قهقه الشاب ومضى في حكايته: دعاني احدهم الى سهرة. كان هنالك حرج ما لاداعي لذكره حتى لاتمل، فقبلت. انا حقيقة لا احبهم. اكره تذاكيهم حين يحاولون ان يستخلصوا مني معلومات عن اليساريين بين الادباء، رغم انني لا اخفي ميولي عنهم.

قال ايهاب:

- «حتى انت!»

قال الشاب:

- «تصور!»

احس ايهاب باختلاط الاشياء امامه، كما يحدث في الاحلام. قال:

- «ايوه؟»

قال الشاب: المهم انني استجيب لهذه الدعوة. لن اعود لمثلها، ولكنني لست آسفاً انني ذهبت.

قال ايهاب :
ـ «احنا نسينا الموضوع .»
قال الشاب بدهشة :
ـ «موضوع ايه؟»
ـ «اللي تقابلنا علشانه .»
ضحك الشاب وقال :
ـ «صبرك . ربنا خلق العالم في سبع تيام .»
كان ايهاب خائفاً . لم يستطيع ان يحدد سبباً لذلك، ولكنه شعر انه يدخل منطقة خطيرة . قال :
ـ «تفضل .»
قال الشاب : كان الداعي شاب، اعتقد انه مترجم في وكالة انباء نسيت اسمها، وكان هنالك المنظر المألوف، كما توقعته : البراندي الرديء، والمزة الماسخة، الجبنة والطماطم والجزر. . كما تعرف. والنكات اياها، نكات على السادات . .
قال ايهاب :
ـ «قدام ضباط المباحث؟»
قال الشاب :
ـ «ضباط المباحث انفسهم اللي بيقولوا النكات . ما عندكشي فكرة . دول مخزن نكات عن السادات، ومخزن نكات بذيئة . اسمع النكة دي . راجل راح لبيت السادات، وقال للحرس فيه عندي حاجه مهمة جداً اقولها للرئيس شخصياً، له لوحده . حاولوا يمنعوه، قالوا له قول لنا واحنا حا نقول له . اصر ان يقابله شخصياً وعلى انفراد . قالوا له : طيب، تفضل ادخل الاوده اللي على اليمين . دخل لقيهم محضرين له عشر كراسي حشيش . قالوا له : بالامر اشرب، شرب .»
رفع الشاب سبابته وقال :
ـ «رفع الحارس اصباعه وقال للراجل : دول كام؟ قال الراجل : اتنين . جابوا له كمان عشر كراسي، وقالوا له : اشرب . شرب العشر كراسي، وقالوا له : دول كام؟ قال : تلاتة . قالوا له : اشرب كمان عشرة . شربهم، قالوا له : دول كام؟ قال : اربعة، قال له الحارس : تمام . دلوقتي تقدر تدخل للريس . دخل الراجل شاف اربعة سادات . قال : يا سيادة الرئيس انا عايز اقابلك لوحدك، مش مع التلاتة دول . قال له السادات : عايز تقابلني لوحدي وجاي لي في مظاهرة!»
اعجبت النكتة ايهاب فضحك دون تحفظ . وقال :
ـ «نكتة ظريفة .»
قال الشاب : كانت المجموعة تنتظر قدوم ثلاث فتيات ولكنهن تأخرن . فاخذ المترجم يقول ان لابد ان شيئاً غير متوقع اخرهن . كان منظر الشاب وهو يعتذر مقرزاً . كان يعتذر لأنه لم يقم بواجب القوادة كما ينبغي .
قال ايهاب :
ـ «مومسات؟»

ضحك الشاب وقال:

- «انا سألت نفس السؤال، قال لي واحد من ضباط المباحث: واحنا بتوع الحاجات دي؟ دول بنات هاي بيعرفن انجليزي وفرنسي وعلى مستوى.»

اضاف الشاب: قدرت انهن زائرات، ولكن احد الضباط قال لي: «حا تشوف اللي عمرك ما شفته.»

كان ايهاب متلهفاً. قال:

- «وجم؟

لم يكن يحب ان يجئن، ولكنه يعلم انهن سيجئن، والا فما داعي الحكاية كلها؟ نظر الشاب الى ايهاب وابتسم، ثم قال:

- «جم طبعاً. بس تأخروا شويه.»

قال ايهاب بصوت متهدج:

- «كانوا حلوين؟»

- «فاتنات.»

واضاف الشاب: بدأ الحديث عادياً مؤدباً. واحدة منهن (ثم لما رأى التعبير الذي على وجه ايهاب قال:) ما فيش داع للاسماء. لنسمها رقم واحد. رقم واحد اخذت تنظر الي بطريقة غريبة. قال لها المترجم: «عجبك؟» قالت: «قوي». قال: «ادخلي معاه اودة النوم.» قالت: «يا ريت. بس لازم نلتزم. حا نلعب عليه.» قالت رقم اتنين: «انا متنازلة عنه. علشان خاطرك بس» قالت رقم تلاتة: «فيه اصول ولازم نلتزم بيها.»

قال ايهاب وهو يشعر بغثيان:

- «كلهم ملتزمات.»

ضحك الشاب وقال:

- «ثوريات.»

قال ايهاب:

- «ايه يعني: حا يلعبوا عليك؟»

قال الشاب:

- «جاي لك في الكلام.»

طلب قهوة مجدداً، ثم قال ان رقم واحد قالت: «الشرط شرط.» ثم اخذ يصف رقم واحد جسد لايكف عن الحركة، جسد مليء بالحيوية، سمراء، سمراء جداً.

اختلج قلب ايهاب بعنف. شيء ما في ايقاع الحكاية، في ذلك التسطح، ذكّر ايهاب بقصص الجنس المكشوف، تلك الروايات التي تجمع بين السرد الركيك، الرتيب، وبين مشاهد الجنس المشتعلة. ولكن شيئاً في وصفه لرقم واحد اشعره بان هذه الفتاة تنتمي اليه.

قال الشاب ان رقم واحد اخرجت الزهر من شنطتها وقدمته للرجال.

قال ايهاب:

ـ «زهر؟»
ـ «زهر. زهر طاولة.»
ـ «وانت رضيت يلعبوا عليك؟»
ـ «ودي معقولة!»
ـ «المهم.»
قال الشاب: المهم انهم تركوني في حالي. مثلما قلت لك رقم واحد اعطت الزهر للرجال، الذين اخذوا يلعبون بالزهر حتى يختاروا من بينهم الرجل الذي سيدخل مع الفتاة الرابحة.
قال ايهاب:
ـ «هوه اللي بيختار؟»
قال الشاب:
ـ «لا. بيدخل مع البنت اللي زهرها اكبر. ماهمه بيلعبوا كمان.»
ـ «لعبة ظريفة.»
ثم اخذ الشاب يصف جو التوتر الذي ساد. اخذوا يعدون مكاناً على مائدة الطعام لرمي الزهر. ازالوا منه الاطباق والكؤوس ومسحوه. ثم اخذوا يلقون الزهر.
هنا اصبح فصيحاً، مشروع روائي، وادرك ايهاب ان الشاب يفعل ذلك عن عمد. لاحظ الشاب ان ايدي الرجال وهم يرمون الزهر كانت ترتعش. وقال لايهاب ان بوده لو كان ايهاب حاضراً ليرى هؤلاء الرجال الذين عذبوه وهم في تلك الحالة.
ضحك ايهاب بمجهود، وقال الشاب: ان البادىء بالقاء النرد اطلق شتيمة بذيئة عندما اكتشف ان الزهر اشار الى اصغر رقم ممكن: دو ويك اثنان وواحد. قال: «دا ظلم.» ولكن الاخرين كانوا سعداء بالنتيجة: احد المنافسين ابتعد عن الطريق. واصلوا اللعب. الثاني جاءه شيش بيش. ستة وخمسة. فانطلقت منه ضحكة لم يستطيع منعها. المشكلة ان الثالث الذي جاءه دو ويك اقترح ان تبدأ المباراة من جديد. ولكن الجميع رفضوا. لو فعلوا ذلك لما انتهوا ابداً، قال احدهم.
قال ايهاب:
ـ «مستعجلين.»
ـ «قوي.»
استمر اللعب والرجل المنتصر تحدد. اعطوا الزهر للفتيات الثلاث. لعبن بدلع وتهريج. اعدن اللعب عدة مرات وفقد المنتصر اعصابه اكثر من مرة. في النهاية كسبت «العفريتة» رقم واحد. مد الضابط المنتصر يده وامسك ذراعها وجذبها، وقد وقف مستعداً. قالت:
ـ «حيلك، حيلك.»
وهي تجذب ذراعها من قبضته. قال:
ـ «ايه الحكاية؟»
قالت:
ـ «مستعجل على ايه؟»

قال:

- «كسبت.»

قالت:

- «يا اخي خلّي عندك ذوق. احنا لسّه جايين. استنى شوية، لما نشرب كاس، وناكل لقمة. متصربع على ايه؟ مش معقول اللي بتعمله دا.»

ثم التفتت الى الآخرين وقالت:

- «والا ايه يا رجاله؟»

الرجال كلهم وافقوا. كانوا - باستثناء المنتصر - مثال الشهامة والكرم. ولكن المنتصر تساءل: لماذا جعلتمونا نلعب الآن؟

قال رقم واحد:

- «غلطنا. تعالي خذني قلمين.»

ثم التفتت الى الآخرين وقالت:

- «انتو حا تقلبوها غم؟ احنا جايين نتسلى ونتبسط، وما حدش له حقوق علينا. بنعمل دا بكيفنا.»

ساد الصمت. كانت رقم واحد تضع ساقاً على ساق. ساقها العليا كانت تهتز بعصبية. نهضت فجأة وامسكت بيد المنتصر وقالت: يا الله بينا. سارت الى حجرة النوم والرجل وراءها، ثم التفتت خلفها وكلمت صديقتها بالفرنسية. قال الشاب انه سأل احدى الفتاتين عما قالته فقالت:

- «بتقول الاول والاخير.»

غابا حوالي ربع ساعة، وخرجت الفتاة وقالت، وهي تضحك، بالفرنسية:

- «خلصت عليه. لكن لذيذ.»

استمر اللعب بالنرد. ودخلت الفتاة رقم اثنين مع احد الضباط.

قالت رقم واحد:

- «فيه مأساة جوه.»

سألها الشاب عن السبب فقالت:

- «زميلتنا عندها برود جنسي.»

ولكنها كانت مخطئة. فهذه الفتاة افترست الرجل الذي دخل معها.

قال الشاب: ثم فجأة، والضابطان والمترجم يلعبان بالنرد، نهضت الفتاة رقم واحد وامسكت بالنرد ووضعته في شنطتها ووجهت كلامها للجميع:

- «خلاص.»

قال المترجم:

- «نهون عليكِ؟»

نظرت اليه لفترة طويلة، ثم قالت:

- «مش مكسوف من نفسك؟»
اصفرّ وجهه وتأتأ:
- «ليه؟»
ثم اخذ يهدر:
- «انتِ، انت اللي تقولي الكلام دا؟»
فقالت:
- «انا ارثي لك حقيقة.»
قال لها:
- «بلاش دراما.»
قالت:
- «حقيقة ما احبش اكون مكانك.»
حاول الآخرون ان يثيروا جواً مرحاً، ولكن التوتر ظل مسيطراً على السهرة. قالت لي الفتاة رقم واحد:
- «آسفة اللي بوظت القعدة.»
قال لها:
- «ما هيه كانت بايظة.»
نهض الشاب فقالت له الفتاة:
- «رجاء توصلنا.»
فنهض وخرج معهن.
قال ايهاب:
- «وكانت ليله.»
- «ليلة غريبه.
- «ازاي؟»
قال الشاب:
- «كانت سهرة ثقافية.»
ورداً على التساؤل الذي كان على وجه ايهاب قال الشاب انه اكتشف انهن فتيات مثقفات، مثقفات جداً.
قال ايهاب:
- «والجنس؟»
قال الشاب:
- «صدقني انه ما حصل شي.»
لم يعد ايهاب يصغي، رغم انه اتخذ وضع الاصغاء. كان يراقب المارات في الشارع. بدون مشحونات بعفن داخلي، لزج الملمس. وعلى طرف الذاكرة تقبع كتلة ثقيلة، مخيفة، خشي ان يقترب

منها، ولكنها كانت تبث اشعاعاً مرهقاً، يخلّف في معدته خواء وغثياناً. المشي مسافات طويلة هو وحده القادر على تنظيم افكاره، ووضع كل شيء في موضعه الصحيح.

استولت عليه رغبة جامحة في الهرب. الآن وقبل ان يفوت الاوان والا حدثت الكارثة. لم يكن ذلك واضحاً في ذهنه، ولكنه احساس استولى عليه بخطر معلق يجب تفاديه.

نهض واستأذن فبدت المفاجأة على وجه الشاب. اعتقد انه كان ممتعاً ومفيداً، وانه قد منح ايهاب مفاتيح قصص وتجارب هو باشد الحاجة اليها، ولهذا انتظر جلسة طويلة، ولم يكن ايهاب في حال تسمح له ان يبتكر عذراً معقولاً، فبدا سلوكه غريباً، ملغزاً. اكتفى بالقول:

- «آسف. لازم امشي.»

كان ذلك مهيناً. ولكن الشاب ابتسم وقال:

- «طيب.»

وانصرف ايهاب كالناجي عبر المقهى والى الرصيف.

الفصل الرابع عشر

اخترق ايهاب ميدان التحرير. صعد الى الكوبري الدائري المعلق وهبط في الحديقة الواقعة امام المتحف المصري. كانت الدكك الحجرية في الحديقة مشغولة بعشاق ورجال عجائز صامتين، قدّر ايهاب انهم اصبحوا على المعاش. وفي مسيرته تخفف ايهاب من عبء التوق الى كل امرأة جميلة يراها، كان ذلك مريحاً ولكنه مضجر. كنّ فاسدات، تجسّد ذلك الفساد في صورة يصبح فيها المنظر الجميل المتألق للمرأة مجرد غطاء لعمليات فيزيولوجية مقززة، تنبعث منها روائح كريهة، مكمورة في داخل ذلك الجلد البرّاق. العفن الداخلي المتخمر يهدد بالانفثاء في كل لحظة. وكان ايهاب يرى نفسه واحداً من ذلك القطيع الطيب، المخدوع، من الرجال.

كان يوماً خريفياً دافئاً، وكان للحديقة طابع احتفالي. اوحى بذلك لايهاب ملابس الاطفال الملونة، الذين تغص بهم الحديقة، وكثرة المتنزهين السائرين على اقدامهم. تذكر ان اليوم هو الجمعة، كانت النساء اجمل مما يتذكر، وكان يتجاوزهن باحساس من يهمل واجباً هاماً.

عندما اصبح امام بوابة المتحف المصري اتجه يساراً الى الكورنيش عبر الشارع الفاصل بين مبنى الاتحاد الاشتراكي وفندق الهيلتون، وبحركة مجازفة عبر الشارع وسار بجوار النهر.

لم يكن ايهاب يفكر في شيء محدد. تذكر واندهش لمغادرته المقهى بكل ذلك الاستعجال. الحكاية كانت تافهة والدافع وراءها هو تلك السذاجة الريفية التي تتصور ان كل نساء المدينة، خاصة القاهرة، منحلات، ولكن الفتيات كن غريبات بالفعل. يلعبن بالنرد. شيء غريب، طرقت ذهنه عبارة «نلعب عليه» بالفة. احس ايهاب بدوار مفاجىء غشيته ظلمة وارهاق فجلس على دكة حجرية. هل هي ازمة قلبية؟ غطّى وجهه بكفيه ومال رأسه على الجهة اليسرى. شعر بدقات قلبه في اذنيه مدوّية وبالعرق يبلل جسده. ثم انتهى كل شيء واستطاع ان يرى بوضوح الشمس والنهر والمارة.

عندما نهض شعر بضعف في ساقيه فعاود الجلوس. سأل نفسه: ماذا يحدث لي؟ في تلك اللحظة خطر له ان الفتيات الثلاث قد مارسن الجنس من قبل مرات كثيرة بتلك اللعبة الغريبة، وان الموقف الذي حكاه الشاب، ما اسمه؟، قد سبقته ليالٍ اكثر فجوراً. كان ذلك مؤلماً وكأن الفتيات الثلاث من محارمه.

كانت غيوماً سمراء، هشة، تتحرك على ارتفاع كبير، تحجب الشمس للحظات، فيبدو

السحاب الحاجب مشبعاً بضوء خاثر، راكد، والنهر امامه يكتسب قتامة الشتاء الكثيفة، الزيتية، اللينة، والاشجار والنخيل على الضفة الاخرى تبدو وحيدة، محتواة داخل كآبة الهجر. وفجأة انبعثت امام عينيه صورة كمشهد سينمائي ثابت: الترعة، واشجار الصفصاف على ضفتيها، والنساء بثيابهن السوداء، في وجوههن المجهدة، الصارمة، ذلك الغياب الذي يرتبط في خياله باسرار غريبة ومفجعة، والرجال العابسين، والفتيات الصغيرات بجدائلهن التي تنساب على الصدر يبثثن اثارات محرمة، والغروب بدخانه الصاعد من الموقد، منعقداً، متحركاً ببطء في الفضاء الشحيح الضوء، بدت القرية، وتوقه اليها المشحون بنو ستالجيا تقبض القلب، جنة مفقودة، يحتويها صفاء ووداعة، جنة مجردة من الرغبات التي تتفتح في ليل الغريزة تلك الرغبات المبلولة، الملوّثة بذلك الدفق اللزج المرافق لانطفاء الشهوة، والذي يستثير رغبة في التطهر من ذلك الدبق وشوقاً الى النظافة والاسترخاء، كما يستثير خشية من ملامسة الجسد الملوّث بعرقه ودفق الشهوة المنطفئة.

وادرك بحس فاجع ان فردوس القرية قد انتهى بلا رجعة، اصبحت القرية الآن ذلك الملل الذي يخنقه بعد وصوله اليها بساعات قليلة، اذ يشعر انه محاصر وتستولي عليه رغبة في العودة الى القاهرة، في ساعات الملل يدور في حواري القرية الضيقة، وعلى الجانبين البيوت الطينية التي فقدت سعتها وامتدادها اللذين كان يراهما في الطفولة، فتبدو البيوت وكأنها تقزّمت وعبست وضاقت. ويرى النساء وقد فقدن ملاحتهن، واصدقاء الطفولة وقد اصبح التواصل معهم مستحيلاً، وبدا وكأن الزمن الذي امتنع عن ترك بصماته على القاهرة، كان يفعل فعله المدمر، المشوِّه، الفاجع في القرية، فكأن عصرها الذهبي انقضى الى غير رجعة واصبحت تسير نحو شيخوخة تعسة، متآكلة، مست الرجال والنساء والشجر والترعة. وتراءى له هذا الخراب قد شوّه وجوه الاطفال والصبايا، ولمس بقوة الانوف والشعر والبشرة، فاحالها الى قبح، لمس الايدي فاصبحت خشنة، محشفة، كبيرة. ولم يغب عنه ان هذا كان نتيجة لفعل القاهرة فيه، اعادت صياغة حسه الجمالي.

ولكن ذكرى ذلك الفردوس المفقود تعود حية، تنعشها ذاكرة قديمة، تعيده الى عالم يريد ان يعود اليه احساسه به. وفي تلك اللحظة كانت المدينة من حوله تكتسب حياة نباتية ريفية، تستعيد براءة خاصة، وسط ذلك الضوء اللؤلؤي، المحيِّر، الذي يبدو فيه البشر والمرئيات معتمة، غافية تحلم، هشة، على اهبة تحولات سعيدة كما في الاحلام. وفي داخل هذا العالم كان الشرخ الذي احدثته حكاية الفتيات الثلاث غائراً كحزن سري، كمأساة كامنة يخفيها الجميع.

وسط تلك الشفافية قال لنفسه: العالم كله يشهد ويعرف هذا الفجور، فما الذي جعله ينغرس في قلبه وحده كالسكين؟ لم يخلّف هذا السؤال وراءه راحة، بل فراغاً علق الحكم والانفعالات. كان نهوضه محاولة لتحريك الافكار والانفعالات المتلبثة، الراكدة في قاع ذلك الفراغ. خطواته الاولى كانت مترددة، بساقين مرتعشتين، كأنهما ساقان مضافان اليه يهددان بالانفصال في كل لحظة. وكانت افكاره ميكانيكية تسير على النحو التالي: ساواصل السير الى كوبري ابو العلا، ساعبره الى الزمالك، ثم غشته لحظة فرح. لم تكن كلمات التي تعبر ذهنه، بل صوراً ثابتة، كأنها لقطات فوتوغرافية تثبتت الى الابد على ورقها المقوّى، المصقول. ولكن خياله وهو يعبر كوبري ابو العلا توقف عند المشهد الذي طالعه من بداية الكوبري: وزارة الثقافة والبنايات التي خلفها، المقامة على حافة النهر، وقد

احاطتها اشجار زاهية الخضرة، نظيفة، وورود تبرق عن بعد مبهجة. كان المشهد حلم يقظة تجمد.

منذ تلك اللحظة اخذت المشاهد تكتسب سحراً خاصاً، كأنها ذكرى، أو كالقاهرة في خياله القروي عندما كان طفلاً، حين تجسّدت عبر مشاهد من افلام قديمة. باب وزارة الثقافة من حديد اسود، يحمل عراقة. ومن خلال القضبان يبدو البناء باحجاره المقصوصة بعناية، وقد اكتسبت لوناً اصفر خفيفاً، تخالطه حمرة فاهية، عكرة، تحجز الاشجار جزءاً منه. ويواصل المسيرة. على اليسار فاترينة علقت فيها فساتين انيقة، قليلة، ذات اثمان خرافية، ثم محل سيموندس حيث يتناول افطاره عادة، فنجان كابيشينو وقطعتان كراواسا. سيكون المحل غريباً في هذه الساعة: وجوه الجرسونات والزبائن والضوء، وهو خلال ذلك يشعر بطعم الكراواسا في فمه، بدسامة قشرته، وطعم الجبنة المالح في داخله وهي تتفتت في فمه مختلطة بمذاق القهوة الثقيل، المركّز، والحليب. غمره الفرح وشعر بخفة في جسده جعلته يسرع.

توقف فجأة وقرر الا يعبر كوبري ابو العلا. بماذا تذكّره هذه الرؤية للعالم عندما تثير مشاهده كل هذا الفرح الصافي، هذا الفرح الذي يتقطر بكل هذه الحلاوة؟ قال لنفسه: مثل هذا الصفاء يقترن بفكرة الموت. لم تكن هذه النتيجة التي خرج محصّلة تسلسل منطقي، بل قدمت نفسها كأنها قادمة من الخارج، كأنه سمعها من شخص آخر يقف قربه. ثم تذكر صباح اليوم التالي لليلة خروجه من السجن، عندما كان يسير مع زينب متجهاً من ميدان التحرير الى باب اللوق. كانت مشاهد المدينة توحي بهذا الفرح الصافي. قال عبارة ازعجت زينب. ماذا قال؟ يتذكر. قال لها عن الرجل الذي يقترب من الموت في القرية، يطالع الاشياء والناس بتدقيق كأنه يراهم للمرة الاولى. يذكر انه قال:

- «دا شعوري دلوقتي.»

يذكر انها انزعجت وقالت: «ياستار!» او ربما قالت: «بلاش سيرة الموت.» ووجهها كان منزعجاً وحانياً.

اية افكار مقبضة!

اقترب من الكوبرى، ثم لم تعد به رغبة في التوجه الى الزمالك. قال لنفسه: كأنني ذاهب الى العمل، واليوم اجازتي. رأى نفسه في خياله وهو يسير في شارع البرازيل ثم شارع حسن صبري، ثم.. ثم اكتشف سبب عزوفه عند دخول حي الزمالك: انها مسيرة تؤدي به الى بيته. بدت له شقته معتمة، ضيقة، تجسد بعتمتها وضيقها نهاية يوم لم يمنحه من الفرح والتوتر ما يكفي. كان ذلك اشبه بعـودته الى الزنزانة بعد اللحظات المسحورة التي قضاها خارجها ساعة الفجر، حيث رأى مئذنتي جامع القلعة كسبيكتي فضة اسودتا بفعل القدم، يسبحان في ضباب الصباح الذي فصلهما عن جسد الجامع. كان هواء صباحات نوفمبر صافياً، لاذعاً كالنبيذ. يتذكر انه كان بعد ذلك يدخل الزنزانة الضيقة، ببنائها القديم، المتين، ورسومها الثابتة على الجدران: صورة مسجد رسمها سجين سابق، الخطوط الخارجية لجسد امرأة، وبقع الدم المسودة التي تشبه بقع روشاخ، والتي كانت تثير لدى ايهاب حساً فاجعاً. دخول الزنزانة كان اشبه باستفاقة فظة من حلم جميل يعيش فيه جنة غير أرضية وتواصلاً صحيحاً مع كل ما حوله.

ذكرى الزنزانة اعادت اليه الاحساس بطزاجة العالم من حوله، وفرح بالوجود في العالم، يمتزج ذلك بتوقع ما للموت، موت فاجع ونابض يفيض بالفرح والمأساة. ثم تذكر ذلك المزيج من الموت والفرح في مسرحية ثورنتون وايلدر «بلدتنا» عندما يلقي الاموات نظرة على عالم الاحياء. كان الفرح بمشاهدة عالم الاحياء حاداً ومؤلماً. يتذكر عبارة احدى الشخصيات الميتة لامرأة من الاموات. كانت شيئاً كهذا: «ستتألمين كثيراً بعد هذه المشاهد.»

تذكر ايضاً الاحلام التي كانت تطوف في خيال يوليوس فوتشيك وهو يخضع لتعذيب الجستابو ويسير ببطء والم نحو موته: كانت احلاماً محتشدة بفرح كثيف، بريء وطازج.

غيّر وجهته وسار في الكورنيش المحاذي لبولاق ابو العلا، قاصداً كوبري امبابة المعقد التكوين. لا يذكر انه عبر هذه المنطقة سيراً على الاقدام من قبل. على الرصيف الذي على يمينه تقوم مجموعة من الورش والمعامل. فكر ان يدخل الحي الشعبي الذي يقوم وراء الورش ولكنه لم يفعل، بل واصل سيره على الرصيف، فلقد كان لحي بولاق ابو العلا صورة في ذهنه تمتزج فيها البلطجة والعنف بالتعصب ضد كل دخيل على الحي.

خلال مسيرته عاش حلم يقظة متكرر، حلم العيش في الحي الشعبي. هنالك ام جميلة فارهة، واخوات فاتنات، وهو، رجل البيت معبودهن. كان الحب صافياً بين الجميع، تمتزج فيه لمحة شبق. وكان هنالك شقة اخرى في الاحياء النظيفة فيها كتبه واوراقه، وفيها يعيش حياته الخاصة. وكان يعيش العالمين، اللذين لا يتصلا. صورة الام والاخوات تنهل من كلا العالمين، لها ملمس حسيّ يتعمق بالتحريم.

الغيوم سمراء، مشبعة بالضوء. الجو جو القرية الحلم، الذكرى، حيث يكون الضوء معابثاً، مرحاً، والجو محيّراً، ليس فيه حدود مرسومة للضوء والظل، وحيث العالم بلا الوان محددة، والبشر بلا قوام، ينسلون عبر الشوارع الضيقة في صمت. كان ذلك جو الاحلام ايضاً. وكان تحت جلده صقيع ايام الشتاء المقبلة، والاحتباس في بيت دافيء تحيطه العاصفة والمطر من كل جانب.

هنا سحر البيت المغلق، المدفأ، متعة الطعام المخزون: الجبنة القديمة، والمربى، والزيتون الغارق في الزيت، وهنالك المرأة البيتية، الزوجة، المحاطة بمجال التحريم الكهربائي. تنبه فجأة الى الاطار المكاني الذي يحتوي كل هذه الاشواق: كان بيت منال في ساعة الغروب، يسمع صوتها دون ان يراها، وهي تخلع ملابسها وتقترب منه. هل هذا معقول؟ وتنبه الى ان الخلفية للبيت الباذخ تستمد معطياتها من حجرة فاطمة، وان ذلك الجو الغبش، الذي تنهمر في فضائه سمرة مضمخة بالعطر والرغبة هو حضور فاطمة المفتقد والواعد بالتجسد. كان لتلك الليونة الانثوية نعومة غير مرئية، ولكنها ملموسة، وكانت بريئة ونظيفة، متلبثة ومداعبة كالعطر.

يغزو قلبه رعب اصم فتغيم المرئيات امام عينيه يبرز وجه انطبعت عليه بسمة مغتصبة، يحاول ان يحدد صاحبه فلا يستطيع، ولكنه يخلّف في داخله احساساً بالخوف. يتذكر فجأة انه الشاب رجل المخابرات. يتدفق الخوف في داخله خالصاً، دون موضوعات تثيره. اصبح المشي مرهقاً. استدار الى الخلف والرعب يجلله كقشعريرة. اصبح مشيه سريعاً في بداية كوبري ابو العلا. بدت الزمالك

مغوية. اخذ يراقب الفتاة القادمة من الاتجاه الآخر. دق قلبه بعنف لمرآها، اذ بدت اليفة. كانت مهرجاناً من الالوان الصارخة. اقتربت وهي تبتسم. كانت منال. ليست غاضبة اذاً؟ لم يكن سعيداً برؤيتها. كان فيها شيء منفر، توقع صرختها: «ايهاب» كان وجهها يتهلل بضحك صامت. عندما اقتربت قال بصوت محايد مؤدب:

- «اهلاً منال.»

حدث تحول في الانف والعينين. اكتسب الوجه طابع مفاجأة، واطلقت ضحكة. قال:

- «آسف. افتكرتك منال.»

قالت:

- «منال مين؟»

- «زميله.»

قالت:

- «انت يمكن. مش عارفني؟»

وضحكت. شاركها ايهاب الضحك دون ان يحدد اسماً اومكاناً للوجه المألوف. قالت بألفة الصديق:

- «نسيتني خالص؟ مش معقول.»

ولمست انفها بسبابتها فتذكرها على الفور. قال:

- «احسان؟ امتى طلعت من السجن؟»

قالت:

- «من شهر تقريباً.»

كانت احسان مومساً رآها في بيت طلبة غير مصريين. قالت انها احبته، ومنحته نفسها دون نقود. وقد كان ذلك تمييزاً له عن الآخرين، اذ حاسبتهم بدقة، نشأت علاقة قصيرة بينهما خيبت امل ايهاب الذي كان آنذاك ممتلئاً باوهام المومس الفاضلة.

قال ايهاب:

- «ما سألتيش ليه؟»

قالت انها مرت بالبناية وسألت البواب عنه فقال لها ان الاستاذ ايهاب تزوج. مالت برأسها الى اليمين وبوجه جاد سألت:

- «صحيح؟»

قال لها ان ذلك صحيح، ولكن كان بإمكانها ان تمر كصديقة. قالت انها لم تردِ ان تحرجه. اضجرته الوقفة فاعتذر بان عنده عملاً مهمّاً وانصرف. كان يعرف أن سلوكه سيجرحها، ولكنه كان يريد التخلص منها.

واصل مسيرته متجنباً ان يتجه الى البيت، اذ كان يحدس ان مواجهة فاجعة مختلطة بعتمة الشقة وركود الجو فيها تنتظره هناك. ولهذا سار في اتجاه اليمين، في شارع البرازيل ليصل الى نهاية الجزيرة، وهو يحلم. يستقبل احسان في شقته، يدخلها الى الصالون، ويطلب اليها ان تحكي له عن السجن.

سيطلب اليها ان تحكي له عن ادق التفاصيل. سيجعلها تحكي دون خجل بعد ان يحكي لها جزءاً من تجربته في السجن. المعاناة المشتركة والذكريات المتشابهة ستجعل منهما عاشقين.

السير دون هدف قاده الى مقهى شعبي اعتاد ان يجلس فيه مع احد اصدقائه من طلبة كلية الفنون. وهو يشرب الشاي. واصل حلم اليقظة. او على الاصح بدأه. رافق سرد ذكريات السجن امساك بالايدي او قبلة تعبيراً عن التعاطف. ستقول له انها كانت تتذكره كثيراً وهو في السجن. لهذا كان اول شيء فعلته بعد خروجها ان جاءت اليه فعلمت انه تزوج. وتسأل:

- «وانته؟»

يقول انه سأل عنها كثيراً فعلم انها في السجن.

شيء ما يوقف حلم اليقظة عندما يقترب من المداعبات الممهدة للجنس، يعود به الى الذكريات عن السجن. نهض فجأة وغادر المقهى دون ان يدفع الحساب فلحقه الجرسون وحاسبه. اعتذر للجرسون بحرارة، وشكا له كثرة المشاغل وانشغال البال، فقدّر الجرسون ذلك بعد ان تلقى بقشيشاً كبيراً.

سار الى كوبري الزمالك ومنه الى شارع النيل. كان صامتاً من الداخل. الانفعالات المتعارضة اسكتت بعضها، ولا شيء في داخله الا الفراغ. لم يعد يرغب في شيء. رغبته اصبحت عبئاً له صفة الواجب فتخلص منه واحساس بالحرية يستولي عليه يرافقها ضجر ثقيل، لا نهائي، ولا مخرج منه.

عندما اصبح امام البناية التي يسكن فيها شعر بانقباض غريب. في الشقة رعب له جسد العتمة وصمتها، وهو ليس مستعداً للمواجهة الآن، في هذه اللحظة. ولكنه صعد الى الشقة، بحس مجازفة. عندما فتح الباب فوجيء بزينب جالسة في الصالون، عيناها على باب الشقة، تنظر اليه نظرة بيضاء، ثابتة، دون ان تتحرك من مكانها. اجتاحه رعب اصم لمجرد رؤيتها. وقف في الصالة صامتاً، دون حركة، وظلت هي في جلستها ثابتة النظرة، ساكنة، لاتقول شيئاً.

تبادلا النظرات وكلاهما في مكانه. قالت فجأة:

- «مالك؟ تعالى اقعد.»

كان صوتها غريباً. قالت:

- «حا تفضل واقف؟»

دخل الصالون وجلس في مواجهتها. بادلته النظر ثم ابعدت عينيها عنه، قالت دون ان تنظر اليه:

- «قال لك على كل حاجه؟»

قال:

- «ايوه.»

ثم قال بعد قليل:

- «عرفتِ ازاي؟»

قالت:

- «انت قلت لي انك حا تقابله.»

- «ايوه.»
- «قال لك عا الاسماء؟»
- «لا. بس انا عرفت.»
قالت:
- «ايوه.»
قال:
- «منال كانت معكم.»
- «كانت.»
لاحظ ان تجاعيد دقيقة قد تكونت تحت عيني زينب. هل ذلك بسبب الحياة الغريبة التي اصبحت تعيشها؟
قالت:
- «انا لسّه بحبك.»
- «زي اخوكي؟»
قالت بوجه متجهم مهدد بالبكاء:
- «اكتر من اي حاجة في الدنيا واكتر من اي وقت.»
صمت. لم يكن يرغب ان يراها في حالة هستيرية. لاحظ ان الجانب الايسر من شفتها العليا يرتعش، كان ذلك تمهيداً للبكاء.
قالت فجأة بصوت مخنوق:
- «انا انسانة منحطة.»
نظر اليها دون ان يقول شيئاً. قالت:
- «كنت بروح للسواح وانام معهم.»
- «علشان الفلوس؟»
- «لا.»
قالت:
- «كانوا بيطردوني احياناً.»
- «وكنت بتعملي ايه؟»
«كنت بنطرد.»
طالت فترة الصمت بينهما. نهضت زينب وقالت:
- «نشرب براندي.»
لم يكن ايهاب يفكر في شيء. وعندما جلست زينب وفي يدها كأس البراندي قال:
- «منال كانت بتروح معاك للسواح؟»
- «لا.»
- «بتروح وحدها؟»

- «ما اعرفشي.»

- «ما تعرفيش والا مش عايزة تقولي؟»

- «ما اعرفشي.»

قال:

- «وفاطمة؟»

- «كنت بروح وحدي.»

قالت بعد قليل:

- «مش عايز تاكل؟»

- «لا.»

اخذت تنظر في وجهه وقالت:

- «انت بتتألم؟»

فكر قليلاً وقال:

- «لا.»

- «بتشعر بايه؟»

- «ما بشعر بحاجه.»

قالت:

- «بتحبني؟»

- «سؤال غريب.»

- «معلهش جاوب عليه.»

- «مش عارف.»

قالت:

- «انا بكره نفسي جداً.»

نظر اليها ايهاب طويلاً وقال:

- «قادره تستمري في الحياه؟»

- «سؤال غريب. طبعاً قادره.»

كانت خائفة. قال:

- «ما فكرت تنتحري؟»

قالت بعصبية:

- «لا. لا.»

قال:

- «غريب.»

اخذت زينب تبكي. كان جسدها كله يهتز بالنشيج. لم يشعر ايهاب نحوها بأي عطف. ثم

وهو لايدري كيف حدث ذلك رأى نفسه يقبلها، يلعق دموعها، ثم يمتزجان في عناق، ويدعوها الى السرير، يقول:

- «بسرعه.»

تقول:

- «نجيب البراندي وايانا.»

وعلى السرير فوجىء ايهاب انه استعاد رجولته. قالت زينب وهي تنهض من تحته:

- «انا سعيده جداً.»

وقفت امام المرآة تنظر الى جسدها العاري. كان ايهاب يطالع جسدها العاري بدهشة، ويتساءل: ما الذي فعله السوّاح وضباط المباحث بهذا الجسد؟ كيف كانوا يتعاملون معه؟

خرجت زينب، فنهض ايهاب وامسك بجاكيتته، مد اصبعيه في الجيب الاعلى واخرج الورقة التي تحتوي على حبتي السيانايد. فتحها وامسك بهما ووضعهما في كفه الايسر. عاد الى السرير، وضع الحبتين في فمه وشرب كأس البراندي حتى آخره.

عندما عادت زينب من الحمام ادركت من النظرة الاولى انه ميت.

الزاوية
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص. ب ١١١٥٨ - تلكس ٤١١٥٦٢